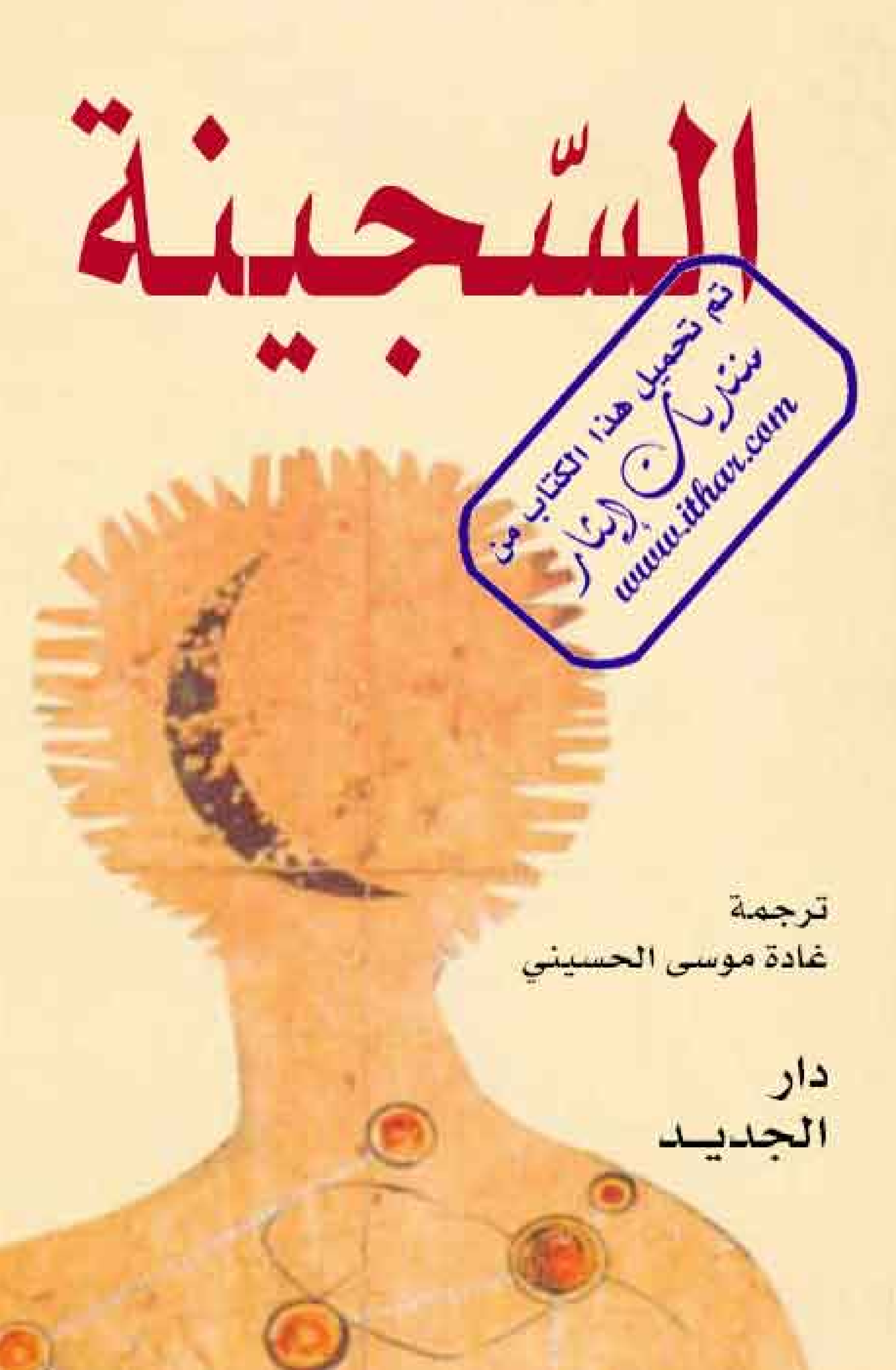
مليكة أوفقير ميشيل فيتوسي

السّجينة



ترجمة
غادة موسى الحسيني

دار
الجديد

إلى أمي الحبيبة أعظم امرأة عرفت، وأنا مدينة لها بحياتي.

إلى شقيقتي الحبيبة، مريم الشجاعة.

إلى أخي رؤوف، صديقي، وسندي، وقدوتي الشامخ.

إلى شقيقتي ماريا، التي منحتني الفرصة لأبدأ حياتي من جديد في بلد الديموقراطية، شكراً.

إلى سكينة شقيقتي الموهوبة جداً، وكلي ثقة وإيمان بها.

إلى أخي الصغير عبد اللطيف، الذي نفخ في داخلي الأمل والمقاومة.

إلى عاشورا، وحليمة، المخلصتين أبداً...

إلى أبي العزيز، الذي أتمنى أن يكون فخوراً بنا.

إلى عز الدين، خالي، وحمزة، ابن خالي، اللذين رحلا باكراً عنا...

إلى ميكايل، تانيا، نوال. عسى ألا تمنعهم هذه الرواية من حب وطنهم المغرب.

حرفياً جاء الإهداء، إلى «عائلة كاستور»، وهو برنامج رسوم متحركة، باستعارة أسماء شخصياته لكل فرد من أفراد العائلة ـ كالتالي: إلى «بيكسو»، أمي الحبيبة أعظم امرأة عرفت، وأنا مدينة لها بحياتي؛ إلى «بتي بول»، شقيقتي الحبيبة مريم الشجاعة؛ إلى «مونش» أخي رؤوف، وصديقي، وسندي، وقدوتي الشامخ؛ إلى «نيغيس»، شقيقتي ماريا، التي منحتني الفرصة لأبدأ حياتي من جديد في بلد الديموقراطية، شكراً؛ إلى «شارلي»، سكينة شقيقتي الموهوبة جداً، وكلي ثقة وإيمان بها؛ إلى «جيوتروف تو»، أخي الصغير عبد اللطيف، الذي نفخ في داخلي الأمل والمقاومة؛ إلى «بارنابه» عاشورا، و «دنغو» حليمة، المخلصتين أبداً... إلى «ميشون لو»، أبي العزيز، الذي أتمنى أن يكون فخوراً بنا؛ إلى عز الدين، خالي، وحمزة، ابن خالي، اللذين رحلا باكراً عنا... إلى أبناء «آل كاستور»، ميكايل، تانيا، نوال. عسى ألا تمنعهم هذه الرواية من حب وطنهم المغرب.

مقدمة

لماذا هذا الكتاب؟ لأنه كان لا بد له أن يكون. ولو أن طريقي وطريق مليكة أوفقير لم تتقاطعا فلقد كانت مليكة ستجد حتماً السبيل إلى تسجيل هذه الشهادة، لا سيما أنها منذ خروجها من السجن تتحرق لسرد قصتها طرداً لشياطين هذا الماضي المؤلم الساكن في طيات كيانها. ببطء كان مشروع سرد سيرتها يتبلور في نفسها. لكنها لم تكن جاهزة بعد.

رُبّ متسائل: ولماذا توقيعان لكتاب واحد؟ وأجيب: هكذا كان بعون حتمية اسمها القدر. فمن لقاء وليد صدفة تحولت اللحظة العابرة الى صداقة فبوح قَلَبَ مشاريعي الكتابية رأساً على عقب فتركتها جميعها وأخذت أنصت إلى مليكة، أدوّن ما تقوله لي على نيّة صياغته في نص يستجيب لما يصطلح على تسميته بأدب السيرة.

التقينا، مليكة وأنا، للمرة الأولى في شهر آذار/ مارس من العام ١٩٩٧ عند أصدقاء كانوا ليلتها يحتفلون بعيد النيروز الفارسي. أشارت إحدى الصديقات إلى سيدة سمراء جميلة ونحيفة، واقفة بين المدعوين قائلة: «إنها مليكة أوفقير ابنة الجنرال أوفقير البكر».

صفعني الاسم، إذ إن اسم عائلة أوفقير مرتبط في ذهني بالظلم وبالمأساة. فأطفال الجنرال الستة وزوجته عاشوا عشرين عاماً في المطامير المغربية بحسب ما قرأت في الصحف. في تلك اللحظة تذكرت المقالات التي كنت قد قرأتها حول الموضوع وشعرت بالتأثر.

كيف لهذه السيدة الشابة أن تعيش حياة طبيعية بعد كل ما عانته من عذاب؟ أتستطيع أن تعيش وتضحك وتحب بعد أن سلبها الظلم أجمل سني حياتها؟

نظرت باتجاهها، لم تكن تعرف أنني أتأملها. تبدو كأنها إنسان معتاد على الظهور في المجتمع، لكن عينيها تعكسان هلعاً لا يخفى. كانت واقفة في ذلك البهو معنا، بيد أنها لم تكن هنا، كانت حتماً في عالم آخر. حدقت فيها ملياً، وبإلحاح، راجية أن لا تنتبه إلى نظراتي المتفحصة، وبدا لي أن الشاب الواقف إلى جوارها يستأثر بجميع نظراتها وأنها متعلقة به تعلق الغريق بحبل نجاة.

حين تبرع أحدهم وعرّفنا بعضنا على بعض، تبادلنا كلاماً حذراً وعادياً حول بلدينا، المغرب وتونس. فكل واحدة منا كانت تحاول قراءة الأخرى وتقييمها. طوال السهرة كنت أسترق النظر إليها. رأيتها ترقص ولاحظت رشاقتها وطريقتها في الوقوف مستقيمة، كما لاحظت وحدتها وهي محاطة بكل هؤلاء الناس الفرحين أو المتظاهرين بالفرح. أحياناً تلاقت نظراتنا وتبادلنا الابتسامات. قلت لنفسي إن هذه المرأة مؤثرة، كما شعرت بخجل حيالها، فأنا لا أعرف من أين أبدأ معها الكلام. أأبدأ بطرح الأسئلة المحرجة فأبدو كمن يتدخل في ما لا يعنيه؟ الحق أنني كنت أتحرق لمعرفة المزيد عنها.

قبل انفضاض السهرة تبادلنا أرقام هواتفنا. أيامها كنت بصدد إنهاء مجموعة قصصية كانت في طريقها إلى الصدور خلال شهر أيار/مايو، وكنت أعرف أن إتمام هذا الكتاب سيحتاج إلى بضعة أسابيع، اقترحت على مليكة أن نلتقي فور فراغي من عملي هذا، فوافقت دون أن تخرج بتاتاً عن تحفظها الأول.

خلال الأيام التي تلت لقاءنا الأول كنت أفكر دوماً بها، وكان وجهها الجميل الحزين لا يفارقني. كنت أحاول أن أتخيل معاناتها وآلاف الأسئلة تجتاحني. ما الذي عاشته هذه الإنسانة يا ترى؟ ما هو شعورها اليوم؟ كيف يخرج المعذبون من قبورهم؟

كان مصير هذه المرأة يهزني لخروجه عن المألوف، ولاختزانه شيئين: الآلام التي تكبدتها، وتلك القيامة الرائعة الأشبه بالأعجوبة. ومما شدني إلى مصير مليكة ودفعني لعيشه بدقائقه شعوري أننا في مكان ما، على اختلاف مساراتنا، صنوان، فأعمارنا ومشاربنا متقاربة. لقد دخلت مليكة السجن في شهر كانون الأول/ديسمبر، من العام ١٩٧٢، يوم كانت في الثامنة عشرة والنصف من عمرها، سنة نيلي شهادة البكالوريا وعشية التحاقي بالسنة التحضيرية لدخول كلية العلوم السياسية. ثم نلت شهادتي وحققت حلم طفولتي حيث أصبحت صحافية ثم كاتبة. عملت، سافرت، أحببت، تألمت تماماً كما يحدث لأغلب البشر. أنجبت طفلين رائعين، وعشت حياة غنية، زاخرة بأحزانها وتجاربها وأفراحها المتنوعة. طوال كل هذه السنوات كانت وعائلتها مسجونة بعيدة عن العالم، تعيش ظروفاً مقززة لا أفق لها إلا جدران الزنزانة الأربعة. كنت كلما فكرت بمليكة توضحت لديَّ تلك الرغبة التي أخذت تعذبني، رغبة تجمع بين حشريتي الصحافية وحماستي ككاتبة واهتمامي الإنساني بالمصير

الاستثنائي الذي عاشته هذه المرأة. قلت لنفسي أريدها أن تسرد لي قصتها وأريد أن أكتبها معها، وقد سيطرت عليّ هذه الفكرة حتى بلغت حد الوسواس.

لم تمض أيام على لقائنا حتى أرسلت لها كتبي، كي أعبر لها عن بعض ما أخذت أكنه لها، وكي أعبر لها أيضاً عن الرغبة التي باتت تسكنني.

حينما شارف مخطوطي على النهاية اتصلت بها أدعوها للغداء.

عبر الهاتف وصلني صوتها المنهك، فهي على ما يبدو لم تتأقلم بعد مع الحياة الباريسية، رغم أنها تعيش مع رفيقها إريك منذ ثمانية أشهر.

•

عام ١٩٩١ غادرت عائلة أوفقير السجن، وبعدها بخمس سنوات تمكنت من الانتقال الى فرنسا، وذلك إثر هروب ماريا شقيقتها الصغرى وطلبها اللجوء السياسي.

يومها ضجت الصحف الفرنسية بأخبار هذا الفرار، وقد شاهدت وجه ماريا الصغير عبر شاشات التلفزيون، وبعد حين شاهدت أيضاً وصول أفراد العائلة الآخرين: مليكة وشقيقتها سُكينة وشقيقها رؤوف، ثم التحقت بهم مريم. أما عبد اللطيف، الشقيق الأصغر، والوالدة فاطمة أوفقير فقد كانا ما يزالان يقيمان في المغرب كما أخبرتني مليكة خلال ذلك الغداء الذي طال حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر.

كنت أصغي إليها وأنا في حالة انبهار، فمليكة راوية من الطراز الأول، وتنتسب بلا أدنى شك إلى سلالة شهرزاد. طريقتها في السرد شرقية بامتياز. تتكلم ببطء، بصوت لا تتبدل نبرته، مستعينة أحياناً بحركة يديها الطويلتين لتدعيم قصتها. عيناها بالغتا التعبير وهي تنتقل بلا استئذان من الأشجان إلى المرح، فهي في اللحظة عينها طفلة فمراهقة فامرأة ناضجة، تعيش مليكة جميع الأعمار معاً لأنها في الحقيقة لم تعش أياً منها حقاً.

لم أكن أعرف الكثير عن تاريخ المغرب، ولم أكن مطلعة على خلفيات سجن عائلة أوفقير. كل ما كنت أعرفه أنها وخمسة من أشقائها وشقيقاتها ووالدتهم قد سجنوا طوال عقدين، كعقاب على الانقلاب العسكري الذي نظمه والدها. ففي السادس عشر من شهر آب/ أغسطس من العام ١٩٧٢ حاول الجنرال محمد أوفقير، الرجل الثاني في النظام يومها، اغتيال الملك الحسن الثاني. فشل انقلاب

الجنرال أوفقير وأعدم الرجل فوراً بخمس رصاصات استقرت في جسده. يومها قرر الملك إنزال أبشع العقوبات بعائلة الجنرال المتمرد، فذاقت العائلة أقسى ألوان العذاب في معسكرات الاحتجاز والسجون والمطامير؛ يومها كان عبد اللطيف، الأخ الأصغر، لا يكاد يبلغ الثالثة من العمر.

هذا عن سنوات السجن، أما طفولة مليكة فهي فعلاً متميزة، إذ تبناها الملك محمد الخامس وهي في الخامسة من العمر، وترعرعت مع ابنته الأميرة أمينة لتقارب عمريهما. وحين توفي العاهل المغربي أخذ ابنه الحسن الثاني على عاتقه تربية البنتين وكأنهما بنتاه. أمضت مليكة أحد عشر عاماً من حياتها في القصر، وراء أسوار قصر قلّما خرجت منه، أي أنها كانت منذ ذلك اليوم سجينة الترف الملكي، وحين سمح لها بمغادرته أمضت عامين من مراهقتها في كنف أهل متنفذين ومتمكنين.

حين وقع الانقلاب تيتمت مليكة مرتين، إذ فقدت والدها الفعلي وعطف الملك، والدها بالتبني. هنا تكمن مأساة مليكة أوفقير وحدادها المزدوج وسؤالها الكبير عن الحب والبغض. فهل للحياة معنى حين يحاول أعز من عندها (والدها الحقيقي) قتل والدها بالتبني (الملك)؟ وكيف يتحول والد بالتبني إلى جلاد بلا رحمة؟ عظيمة كانت محنة مليكة، هذه المأساة هي جوهر الرواية.

رويداً رويداً تبلورت في ذهنينا الفكرة نفسها. كانت مليكة راغبة بسرد ما لم تبح به قبل ذلك، ويبدو أن لقاءنا في تلك السهرة النيروزية قد ترك في نفسينا انطباعاً قوياً ومتبادلاً، ولو كانت أشياء كثيرة تفرقنا مثل الثقافة والبيئة والدراسة الجامعية والأوضاع الاجتماعية والمهنة والطباع والدين، فهي مسلمة، أما أنا فيهودية، لكننا من جهة أخرى ننتمي إلى الجيل نفسه وإلى حساسية واحدة تظهر في حبنا للشرق حيث ولدنا، وفي روح نكتة مشترك يجعلنا ننظر إلى الآخرين بالمنظار عينه.

صداقتنا التي كبرت يوماً بعد يوم جاءت لتؤكد حدسنا ومشاعر لقائنا الأول.

قررنا كتابة هذا الكتاب معاً، لكننا احتجنا إلى بعض الوقت كي تتحول رغبة مليكة إلى إرادة فعلية. وقّعنا العقد مع دار نشر غراسيه في شهر أيار/ مايو من العام ١٩٩٧، لكننا لم نبدأ بالعمل إلا في شهر كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٩٨، وذلك بعد مغامرات طويلة. بدأنا العمل، وكان شرط مليكة الأساسي أن يظل مشروعنا سرياً، خوفاً من العيون والآذان المتطفلة. فخلال السنوات الخمس التي أمضتها مليكة في المغرب بعد خروجها من المعتقل كانت العائلة تعاني من تدخل الأجهزة الأمنية في جميع شؤونها وشجونها. حتى الأصدقاء كانوا تحت المراقبة. منذ تلك الفترة تعلمت أن لا تتحدث

في أي موضوع مهم عبر الهاتف، وأن تحذر وهي تسير في الطريق من الذين يقتفون الآثار. فالرعب الساكن في داخلها منذ ربع قرن لم يفارقها، حتى في باريس.

لم تكن مليكة تريد أن تصل أصداء الكتاب «إلى هناك» قبل إنجازه، وقد انضويت بدوري تحت ألوية التكتم، ولم أذع إلّا لأقرب المقربين خبر مشروعنا. خلال عام كامل عشت حياة مزدوجة، كنت لا أذكر اسم مليكة أمام أحد، علماً أننا كنا نعمل معاً ثلاث مرات في الأسبوع، ونتخابر بوتيرة يومية.

في النهاية، فإن ما لا يمكن ملاحظته أثناء قراءة هذا الكتاب هو قصة صداقتنا التي شيدناها يوماً بعد يوم، والتي رأيناها تترعرع أثناء الإعداد والكتابة. كنا منذ شهر كانون الثاني/ يناير، إلى شهر حزيران/ يونيو، نلتقي عندها أو عندي، وقد أضحت لنا طقوسنا الخاصة: المسجلان لتوأمة الشرائط المسجلة كتدبير احتياطي، فماذا لو سرق شريط أو لم يسجل أحدهما، واحتساء الشاي مع بعض الحلوى، أو دخول أولادي علينا لمناقشة موضوع ما، ثم هواتف إريك للسؤال عنها إن طالت جلساتنا.

أخذت أكتب، وشرعت هي تقرأ وتعلق، وهذه المرحلة من عملنا لم تكن الأسهل. لم يكن سرد اللحظات المأساوية سهلاً، فكيف إن وصل الأمر إلى تدوينها. مراراً كانت قراءتها لكابوسها، مدوناً، فوق طاقتها بل وفوق أي طاقة بشرية. لقد خشيت مرات أن ترجع عن رأيها أو أن تتغلب عليها مخاوفها وشياطينها، لكنها قاومت حتى النهاية.

كانت رواية مليكة مؤلمة ومخيفة وفضائحية، بل ومثيرة. كنت أرتجف، أجوع، أبرد، أخاف، أتضامن معها خلال جلساتنا، لكننا ضحكنا أيضاً معاً لأن مليكة أستاذة في الطرافة، وهذه الصفة هي التي أعانت العائلة على المقاومة في أحلك الظروف، ساخرة من نفسها ومن رداءة الأوضاع.

عبر كلامها عرّفتني بأهلها وأخوتها، وأخواتها، وكيف كانت لهم أماً، فحمتهم وعلمتهم وأرشدتهم خلال كل هذه السنوات السوداء. كما حدثتني عن الوالدة فاطمة التي ما تزال تحتفظ بجمالها ونضارتها لدرجة أن الكثيرين يظنونها شقيقتها.

بالنسبة لي كان أفراد عائلة مليكة مجرد شخصيات روائية، إلى أن التقيت بهم الواحد بعد الآخر، فتبين لي أن تصوير مليكة لهم كان حقيقياً، وأنهم جميعاً يتحلون بالصفات الحميدة التي وصفتهم بها شقيقتهم، وتبين لي أنهم جميعاً، مثل مليكة، شخصيات استثنائية.

مليكة إنسانة ناجية، وهي كجميع الناجين قاسية وقوية. ولأنها عاشت قاب قوسين أو أدنى من الموت، رأيتها تعامل الحياة بزهد. فهي لا تعرف معنى الوقت ولا علاقة لها بالمكان. فالمواعيد لا تعني لها الكثير، وقد تضرب لك موعداً ولا تأتي، وهي تخشى قطارات الأنفاق، وتخشى التجمعات البشرية والتكنولوجيا. وهذه السمات المكونة لشخصيتها تدهشني وتبدو لي طريفة.

رغم مظهرها المعاصر وهاتفها النقال الذي لا يفارقها، تبدو مليكة أحياناً وكأنها آتية من كوكب آخر. فأشياء قد تبدو لنا عادية تربكها وتضعها في حالة من الهلع. مرات عدّة كان يدهشني حكمها وحدسها وقدرتها على التحليل. إنها امرأة مؤثرة، سهلة الانكسار، متعبة، متأثرة بالأمراض التي عانت منها، وسنوات الحرمان الطويلة والعزلة، لكنها أيضاً امرأة قوية. فعشرون عاماً من السجن والعذاب قد تركت للأسف دماراً لا يرمّم، لكن هذه المحن بلورت عند هذه السيدة روحاً جميلة وشخصية تستحق الإعجاب. فحين أنظر إلى حياتينا أتساءل أحياناً أيّ منّا هي التي عاشت فعلاً؟

خلال كل هذه السنوات أبكتني مليكة وأضحكتني. كنت مربيتها ومستشارتها، كفكفت دموعها، أصغيت إليها، شجعتها ودفعتها للمضي قدماً في السرد حتى الإنهاك.

لكن علاقتنا لم تكن يوماً من طرف واحد، لأن ما أضافته مليكة إلى حياتي أكبر من أن يقدر، والأرجح أنها لم تعطني ما أعطتني عمداً. تعلمت منها الشجاعة والقوة والإرادة والكرامة البشرية التي تدفع الإنسان باتجاه إنسانيته، وفي أحلك الظروف وأكثرها هولاً. علمتني مليكة أن الأمل والإيمان بالحياة يمكنهما أن يزحزحا الجبال عن أماكنها ويدفعا البشر إلى حفر أنفاق بأيديهم.

لقد دفعتني مليكة للغوص بعيداً في أعماقي، وأن أعيد النظر في جملة من قناعاتي، كما شوقتني لاكتشاف المغرب هذا البلد الذي تتحدث عنه بحرارة وعشق، وبلا ضغينة لشعب لم يقف معها ومع عائلتها في محنتهم. بالتأكيد سأزور المغرب برفقتها يوماً.

كان تدوين هذه السيرة بالنسبة لي مساهمة في فضح العسف الذي أدى بأم وستة أطفال إلى عيش هذه المحنة المريرة. فما عانته هذه العائلة سيظل يستثيرني كما تستثيرني على هذه الأرض انتهاكات حقوق الإنسان. فغالباً ما نغمض أعيننا كي لا نرى فظائع هذا العالم، وننسى أن عذاب بشر لا نعرفهم هو أيضاً عذابنا، وأن الآية قد تنقلب ذات يوم فنكون يوماً مكانهم ويكونون مكاننا، كما يمكن لهؤلاء المعذبين أن يصبحوا يوماً أصدقاءنا.

رغم ذلك فهذا الكتاب ليس وثيقة أو دليل إدانة، فالتاريخ سوف يحكم ذات يوم على الجرائم والمجرمين، ولم نكن، ونحن نبلور مشروعنا في هذا الوارد. «السجينة» سيرة وليس استقصاء، فقد دونت في هذا الكتاب ما سمعته على لسان مليكة يوماً بعد يوم، أي شهادتها التي تتضمن ترددها وعدم تحققها من بعض الوقائع، كذلك ما لم تشأ البوح به ولكن أيضاً دقتها الصارمة.

ما أردت سرده هو ما سردناه معاً بكلماتها وكلماتي، بعواطفها وبتأثرنا المشترك، هو المسار غير المألوف لامرأة من جيلي سجنت في القصور وفي المطامير منذ نعومة أظفارها، وهي اليوم تحاول أن تحيا. وأنا أواكبها إلى أبعد مدى استطعت الوصول إليه. أتمنى أن أكون قد شاركت كل من يحبها الآن ويحيط بها في أن نرد إليها طعم الحياة.

ميشال فيتوسي

شـــارع الأمـــيرات

أمّي العزيزة

تتناهى إلى مسامعي أنغام الموسيقى التي تعلن قدوم المدعوين، أتقلب في سريري ذات اليمين وذات اليسار، عبثاً أحاول أن أستدرج النعاس إلى عيني.

يُدوّي صدى الضحكات والمحادثات في أنحاء المنزل وأرجائه، ويصل إلى غرفتي، فينبه حواسي، ويحرضني على ترك فراشي. أهب من فكرتي، وأتسلل آلياً باتجاه الباب، أجلس القرفصاء على الأرض المغطاة بسجادة سميكة، لأسترق النظر من شق الباب إلى الحضور الذين ينتشرون في قاعة الاستقبال.

تخطف بصري أناقة فساتين السهرة، وتسريحات الشعر، وبريق المجوهرات، ومساحيق التجميل. تبدو النساء وكأنهن أميرات القصص الأثيرة إلى نفسي. عندما أكبر سأصبح أنا أيضاً أميرة.

فجأة تقع عيناي على أجلهن، إنها ترتدي ثوباً أبيض ذا فتحة واسعة تُظهر محاسن جيدها وصدرها. أتابعها بعيني، وقلبي يخفق بين ضلوعي من شدة الفرح. تجول على المدعوين، تحييهم، تتبادل معهم أطراف حديث تتخلله بعض الضحكات. ثم تعود أدراجها إلى رهط من الرجال يلبسون بذلات سموكنغ، إنهم أغراب لا أعرفهم. بعد ذلك تستأذنهم وتتوجه نحو حلبة الرقص... ترقص... وتغني... وتصفق بكل حيوية وخفة. حتماً ستستمر السهرة، كالعادة، حتى طلوع الفجر.

تتعبني كثرة التطلع والحملقة، فأعود للاستلقاء على سريري منهكة القوى. حزينة أنا لأن أمي منشغلة عني بهذه الحفلة، فيما أريدها أن تبقى بقربي، أن تدغدغ وجهي بخصلات شعرها الحريرية، وفيما أريد أن أستنشق عطرها، وأن أشعر بدفئها، وأتحسس بشرتها المخملية الناعمة. إنها أروع أم، وأجمل امرأة، ما أجملها بفستانها الأبيض. ما من امرأة تضاهيها جمالاً وأناقة. إنها أمي الحبيبة التي سأحرم من عطفها وحنانها، وسأنشأ بعيداً عن حضنها. أي مصير أقسى من مصيري هذا الذي سألاقيه!

ليس التشابه الواضح في الشكل هو ما يجمعني بأمي، بل أيضاً التشابه الكبير في القدر والمصير. عندما كانت أمي المسكينة في الرابعة من عمرها لفظت أمها أنفاسها وهي تضع طفلها الذي لم ير النور. أما أنا فقد انتُزعت من بين ذراعيها وأنا في الخامسة عندما قرر محمد الخامس أن يتبنّاني. كانت طفولتنا الباكرة، نحن الاثنين، خالية من حنان الأمومة.

تكبرني أمي بسبعة عشر عاماً فقط. عندما توفيت أمها في بداية الحرب تلقى أبوها عبد القادر الشنّا أمراً بالالتحاق بكتيبته المرابطة في سوريا باعتباره كان ضابطاً في الجيش الفرنسي. وحيث إنه كان من المستحيل اصطحابها هي وأخيها، اضطر إلى تركهما في مدينة مكناس في مدرسة داخلية تديرها راهبات فرنسيات. ولكن الهموم والأحزان أبت أن تترك تلك الطفلة الطرية العود تتنفس الصعداء ولو قليلاً، فبدون سابق إنذار مات أخوها اختناقاً، وهو كل ما تبقى لها من عائلتها، تشد به أزرها، وتلمّ به شعثها. يومها أضحت أمي وحيدة، لا أم، ولا أخ، ولا أب، تجتر لوعتها وألمها بمفردها، لا تجد من تبثه أشجانها وتشكو له ما أصابها. كانت حياتها مثخنة بالجراح.

لا غرو بعد ذلك أن تغرق أمي في العبادة والصلاة. لقد لاقت تعاليم الراهبات المسيحية صدى في نفسها. كانت كأرض أصابها الجدب والجفاف، والعطش لأي قطرة ماء تروي ظمأها وتعيد الطمأنينة إلى روحها المعذبة، لكنها وجدت ملاذاً للتخلص من كل ما ألمّ بها، فلجأت إلى التضرع والابتهال للسيدة العذراء وابنها المسيح. لقد رجتهما بكل حرقة أن يعيدا إليها أباها ليصطحبها مجدداً إلى المنزل.

تحققت أمنية أمي، وعاد الأب بعد غيبة طويلة ليعيدها إلى المنزل الذي سبقتها إليه عروسه الجديدة التي أقنعه أصدقاؤه بالزواج منها. أكثر ما شده إلى هذه المرأة هو مؤهلاتها في الطبخ، ومهارتها العالية في تحضير طبق الباستيلا المفضل عند جدي. لم تدم فرحتها طويلاً: فهي لا تحتمل أن تشاركها في حب أبيها امرأة أخرى غريبة، تكبرها بعدة أعوام فقط. وزاد الأمر سوءاً بعد ولادة أختها فوزية ومن ثم أخيها عز الدين. كانت الغيرة تنهش صدرها إلى حدّ أضحت معه الإقامة في المنزل جحيماً لا يطاق.

كانت تعدّ الأيام والساعات للهرب من ذلك السجن الذي جعلها أبوها حبيسته مجاراة للعادات والتقاليد. المشكلة أنه لم يكن أمامها مكان آخر تلجأ إليه طلباً للعطف والدفء والرعاية. لقد كانت تفتقد لأي يد رحيمة تحنو عليها، وتبدد وحشتها وغربتها.

ولسوء حظها توفي معظم أقارب أمها، وهم من البربر الميسورين المقيمين في الأطلس الأوسط.

كان لجدها أربع بنات ذاع صيتهن في أرجاء المعمورة بالحسن والجمال. قبض الموت ثلاثاً منهن، في عمر المراهقة، أما الرابعة التي بقيت على قيد الحياة، وهي جدتي يَمنى، فقد تزوجت من الجار الوسيم عبد القادر الشنّا الذي كانت أراضيه مجاورة لأراضيهم. هذا الزواج الرومانسي لا يحصل عادة إلّا في القصص والأفلام. لم تكتب لجدتي يمنى حياة مديدة، إذ توفيت وهي في التاسعة عشرة من عمرها. كل ما أعرفه عنها أنها كانت امرأة رائدة، عصرية، تحب الأناقة والرحلات، وقيادة السيارات. أصبحت أماً في الخامسة عشرة، وكانت تدير صالوناً أدبياً في سوريا حيث كان جدي يعمل في كتيبة الجيش المرابطة هناك.

أمي وعمها الشاب هما كل ما تبقى من هذه العائلة، لذلك آلت إليهما كل تركة العائلة: حقول قمح، وذهب مكدس منذ أجيال. وكما تقتضي العادات المغربية أعطي عمها حصة الأسد، ومع هذا بقي لها هي الأخرى حصة لا يستهان بها. فقد فازت بعدة مبانٍ، وفيلا، وحيّ بكامله في مدينة سلا. تولى جدي إدارة تركة أمي ريثما تكبر وتبلغ سن الرشد، ولكنه كان للأسف مديراً رديئاً، فقد أهدر أكثر مما أضاف على الرأسمال، ومع هذا فإن ما حصلت عليه عندما بلغت السن القانونية كان مبلغاً كبيراً ومعتبراً.

في ربيعها الثاني عشر، تفتحت أمي كوردة حمراء. كانت رائعة الجمال: عينان واسعتان سوداوان، بشرة نقية سمراء، جسد صغير بض، ما جعلها تأسر القلوب، وتشد الأنظار إليها، بل لقد نالت إعجاب الضباط الذين يأتون لزيارتهم. لكن كل ما كانت تصبو إليه هو الزواج، وبناء عائلة، تعوضها الشقاء الذي تعيشه في منزل أبيها.

في أحد الأيام التقى أبوها في قاعة طعام الضباط بصديق قديم يعرفه منذ زمن بعيد، كان يحارب في الهند الصينية، وعاد لتوه من هناك محملاً بميداليات وأوسمة رفيعة. وقد ذاع صيته بالذكاء والشجاعة على جبهات القتال. لذا كان جدي يكن له التقدير والاحترام. تكريماً له دعاه لتناول الغداء في منزله، فوافق بلا تردد. أثناء تناول الطعام، كانت أمي تختبىء خلف الستائر وتتابع بنظراتها التي تنضح بالشقاوة ما يدور في الغرفة من مباحثات وأحداث. لم يطل الوقت حتى تنبه الضيف بفطنته إلى فعلتها، وإلى مكان وجودها. لكنه لم ينبس ببنت شفة أمام جدي. كان لا يزال مصعوقاً وتحت التأثير اللذيذ الذي خلفه التقاء عينيه بعينيها.

لقـد وقع هذا الضابط المخضرم المحنك والمتمرس أسـير الحب، كان يكفيه نظرة واحدة منها حتى يخرّ صريعاً في هواها. أما هي فقد أعماها وقاره وسحره وهو في بذلته العسكرية البـيضاء. لم يعدل أبـي عـن نيته بالعودة مجـدداً إلى الهند الصينية رغم محاولات جدي المتكررة لإقناعـه بذلك. ولكن دفاعاته انهارت دفعة واحدة عندما رأى أمي ذلك المساء، خاصة وأنه يفكر جدياً بالزواج والاستقرار. وصار كل همـه هـو كيـف يفوز بها. ولأنـه لا يحتمل الانتظار طويلاً، عـاد إلى منزل جدي بعد عـدة أيام فقط لطلب يدها، وهو يكبرها بعشرين عاماً!

ذهـل جدي من شـدة المفاجأة. إنهـا ما زالـت صغيرة! كيـف يمكنه تزويجها وهي بعد في الخامسـة عشرة من عمرها؟ فهو لم يشـف بعد من عقدة الذنب التي يشـعر بها منذ وفاة زوجته يـمنى التي كان يحبها كـثيراً. إنه يعتقد أنها راحت ضحية الزواج المبكر والحمل المتقارب والمتلاحق. أصرت أمي على القبـول، تريـد أن تـترك المنزل بأي ثمن. إنها فرصة العمر للتخلص مما تـتخبط فيه، وتخاف أن تضيع منها. أمام إلحاحها لم يكن أمام جدّي إلّا الموافقة على عقد قرانهما.

لم تكن أمي تعرف أبـي جيداً، صحيح أنه أصبح زوجها الشرعي، ولكنه ما زال مجهولاً بالنسبة لها. مع الأيام كانت تقترب منه أكثر فأكثر. إنه لطيف معها، يحبها، ولا يملّ أبداً من مغازلتها والتودد إليها، ما أدى بعد فترة قصيرة إلى وقوعها هي أيضاً في حبه.

ينحـدر محمـد أوفقير مـن بربر أعالي الأطلـس المغربـي. وقد ولـد في عين شـعير الواقعة في منطقة تافيلالت. أما كلمة «أوفقير» فتعني بالعامية المغربـية الفقير، وقد اشـتهرت عائلته باسـم أوفقير لأنها كانت تعطف على الفقراء والمحتاجين، وكانت تجهز المآدب للسائلين، وما كان أكثرهم في تلك المناطق الصحراويـة القاحلة. كان محمد في السـابعة من عمره عندما توفي أبـوه، أحمد أوفقير، الذي كان زعيم القبـيلـة، وباشـا منطقـة بودنيب. عـاش محمد طفولـة حزينة ومعذبـة. تلقى علومـه في إعدادية أزرو الخاصة بالبربر، القريبة من مدينة مكناس. ولأن العمل العسكري كان تقليداً سائداً في العائلة، التحق محمد بالمدرسة الحربـية في الدار البـيضاء، وتخرج منها برتبة ملازم أول وله من العمر واحد وعشرون عاماً. بعدها انخرط في جيش الاحتياط الفرنسي. جرح في إيطاليا، ونقل إلى فرنسا للاستشفاء ولقضاء فـترة النقاهـة. ثم رقّي إلى رتبة كابتن في الهنـد الصينية. وعندما التقى أمي كان برتبة مسـاعد للجنرال دوڤال قائد القوات الفرنسية في المغرب.

كان أبـي يتبع نمطاً قاسياً، من موقع إلى موقع ومن معسكر إلى آخر. لم يعرف طعم الرخاء والراحة أبداً منذ كان صغيراً. وفي أوقات الفراغ كان يلجأ إلى الأندية، والمواخير، وصالات اللعب وطاولات الميسر. لم يكتشـف مـدى توقه الدفين للاسـتقرار إلّا عندما وقعت عيناه على فاطمة التي اسـتطاعت، ببراءتها ورقتها، أن تنسيه كل همومه وتعبه، وتعويضه يتمه وحرمانه.

تـزوج محمـد أوفقـير وفاطمـة الشـنا في ٢٩ حزيران/ يونيـو ١٩٥٢. وأقاما يومها في منزل بسـيط ومتواضع قياساً إلى مركزه الاجتماعي ورتبته العسكرية. تعلمت أمي من أبـي أشياء لا تعد ولا تحصى. كانـت صغيرة السـن، لا خبرة لها بعد بـآداب السـلوك ولا بالعلاقات الاجتماعيـة. تعلمت منه كيف تختار ملابسها، وكيف تجلس على طاولة الطعام، وكيف تـتحدث مع الناس وتـتعاطى معهم. بسرعة قياسـية أتقنـت دورها الجديـد، ولم يعد ثوب زوجة الضابـط فضفاضاً عليها، بل مفصلاً على قياسـها وعـلى أفضل ما يكون. كان الزوجان في قمة السـعادة، ينهلان مـن معين الحب بدون توقف. اكتملت فرحتها عندما اكتشفت أمي أنها حامل، وهي التي كانت تحلم دائماً بأن تصبح أماً لثمانية أطفال.

ولدتني أمي في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٥٣ في دار توليد تديرها راهبات. استقبل أبـي خروجي للنور بحفـاوة بالغـة. كان فخوراً بـي جداً، فلم يزعجه أن يكون مولـوده الأول أنثى ـ كان يرغب مثل أمي بتأسـيس عائلة، ولكنه لم يكن متفقاً معها حول العدد. بالنسـبة له ثلاثة أبناء عدد كاف ووافٍ بخلاف ما تراه زوجته. بعد مضي سـنتين على ولادتي كرّت السـبحة، ولدت مريم، وبعد ثلاث سـنوات تلاها أخي رؤوف، ولي العهد، ولأنه أول صبـي في العائلة، حظي يومها بحفل مهيب أقيم على شرفه.

ذكريـات طفولتـي الباكرة تفيض بالهناء والسـعادة. لقد أحاطني أبواي بهالة مـن الحب والرعاية. وكان بـيتنا يرفل بالطمأنينة والسكينة ويسبح في الأمن والسلام.

كان أبـي يتغيب كثيراً عن البـيت، ويعود غالباً في سـاعة متأخرة من الليل. لقد كان منشـغلاً ببناء مستقبله المهني الذي كان يسير على قدم وساق، بشكل واضح وسريع. لم أشك قط بمدى الحب الذي يكنـه لي. عندمـا يكون في المنزل لا يترك فرصـة تفوته دون أن يظهر لي مدى ولعه بـي ومحبّته لي. كنت متعلقة بأمي، ولا أحتمل غيابها لحظة واحدة عن عيني. كنت شـديدة الحب لها والإعجاب بها، كيف لا وهي امرأة جميلة وسـاحرة، تفيض رقة وأنوثة. كان يكفيني لأبلغ ذروة الغبطة والفرح أن أستنشـق رائحتها، وألامس بشرتها. كنت أتمسـك دائماً بذيل ثوبها وأتبعها كظلها. منذ عمر السـتة أشـهر كانت

تحملني في قفة، وتصطحبني معها أينما ذهبت. كانت من عشاق السينما وكان يصل بها الأمر أن تذهب لحضور الأفلام عدّة مرات في اليوم وأنا برفقتها. لذا، لا عجب أن أصبح فيما بعد من عشاق الفن السابع.

كانت تطلب من مزين الشعر أن يسرح لي شعري على شكل ضفائر، تماماً مثل سكارليت أوهارا بطلة قصة ذهب مع الريح. ولكن سرعان ما يذهب كل الجهد الذي بذله المزين هباء منثوراً. فنسمة الهواء الخفيفة تكفيه ليعود إلى طبيعته منسدلاً كالسابق.

كنت رفيقتها الدائمة في كل تحركاتها وغدواتها، في زيارة أصدقائها، وأثناء التسوق، وركوب الخيل، وحمام السباحة، حيث كنت أخجل من نزع ثيابي أمام الآخرين.

كنت أراقبها بلا كلل أو ملل وهي ترتدي ملابسها، وتتزين، وتتبرج، وتسرح شعرها، وتكحل عينيها. كنت أرقص معها على نغمات موسيقى الروك لإلفس بريسلي.

وكأي طفلة مدللة، كنت ألبس كأميرة، من أفخر الملابس المنتقاة من أفخم المحلات والماركات المستوردة، مثل «بون جيني» في جني»، و«لا شاتلين» في باريس. كنت محط أنظار أمي وأبي ومحور اهتمامهما ورعايتهما وكالدمية بين أيديهما.

كانت أمي تحب البذخ والتبذير، بعكس أبي الذي كان يحبذ سياسة الاعتدال في الإنفاق. فما كانت لتتورع عن بيع مبنى لتشتري بثمنه مجموعة من أزياء ديور أو سان لوران، المصممين الفرنسيين المفضلين لديها. ولطالما أنفقت عشرين أو ثلاثين ألف فرنك فرنسي دفعة واحدة من أجل شراء بعض الحاجيات. كان المال يحرق أصابعها، لذا لم تكن تطيق الاحتفاظ به، بل تعمل على صرفه وتبذيره.

انتقلنا إلى مدينة الرباط وأقمنا في فيلا تقع في شارع الأميرات. كانت الفيلا محاطة بحديقة خلابة مزروعة بأشجار البرتقال، والحامض، والمندرين. كنت ألعب هناك مع ليلى إحدى قريباتنا التي تبنتها أمي مؤخراً.

كانت تربط أسرتي بالعائلة الملكية عُرى صداقة قوية. وكان والداي هما الوحيدين المسموح لهما بدخول القصر الملكي والتجول فيه بحرية تامة وبدون استئذان حيث نجح أبي بالفوز بثقة محمد الخامس الكاملة، لا سيما أنه كان آنذاك قائداً للحرس الملكي. كان المكان أليفاً لأمي، فهي اعتادت على ارتياده منذ كانت طفلة صغيرة عندما أقامت عند إحدى شقيقات الملك في مدينة مكناس قبل زواج

أبيها مرة ثانية. ولقد رآها محمد الخامس[1] هناك عندما كان يأتي لزيارة شقيقته. فاستوقفه جمال الطفلة البالغة من العمر ثماني سنوات آنذاك. وسرعان ما شعر نحوها بعاطفة وإعجاب لم ينطفئ أوارهما مع مرور الوقت.

أقام محمد الخامس احتفالاً كبيراً بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على توليه العرش، دعا إليه مساعديه العاملين في الحرس الملكي مع زوجاتهم. فكانت مناسبة للالتقاء بوالدتي من جديد. كان ترحيب الملك بها حاراً للغاية. كان يستقبلها بحفاوة بالغة في كل مرة تزور فيها القصر. فهو يرتاح لصحبتها ويستمتع بمجالستها، ولكن من الصعب بمكان لمثل هذا الرجل الذي يقدس الأصول أن يدع نفسه تحدثه بإقامة علاقة ما مع هذه المرأة المتزوجة.

من جهة ثانية، كانت أمي صديقة حميمة لزوجتي الملك اللتين كانتا تستودعانها أسرارهما، ولا تتركان يوماً يمضي دون أن ترسلا طلباً لاستدعائها للمجيء بغية رؤيتها ومجالستها.

كانت الزوجتان الملكتان لا تغادران الحريم الملكي. لذلك كانت أمي تشتري لهما ما تريدان من حوائج، وملابس، وأدوات تجميل. لقد كانت هي صلة الوصل بينهما وبين العالم الخارجي.

كانت الزوجتان تتنافسان بضراوة على حب الملك. كل واحدة منهما تريد أن تستميله إليها. كانتا مختلفتين إلى حد التناقض.

إحداهن تدعى للا عبلة الملقبة بالملكة الأم، أم سيدي[2]، لأنها أنجبت ولي العهد مولاي الحسن الثاني، والثانية تدعى للا بهية وهي امرأة ذات جمال صارخ وطبيعة نزقة. إنها أم الطفلة الأثيرة لدى الملك، الأميرة الصغيرة أمينة التي ولدت في المنفى في مدغشقر. حملت بها الملكة بعدما كانت تظن أنها عاقر لا تنجب. وكم كانت فرحتها عظيمة عندما تبسّم لها الحظ وحصلت المعجزة.

كانت للا عبلة امرأة محنكة وعلى علم ودراية بكل ما يجري من دسائس ومكائد في القصر. فهي تجيد بمهارة فن الدبلوماسية. أما للا بهية فلم تكن لتكترث بأخبار المجتمع التي تعتبرها تافهة ولا تعنيها. فهي لا تطيق ألبتة كل أشكال الرياء والنفاق المعمول بهما بشدة في الأجواء الملكية. أما أمي فكانت ممزقة بين الاثنتين، وحاولت منذ البداية إيجاد حل وسط بينهما. هناك، المرء بين نارين، ومن الصعب عليه الاحتفاظ بحياديته. يجب عليه أن يحسم خياره، وينضم إلى أحد المعسكرين.

كان مولاي الحسن الثاني الذي ينادونه أيضاً «سمية سيدي[3]» يقيم في منزل مجاور لنا. لذلك

كان غالباً ما يأتي لزيارتنا. كذلك الأمر بالنسبة لأخواته الأميرات، وأخيه الأمير مولاي عبدالله. كان يطلب مني في كل مرة أن أحييهم بمنتهى التهذيب والاحترام.

في إحدى أمسيات شهر رمضان، بعد تناول الإفطار، توجهت أمي، محاطة ببعض صديقاتها، إلى غرفة الاستقبال، بانتظار أن تأتيهم مدبّرة المنزل بأكواب الشاي الأخضر بالنعناع. أما أنا فقد كنت أركض طولاً وعرضاً محدثة الجلبة والضوضاء. فجأة أوصلتني قدماي إلى الممر، وإذ بي أرى رجلاً غريباً يخرج من المطبخ. تجمدت في مكاني وأنا أرتجف من الخوف والارتباك. كان رجلاً وقوراً وذا هيبة وجلال. ابتسم لي مطمئناً، ثم عانقني وطلب مني أن أذهب لأخبر أمي أنه يرغب برؤيتها. ما إن أبلغت أمي الرسالة حتى هبّت على الفور، لترى ما الأمر! وعندما وقعت عيناها عليه انحنت أمامه مظهرة له كل أمارات الطاعة والامتثال.

هذا الرجل الغريب لم يكن إلّا الملك محمد الخامس الذي مر لزيارتها بدون سابق إنذار، كما كان من عادته أن يفعل أحياناً. أخبرها أنه دخل المطبخ لأنه اشتم رائحة حريق يتصاعد منه. وكان الملك صادقاً، لأن الطباخة نسيت إبريق الشاي فوق النار المشتعلة. فلم ينج الإبريق من الذوبان لكن جلالة الملك أنقذنا من حريق مؤكد.

عندما وطئت قدماي القصر الملكي أول مرة، كان لي من العمر خمس سنوات. اصطحبتني أمي معها نزولاً عند رغبة الملكتين وحاشيتهما؛ فقد أردن رؤيتي والتعرّف علي، لهذه الغاية دعينا أنا وأمي إلى تناول طعام الغداء على المائدة الملكية. عندما وصلنا أدخلنا مباشرة إلى قاعة الطعام الخاصة بالملك.

كان المكان يغصّ بسكان القصر وضيوفهم، ويبدو كلوحة بديعة تتداخل فيها الألوان والأشكال. القاعة فسيحة وشاسعة، لم أر بمثل اتساعها من قبل، تزينها شرفات في غاية الفخامة، والجدران مغطاة بأروع الفسيفساء. أما العرش الملكي الذي يبعث الرعدة في الأوصال فكان يتربع في أقصى القاعة فوق منصة مرتفعة عن الأرض. لفتت انتباهي في إحدى الزوايا أكوام الهدايا التي تجمعت على شكل جبل شاهق. كانت قد أحضرت للملك لتهنئته ببعض المناسبات كالأعياد، والاحتفالات، والزيارات الرسمية.

المائدة الخاصة بالملك معدة على الطريقة الغربية، بصحون بورسلين وأكواب الكريستال، وأوانٍ

فضية ومذهبة. تحت قدمي الملك تفترش الجواري الأرض المغطاة بسجادة بنية، مع أن طاولته المستطيلة تتسع لأكثر من ثمانية أشخاص.

الملكة الأم ترئس الطاولة الأقرب إلى الملك، تحيط بها وصيفاتها وهن في غاية الأناقة والزينة.

أمام جمع كهذا، لم يكن بوسعي إلّا التمسّك بقفطان أمي لأداري قلقي وخجلي.

فجأة... وإذا بهمهمة تسري في القاعة، وتعلو جلبة من البهجة والفرح. وباهتمام واضح تقف النسوة على ما يبدو لاستقبال شخص ما، لم أتمكن من رؤيته من المكان الذي أقف فيه. وبعدما هدأ الجميع وعادوا إلى أماكنهم اتضح المشهد أمامي، ترى من هي هذه الطفلة الصغيرة التي لاقت كل هذه الحفاوة والتكريم؟!

كانت ترتدي ثوباً أبيض تزين ظهره شريطة تنتهي على شكل فراشة كبيرة. ينسدل شعرها المضفّر على الطريقة الإنكليزية. بشرتها نقية كالحليب، يغطيها بعض النمش الذي يزيدها سحراً وألقاً. يفرحني أن ألتقي بعد كل هذا العناء فتاة من عمري. ولكن من هي؟! بعدما نفد صبري من كثرة الأسئلة التي لا أملك أجوبة لها، اقتربوا نحوي، وإذ بهم يجرونني إلى حيث تقف الفتاة قائلين لي: مليكة، هذه الأميرة الصغيرة، للا مينا، حبيبة قلب الملك وزوجته للا بهية. ودون أن أنطق بأي كلمة تعانقنا بارتباك وخجل. ما علمته لاحقاً أن اسمها أمينة ولكنهم ينادونها، للتحبب، للا مينا.

من جديد، تعلو الجلبة والهمهمة، إنه الملك محمد الخامس، الذي يصل على حين غرة. قدّم الجميع التحية للملك، وعندما حان دور أمي لثمت يده، وقدمتني له، أخذني بين ذراعيه، وتمتم في أذني ببعض الكلمات اللطيفة، لم أسمعها جيداً من شدة الخجل الذي اعتراني.

أعطى الملك الإذن ببدء الطعام، فأخذ الجميع أماكنهم حول الطاولات. وجلس الملك بمفرده على طاولته. ثم شرع العبيد في تقديم الوجبة العامرة بكلّ ما لذّ وطاب.

ما إن تناولنا قليلاً من الطعام حتى انسحبت للّعب برفقة للا مينا. في البداية كنا على انسجام تام، لا شيء يعكر صفونا. لكن للأسف لم يدم الوئام طويلاً لأنني سرعان ما تلقيت عضّة في ذراعي من للا مينا. فدفعتها بقوة عني، وركضت كالمجنونة أبحث عن أمي وأنا أنشج.

أحرج الأمر أمي، فأمرتني أن أهدأ، وأن أكف عن الصراخ على الفور. لم يسبق لأمي أن عاملتني بقسوة، ولم أفهم ما الذنب الذي اقترفته حتى تسببت لها بكل هذا الإزعاج. ردة فعلها هذه أثارت

غضبي وحنقي، فهجمتُ على للا مينا، لأنتقم لنفسي، فرددتُ لها العضة على خدّها.

صرخت بشكل هستيري، وارتمت أرضاً تتلوى كحمل ذبيح. ما جعل الكل يهرعون ويقفون لمعرفة ما أصابها، وللاطمئنان عن أحوالها. شعرت برعب قاتل، نظرات الشر مصوبة إليّ من الجميع. لا ريب أنهم سينهالون عليّ بالضرب كرمى لعيني للا مينا. ارتعدت فرائصي مما يحصل حولي، فاندفعت أختبيء بين ذراعي أمي.

اقترب الملك، أخذني بين ذراعيه، وطلب مني أن أبرر له فعلتي. قلت له وأنا أنتحب:

ـ شتمت أبي، فشتمت أباها، وعضّتني في ذراعي فعضضت خدها.

استهجنت الحاشية قلة تهذيبي ووقاحتي، غير أن ذلك أثار الملك الذي بدا مستمتعاً ومستأنساً بهذه التسلية. فردّدت على مسمعه الشتائم التي تناولت بها والد للا مينا عدة مرات وذلك بناء على طلبه.

خلال ما تبقى من وقت، جلست كل واحدة منّا بعيدة عن الأخرى. كنا نتبادل نظرات اتهام مليئة بالتحدي.

قبيل مغادرة القصر، اقترب محمد الخامس من أمي قائلاً لها:

ـ فاطمة، حتماً أنك لن ترفضي ما سأطلبه منك، لقد قررت أن أتبنى مليكة. إنني لن أجد لابنتي رفيقة أفضل منها. أعدك أن أسمح لك بالمجيء لرؤيتها ساعة تشائين.

عادة التبنّي التي كانت سائدة في القصر كانت تسري على الأطفال الفقراء والأيتام. حتى إن معظم وصيفات القصر تم تبنّيهن عندما كن صغيرات، كان من النادر، بل والمستحيل تبنّي فتاة بمثل وضعي. كنت لا أختلف منزلة عن أي أميرة.

تلك الكلمات غيّرت مجرى حياتي التي أدخلت فجأة في نفق لا نهاية له. ما زال ظل ذلك الكابوس مخيماً على ذاكرتي، وما إن أستعيده حتى تسري في أوصالي الرجفة. حقاً، كنت ضحية عملية قرصنة واختطاف.

كيف أنسى الطريقة الفظيعة التي اقتادوني بها من منزلنا، ووضعوني داخل سيارة انطلقت بي إلى فيلا ياسمينة، مقر للا مينا ومربيتها جان ريفل. عندما انتزعوني من حضن أمي، جرّدوني للأبد من الطمأنينة والسكينة، وهجّروا طفولتي، وأطفأوا في عيني بريق البهجة والفرح. قاومت بكل ما أوتيت

مـن قوة، بكل ما تبقى لديّ من أسـلحة طفولتي المغتصبـة والمقهورة: بكيت... صرخت... ركلت... رجوت... ناديت أمي بحرقة... لكنها كانت أبعد من أن تسمعني. لقد أقفلت عليّ المربـية داخل غرفة الضيوف بالمفتاح. وتركـتني أنوح وأبكي طوال الليل دون أن يرفّ لها جفن.

هـل بكـت أمـي حتى طلوع الفجر كـما فعلت أنا؟ هل تجـرأت على دخول غرفتـي ورؤية ملابسي وأشـيائي؟ هـل ارتمت على فراشي باكية، تبثّ وسـادتي حزنها ولوعتها؟ لم أجرؤ أبـداً على توجيه هذه الأسئلة لأمي، لقد احتفظت دائماً بهذه الهواجس لنفسي.

مع مـرور الوقت، أصبح هذا الانسـلاخ أمراً واقعاً. تقبلته رغماً عني واللوعـة تغمر قلبـي. وماذا عسـاي أفعـل؟ هل من أحد يقيم وزناً لرغبتي ومشـاعري؟ ومـن تراه يهتم إذا كنت قـد عانيت كثيراً لابتعـادي عـن أمـي؟ ومتـى كنـا لا ننحني أمـام رغبات الملـوك ونزواتهم؟! أليسـت رغباتهـم أوامر ونزواتهم مقدسات؟!

أحب أمي التي لم يعد يربطني بها سوى بعض الزيارات القليلة التي لم تكن تشفي غليلي، بل كانت تؤجـج لوعتـي، وتزيد حسرتي. كانت تصل عند الواحدة ظهراً وتغادر في الثانية. بالكاد تمكث سـاعة واحـدة. كانت تـتعجـل الرحيل، كأنها تهرب من أمر ما كان يزعجها ويحزنهـا. ربما كانت رؤيتي تنكأ جرحاً لم يندمل بعد. ترى هل كان حال أمي ليس أقل سـوءاً من حالي، وأن كل ما تظهره من تماسـك ولامبالاة ما هو إلا قناع مزيف ليس إلّا!؟

عندمـا كانـت المربـية تزفّ لي نبـأ قدومها، كانت تعتريني فرحة غامرة مشـوبة أيضاً بالحزن والألم. كنـت أصاب بـالأرق في الليلة التي تسـبق موعد زيارتها. وتسـيطر عليّ حالة من الترقـب والانتظار، كان من الصعب عليّ التخلص منها. غداً سـتأتي أمي لزيارتي، إنه حدث بالنسـبة لي غير عادي. كانت السـاعات تمـر ببطء شـديد في قاعة التدريس، وأنـا في عالم بعيد عن كل ما يدور حـولي. أعاني صعوبة بالغة في التركيز والاستيعاب، لأن ذهني مشغول بعدّ الثواني واللحظات، وكم كان يأسي كبـيراً عندما كان يتهيـأ لي أن عقارب السـاعة توقفت عـن الدوران. لذلك، ما إن تأذن المدرسـة لنا بالمغادرة، حتى أعدو كالمجنونة باتجاه السلالم المؤدية إلى غرفة الاستقبال، وعشرات الصور والأفكار تعصف برأسي.

ومـا إن أصـل إلى البهـو حتى كنت أتجمـد في مكاني، يجتاحني خـدر لذيذ، إنه عطرهـا، أجل عطر «سـأعود» المفضل لديها، بسـهولة أسـتطيع أن أميزه من بـين آلاف العطور. إذ لطالما كانت رائحة أمي

تبعث في نفسي الغبطة والسرور، وتسكن روحي.

أريد أن أتنعم بهذا العبق، إنه ملكي، لا أريد أن يشاركني به أحد. ألمح سترتها المعلقة فوق المشجب، وكالمسحورة أندفع لأدفن في طياتها وجهي. أريد أن أختزن أكبر قدر ممكن من رائحتها لأعوض ما فاتني منها طوال فترة ابتعادها عني.

أدخل أخيراً إلى غرفة الاستقبال، هذه أمي الحبيبة تجلس على الكنبة، الفرحة والحزن يعقدان لساني، فأتطلع إليها كغريق يتطلع صوب طوق نجاة. لماذا تستقبلني بكل هذا الهدوء؟ ألا يجدر بنا أن نتفجر بالبكاء والنحيب وأن ننتشي بالشم والعناق؟ هذا البرود الذي يبدو عليها سرعان ما يتسرب إليّ فيخمد كل بركان الحب والاشتياق الذي يتأجج في أعماقي. أستنفر كل رباطة جأشي لأجاريها في تماسكها ولامبالاتها. أطبع على خدها قبلة ميتة لا حياة فيها.

هل حقاً أن أمي لا تبادلني هذا الحب المستعر الذي أكنه لها؟ لماذا تبدو لي قاسية وخالية من أي عاطفة في كل مرة تأتي فيها لزيارتي؟ هل كانت تريد معاقبتي بهذا أم معاقبة نفسها؟! تباً لهذه المربية المزعجة التي تأتي كل بضع دقائق لتقطع خلوتنا. ما لها ولنا، فلتدعني بسلام أكحل عيني بوجه أمي، وألثم يدها وأتحسس بشرتها... أريد أن أروي ظمأي من معين عطفها وحنانها. ولكن ما كل ما نتمناه ندركه... الملك وحده يدرك ما يتمناه. كنت فخورة بجمالها وأناقتها، وسحرها. وعندما كانت للا مينا تبدي إعجابها بها سرعان ما تغمرني سعادة عارمة.

أثناء تناول الطعام الذي يسبق رحيل أمي، كانت المربية لا تكف عن تعكير صفونا بأحاديثها المملة التي لا تنتهي. فكانت ثرثرتها تستأثر باهتمام أمي. بإذعان، كنت أكتفي بمراقبة حركات أمي وسكناتها. كنت أريد أن أطبع صورتها إلى الأبد في روحي وعقلي، حتى إذا ما خلدت إلى النوم في غرفتي وحدي، أشعر أنها معي تهدهدني وتبدد وحشتي.

ومع الأيام، راحت زياراتها تتباعد شيئاً فشيئاً، ورحت أشعر أنني أزداد انسلاخاً وابتعاداً عنها. انتقلت للإقامة في قصر الرباط. عشت ما تبقى من حياتي في عزلة تامة. الحدود التي كانت مرسومة لتحركاتنا وتنقلاتنا هي بعض القصور الملكية التي كنا نذهب إليها لقضاء العطل والإجازات.

أعيش في برج مصنوع من العاج لا يمتّ إلى الواقع بصلة، غارقة أنا في بحر من الأبهة والفخامة، ولا أحتك بتاتاً بالناس العاديين، ولا أعرف أي شيء عن أعرافهم وعاداتهم، وحياتهم اليومية.

أنظر إلى العالم من خلال زجاج السيارات الفاخرة التي كانت تقلنا من قصر إلى آخر. لم أكن أعرف من أنا، ومن أكون، ولأي زمان ومكان أنتمي؟ كنت أشعر بغربة دائمة تخنقني وتحوّل حياتي إلى جحيم لا يطاق. كنت بحاجة لأكثر من أحد عشر عاماً لأتخلص من كل هذه الكوابيس التي ما انفكت تطاردني. نعم لم يكن الفكاك منها بالأمر السهل واليسير. لقد بدأت، في سن متأخرة جداً، أتعلم كيف أعيش على أرض الواقع القائم، وأصبح امرأة عادية مثل سائر النساء.

قصر سيدي[٤] (١٩٥٨ ـ ١٩٦٩)

عهد محمد الخامس

لم يشأ محمد الخامس أن تنشأ ابنته المفضلة في أجواء القصر الخانقة. لذا أمر بتجهيز ڤيلا ياسمينة لتقيم فيها. هناك كل شيء مصمم بشكل رائع وبمنتهى الفخامة والكمال: الأبهة، الجمال، الدعة والهدوء، كل ما تحلم به تجده ماثلاً بين يديك. الحلم هناك يصبح حقيقة وكأنك تعيش في بلاد العجائب، أو إحدى قصص الخيال. في تلك الأجواء السحرية الفاخرة تعلمت كيف أصبح أميرة.

هذا البيت الأبيض الكبير، بمساحاته الشاسعة، يبعد عن القصر الملكي مسافة عشر دقائق، ما إن تجتاز السيارة البوابة الرئيسية حتى تصل عبر ممر صغير إلى المبنى الذي تحتل فيه للا مينا ومربيتها جان ريفل الطابق الأول المؤلف من مطبخ، وصالون يتصدّره بيانو، وغرفة طعام، وغرفة جلوس، وغرفة ضيوف، وحمامات، وغرفة نوم للا مينا التي تتصل بباب داخلي بغرفة نوم مربيتها. تصميم البيت حديث، وأثاثه عصري ومريح للغاية: السجاد الوثير، الستائر، المقاعد والأسرّة، كل ما تقع عليه عيناك يدل على ذوق رفيع وأناقة عالية.

وفي الطابق الأرضي قاعة مترامية الأطراف مخصصة للعب، تمتلىء بكل ما تهواه النفس من ألعاب مختلفة: دراجات، سيارات صغيرة، بلياردو، عدة تنكر، وعرائس بكل ملابسها ولوازمها، بالإضافة إلى صالة عرض سينمائية مخصصة فقط لاستعمالنا الشخصي.

الحديقة الخلابة التي تسر الناظرين تزدان بكل ما يخطر على البال من أنواع الورود والأزهار: الياسمين، الخزامى، الجوري، الكاميليا، زهر العسل، زهر الوهلية، وغيرها. إنها تزنر البيت بحزام مزركش بشتى الأشكال والألوان، وتحفّ بالممرات أشجار المندرين والليمون والحامض والنخيل.

لإدخال السرور على قلب الأميرة وتسليتها، أمر الملك بتشييد مدينة ملاهٍ صغيرة في إحدى زوايا الحديقة تحتوي على الأراجيح والألعاب وعدة حليات للتسلق والتزحلق.

وإكراماً لعيون الأميرة التي تعشق الحيوانات، أقيمت حديقة حيوانات صغيرة خلف المنزل مجهزة بالإسطبلات، والمرابط، وتحتوي على حمام وخراف وماعز وقردة، بالإضافة إلى سنجاب تم إحضاره من إيطاليا في إحدى الرحلات.

خلف المنزل أيضاً بستان كبير زرع بعشرات الأنواع من الأشجار المثمرة، ومدرسة ابتدائية خاصة بالأميرة ومن معها تديرها مدام هيغون، وتدرّس فيها الآنسة كابل التي تربطني بها ذكريات تركت في نفسي أشد الأثر.

عندما أحضرت إلى ڤيلا ياسمينة، وضعت في غرفة الضيوف القريبة من غرفة للا مينا ومربيتها، بقيت على هذا الوضع حتى مجيء رشيدة وفوزية اللتين وقع الاختيار عليهما من بين الطالبات المتفوقات في كل أنحاء المملكة، ليتسنى لهما متابعة دراستهما جنباً إلى جنب مع الأميرة. إنهما من عامة الشعب، وتنتميان إلى عائلتين فقيرتين ومتواضعتين، انتقلت للإقامة معهما في المبنى الذي شيد لهما في الحديقة خلف المنزل، بالقرب من حديقة الحيوانات. تقاسمت إحدى الغرف مع رشيدة وكان أجمل ما فيها سقفها المصنوع من زجاج، كنا نرى من خلاله السماء.

كان البرنامج اليومي الذي أعدّ لنا ثابتاً لم يتغير أو يتعدل لا في عهد محمد الخامس ولا فيما بعد في عهد ولده الحسن الثاني[٥]. كل صباح يأتي الملك لإيقاظنا عند السادسة والنصف. يصل إلى غرفة للا مينا أولاً ثم ينتقل بعدها إلى غرفتي حيث يقوم بملاعبتي، يسحب الغطاء عني... يدغدغ قدمي... يسحبني بهما باتجاهه.

منذ البداية لم يميز في المعاملة بيني وبين ابنته، كان يحاول دائماً أن يظهر لنا نفس الاهتمام والعاطفة، فقط عيناه تكشفان مدى حبه العميق لابنته التي، وحدها، تتربع على عرش قلبه. كان يتردد علينا بشكل دائم ومنتظم، يتناول معنا فطور الصباح، وينتظر برفقتنا حتى لحظة دخولنا إلى الصف. وغالباً ما كان يعود في الحادية عشرة والنصف لمشاركتنا درس اللغة العربية. نتناول طعام الغداء بمفردنا تحت رحمة وإشراف المربية الإلزامية التي شهد لها عمدة باريس بالكفاءة، بعدما كانت قد أشرفت على تربية أولاده. ريفل امرأة عازبة ومتسلطة، لا شك أنها كانت جميلة في مطلع صباها، عيناها زرقاوان

كبيرتان، ورأسها الجميل مكسو بشعر رمادي اللون. إنها ليست شريرة، ولكنها جاهلة بأبسط مبادىء علم النفس والتربية. لا تستخدم إلّا العصا في التعامل معنا، وتؤمن بأن العقاب والقسوة وتنغيص العيش أفضل وسيلة للتربية السليمة، وما زالت ترن بأذني حتى الآن جملتها: «الإنسان بتهذيبه وتربيته لا بعلمه وثقافته».

كانت لا تملّ من تكرار هذه المعزوفة عشرات المرات في النهار بلهجة حادة تخدش الأسماع. لذلك كانت هنالك حرب طاحنة بينها وبين مديرة المدرسة السيدة هيغون التي كانت تحثنا باستمرار على الاجتهاد والنجاح في برنامجنا الدراسي قبل أي شيء آخر.

كان محمد الخامس ملكاً صارماً، لا يسمح بأي تجاوز من شأنه أن يخلّ بالآداب العامة. كان رجلاً تقياً ورعاً. والشعب المغربي يعتبره رمزاً للوقار والاهتمام. كان كل يوم جمعة يخرج ظهراً من بوابة القصر الرئيسية ممتطياً جواده باتجاه المسجد المجاور، مرتدياً جلباباً أبيض، وعلى رأسه شاشية حمراء، يحيط به العبيد من كل صوب يظللونه بمظلة كبيرة تقيه من لظى الشمس الحارقة. يجتاز الملك باحة القصر على أنغام الموسيقى التي تعزفها فرقة تابعة للحرس الملكي، وعلى وقع حوافر الخيول التي تتهادى بقوائمها الرشيقة. يخترق موكب الملك الحشود المتجمهرة على جانبي الطريق المؤدية إلى المسجد، وما إن يلمحونه حتى تتعالى هتافاتهم: «عاش الملك».

كان حب الناس لجلالة الملك وإخلاصهم له لا حدود لهما، لدرجة أنهم كانوا يتسابقون ويتدافعون، ويرتمون أرضاً لالتقاط القليل من روث خيله للتبرك به. أما نحن فغالباً ما كانت تقلّنا سيارة للانضمام إلى جموع المهللين.

وما إن نراه حتى نبدأ بالهتاف والتصفيق بحماس شديد. كان منظره مهيباً وهو على صهوة جواده. إنه مشهد أخاذ يبقى محفوراً في الذهن إلى الأبد، ولا يمكن أن يمّحي أبداً. بعد انتهاء صلاة الجمعة كان الملك يعود إلى القصر في عربة خاصة. في عهده ساد جوّ من الأمن والسلام والوئام، ولم يكن هنالك أي أثر للمشادات والنزاعات والخصومات. كنا نجول البلاد بطولها وعرضها لقضاء الإجازات، من القصور الملكية في فاس، وإفران الواقعة في سفوح الأطلس، إلى الوليدية المطلة على ساحل البحر. أما لعبة الملك المفضّلة فكانت لعبة البتنك وهي لعبة فرنسية شعبية قوامها التباري في قذف كرات معدنية، يمارسها الملك مع سائقه، ومرافق دائم له، بلغ به الوفاء والإخلاص إلى حدّ اللحاق بالملك

إلى منفاه في مدغشقر، وهجر مهنته كمصمم ديكور. بعد انتهاء دوام المدرسة، كنا نذهب أنا وللا مينا لمشاهدة الملك الذي يخوض مباراة التنك لتشجيعه وتحميسه.

كانت للا مينا طفلة مدللة جداً في حياة أبيها. فكان رؤساء العالم قاطبة يخطبون ودها بكميات لا تعد ولا تحصى من الهدايا التي يتم تكديسها في صالات اللعب. ففي عيد الميلاد المجيد فقط تلقت عدداً هائلاً من الألعاب لدرجة أن المربية صادرتها جميعها لتوزعها على الفقراء والمحتاجين.

وقد صممت شركة والت ديزني سيارة أميركية خصيصاً لها، مزينة بصور رسوماتها المتحركة الشهيرة، بالإضافة أيضاً إلى تصميم بيت للألعاب مجهز بأثاث كامل ومطبخ. ولا عجب، إذ إنها كانت محط أنظار المجلات العالمية التي كانت تغطي أخبار الأميرة الصغيرة يوماً بيوم وأولاً بأول. وصورها كانت تملأ صفحاتها وتستقطب اهتمام قرائها.

توفي محمد الخامس فجأة عن عمر يناهز الثانية والخمسين، أثناء عملية جراحية بسيطة كانت تجرى له. ما زلت أذكر بدقة تلك الواقعة، مع أنني كنت آنذاك في الثامنة من عمري. وكيف يمكنني أن أنسى مراسم الحداد الملكية ولوعة الأميرة الصغيرة التي وجدتها يوم وفاته تنتحب باكيةً، وهي تتلوى من الحزن وسط أزهار الحديقة. أفجعني مصابها ومنظرها، اندفعت إليها لأضمها بين ذراعيّ بلهفة وحنان دون أن أجرؤ على التفوّه بأيّ كلمة.

لقد أحببت محمد الخامس لأنه كان عادلاً وطيباً معي، وكلما انتابني شعور بأن أبي سيموت يوماً ما سرت الرجفة في أوصالي وانقبض قلبي. هذه الفجيعة التي حلت مع فقدان الملك أصابتني في الصميم، ألم أكن بمثابة شقيقة للأميرة؟ ألم أشاركها دائماً في أفراحها وأتراحها؟

لا تتوقف مسيرة الحياة عن الدوران، مات الملك، عاش الملك، مات محمد الخامس، فعاش ولده الحسن الثاني. هذا الأمر بدا لي غريباً ومتناقضاً للوهلة الأولى، فلم أستوعب ما يحصل أمام ناظري. إذ كيف يمكن أن يجتمع الحزن والفرح، الموت والحياة، مراسم الحداد والتتويج؟! كنت صغيرة السن، ولست متمرسة بعد في العادات والتقاليد الملكية التي كانت تحفل بأشياء غريبة ومتناقضة. ففي الوقت الذي كان يخيم فيه الحزن على جزء من القصر، ويتشح الجميع باللون الأبيض، لون الحداد، ويسجّى محمد الخامس في نعش في إحدى غرف القصر، كانت تتعالى في غرفة مجاورة أهازيج الابتهاج التي رافقت انتقال السلطة إلى الحسن الثاني الذي أصبح، بوفاة أبيه، الملك الجديد.

أمـا وضعـي أنا فلم يتغـير، ومن الذي يملك الحق في تحديد مصيري إلّا الملـك؟! كان كلّ همّ أمي أن تسـتعيدني، لكنها كانت خائفة من ردود فعل القصر على هذه الخطوة. ربما سـيعتبر هذا عدم تقدير لشخص الملك الحالي، وقلة اكتراث بمشاعر الأميرة التي تمر بظروف مأساوية، وهل سيطاوعها قلبها على حرمانها من رفيقتها التي تشـد أزرها وتسـليها عن همومها؟ أما أبـي فقد كان يتحاشـى أيّ خطوة قد تؤثر على موقعه السـياسي الذي كان يسـير باضطراد من عالٍ إلى أعلى. وهكذا بقيت عدة سـنوات عـلى هذا المنوال حتى تمكنت أخيراً من حسـم الأمور بنفسي، وأعلنـت للملأ رغبتي بالعودة إلى بـيتي الذي هجرته وأنا في الرابعة من عمري.

تربية الأميرة

قبـيل وفاة محمد الخامس وعده ولده الحسن بأن يحسن معاملة للا مينا فيما لو غيّبه الموت، وبالفعل هذا ما حصل، لقد التزم بالعهد الذي قطعه على نفسه، وأحاط شقيقته بالعناية الكاملة، فلم يتغير نمط حياتها عن السـابق، بل استمر كما كان، باسـتثناء بعض التفصيلات الصغيرة، فلم يعد يأتي في الصباح الباكـر لإيقاظنـا، ولا يشـاركنا الفطـور، ولا يحضر معنا بعض الـدروس كدأب أبـيـه. إلّا أنه لم يمتنع قـط عن حضور حفلة نهاية العام الدراسي التي كانت توزع علينا فيها الشـهادات والجوائز، ويتخللها أداء بعـض الرقصـات والأغاني، وإنشـاد بعض القصائد وتلاوة الآيات القرآنيـة، كما كنا نقدم خلالها بعض المسرحيات باللغتين العربـية والفرنسية. حيث يجلس الملك في الصف الأمامي تحيط به جواريه وبعض وزراء البلاط، وعدد من أفراد حاشيته.

هذه المناسـبة كانت مقدسـة بالنسـبة للملك لسـبـبـين، الأول احترامـه لذكرى أبـيـه، والثاني حبه وتعلقه بأخته الصغيرة التي أوصاه بها محمد الخامس خيراً. ولعل مرد ذلك أن الحسن الثاني لم يكن قد رزق بعد بأي مولود، مما دفعه إلى إغداق كل عاطفة أبويّة لديه عليّ وعلى للا مينا.

بعد انتهاء الحفلة، كان جلالته يصطحبنا في سيارته إلى القصر الملكي. كنا نرافقه في معظم غدواته، لركـوب الخيل، ولعـب الغولف، وكرة المضرب، والرحلات إلى خارج البـلاد لقضاء الإجازات. كنا مثل ظله ومن أشـد المتحمسات له والمشـجعات أثناء المباريات الرياضية. لم نكن، للا مينا وأنا، نحفل بـأي رسـميّات أو بروتوكـول، كنا في الثامنـة من عمرنا ننضح بالشـقاوة ونلهث وراء المرح واللهو،

والضحك، والعبث.

كما كنا في الماضي، تابعنا حياتنا على نفس المنوال: نستيقظ في السادسة والنصف صباحاً، نغتسل، نرتدي ثيابنا، نوضّب أسرّتنا، نرتب غرفنا ونلمّع أحذيتنا. تداهمنا المربية على حين غفلة لتتأكد بنفسها من أننا قمنا بواجباتنا على خير ما يرام. أساتذتنا لا نظير لهم في كل المملكة، إنهم الأكثر كفاءة ومهارة. كان من بينهم وزراء في الحكومة. عندما أصبحنا في الصف السادس انتقلنا من مدرسة ڤيلا ياسمينة إلى أخرى تقع في حرم القصر الملكي. كل صباح تقلنا السيارة بمواكبة أمنية وحراسة مشددة. لاحقاً، انضم إلينا ستّ طالبات جديدات، تم اختيارهن من بين مجموعة من الطلبة المتفوقين من كل أنحاء المملكة. أما المواد فكانت تدرس باللغة العربية والفرنسية وفيما بعد بالإنكليزية، وتشمل التاريخ، والقواعد والأدب والرياضيات والدين، فمنذ عهد محمد الخامس اتبع عُرْفٌ يقضي بتعليم الأميرات حتى مرحلة البكالوريا، ومن بين اللواتي لمعن واشتهرن بحدة الذكاء الأميرة عائشة شقيقة الملك، ما دفعه إلى تعيينها سفيرة للمغرب في لندن وروما.

كنت تلميذة متمردة، طائشة وفوضوية، أعشق تدبير المقالب لأساتذتي، وكان هذا المسلك يؤثر سلباً على علاماتي، وعلى سجل الملاحظات الذي كان يحفل بكل التنويهات والتوبيخات. في إحدى المرات، وقع اختياري على أستاذ الدين الذي تتلمذ على يديه أيضاً الحسن الثاني. كان عجوزاً، يحيط نفسه بهالة من العظمة، ويفرض علينا، في كل مرة يدخل فيها الصف، أن نهرع لتقبيل يده احتراماً له. لقد أوكل إليّ مهمة سحب عباءته عن كتفيه وتعليقها على مشجب موجود في آخر القاعة ما إن أراه يطل من الباب.

كنت أحب اللغة العربية الفصحى، وكانت هذه المادة من المواد المفضلة لدي، كما أحببت الخط العربي الذي تشبه كتابته لوحة مرسومة. لذلك كنت أستمتع جداً بسماعه وهو يرتل سور القرآن بصوته الرخيم الآسر. هذا الرجل التقي الورع كان يعتقد بالأرواح. كان يؤمن بشدة أن الجن يعيشون بيننا ليلاً نهاراً. أما أنا فكنت لا أؤمن بأي قوة غير طبيعية. أغاظني ثقته وادعاؤه اللذان لا يقبلان أي نقاش. لذا قررت أن أحضّر له مقلباً لا ينساه أبداً. في أحد الأيام اغتنمت فرصة وجوده بالقرب من السبورة لكي أتوارى بلمح البصر خلف أحد الملابس المعلقة على المشجب الذي تمكنت من رفعه وبدأت أتقدم به باتجاه الأستاذ الذي ما إن رآه حتى أخذ يرتجف مثل ورقة في مهب الريح من الخوف

والهلع، وعندما أصبحت على مقربة شديدة منه راح يـردد آيات قرآنية، هنا فقدت تماسكي وانفجرت بالضحك. وعندما اكتشف أمري، اهتز من الغيظ والغضب، ولم يغفر لي فعلتي، لقد تجرأت بالتطاول على البطريرك الذي يتبارك به الجميع، بمن فيهم جلالة الملك.

أثارت هذه الحادثة جلبة في البلاط الذي ضجّ بالضحك، حتى الملك لم يتمالك نفسـه من الضحك بملء شـدقيه، مع أنـه كان حريصاً على فعل أي شيء لاسـترضاه هـذا الرجل الذي اتهمني بالكفر والإلحاد.

ولكن لا حياة لمن تنادي، تابعت على هذا المنوال غير عابئة بكل النتائج. لم أترك أي أستاذ ينجو من شري، لقـد حضّرت لكل واحد مقلباً يليق بمقامـه. وفي كل مرة كانت المديرة تهرع مقطوعة الأنفاس لتشـكوني إلى جلالة الملك. حتى إن دفتر علاماتي الأسـبوعي كان يئن من كـثرة الملاحظات اللاذعة: طالبة فوضوية، مهرجة، ثرثارة ومشاغبة...

كان لزامـاً عـليّ تقديم دفتر العلامات إلى الملك بنفسي بـينما هو يتناول وجبة الطعام. بعدما أسـلمه الدفـتر أقف جانبـاً وأنا أرتجف من الفزع والخوف. ترى أي عقاب سـينزله بـي عندما يقرأ فحواه. لا أجرؤ على التفوه بأي كلمة أو القيام بأي حركة. كانت تظهر على الملك أمارات الحيرة والاسـتغراب، حتى إنـه في إحدى المرات التفت إلى جواريه قائلاً: غريب، يقولون لي إنها ثرثارة، وحتى الآن لم أنجح أبداً بدفعها إلى التلفظ بكلمة واحدة.

إنفجر الجميع بالقهقهة وراحوا يتغامزون ويتلامزون، إنهم يعرفونني حق المعرفة بخلاف الملك.

جـرت العـادة، بعدما نفرغ من دروسـنا، أن تقلنا السـيارة مباشرة من المدرسـة إلى ملعب الغولف لإلقـاء التحية عـلى الملك. أحياناً كنا نتناول الغداء في القصر الملكي، ولكننـا غالباً ما كنا نعود أدراجنا إلى ڤيـلا ياسـمينة. ما إن نصل حتـى أسرع إلى صالة اللعـب لأغتنم هذا الوقت الضائع الذي نقضيه بانتظـار تجهيـز المائدة، أعزف على البيانو، أقلب ألبوم صور نجوم السـينما، أسـتمع إلى بعض الأغاني والمقطوعـات الموسـيقية، وأغـرق في أحلامي عـلى أنغامها السـاحرة التي تغمرني بموجـة من الدفء اللذيذ.

فجأة، في تمام السـاعة الواحدة، يأتي صوت المربـية ليعكر صفوي وهنائي: هيا إلى الحمام، اغسـلن أيديكـن جيداً، وأسرعن إلى الطعام! يا للهجتها الكريهة والمتسـلطة، أتمنى لـو أنها تغير معزوفتها التي

بتنا نحفظها ظهراً عن قلب ولو لمرة واحدة، إنها حقاً امرأة لا تطاق.

ليت إزعاجها توقّف عند هذا الحد، بل تعدّاه للأسف إلى داخل غرفة الطعام حيث الكارثة الكبرى. إنها تجبرنا على التحدث بالألمانية التي أكرهها لأنها لغتها. ولكن لا مناص من ذلك أثناء تناول الطعام، فهذا أمر محسوم وغير قابل للنقاش، لأن قانون ريفل: نفذ ولا تعترض.

أحب الأطباق المغربية: الطاجين، والحريرة، والحلويات المغمسة بالعسل. أما تلك التي تقدم لنا هنا فأكرهها، إنها خالية من أي مذاق وطعم لأنها مطهوة، على حد قولهم، بطريقة صحية. لكنها غالباً ما كانت تثير رغبتي بالتقيؤ. كانت الملكة الأم ولَلا بهية على علم تام بهذا «العدوان الغذائي» الذي نتعرض له يومياً، لذلك كانتا تهبّان لنجدتنا من حين لآخر، فترسلان لنا بعض الأطباق الشهية، ولكن ما الجدوى من ذلك وريفل تقطع الطريق على أي معونة أو إمداد من شأنه أن يخفف قليلاً من هذا الطوق والحصار؟ إنها امرأة سادية ومتسلطة تتلذذ بقهرنا وتعذيبنا، لا سيما عندما تأمر بتقديم هذه الأطباق لنا ثمّ، وقبل أن يتسنى لنا الوقت لمد يدنا إليها، تأمر برفعها وهي تحدجنا بنظرات التشفي والانتقام، لقد حققت مبتغاها، ونجحت بالنيل منّا.

قبل أن نجتر مرارتنا ونجر أذيال خيبتنا، تمتلىء طاولة الطعام بسلطة اللحم، والسبانخ، والسمك المسلوق، والبطاطا المطهوة على البخار. لا مفر من ابتلاع ما تقدمه لنا وإلّا أنزلت بنا أشد العقاب، وهذا ما لا طاقة لنا به.

وأخيراً ينتهي مسلسل العذاب، ويأتي الفرج. وبعد قيلولة قصيرة نعود إلى مدرستنا ونمكث فيها حتى الساعة السادسة والنصف، بعدها نتجه فوراً إلى القصر الملكي لرؤية الملك وإلقاء التحية عليه. وإذا ما كان الأمر متعذراً لانشغاله بأحد الاجتماعات الوزارية، نحوّل وجهتنا لزيارة «أم سيدي»، الملكة الأم، التي كانت على علم تام بما يدور من حرب خفية بيننا وبين ريفل، وتعلم أننا قد بدأنا نتململ من سطوتها، ونضيق ذرعاً بقبضتها الحديدية. والملكة الأم لا شك كانت ترثي لحالنا، لذلك كانت دائماً تحاول، بكل ما أوتيت من حنكة وذكاء، تحويل أنظار المربية عنّا من حين لآخر، كي يتسنى لنا التنعم بقليل من الحرية. ولكن لسوء الحظ، سرعان ما نجبر على العودة إلى ڤيلا ياسمينة لتناول طعام العشاء الذي يقدم لنا في تمام الساعة الثامنة. ولا يحق لنا مشاهدة التلفاز أو القراءة، بل علينا أن نخلد فوراً إلى فراشنا. فقط في فترة الامتحانات، وبشكل استثنائي، يسمح لنا بالدرس حتى ساعة

متأخرة من الليل.

ما إن ينطفىء ضوء الغرفة، حتى أتحسس بيدي الراديو الصغير الذي أخبئه تحت وسادتي أستمع منه خلسة إلى برامج المنوعات الليلية. إنه يؤنسني بعض الشيء، ويزيل ظلال الوحشة والكآبة التي تلف بها العتمة روحي عندما أتذكر أمي التي يزداد شوقي وحنيني إليها، يوماً بعد يوم. لذلك، لطالما كان نومي قليلاً، وبكائي كثيراً. ومع هذا كنت أحب الليل، لأنني أخلو فيه إلى نفسي، بعيداً عن أعين الآخرين، وأستمتع فيه ببريق النجوم التي تزين وجه السماء. هذا المشهد الخلاب كان دوماً يبهرني ويسحرني. لذلك كانت سعادتي لا توصف عندما حصلت على سرير بالقرب من النافذة الكبيرة التي تطل على البهو.

كنت أعيش في تخبط وحيرة، ومشاعري المتضاربة كانت تنغص حياتي. إذ كيف يمكنني الادعاء أنني حزينة وتعيسة، وللا مينا تحبني وتعاملني كأخت لها. كل أهل القصر قاطبة: الملك، الملكة الأم، للا بهية، الجواري، جميعهم كانوا يكنون لي العاطفة. كنت أعرف هذا مع أنهم نادراً ما أظهروه لي. كل ما يمكن أن يحلم به طفل أو يرغب به ويشتهيه كان موجوداً بين يدي ورهن إشارتي، وطوع بناني. لقد واساني هذا بعض الشيء ولكنه لم ينسني أهلي الذين ما برح شوقي للعودة إلى كنفهم يؤلمني ويكويني.

أي أخوّة هذه التي تجمعني بمريم ورؤوف؟ لقد تبلغت من القصر نبأ ولادتهما! وهل تتدفق العاطفة وتتوثق أواصرها وعراها بمعرفة الاسم؟ إنني لا أعرف أي شيء عنهما، ماذا يحبان؟ ماذا يكرهان؟ من هم أصدقاؤهما؟ ما هي ألعابهما المفضلة؟

الأخوّة عاطفة وإحساس وليست فقط علماً وخبراً!

نادراً ما كانت المربية تسمح لي بزيارة أهلي. وإذا ما حصل هذا الحدث الفريد المغاير للواقع والمعقول، فإنه لا يتعدى بضع ساعات ليس إلّا. هذا القليل كان بالنسبة لي أشد إيلاماً من الحرمان. كنت أعود من هناك خائرة القوى، محطمة العزيمة، أحمل جرحي النازف. لا أجرؤ على البكاء كي لا تفضحني عبرتي. أكتم لوعتي ومصابي بصعوبة بالغة. كان يلزمني عدة أيام قبل أن أتمكن من طرد موجة الكآبة التي كانت تجتاحني، وأستعيد شهيتي المفقودة للأكل، والشراب والنوم.

بأعجوبة، سُمح لي مرة أو اثنتين بقضاء إجازتي مع أهلي. ولكن سرعان ما كانوا يرسلون في طلبي

بحجة أن للا مينا مشتاقة لي، ولا تتحمل غيابي.

أحياناً كنت ألتقي بأبي صدفة في القصر الملكي. في كل مرة كان يبدو مضطرباً ويتعجل الانسحاب. لا يريد إطالة الحديث معي لسبب أجهله. ربما كانت تلك عقدة الذنب!

لولا نظراته المعبرة، ولمسة يده الحانية وهو يصافحني لخلت أنه لم يعد يحبني!

من المؤكد أن رؤيتي لم تكن تسعده، لأنها كانت تحرك أحزانه وتذكره بأنه لم يكن هو من يحضنني ويربيني!

كنت أسمع اسمه يتردد دائماً على لسان من حولي، إلّا أنني لم أدرك ماهية دوره السياسي إلّا عندما كبرت. كنت أعيش في عزلة تامة عن كل ما يدور حولي من أحداث في العالم. ولو لا زيادة الإجراءات الأمنية المتشددة من حولي، لما تنبهت إلى الأبعاد الخطيرة لقضية بن بركة[٦]، ولما علمت أن هنالك أزمة سياسية تشغل كافة الأوساط الإعلامية، وأن حياة أبي ومستقبله السياسي في خطر.

أصبت بالهلع، ووقعت فريسة للهواجس والقلق. ما إن أرى هاتفاً حتى أهب للاتصال بأمي، أريد أن أطمئن أن كل أمورهم تسير على أفضل ما يرام. وصل بي خوفي على عائلتي أن أتسلل ليلاً من غرفتي وأتدلى من النافذة كي أذهب إلى مكتب المشرف العام على الفيلّا السيد برينگار، الذي يقع بالقرب من المدخل الرئيسي، لأتصل من الهاتف الموجود هناك.

أطلب الرقم بأصابع مرتجفة، وأخيراً بعد طول انتظار يأتيني صوت أمي الهادىء ليوقظني من غفلتي، إنها تبدو طبيعية جداً، وفي أبهى حالاتها، وتلك الأصوات والضحكات التي تتناهى إليّ من حولها تشير أن الكل يستمتعون بوقتهم ويعيشون حياتهم باستثنائي أنا!

هل خطر ببالهم قط أنني قلقة بشأنهم، وأنني أحب أبي ولا أتحمل أن يصيبه أي مكروه؟

إنني أستحق هذه الصفعة القوية، ولا ألوم إلّا نفسي. إنهم لا يبالون بما يتنازعني من مشاعر، يجب أن أعترف أنني لم أعد أنتمي إلى عالمهم، وأن كل ما أفعله هو أنني أتطفل على شؤونهم الخاصة. ماذا أقول لأمي؟ لا أعرف! إن الصدمة تخرسني! هل أعتذر لأنني سمحت لنفسي بإزعاجهم وتعكير صفوهم وهنائهم؟ هل أنا حقاً ابنتهم؟ أم أنا مجرد فتاة مجهولة الهوية غريبة؟ لست سوى مستهترة وحمقاء لأجتاز الحديقة بمفردي ليلاً وأنا أحول أنظار الحراس عني. لماذا كل هذا العناء وهذه المخاطرة، وهذا الرعب الذي يسكنني من أن تكتشف المربية القاسية ريفل أمري؟ لماذا كل هذه

المبالغة التي لم يكن لها من مبرّر؟ وكل هذه الضجة التي افتعلتها من أجل لا شيء؟ فلتعذرني عائلة أوفقير، لقد كنت عاطفية أكثر من اللزوم.

كان برنامج عطلة نهاية الأسبوع موزعاً على النحو التالي:

ـ نهار السبت مخصص لتعلم اللغة الألمانية. نبدأ من الصباح ونستمر حتى الظهر. تستخدم ريفل المربية لتعليمنا كل وسائل الإيضاح من صفع ومعاقبة، وصياح وتوبيخ، وتأنيب...

ـ عند الظهر تذهب للا مينا التي تعشق ركوب الخيل لممارسة هوايتها المفضلة برفقة مدرّبها الذي يكون بانتظارها بالقرب من الإسطبل. أما أنا فأتوجه إلى صالة اللعب حيث يمكنني أن أرسم، وأستمع إلى الموسيقى، وأعزف على الأكورديون، وأحياناً ألعب «بيت بيوت» مع دميتي، كما تفعل كل فتيات الأرض.

ـ نشاهد بعض الأفلام الأثيرة لدينا، أو نرتدي الملابس التنكرية الملائمة للأدوار المسرحية التي نكون قد اتفقنا مسبقاً على تأديتها، مثل الفرسان الثلاثة، أنشودة السعادة، الكرمليت، روملوس وريموس... كنت أقوم شخصياً باختيار المسرحية وتوزيع الأدوار والسيناريو والحوار.

ـ بعد تناول وجبة الغداء تصر ريفل على اصطحابنا إلى الريف لاستنشاق «كاسة هواء» على حد تعبيرها. تقودنا السيارة إلى مكان يبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً عن القصر الملكي وهناك ترغمنا ريفل على العودة سيراً على الأقدام إلى مقر إقامتنا، وكان يستغرق ذلك منّا ساعتين أو ثلاثاً. كانت سيارات الحراسة تحذو حذونا ببطء، حتى تتأكد أننا وصلنا إلى وجهتنا سالمين.

عندما كانت ريفل تغط في النوم ـ ونحن في طريقنا إلى الريف ـ كنت أرسل إشارة خفية للسائق اللطيف الذي كان على الفور يفهم قصدي، فيدير زر الراديو فتنبعث منه الأغاني الرائعة التي تطرب الأذن لسماعها، وأين منها تلك الأناشيد الشعبية الألمانية التي كانت تفرض علينا ريفل إنشادها وسماعها بقوة السيف.

كنت أنتظر مساء السبت بفارغ الصبر لأنه يسمح لنا بمشاهدة الأفلام السينمائية القديمة التي كنت مولعة بها. أما تلك الجديدة التي كانت ما تزال تعرض في دور السينما، فكنّا نشاهدها في القصر الملكي، بعيداً عن ريفل ورقابتها المتشددة، وعن مقص رقابتها الذي يقتطع المشاهد التي تجدها غير مناسبة.

ما أجمل سهرات السبت التي كنا نقضيها برفقة الملك الحسن الثاني وجواريه خلال شهر رمضان

المبارك في القصر الملكي. كنا نشاهد الأفلام السينمائية طوال الليل ونحن نتسلى بتذوق أشهى الأطباق والمآكل التي يسيل لها اللعاب. كان الطباخون يتفننون في إعدادها، ويضعون فيها كل مهاراتهم إرضاءً لجلالة الملك وجواريه. لا يأوي الجميع إلى أسرتهم إلا بعد أذان الفجر. وهكذا يستقبل أهل القصر معظم ساعات نهار الأحد وهم نيام.

عندما كان محمد الخامس على قيد الحياة، تلقت للا مينا فيلاً صغيراً، هدية من حكيم الهند نهرو. تمّ وضعه في حديقة قصر دار السلام الرائعة، والقصر يقع في قلب الطبيعة الخلابة على طريق الرباط. ولكثرة ما استحوذ على إعجابنا الشديد كنا نذهب يومياً لزيارته لنقدم له الخبز الذي يلتهمه بخفة ونعومة. كان حيواناً لطيفاً وأليفاً، لم نخف أبداً من الركوب فوق ظهره بمساعدة السائس الهندي الذي أرسل خصيصاً للإشراف عليه. ولكن للأسف عندما أراد الرجوع إلى بلاده حلّ محلّه سائس مغربي لم يحسن معاملة الفيل الصغير، مما أثار نقمته ووحشيته. وبعدما استحالت السيطرة مجدداً عليه، أمروا بقتله بدون هوادة لئلا تطال عدوانيته أحداً منا.

هذه النهاية المأساوية لهذا الكائن الصغير أصابتنا في الصميم أنا وللا مينا، ولم نتخطَّ هذه الصدمة المؤلمة إلّا بعد وقت طويل. إذ كنا ندرك أنه لم يكن البادىء بالشر، إنما رد على عدوانية السائس وهمجيته بمثلها.

كنا لا نملّ أبداً من رفقة الحيوانات وملاعبتها. كم كنا نعشق الذهاب إلى البحيرة عند الظهيرة لإلقاء الخبز للبط الذي يرتع بفرح وحبور في الماء.

وكم ابتهجنا عندما سمح لنا السائس باصطحاب الناقة البيضاء زازيت في الرحلة التي قمنا بها لزيارة جنوب المغرب برفقة «مولاي» أحمد العلوي، ابن عم الملك. كان على اطلاع وإلمام بالتراث المغربي، لذلك أوكل إليه الملك مهمة تثقيفنا وتعريفنا بحضارة بلادنا الغنية والعريقة. جبنا بمعيته معظم المناطق والمدن والقرى. لم نترك جبلاً، أو صحراء، أو برجاً، أو زاوية صغيرة في المغرب تعتب علينا. قبل كل رحلة ميدانية كان يعطينا دروساً نظرية تتناول تاريخ وجغرافية المكان الذي نعتزم زيارته. إنني مدينة له بكل ما أعرفه، سيّما المنطقة التي تحدّر منها أجدادي «الشرفاء»، كما يناديهم الناس هناك، لأنهم يعودون بنسبهم إلى الرسول.

لقد أقام هؤلاء الرجال النبلاء على شرفنا احتفالاً رائعاً قدموا خلاله رقصات فولكلورية على

ظهـور الجـمال. عندما وصلنا إلى ديارهـم في الصحراء المغربـية اسـتقبلونا بحفاوة وتكريـم لا نظير لهما، ولعلهم قدموني على للا مينا.

كنت أحياناً أقبل دعوة للا مينا لركوب الخيل. بعد ظهر نهار السبت نمضي معاً إلى الإسطبل حيث جوادهـا، فيـما أختار أنا الناقـة زازيت، إلّا إذا كانت للا مينا قد أبدت رغبتها بـإجراء سـباق معي على ظهور الخيل.

كنت أحياناً أجد متعة فائقة في ركوب الخيل، إذ كان يمنحني شعوراً لا يضاهى بالتحرر والانعتاق: أنطلق بخفة متناهية مع الريح وأحلق مثل طائر يسبح في الفضاء.

معظـم العطـل والإجازات كنا نقضيها برفقة مولاي أحمد، وكان يحق لنا الإقامة في القصور الملكية الموجودة في المدن التي يقع عليها اختيارنا، مثل طنجة، أو مراكش في فصل الربيع، أو فاس التي يعتبر القـصر الملكي فيها مـن أجمل قصور المغرب على الإطلاق، خصوصاً بعدما أجرى عليه الحسـن الثاني بعض أعمال الترميم.

كنـت أحـبّ الذهاب إلى مدينـة إفران التي تقع في أعالي جبال الأطلس، وتشـبه إلى حد بعيد مدينة سـا؟ والسويسرية. إنها تكاد تكون نسخة طبق الأصل عنها، ببيـوتها القرميدية الحمراء التي تكسوها الثلـوج. كنـا نقيم هناك في الفيلا التي كانت مقراً لمحمد الخامس عندما كان ولياً للعهد، والتي تـتألّف من ستة طوابق. كم كان يحلو لنا التزلج أنا وللا مينا هناك على سفوح الجبال.

يقع القصر الملكي في مدينة إفران فوق قمة مرتفعة، تحيط به غابة تـزهو بأشجار الصنوبر الباسقة، إنه تحفة فنية لا مثيل لها، وكأنه انتزع من إحدى الأسـاطيـر التي لا نقرأ عنها إلّا في القصص الخيالية. كان الملك يهتم اهتماماً بالغاً بقصوره التي أشبعها صيانة وترميماً وتحديثاً وتجهيزاً، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بالتقصير والإهمال في هذا المجال.

في تموز/ يوليـو ١٩٦٩، وأثناء الاحتفال بالميلاد الأربعين للملك، جرى تقديم استعراض راقص لسـمفونية بحـيرة البجع الشـهيرة على صفحـات مياه بحيرة إفران الشـهيرة. كان عرضاً فنيـاً رائعاً لا يمكن إلّا أن ينحفر في الذاكرة. كان أروع من قصص ألف ليلة وليلة.

عندما زار جمال عبد الناصر مدينة إفران، أقام له الملك احتفالاً ضخماً قُدّم خلاله اسـتعراض فنيّ، رقصت فيه الخيول حول فوهة البركان القديم الذي يربض في وسط غابة ميشلفن القريبة من إفران.

كيف أنسى تلك الغزوات الليلية في إفران، عندما كنا نذهب بالطائرة المروحية أو بالجيب لاصطياد الفهود، والخنازير البرية. كنت غالباً أجلس في المقعد الأمامي بالقرب من الملك الذي يتولى بنفسه القيادة. وكم كنت أشعر بالرهبة والإثارة والروعة. لقد كانت لحظات تاريخية لا تتكرر.

الحياة في القصر

كان القصر ميداننا، أرض لعبنا المفضل. لم نتوقف أبداً عن الجري في ممراته، واكتشاف دهاليزه، وأقبيته، والتسلل إلى كل مكان يمكننا الدخول إليه: عند الملك... إلى خدور الحريم، إلى المطبخ. كانت لالا مينا تتسلل بقامتها الصغيرة وتفتح أحد الأبواب، وأنا التي كنت محتالة صغيرة مثلها، أرافقها في مغامراتها. ما إن يلمحوننا حتى ينادوننا... كانوا يعانقوننا... يلاعبوننا ويلاطفوننا... يقدمون لنا الأطعمة والحلوى... كانوا يشبعون لنا كل رغباتنا.

كان الدخول إلى الميدان الملكي يتم عبر ساحة القصر التي هي كناية عن طريق يربط بين جهتين. في داخل هذا الحرم مسجد، إلى جانبه مقام صغير، وفيه حي العبيد المتأهلين، ومبنى التشريفات، وآخر للحرس الملكي، وأبعد منه قليلاً كان يقوم المرآب، وهو أحد الأمكنة التي كانت مفضلة لديّ حيث كان يمكننا استعراض مجموعة سيارات الملك الرائعة، ومن هناك يفتح باب ضخم على القصر الذي كان كبيراً بحجم مدينة، بما يشمل من عيادة، وملعب غولف، وحمامات، ومدرسة، وأسواق، وملاعب رياضة، وحديقة حيوانات واسعة، كانت الأميرات يترددن إليها دائماً.

كانت المباني السكنية مقسمة إلى عدة واجهات ضخمة، مزينة ببذخ، تربطها ببعضها ممرات داخلية طويلة لا تنتهي: القصر الخاص بالحي الثاني الذي كان الملك ينتقل فيه من زاوية إلى أخرى تبعاً لرغباته، ووفقاً لمزاجه الخاص بالجواري، حيث كانت كل واحدة منهن تملك شقة خاصة بها، كتينك اللتين تقيم فيهما أم سيدي ولالا بهية، وقد بناهما الملك المتوفى.

الدهليز الذي كان يربط ما بين المبنيين الأخيرين يتجاوز الكيلومترين طولاً. كنا نجتازه ركضاً كل يوم، وكان فيه أشياء كثيرة تستحق المشاهدة وتدعو إلى اللعب. كان قصرا جلالته مجهزين بقاعة سينما، وحديقة صيفية، وأخرى شتوية، وبصالونات إيطالية مغطّاة بلوحات جدارية نادرة، وتطل نوافذها على فناء خارجي تبلغ مساحته ألف متر مربع، وعلى مسبح كان يمتد على كل المساحة. للا

بهيـة التـي كانوا ينادونها مامايا، كانت تنام على سرير ضخم مقبب مزدان بسـتائر حريرية بـيضاء. وفي خلواتهـا، كانت غالباً ترتـدي معطفاً حريرياً وتنتعل خفاً مزيناً بالريـش والخيوط الذهبـية، كان يظهر جمـال قدميهـا الصغيرتين. إنهـا كواحدة من نجوم هوليـود. كانت تقضي سـاعات في حمامها الرخامي الأبـيض، غارقة في مستحضرات التجميل.

كنـت أعشـق مراقبتها وهي تطلي وجهها بالنيڤيا، ثم تعود وتمسـحه مطـولاً بقطنة ناعمة مصنوعة لهـذه الغايـة. كانت تردد لي دائماً بصوتها المثير: يا ابنتـي، حتى الكريم الأغلى ثمناً، ليس بجودة وفعالية هذا الكريم. إذا حكمنا عليه من خلال بشرتها المخملية الرائعة، والتي كانت أشد بـياضاً من الحليب، كنت لا أملك إلّا أن أصدق كلامها.

كنا أنا وللا مينا نبقى سـاعات طويلة في صالونها، ممددتين أرضاً نقلب ألبوم صور عرسـها، الذي كان يحكـي تاريخ العائلة الملكية: مثل ولادة الأمـيرات، الذهاب إلى المنفى والرجوع منه، زواج الملك وأخواته، والحفلات وأعياد الميلاد.

لم تكـن مامايـا أمومية مع لـلا مينا ولم تكن من النوع الذي يظهر عاطفتـه. بل كانت تكتم عاطفتها وأمومتهـا تجاه ابنتها. كانت أم سـيدي تبدي للأميرة الصغيرة مـن الحرارة والعاطفة أكثر منها، مع أنها كانـت تعـرف كيف تكـون صارمة في نفس الوقـت. كنت أحب كثـيراً الملكة الأم، فقـد كنت معجبة بوقارها، وشموخها، وشخصيتها المميزة المتماسكة.

كنـا غالبـاً ما نذهـب في جولة إلى المطابخ لالتهام كل ما كانت تمنعنا عنه ريفل في الڤيلا، أو كنا نعدو في الممـرات الطويلـة التي كانت تؤدي إلى حيث يقيم الجواري والعبـيد. هؤلاء الذين يسـمون عبـيداً يعيشـون في قـصر الربـاط منذ عدة أجيـال، وهم يتحدرون مـن عبـيد زنوج تم شراؤهم من أسـواق النخاسـة قديـماً. ومـا زال أحفادهـم يعملون في خدمـة الملك، موزعـين في كل القصـور الملكية. إنهم تابعـون للعائلـة المالكـة، ولكنهم أحرار في أن يتزوجـوا من الخارج وأن يغادروا القـصر فيما لو رغبوا ذلك. على أرض الواقع، نادراً ما حصل هذا. كانت العادات تقضي أنه إبان إحياء حفل زواج الأمراء في القـصر، يصـار أيضاً في اليوم عينه إلى عقد قران أربعين زوجاً مـن العبـيد ينتقلون بعدها للعيش في حرم القصر، في بـيوت صغيرة تم بناؤها خصيصاً لهم. كان أبناؤهـم عبـيداً أيضاً. وحدهم العبـيد هم المكلفون بمهمة العقاب الجسـدي والجلد، ولديهم وظيفة محددة. ما تبقى منهم كان يعمل في الخدمة،

وكان يتم تبديلهم باستمرار، إنهم أجراء صغار يصلحون للسخرة والاستغلال. كان بعضهم تابعاً لزوجة الملك، وآخرون للجواري، وبعض آخر للملك شخصياً.

أما النساء فقد كنّ يقمن بأعمال المطابخ، والتنظيف، والحضانة، والخياطة، وكيّ الملابس، أو حتى كوصيفات من الدرجة الثالثة. كان الرجال يهتمون بالمرآب، ويخدمون على الطاولة، أو يقبعون مثل تماثيل حجرية في كل زاوية من زوايا القصر، أو الكوى التي تزين الممرات التي لا تحصى ولا تنتهي.

أما العازبات والأرامل فيقمن داخل القصر، في حي خاص حيث تعيش كلّ واحدة منهن منفردة، أو مع رفيقة لها، في مقصورات تحجبها الستائر تمتد على جانبي باحة لا سقف لها.

أما الأرامل فكن يطبخن على موقد غازي ألذ الأطباق وأشهاها في القصر. وبالرغم من فقر إمكانياتهن، كانت مخادعهن تلتمع نظافة وترتيباً.

طوال النهار كان الإماء يستمعن إلى الموسيقى الشرقية المنبعثة على مداها من أجهزة الراديو، كانت دائماً موضوعة على نفس المحطّة، وكانت توحي بأنها ستيريو. ما إن نصل إليهن حتى تداعب أنوفنا الروائح اللذيذة المنبعثة من مخادعهن. ومن أجل لفت أنظارنا، كنّ ينادينا وهن يلعبن على وتر شهيتنا الطيبة الحساس:

ـ للا مينا، رفيقة للا، تعاليا... لقد حضرت الطاجين... والكريب اللذيذ.

البعض منهن كن يصنعن المربيات التي كان إعدادها يحتاج ساعات على نار الموقد الغازي. ومرة سرقت منهن وعاءً فيه مربّى تقاسمته أنا وللا مينا سراً. بعدها قهقهنا وضحكنا كثيراً.

أمام أبواب الجواري كانت تتكدس جبال من الأحذية النسائية، ففي القصر كن يتجوّلن حافيات الأقدام، فوق السجاد وداخل المخادع. كنّ يخلعن أحذيتهن قبل السير ثم يعدن لاسترجاعها بعد ذلك. هذا المنظر كان دائماً يبدو لي فكاهياً ويثير لدي رغبة بالضحك. ما إن وصلت إلى القصر حتى تبناني حريم محمد الخامس طيلة حياته.

شاهدت بنفسي وصول حريم الحسن الثاني، لقد كنت أعرف جيداً كل نسائه، فقد كنت مقبولة بينهن في خلواتهن، وأشاركهن أسرارهن.

كان نساء محمد الخامس يعشن في مكان ساحر خلاب، كان الملك الحسن قد أمر ببنائه خصيصاً لهن، وهو كناية عن قرية صغيرة مؤلفة من بيوت بيضاء محاطة بحدائق قبالة مدرستنا. كان لهن

مسابحهن الخاصة وأسواقهن، وحماماتهن، وعياداتهن، وقاعتهن السينمائية. لقد تابعن عملهن في خدمة الملك الجديد، يوجهن له النصح، يشرن عليه بآرائهن، ويحطنه باهتمامهن. لقد كان لهن دورهن مهما قيل بعكس ذلك.

كانت جواري الحسن الثاني صغيرات السن، تم اختيارهن لجمالهن الأخاذ، وقد تم إحضارهن من كل المناطق في البلاد. أكبرهنّ لم تكن تتعدى السابعة عشرة. كن يصلن في حالة مزرية من الجهل، وعدم الثقة، وضعف الشخصية، وسوء التدبير والتصرف، والجهل بالأصول واللياقات... كانوا يُسكنونهنّ في شقق جواري محمد الخامس القديمة.

مباشرة كانت «القديمات» يتسلمن إدارتهن وتعليمهن وإرشادهن وتوجيههنّ. كنّ يعلّمنهن طريقة الحياة داخل القصر، البرتوكول، العادات، والتقاليد. كنّ يحضّرنهنّ لحياتهن كنساء، لأن الخبرة الجنسية للجارية كانت ضرورية. هنالك أسرار وخبرات محفوظة منذ أجيال يتم تناقلها بين الحريم كابراً عن كابر.

أما أسماؤهن فكانت تستبدل، فاللواتي أسماؤهن فتحية وخديجة هن غالباً من عامة الشعب، وتصبح أسماؤهن نور الصباح، وشمس الضحى وغير ذلك. بعد إجراء عمليات التحول، يتم تزويجهن ثلاثاً ثلاثاً أو أربعاً أربعاً إلى الملك، في قصره في فاس في حفل مهيب وباذخ، حيث لم أكن الأخيرة التي غنت ورقصت. كان الملك سعيداً: كان وريثاً مليئاً بالأمل، ولم تكن بعد الانكسارات السياسية قد بلغت هذه الحدة.

كان الحسن الثاني يضيف الجواري الجديدات إلى جواريه القديمات حتى بداية السبعينيات، حيث أضيفت أربعون جارية إلى الأربعين اللواتي كن من جواري محمد الخامس. كنّ يتبعنه إلى كل مكان، إلى القصر، إلى الحمام، إلى المغطس المغربي، عند الحلاق، إلى دروس التمارين الرياضية، كن يتحلقن في دوائر ومجموعات، وهن: القديمات، المتآمرات، المحرضات، المقامرات، القذرات... هدفهن كان لفت انتباهه، أن يستأثرن باهتمامه، ويصبحن المفضلات لديه. وعندما يوفّقن إلى هذا، كان ذلك قمة المجد لديهن. ويستمر النصر لهن حتى تعود عصبة أخرى وتتمكن من استقطاب اهتمام الملك محققةً الغلبة عليهن والفوز بالملك، فيكون بهذا مصير المجموعة الأولى الإهمال والنبذ وكأن موضتها ولّت وتثير الملل لديه.

من بين الجواري، كانت الأكثر تقديراً واعتباراً هي التي نجحت بالحصول على لقب زوجة عقيم، إذ لم يكنْ لديهن الحق في إنجاب الأولاد، وذلك من حيث المبدأ. وحدها زوجة الملك هي التي تمنحه ولي العهد. تأتي بعدهن بالأهمية نساء الداخل، ووظيفتهن إدارة القصر وتخليد التقاليد التي تكرس صورة الملك المحترم.

كان لمحمد الخامس جارية، وكانت، أيام العيد، تلبسه لباس الأبهة، جلباباً أبيض وسروالاً من نفس اللون. بعد وفاته، تابعت مهامها مع الحسن الثاني. هذا الاحتفال الخاص كان يقام في قاعة من قاعات القصر، مؤلفة من بهو من الرخام الأبيض تتوسطه نافورة مياه. كان يزين المكان ثلاثة مخادع، تفصلها الستائر وتغطي أرضها أحجار الفسيفساء بألوانها الزاهية. وكانت مفروشة بالسجاد الحريري، والأرائك المصنوعة من المخمل المذهب. هذه المخادع كانت معزولة عن الفناء بستائر من التفته والمخمل. هذا التصميم الهندسي كان متّبعاً في قصر الرباط، كما في باقي القصور.

الأيام التي كان يتوجه فيها إلى المسجد، كان الحسن الثاني يدخل إلى إحدى هذه الغرف، تتبعه الجارية التي تحمل لباسه، ومن ترغب من نسائه كانت تستطيع مرافقته بعدما يرتدي لباسه. أما الجارية الموكلة بالبخور، فكانت تشعل عيدان البخور التي تملأ المكان بروائحها العطرة. وكانت واحدة أخرى تأتي بصندوق مرصّع موضوع فوق أريكة مخملية بلون المرمر، اللون المعتمد في القصر، تصطف في داخله قوارير صغيرة ممتلئة بالزيوت العطرية المركزة مثل: المسك، العنبر، الياسمين، والصندل الذي يؤتى به من مكة. كان الملك يضع بعض النقاط من القارورة التي وقع الاختيار عليها، على قطنة صغيرة يمسح بها خلف أذنيه، ثم يرمي بها أرضاً. وهنا كانت لحظة التهافت والتسابق بين الجواري. كانت كل واحدة تنقضّ محاولة بكل جهدها أن تلتقط القطنة، ثم يمررنها من يد إلى يد كي يحظين بهذا العطر الثمين المزوج بعبق سيدهنّ ومولاهنّ. كنت أحاول دائماً أن أكون أول من يفوز بها كي أتنعم قبلهنّ بعطره.

عندما كان الملك يعود من المسجد، كانت أصوات العبيد تعلن قدومه بطريقة إيقاعية ومنغمة: بارك الله في عمر سيدي.

ثم يبدأ الاحتفال المسمى «العمارة» الذي تنشد فيه الأغاني يرافقها القرع على الطبول. كان ممنوعاً الاقتراب من الملك قبل أن يفرغ من غسل يديه. إذا صادف رجوعه من المسجد في يوم الوقفة أو العيد،

كان الحسن الثاني يجلس ممدداً فوق كنبة طويلة تشبه العرش أمام القبة. في هذا اليوم، كل الجواري المعاقبات أو المطلقات كان يحق لهن طلب الصفح وهن يرتمين على قدميه. كل الأمسيات، قبل العشاء، كانت جارية الحمام تقوم بغسل الملك وفق طقس خاص ومحدد بالعطور والصابون، وجارية أخرى كانت مكلفة بإشعال عود الصندل الذي كان يستخدم في كل المناسبات والأعياد، وفي كل الاحتفالات الدينية، وفي كل مأتم وحداد.

كان يؤتى به من مكة ويحرق باستمرار في وعاء من الفضة المنقوشة والمرصعة، ممتلىء بقطع الفحم الخشبي المتوهجة.

كانت الجارية تقدم للملك قطعاً صغيرة من عود الصندل ليرميها بنفسه في الوعاء المتأجج ثم كانوا يدورون به في أنحاء المكان لتنقيته. كانت الرائحة تنبعث من كل أرجاء القصر. وكانوا يضعون أيضاً بودرة الصندل في الشفاطات، وأعواد الصندل المشتعل في المبخرة التي يطوف بها العبيد، وحتى في السيارات. وهكذا كانت تلك الرائحة تعمّ القصر وساكنيه.

نعيمة، الجارية، همزة الوصل مع الخارج، كانت شابة تتمتع بالحيوية، وهي الوحيدة من بين كل النساء التي لها اتصال مع الناس في الخارج، لا سيما الرجال منهم، الذين يعملون في الحديقة، أو الديكور، والحرس. كانت مسؤولة أيضاً عن الصحف التي تحملها كل يوم إلى الملك.

في نهاية بعد الظهر، كان هنالك طقس قد وضعه الحسن الثاني بنفسه، ويقضي بتمسيد ودعك يديه وفروة رأسه في قبّة صغيرة يعود تاريخها إلى عهد محمد الخامس. كنا نحضر جميعاً هذه الجلسة. نقعد ببذلاتنا الضيقة عند قدميه، ونروح نعلق على كل ما يجري أمامنا ويثير ضحكنا، بعدها أذهب لتقبيل يده التي كانت ناعمة جداً. أمّا مزينة الشعر، ومقلّمة الأظافر فكانتا فرنسيتين، وكانتا، إلى ذلك، تعلّمان التمارين الرياضية وتعطيان الدروس للجواري في بهو القصر.

كان الملك يبحث دائماً عن آخر وسائل التسلية للترفيه عن نسائه جميعهن، حيث كان بعضهن ما يزلن قاصرات. استحضر من الولايات المتحدة دراجات بعدة مقاعد. الممر الشاسع في قصر فاس ارتفعت فيه ضحكاتنا عدة أسابيع لكثرة ما أثار مرحنا مرأى النساء وهن يحاولن دفع عجلات دراجتهن بأقدامهن، للّحاق بالملك الذي كان في طليعة هذا الصف الطويل.

أثناء فترة الإعداد والتدريب، كانت الجواري تلبس مثل العبيد، قفطاناً من الحرير الأخضر، أو

الرمـادي، أو البنـي، مذهب الأطـراف. كن يرفعن الأكمام إلى الكوع. حـول خصورهن، يلتف قماش آخـر على شـكل مئـزر. عندما يصبحن جاريات رسـمياً يصبح بـإمكانهن اختيار لـون القفطان الذي يردنه.

كان الملـك يتدخـل في أدقّ التفاصيـل الصغـيرة المتعلقـة بلباسـهن. كان يقـرر موديـل قفطـان الاحتفـالات، والألـوان، ونـوع القـماش، والأحزمـة. كان عرضهن رائعـاً وهنّ يتهاديـن في القصر، بملابسـهن المختلفـة الألوان، بما فيها الفاقع والباهت، كن يتحـركن، وينتقلن بكل أناقة ورقّة وخفة، مـع أن ملابسـهن كانـت ثقيلة. عندما كـن يرفعن أكمامهن وأطـراف القفاطين كان يخيـل للناظر أنهن يرقصـن. كانـت التقاليـد تلزمهن بهذا اللبـاس، أي القفطان، داخـل القصر وفي خارجـه على البحر، في ملعـب الغولف والتنـس، في ميدان ركوب الخيل، كن يضعـن أحدث تصاميـم الأزياء الأوروبـية. تستورد الأقمشة من أوروبا وكان الملك هو الذي يختارها بنفسه أيضاً. للصعود في سيارات الليموزين الكبـيرة التـي كانت نوافذها مغطاة بسـتائر والتنقل بداخلها من قصر إلى قـصر أو للقيام برحلة، كان الجواري يضعن جلباباً خاصاً أسـود اللون أو كحلياً، يشـبه زيّ المعاطف التي تـتدلى منها القلنسـوة، وكن يغطين وجوههن بأقمشة الموسلين الداكنة.

بينما كنا نقضي الإجازة في مدينة مراكش، أعلمنا الحسـن الثاني، أنا وللا مينا، بأننا سـنخرج معه، ممـا أسـعدنا وأدخل البهجة إلى قلوبنـا، إذ كان من النادر التنزه معاً في المدينـة! وزعوا علينا الجلابـيب التقليديـة، وأحـضروا لنا عربات الخيل. كنـا مقيّدتين بجلابـيب العبـيد هذه. قام الملك بنفسـه بقيادة عربتنا، وفي المدينة تولّى هو نفسـه عملية المسـاومة وشراء الهدايا التي قدمها لنا، لم يعرفه أحد. ما زلت أتذكر صهيل ضحكاتنا الجنوني، وفرحي وابتهاجي في ذلك اليوم.

كان من شبه المستحيل للنساء أن يتحركن بدون الملك، إلاّ في المناسبات النادرة، كمثل تلك الرحلة الرسمية إلى يوغسلافيا، في بداية الستينيات، مع الملكة الأم، أم سيدي، وبعض الجواري من أصدقائها. مـا زالـت أصداؤها حية في ذاكرتي. الماريشـال تيتو وضع في تصرفنا قصراً يقـع في محيط بلغراد، وكان يشـبه مسـكن الكونت دراكولا. نور الصباح، إحدى الجواري، الأكـثر خفة وظرفاً، غطت وجهها، وحملت شـمعة في يدها، وراحت تطرق أبواب الغرف. هذه المزحة الصبـيانية أثارت صرخات الفزع والرعب في كل أنحاء القصر، أما أنا وللا مينا فقد تردّد صدى ضحكاتنا في أرجاء القصر. كنا نتسـلل

خلفهـا ونتبعهـا على رؤوس أصابع أقدامنا. في نهاية إقامتنا، كان لدى الملكة الأم رغبة بأن تذهب سراً إلى إيطاليا بدون إعلام الملك. لكن في تريست كان الصحافيون بانتظارنا، مما عطل كل هذه المشاريع.

مع الأيام تغيّر نظام عزلة النساء عن محيطهن، وخفّت قيوده، فصرن يتجولن بدون حجاب وبدون ستائر على النوافذ. وصارت الملكة لطيفة تستطيع أن تذهب في رحلة بمفردها، وتمتلك سياراتها الخاصة، وسائقيها، وأمنها، هذه الحالة لم تكن سائدة ومعمولاً بها في الفترة التي تزوج خلالها الحسن الثاني.

خلال السنوات التي تلت وفاة محمد الخامس، كان يجب السعي لتزويج الملك الذي كان له من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً. أكبر عائلتين بربريتين في البلد أرسلتا إلى القصر فتاتين جميلتين، وهما ابنتا عم: لطيفة، خمسة عشر عاماً، وفاطمة، ثلاثة عشر عاماً. وقد تم إخضاعهما لنفس دورة الإعداد التي خضعت لها بقية الجواري اللواتي وصلن من كافة المناطق المغربية.

ولكنهن كنّ يعلمن مسبقاً بأن الاختيار الملكي سيكون ما بين الصبيتين الشابتين، ولا يمكن التساهل فيه. فالزوجة الشرعية ستكون أم أولاد الملك، وبالتحديد أم ولي العهد. ولأسباب سياسية، وللحفاظ على توازن وتماسك الشعب المغربي، كان يجب أن تكون بربرية مثل كل الزوجات الملكيات، كالملكة الأم ولالا عبلة، ولالا بهية.

كانت فاطمة طويلة القامة، جميلة، ذات بشرة مخملية بيضاء، وعينين مشرقتين، ووجه ملائكي كالعذراء. وكانت لطيفة ذات تقاطيع غير متناسقة، وأنف ظاهر، ولكن كانت عيناها البنيتان كبيرتين، وشعرها كثيفاً، لم تكن تملك جمال ابنة عمها، ولكن شخصيتها كانت أكثر قوة وحضوراً.

لم تكن الفتاتان أكبر مني إلّا قليلاً، ولكنني كنت أعتبرهن كنساء. كنت أقف إلى جانب الملك عندما استقبل أفراداً من أكبر العائلات المعروفة في المغرب. لقد عاملها باحترام وتواضع كصهر أكثر منه كملك. هؤلاء البرابرة التقليديون الذين لا يقيمون وزناً للمظاهر، كانت نساؤهم تضع الحجاب الأبيض، ورجالهم يرتدون الجلباب. تواضعهم، عزتهم، وبساطتهم لم تكن لتنسجم مع هذا المشهد الذي يستعيد حكايات ألف ليلة وليلة.

وقعت فاطمة صريعة في حب الملك. أما لطيفة التي كانت أكثر كبرياء وتكتماً ففضّلت أن تنتظر اختيار الملك. جمال الصغرى وعذوبتها كذلك حبها العنيف والتلقائي، كل ذلك استرعى انتباه الملك.

ولكنّ شخصية الكبرى أعجبته جداً.

فقط المقربون جداً كانوا يعرفون أن هنالك عداءً قائماً بين ابنتي العم هاتين، وحاولت الجواري القديمات أن يوجهن اختيار الملك نحو فاطمة، التي كانت مطواعة أكثر، وقابلة للقياد، ويستطعن بسهولة إدارة رأسها. حاولن، رغماً عن الطبيعة، أن تحمل فوراً. فولادة ولي العهد تشرع الزواج، ولكنهن لم ينجحن، لأنها كانت بعيدة عن هذا.

في أحد الأيام خاطبت لطيفة الملك قائلة:

ـ سيدي، لن أقبل أبداً أن أكون مجرد جارية بين نسائك.

ثم طلبت منه إذا لم يعطها فرصة كي تصبح أماً لأبنائه، أن تعود إلى أهلها. لقد رفضت وضعية الجارية وفكرة المشاركة، وأن تكون مهمشة.

أعجب عزمها وتصميمها الملك الذي كان يفضل النساء القويات الشخصية على النساء الجميلات. ولطيفة، بموقفها هذا، فاقت الجميع ذكاءً ودهاءً، تلك المرأة التي لم يتعد طولها مئة وخمسة وخمسين سنتيمتراً، فرضت الاحترام دونما حاجة لأن تتكلم. اختارها زوجة له. أما ابنة عمها فاطمة فبقيت جارية بين نساء الملك. كانت هذه التقاليد تبدو لي طبيعية، ونادراً ما كانت تصدمني، لأني تربّيت وأنشئت عليها. كنت صغيرة جداً، وأجهل من أن أتمكن من الحكم على مظاهر القرون الوسطى هذه، في زواج الملك. كل همّي أنني شاركت بحضور مشهد جميل، على الطريقة التي كنت أحبها كثيراً، ولكنني كنت سعيدة أيضاً. كنت أشعر بأنني معنية فعلاً بكل ما يمت بصلة، من قريب أو بعيد، إلى أبي بالتبني.

في السنة التالية، في ٢٦ آب / أغسطس سنة ١٩٦٣ وضعت لطيفة مولودة أولى، للا مريم، في روما، كان يوماً مشهوداً، أيام وأيام من الموسيقى والرقص، من الابتهاج، من الوجبات الشهية والأطباق النادرة التي يسيل لها اللعاب. انتصرت لطيفة، فولادة ابنتها كرستها ملكة.

فيما بعد رزقت لطيفة بأربعة أطفال[٧]. في كل مرة كان الملك بمنتهى الصرامة فيما يخص غذاءها. فرض عليها اتباع الحمية، وتناول الأطباق الخفيفة كالخضار، وتجنب الدسم والسكر، كان هو متطلباً ومتصلباً، وهي كانت تشعر بالوحام والجوع.

كانت حاملاً بمولاي رشيد عندما رجتني قائلة: أشعر برغبة في «عمامة القاضي» بسرعة.

لم تكن رغبتها سهلة التحقق. كانت الملكة تشتهي أكلة يتطلب عملها ساعات من العجن والخلط والإعداد، والنقع بالعسل، وشكلها النهائي يشبه العمامة، من هنا كانت تسميتها. في تلك الفترة. كنت قد رجعت إلى بيتي، ولكنني كنت أتردد على القصر لزيارة الأميرات، والجواري.

هرعت إلى البيت وطلبت من عاشورا، مربيتنا التي كانت أيضاً طباخة لا مثيل لها، أن تحضر فوراً تلك الأكلة. بعدما علمت الحكاية، أرادت الاعتناء أكثر بعملها، ووضع الحلوى في طبق فضي. لكنني كنت مستعجلة، فلطيفة قالت لي «حالاً»، وخصوصاً أنني لم أرد أن يلمحني أحد، لأن هذا كان كفيلاً بإثارة نوبة غضب لدى الملك لا تحمد عواقبها.

وضعت الأكلة في طبق عادي، وغطيتها بغطاء بسيط، وعدت إلى القصر. سلكت طريقاً ملتوياً كي أتحاشى الاصطدام بأحد. ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الجواري القديمات. أردن أن يعرفن وجهتي. كذبت مؤكدة أنني في زيارة إلى الملكة الأم. طبقي الذي كانت تتسرب منه رائحة شهية أثار شكوكهن، فرحن يطرحن عليّ أسئلة حوله. زعمت أنني أحضرت ذلك إلى للا مينا. ولكن، لم تنطلِ عليهن هذه الكذبة.

ـ إياك أن تعطي هذا إلى لطيفة، لأنه من الممكن استغلال هذا. أحدهم قد يدسّ فيه السم، وستجدين نفسك متورطة في كثير من المتاعب.

كلامهن جعلني أفهم حقيقة عن القصر كنت لا أريد معرفتها. هناك كانوا يخشون الشربة السحرية، الكتبة الشريرة، السحر الأسود. بعد سنة من هذا اتهموا واحدة من الحاشية أنها أرادت تسميم لطيفة بدافع الغيرة.

الجواري، لا سيما القديمات منهن، كن متدينات جداً. كن يصلّين خمس مرات في النهار، يصلّين على سجادات الصلاة الحريرية التي يتولى العبيد احضارها لهن. بعد انتهائهن يلبثن طويلاً وهن يقرأن القرآن والأدعية. كنت أكره المكوث طويلاً معهن، ولكنني كنت أمتع ناظري بمرأى وجه للا بهية الرائع وهو محاط بالموسلين. كنت مسلمة ولكن لا أطبّق تعاليم الإسلام، كنت أحبّ الاحتفالات الدينية، كما كنت أحب كل العادات والتقاليد. كنت أتمتع بالحفلات التي كانت تقام كثيراً في القصر، والتي أضفى عليها الملك روح الحداثة والعصرية.

الليلة السابعة والعشرون من شهر رمضان، التي نسميها ليلة القدر، كانت مخصصة للصلوات التي

نشرع بأدائها ما إن نفرغ من الإفطار. في هذه الليلة يقولون إن اللّه يحقق لنا رغباتنا. بمعية الملك كنا نذهب جميعاً للصلاة في مسجد القصر.

كان من العسير عليّ أن ألزم الصمت، فقد كنت ألعب دور المهرج. أمّ سيدي ولالا بهية كانت تنفجر ضحكاتها. عندما كان يسمعها يعرف السبب، لأنه يعرف جيداً حركاتي وتصرفاتي. كان يحاول جاهداً التركيز، وكنت أرى آثار الغضب الذي يغلي في داخله. في كل مرة يغضب فيها، كان يرفع أكمامه، وكان هذا مؤشراً على حنقه الشديد، مما يذكرني بضرورة التزام الهدوء وضبط النفس، ولكن هذا لم يكن يمنعني من أن أكرر ذلك بعد قليل.

كل عام، يتمّ الاحتفال بعيد المولد النبوي في حي العبيد. في هذا اليوم كانوا يملؤون الأطباق الخشبية بالزميته، وهي خليط مخصص للموالد، مصنوع من طحين القمح المحمص، ويضاف إليه الزبدة وجوز الطيب، والمسكة، والعسل الصافي، والقرفة، والسمسم، واللوز المقشور والمقلي. كانت الزميته تقدم على شكل جبل من الخليط الأسود، المكسو بالسكر الناعم، إنها حلوى لذيذة جداً.

منذ الصباح كنا نسمع قرع الطبول، يرافقها عزف موسيقي على الكمان، والعود، والأناشيد الدينية. كنا نهبط إلى أسفل الشارع ثم نصعد السلالم التي تؤدي بنا إلى شرفة تطل على حي العبيد. النساء ارتدين قفاطينهنّ الملونة. كل الألوان كان مسموحاً بها ما عدا الأبيض والأسود. لطيفة زوجة الملك، كانت الأكثر أناقة، وزينة أيضاً، كانت حليّها، بروعتها، تطغى على ما لدى الأخريات. أخوات الملك، ولمياء زوجة أخيه مولاي عبداللّه، كن يرتدين نفس تصميم ونقشة القفطان الذي تضعه هي، ولكن بألوان مختلفة، وأحزمتهن جميعاً كانت من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة. كن يضعن الأقراط، والعقود، ويغطين قسماً من شعورهن بشبكة مزينة بحبات اللؤلؤ. من موقعنا كنا نشارك بحضور استعراض حي رائع. كل العبيد، المرضى، المصابون بداء الصرع، والربو، والروماتيزم، كانوا يخرجون، من قبته، ويشرعون بالرقص أمام أنظارنا على وقع العزف والأناشيد الدينية. كانوا ينسجمون ويغيبون في هزات للتخلص من الجن الذي يتلبّسهم، والأرواح الشريرة التي تسبب لهم أمراضهم. أحد العبيد يصل وهو يحمل وعاءً مملوءاً بقشور ثمار الصبّار. كانوا يأخذونها بين أيديهم دون أن يشعروا بأي ألم من جراء وخز الأشواك، والبعض منهم يشربون الماء المغلي مباشرة من الإبريق دون أن يشعروا بأقل ألم، ولا يصابون لاحقاً بأي جرح أو نوبة من جراء ذلك.

هذا الاحتفال بالمولد كان يقام رسمياً في قصر مكناس. وأيام عهد محمد الخامس كانت تحدث أمور أكثر فظاعة، هكذا كانت تروي أم سيدي:

ـ كنا نشاهد وصول المصابين الذين شدخوا رؤوسهم بفؤوس يحملونها بأيديهم.

عندما نسمع هذا أنا وللا مينا كنا نرتعد خوفاً. في قصر الرباط، كان الحسن الثاني، يسيطر على الوضع بشكل أفضل. أنا ولطيفة أردنا البدء بمجاراتهن برقصهن الإيقاعي، لندخل مثلهن في غيبوبة تسلخنا عن الواقع. لكن الملك نهى زوجته بعنف قائلاً:

ـ مكانتك لا تسمح لك بالتصرف مثلهن، إنها تحميك من الجن والتلبّس.

هكذا كانوا يفسرون الحياة في القصر. الجن يهاجم فقط الإماء اللواتي ولدن لأعمال السخرة والعبودية، ويعفّ عن الأميرات. ولكل مكانته وطبقته التي لا يستطيع تجاوزها أو تخطيها. كل شيء سيمضي قدماً على هذا النحو إلى الأبد.

أعياد أخرى كانت تمنحنا البهجة والفرح. مثل عيد الكحل الذي كان يتزامن مع فترة نضوج العنب، وكان يسمح فيه للفتيات الصغيرات بوضع مساحيق التجميل. لترطيب القشة التي يوضع فيها الكحل، كنا نبللها بغرزها داخل حبة عنب. وتروح كل واحدة منا تنتظر دورها كي يتم تكحيلها مثل امرأة في جو من الضحك والمرح.

في عيد الماء، كنا نرش بالماء كل من يقع تحت أيدينا. إنه نهار الفرح، كنا نختبىء في الظلال ثم نروح نتمتع بمراقبة ضحايانا. كان الملك يستمتع كثيراً وكنا غالباً متواطئات معه، وبعد أن يكتفي ويقرر إيقاف اللعب، بإشارة منه، كنا نسارع أنا وللا مينا بقذف سطل ماء خلفه. كان يحتج علينا وهو يهددنا بأن يجعلنا نلقى المصير نفسه، ثم نغرق ثلاثتنا في الضحك من أعماق قلوبنا. ولا يلبث أن يشار كنا الجميع الضحك وتعم البهجة المكان.

كنت أحب أيضاً عيد الحشيشة الخضراء، وهو عيد للأطفال يقام في البهو المزين بغرف ذات قباب، كنا حوالى عشر فتيات، نحاول الطهو أمام المواقد الصغيرة، بإشراف مربياتنا. كنا نتنكر بقفطان بيتي صغير، ونرفع أكمامنا مثل الكبار إلى أكواعنا بالمطاط. كل الأدوات كانت في متناول أيدينا وبمستوى قاماتنا. كان الملك يأتي لاحقاً ليتذوق ما قمنا بتحضيره. بعد أن يعلق قليلاً على هذه الإنجازات المطبخية كان يدفع ثمن ما التهمه وهو يعانق الرابحات.

لم يكن الملك يحب تناول الطعام كثيراً، لكنه كان يحب اختراع بعض الأطباق ووضع بعض المقادير من مخيلته. غالباً ما كان يقيم مطبخاً في غرفة طعام القصر، يقوم فيه بإعداد أطباق من صنعه، نتذوقها ونلتهمها، ولم تكن دائماً لذيذة، ولكن لم يكن بيدنا حيلة، إذ كان يجب أن نقضي عليها ونحن نتصنع التلذذ والابتسام قائلين: سيدي، ما ألذّ طعمه الذي يسيل له اللعاب!

ومع هذا، كان لا يحتمل فكرة أن يزيد وزننا، فهو قد وعد للا مينا بمفاجأة سارة إن هي نجحت بالتخلص من وزنها الذي زاد بعض الشيء خلال فترة المراهقة. أثناء إجازة في طنجة، اتبعت حمية سراً، ثم أعلنت له فجأة أنها خسرت أربعة كيلوغرامات. التزم بوعده وأعلمنا بأنه سيقيم «حتفه».

صعد إلى شرفة تطل على البهو الكبير، وإلى جانبيه جاريتان، تحملان كاسات ممتلئة بقطع النقود النحاسية القديمة. كل واحدة منها تساوي ما بين عشرة وخمسين فرنكاً فرنسياً. أم سيدي، للا بهية، لطيفة، والجواري، ونحن، كنا نحتشد جميعاً في الأسفل، وأنا وللا مينا كنا نقف في وسطهن، بانتظار أن يلقي علينا المال بغزارة. كان الدمع يتساقط من عينيه لكثرة ما يضحك وهو يرانا نحبو على أربعة إثر المال. معظم الجواري كنّ يتعمدن القيام بحركات الخفة والظرافة من أجل جذب انتباهه. أما أنا فلم أكن أنبس ببنت شفة، كنت أستغرق كلياً في جمع النقود وتكديسها. عندما كان ينزل إلى البهو، كان يستطلع من كل واحدة منّا عن قيمة المبلغ الإجمالي الذي نجحت بتجميعه. كان الجواري يشرن إلي قائلات:

ـ سيدي، إنها هي من جمعت أكثر.

وسرعان ما يطلب مني أن أريه غنيمتي، فأكشف طرف تنورتي الذي أمسكه بيدي، حيث كنت أحتفظ بما ألتقطه من نقود، وكنت كثيراً ما أحظى بعدد هائل من تلك القطع.

ويبادرني الملك قائلاً:

ـ لقد عملت جيداً، ولكن لمن ستعطين هذا؟

ـ سأقدم هذا إلى أمي.

هذا الجواب كان يزعجه بعض الشيء. لم يكن يحتمل أن أنساه، وألا أحسب له حساباً. لسوء الحظ أن ريفل صادرت لاحقاً كل ما جمعته، وهي تقول لي:

ـ أنت أصغر من أن تديري كل هذا المال.

في عمر الثانية عشرة، ثقبوا لنا آذاننا خلال احتفال خاص، بنفس أهمية احتفال الميلاد، والزواج. ويُستقبل هذا الدخول إلى عالم النساء أيضاً بالأهازيج والأناشيد، وحفلات العمارة، وزغاريد الجواري والعبيد. للا مينا التي كانت خائفة من أن يؤلمها ذلك اختبأت وأجبرتني على مجاراتها. غضب الملك من هذا، وعندما وجدني أجبرني أن أكون البادئة كي أعطي مثلاً في الشجاعة لأخته التي لم يتحمل جبنها. بعد ذلك توجهت النسوة نحونا لتهنئتنا وتقبيلنا، ورحن يزغردن بينما كان الموسيقيون يعزفون بقوة على الطبول.

بمقدار ما كان محمد الخامس يوصد أبواب قصره، بمقدار ما كان ولده الحسن الثاني يفتحها ويشرعها.

أما الاحتفالات الدينية فكانت تُقام على نطاق البلاط، لكن الملك كان يقيم حفلات عامة يدعو إليها الطبقة الاجتماعية المخملية، والضباط، والممثلين والشخصيات الأجنبية التي تزور المغرب رسمياً.

كنا دائماً نتحمس لمقابلة «ناس الخارج»، ونتهيب ذلك. فالغرباء عن القصر كنا نحتقرهم لدرجة أننا لم نكن نرغب بالاحتكاك مع أي شخص كان. كنا نظل مع بعضنا البعض كحلقة في وجه أي غازٍ أو محتاج.

خلال حضور أي استعراض، كان الملك يجلس في المقدمة، والملكة الأم في الخلف، وزوجته على الطرف، ونحن جميعاً نجلس جنباً إلى جنب في الصف الذي يقع خلفه مباشرة.

أثناء هذه الاحتفالات والزيارات الرسمية، كنت غالباً ما أقابل رؤساء دول وشخصيات أجنبية. وأذكر أن عبد الناصر قال لأبي بأن لي ابتسامة جميلة.

ملك الأردن أتى لقضاء إجازة في إفران، كذلك جاء الشاه والشاهبانو وملك بلجيكا بودوان وزوجته. ومع أنّي لست معتدة ولا مغرورة إلّا أنني لم أتأثر أو أعجب بأي منهم آنذاك، لأنهم كانوا بالنسبة لي من «أناس الخارج».

في أحيان نادرة كنا نهرب من القصر لزيارة مولاي عبدالله، الأخ الأوسط للملك، الذي كان يسكن مع زوجته لمياء؟ يلّا في حي آگدال. كان طويل القامة، أنيقاً، أسود الشعر، عيناه مخمليتان مثل رودولف فالنتينو. كان يهز كل قلوب النساء بجماله ولطافته. كان يعاشر نجوم السينما، وكل مشاهير

العالم. وفي عيد ميلاده، كانت طائرة خاصة توضع تحت تصرّفه.

لكنه كان صديقنا، ومخبأ سرنا. كان يحسن الاستماع إلينا، وينصحنا ويهدىء خواطرنا، بكثير من الرقة والإنسانية. كي يسلّينا ويرفه عنّا، كان يستحضر فرقة موسيقية صاخبة إلى بيته، بالإضافة إلى بعض الأصدقاء، حيث نقضي طوال بعد الظهر بالضحك والرقص الجنوني. كان يصطحبنا على الدراجة في جولة على شاطىء البحر، في جو من الحرية المحدودة نسبياً، إذ كان يحيط بنا عشرات من المرافقين والحراس بأسلحتهم.

أحياناً كنا نذهب لإيقاظه في الصباح. كان يستقبلنا وهو في فراشه ويروح يمازحنا ويلاعبنا بحرارة. قدم لي مجموعة كبيرة من ملابسه الفاخرة، من بذلات، وربطات عنق، وكنزات من الحرير الكشمير، قدمتها بدوري إلى خاليَّ وحيد وعز الدين. أعطاني أيضاً نظارة شمسية لم يكن ليفرط بها، كانت عربون محبته لي.

كان شرفاً كبيراً أن أستخدم أغراض الملك وأغراض عائلته. فالملك يمنح ملابسه للرجال المقربين منه، ومستشاريه، وبعض وزرائه. عندما عدت إلى البيت، كنت أستغرب أن أرى أبي وهو يرتدي قمصاناً عليها الختم الملكي.

أنا والملك

قلّما كان يمرّ يوم بدون وقوع مشاكل وخلافات بين الجواري، وكان هذا الواقع بمثابة الخبز اليومي في حياة القصر الرتيبة، ويضفي بعض الحيوية والحركة في أجواء القصر الجامدة.

ينقسم الجواري إلى مجموعات متناحرة، كل مجموعة متكافلة متضامنة ضد الأخرى. لذلك ما إن كان يلوح في الأفق خلاف ما، حتى تعمل كل جهة على تأجيج النزاعات وصب الزيت فوق النار، لخلق حالة من الإرباك والبلبلة في صفوف المجموعة المناوئة لها. كل واحدة منهن تريد أن تكون المحظية الوحيدة عند الملك، ولا تحتمل أن تسبقها أخرى إليه. وحين وصل الموسى إلى ذقني، لم أنج بجلدي. ففي أحد الأيام تصادمت مع إحداهن لأمر سخيف.

أثار انفعالي لسانها السليط. فصرخت بوجهها وقد أعماني الغضب من صفاقتها: من تظنين نفسك؟

أجابتني بتحد: أنا جارية سيدي؟

فقلت لها بدون تفكير: أما أنا فإنني ابنته!

لا غرو، إذ إنني لطالما كنت أعتبره مثل أبٍ ثانٍ لي.

صحيح أنه كان صارماً، ولكنه كان في الوقت نفسه متفهماً وليّن العريكة. لذلك كنت أحبه وأكن له التقدير، والاحترام. عندما كنت ألثم يده تعبيراً عن ولائي له، كنت لا أكتفي بذلك بل أسارع إلى لثم الأخرى.

كان يضغط بيده على شفتي بحنان ليعلمني أن رسالتي وصلته، وأنه يكنّ لي شعوراً مماثلاً.

كانت السنوات الأولى من تولّيه الحكم حافلةً بأجواء التسلية والفرح. كان متفرغاً بالكامل تقريباً للاهتمام بنا أنا ولَلا مينا، والسهر على راحتنا. فهو لم يكن بعد قد رزق بأولاد. كان يقضي معظم الأمسيات معنا في ڤيلا ياسمينة حيث نغني معاً بعض الأغاني القديمة التي أعزف لحنها على البيانو، أو يراقص على أنغامها لَلا مينا التي أقنعتها أن تطلب منه آلة موسيقية كهدية لعيد ميلادها القادم. لقد كنت شديدة الولع بالموسيقى والعزف. كنت أتمنى أيضاً أن أتعلم الرقص ولكن أطباء للا مينا لم يشجعوا على ذلك، لأنهم اعتبروا أنها ما تزال صغيرة، وأن الرقص سيؤثر على نموها الطبيعي. أما هي فلم تبال ألبتة، بعكسي أنا، لأنها كانت مشغوفة حباً بالخيل، وذلك لم يترك لها لحظة فراغ واحدة لأي اهتمام آخر طوال حياتها. وإرضاء لشقيقته، أمر الملك بإعطائنا دروساً في الفروسية التي كنت أمقتها شخصياً. كانت واجباً ثقيلاً لا بدّ منه. كان الملك يريد أن يجعل مني فارساً بالقوة مثله ومثل أبي. أعيتني الحيل، والحجج، والأكاذيب، فكلما اختلقت واحدة تبعد هذا الاستحقاق عني، انكشف زيف ادعائي أمام الملك الذي بات أشد إصراراً على وضعي على صهوة الجواد بالقوة، حتى ولو أدى هذا الأمر إلى قتلي.

لم أرد قطّ إزعاج الملك، ولم أصطنع مطلقاً النفور من الخيول. كنت كلما اقتربت منها أشعر بالاختناق، ولم أعرف طوال حياتي سبباً منطقياً لذلك. بعد أن انكشفت خدعة الإسهال، والحرارة استعضت عنها بخطط متهورة وجنونية، تعمدت أكثر من مرة السقوط عنها على الأرض وأنا أصرخ بطريقة مسرحية: النجدة... كسرت يدي... آي ي.... كسرت ساقي. كانوا يهبّون بهلع لنقلي بسرعة البرق إلى عيادة الطبيب الذي يهدىء من روعهم وهو يقول: اطمئنوا كل هذه الضجة المفتعلة من

أجل لا شيء... إنها على أفضل ما يرام. وما إن يغادر الغرفة حتى تدخل الجواري محملات بشتى أنواع الحلوى للمريضة المزعومة التي هي أنا!

لم يفهم الملك أبداً كيف يمكنني أن أكون على هذه الدرجة من الجبن. كان لا يفتأ يردد، وهو يغلي من الغضب كلما أخبروه عن قصصي:

ـ لا يهم، كلما سقطت عن الجواد ضعوها بسرعة فوقه وبدون أي تلكؤ أو تباطؤ، ولو أدى هذا إلى قتلها.

في أحد الأيام تلقينا رسالة استدعاء لركوب الخيل في النادي الملكي للفروسية في تمارة التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن الرباط. كان المشرف على هذا المكان الكولونيل الفرنسي لافوريه الذي كان يقيم أيضاً دورات تدريبية للضباط، ولكل من يرغب تعلم ركوب الخيل وإتقانه من البلاط، وحتى النساء اللواتي كن يذهبن إلى تمارة بالملابس المخصصة لذلك. عندما وصلنا إلى تمارة قمنا بجولة على الخيل برفقة الجنرال شخصياً، وصل بنا المطاف إلى مكان يسمّى الميدان، وهو بمثابة مربط الخيول الملكية التي كانت تختال برشاقة وخفة كشهبٍ نارية.

أخذتني روعة ذلك المنظر الجميل، ورحنا نستعرض تلك الخيول التي كانت تصطف جنباً إلى جنب في صف طويل لا نهاية له. وكم كانت خيبتي كبيرة، عندما أطل جحش صغير برأسه الذي كان ينضح بالضعة والبلادة. يا للمسكين، كم كان منظره مضحكاً وسط تلك الخيول الملكية المطهمّة. وهل تجوز المقارنة في هذا الموضوع؟ واضح أنه من العبث، حتى للأعمى، إجراء مقارنة كهذه.

انقبض صدري، وانتفضت كمن لدغته أفعى، لقد أدركت فجأة أنه أحضر خصيصاً لي. غلت الدماء في شراييني، ولكنني لم أجرؤ على التفوه بحرف واحد. ماذا أراد الملك؟ إذلالي؟... إنه يجبرني على امتطاء هذا الجحش، بينما أهل القصر يعتلون تلك الخيول البديعة.

تقدم الملك مني قائلاً:

ـ هذا لك أيتها الجبانة!

اسودت الدنيا في عيني، وسيطر عليّ إحساس هائل بالمهانة. لم أعد أذكر بقية الوقائع التي حصلت في ذلك اليوم الجهنمي، ما بقي عالقاً في ذاكرتي فقط هو أنني سجنت ساعتين متواصلتين في إحدى غرف الإسطبل المعتمة، مما أفزعني وأرعبني كثيراً.

تشتهر مدينة فاس بمياهها المعدنية ذات القدرة السحرية على الشفاء من أمراض كثيرة مستعصية، مثل الروماتيزم والربو. لذا كان الناس يتوافدون إليها من أرجاء المعمورة للنقاهة والعلاج، بمن فيهم نحن، أعني الملك، والجواري، وللا مينا وأنا. كنا نواظب على الذهاب إلى فاس للاغتسال بمياه ينابيعها المفيدة صحياً.

ما كان يزعجني ويكدر علي صفوي هو اضطراري إلى نزع ملابسي بالكامل، فتلك كانت أوامر الملك. وكيف أجرؤ بعد على مخالفتها. لقد فعلت هذا مرة واحدة، مما كلفني غالياً جداً. آنذاك كنت في الحادية عشرة من عمري ويسيطر عليّ شعور طاغٍ بالخجل والحياء، لكن الملك أساء فهم تصرفي عندما وجدني أسبح في الحوض بسروالي. زمجر وغضب، إذ كيف أجرؤ على توجيه هذه الإهانة إليه. لقد كان الرجل الوحيد بيننا، ولا مبرر لفعلتي إلّا إذا كنت أشك بنزاهته وأخشى على شرفي وعفافي منه. أمرني بحدة أن أنزع سروالي، ولما رفضت، قام بنفسه بخلعه عني. بكيت بحرقة ولوعة وغمرت نفسي داخل ماء الحوض. بقيت هناك حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، مخافة أن يراني أحد ما وأنا عارية. بالطبع لم أشك قطّ بنوايا الملك السليمة والتي كانت فوق أي شبهة. كل ما في الأمر أنني كنت صغيرة، ولا أطيق أن أظهر عارية أمام أعين الآخرين.

كانت مدينة الدار البيضاء مسرحاً دائماً للعديد من التحركات الشعبية والتظاهرات، والاحتجاجات، مما أحدث شرخاً عميقاً بينها وبين الملك الذي دفعه استياؤه إلى أخذ موقف غير معلن منها. فانكفأ عن زيارتها، وعافت نفسه قصره الملكي فيها. وما زاد الطين بلّة، طقسها المشبع بالرطوبة الذي يضر بصحة الملك، لأنه يهيج التهابات جيوبه الأنفية المزمنة التي كان يعاني منها، لذا كان يتحاشى زيارتها إلّا لماماً. وإذا حصلت المعجزة مرة ما، كان يمكث في الفيلا الخاصة بأبيه محمد الخامس، القائمة على شاطىء لا يرتاده إلّا أفراد العائلة المالكة.

كان الجميع يسبح عارياً هناك بمن فيهم أنا، ولم العجب؟!

بت أفعل هذا بتلقائية، وبدون إحراج بحكم العادة، وأسوة بالملك، وللا مينا، والجواري.

في الدار البيضاء، في الفيلا، غرفة تتكوم فيها الهدايا وتتكدس على شكل جبل مزركش. لم يتسن للملك أبداً الوقت الكافي كي يفتحها ويطّلع على محتواها. كنت أتحرق رغبة وفضولاً لنزع الورق عن واحدة منها على الأقل، كي أكتشف ما بداخلها، ليس بهدف الامتلاك بل للاطلاع! عندما حان وقت

القيلولة، قررت تنفيذ ما كنت قد عزمت عليه. كان جميع من في الفيلا يرقدون نياماً. وأنا أمد يدي لأتناول واحدة من الهدايا، انهار عدد لا بأس به منها وسقط على الأرض محدثاً جلبة وضوضاء. ومن سوء الحظ أن غرفة الهدايا كانت تقع بالقرب من الغرفة التي كان يرتاح فيها الملك. كان يسعل بإيقاع أعرفه من بين الآلاف. لذلك تجمدت في مكاني. ثم سمعت صوته وهو يسأل:

ـ أين هو الشيطان؟

كان يعرف مسبقاً الجواب، فالشيطان لا يمكن أن يكون سواي أنا. بحثت بهلع عن مكان أختبيء فيه، فلم أجد أمامي إلّا رافعة للأوزان فانزلقت بداخلها. لقد علقت حيث أنا، ولم يعد بإمكاني الفرار أو الهرب، لأنه قبع في داخل الغرفة، ثم نادى العبيد والجواري وأمرهم جميعاً بالبحث عنّي. ساد الهرج والمرج. أضحت المسألة كلعبة الغميضة. كنت أرتجف داخل مخبئي كريشة في مهب الريح، وهو كان يزداد تصميماً وإصراراً على متابعة التفتيش والبحث. عندما أسقط بأيديهم جميعاً وأعلنوا عن يأسهم بالعثور على الجاني، خطر للملك أن ينظر بنفسه حيث كنت أختبيء.

أمرني بالخروج فوراً، وأنا أرتجف، فلم يكن بد من الامتثال لأمره.

انتهت هذه الحادثة على خير. سامحني الملك وغرقنا جميعاً بالضحك. ربما لأنه يعرف جيداً أنني لم أفعل هذا بدافع الطمع أو السرقة بل بهدف الاستكشاف والاستطلاع!

لكن الملك كان يستطيع إظهار منتهى الصرامة والحزم. عندما كنت في الثامنة من عمري، أنزل بنا أنا ولالا مينا عقاباً لا ينسى. لم أعد أذكر نوع الحماقة التي ارتكبناها لنستحق عليها هذه الفلقة أمام جميع من كان في تمارة. حيث أمر الجلادين بالإمساك بأيدينا وأرجلنا وراح بنفسه يلسع بالسوط أقدامنا العارية.

عندما بلغت الخامسة عشرة تلقيت أول عقاب حقيقي. كان ذلك يوم تسليم الشهادات المدرسية للملك. وضعتها كالعادة على طاولته ثم جلست بجانب الجواري اللواتي رحن يهزأن مني ويشرن بطرف خفي إلى خيبتي المدرسية. كنّ يعرفن أن علاماتي سيئة وأن عقاباً ما قد يكون من نصيبي وبانتظاري. تظاهرت بالتماسك واللامبالاة وتابعت المزاح والحديث معهن. كان قلبي يخفق بين ضلوعي بقوة، خوفاً من الملك. لكنني أجبرت نفسي على النظر بجرأة باتجاه الملك.

أشار بيده، فوضعوا أمامه الشهادات المدرسية.

بدأ بتصفح شهادة للا مينا. ثم بصمت بالغ تناول شهادتي وأمعن فيها النظر. خلت أن دهراً مضى عليه وهو يفعل ذلك. أخيراً رفع رأسه وأمر باستدعاء الجلادين.

جمّد كلامه من في المجلس، تحولت أنظارهم جميعاً نحوي، كانت نظرات مثقلة بالإشفاق والرثاء، لأنهم كانوا يعرفون طريقة الملك بالتأديب. أشار لي جلالته بالاقتراب. أمسك بأذني وراح يشدني بها بقوة. ثم نادى الجلادين الذين قاموا بتمديدي أمامه فوق السجادة. ثلاثة منهم أمسكوني بمعصميّ وثلاثة آخرون أمسكوني بقدميّ.

كان كبير الجلادين يقف جانباً وبيده السوط، ينتظر أوامر الملك.

عادةً، الملك هو من يقرر عدد الجلدات. من المضحك المبكي أن الملك أمر فقط بثلاثين جلدة. لكنه لم يدع أحداً غيره يقوم بهذا الأمر. أحضروا له طاولة صغيرة مرتفعة قليلاً عن الأرض ليجلس عليها بمحاذاتي. حبس الجميع أنفاسهم، ولم تسمع في القاعة أي حركة تذكر. منع الملك أمه والملكة بهية من التدخل لمصلحتي.

وسط جو من الصمت المطبق، بدأ الملك بالجلد... الأولى... ثم الثانية... بعدها الثالثة. الصرخات الصغيرة التي كنت أطلقتها أثارت شكّه وريبته لأن الجلدة الثالثة كانت عنيفة، ومع هذا لم أظهر أي وجع، وصرختي الصغيرة لم تتغير. انتفض الملك بعدما اتضحت له خطتي. لم يتابع الجلد. بدلاً من ذلك وضع كلتا يديه فوق مؤخرتي وراح يتحسس بأصابعه سماكة ملابسي. فجأة صرخ من شدة الحنق والغضب. لقد صحّت توقعاته وشكوكه. فأنا كنت قد تحسبت مسبقاً لما يمكن أن يصيبني فقمت بأخذ تدابير احترازية فارتديت عدة طبقات من الملابس ذات القماش الجامد والسميك.

عندها ضجّت القاعة بالضحك من فعلتي، ولم تلبث العدوى أن انتقلت إلى الملك فشاركهم بدوره الضحك. عندها انتهزت الفرصة لأرتمي على قدميه وأهتف:

ـ سيدي، أقسم ألا أعود إلى هذا.

سرى هذا الخبر في أرجاء القصر سريان النار في الهشيم. لم يبق أحد إلّا وعلم بالمقلب الساخن الذي تجرأت على تنفيذه دون أية مراعاة لهيبة الملك وسطوته.

في الأسبوع التالي، أتت النتيجة مطابقة تماماً للسابقة، هذا إذا لم أقل أسوأ. لم يعلق الملك أول الأمر بشيء. ترك بعض الوقت يمر قبل أن يطلب مني مرافقته في جولة إلى خارج القصر. بدا لي تصرفه

طبيعياً جداً. لم يخطر ببالي قط ما يدور في رأسه. كان من عادته أن يصطحبنا في الكثير من غدواته. ولم يكن هنالك ما يستوجب منّي الحذر. أقلتنا السيارة إلى المنزل الذي كان يقيم فيه قبل أن يتولّى العرش، والكائن في شارع الأميرات. كنت أحب هذه المنزل كثيراً. في طريقنا إليه مررنا من أمام الفيلا التي يسكن فيها أهلي، مما جعلني أشعر بالنشوة والانشراح، لدرجة أنني استغربت عندما طلب مني الملك نزع ملابسي، ولم يخطر ببالي سبب ذلك، وقبل أن أعي الأمر، أدخلني إلى غرفة صغيرة حيث خلع عني الجواري ملابسي. وألبسنني مكانها ملابس رقيقة جداً. كان تأديباً مؤلماً ودموياً. بكيت من شدة الألم أسابيع طويلة. وما زلت أحتفظ في مؤخرتي حتى الآن ببعض الآثار.

كنت متأكدة أن أهلي لن يعاملوني أبداً بهذه الطريقة. لقد ندبت كثيراً حظي العاثر الذي أبعدني عنهم.

مرةً أخرى، تابعت سيرتي الأولى. كانت شهادتي المدرسية سيئة لدرجة أن رئيس التشريفات أخذته الرأفة بي فوعدني أن يتوسّط لي بنفسه ليستدرّ عطف الملك، علّني بهذا أنجو من العقاب.

بينما كان الملك متوجهاً إلى ملعب الغولف قطع عليه الطريق وارتمى أمام قدميه طالباً منه أن يسامحني.

نظر إليه الملك نظرة جامدة ثم قال:

ـ من أنت؟ ومن تكون حتى تتجرأ على التدخل بأمرها؟

يا لذلك المسكين، ممّا لحق به من الخزي والمهانة. بعد أن مسح به الأرض، أمر به الملك أن يجلد مكاني.

لا أحد في العالم ينجو من العقاب الملكي، خصوصاً إذا كان الملك يرى أن الجاني يستحق ذلك. فيما يخصنا، كان يرى أنه، بهذا التصرّف، يتصرّف تصرّف الأب.

كان الملك أبوياً جداً معي ومع للا مينا، كان يشرف بنفسه على أدق التفاصيل التي تتعلق بسير أمورنا. عندما لاحظ أننا غدونا شابتين في الخامسة عشرة من عمرنا قرر أن يختار لنا بنفسه ملابس مناسبة وجديدة. لم يكن ذوقه سيئاً، لكنه كان للأسف كلاسيكياً للغاية. فقد استدعى الخياطة وأمرها بتنفيذ جهاز كامل لنا يشمل الملابس الداخلية والخارجية.

كان يحضر بنفسه جلسات القياس، ولا يترك لأحد حرية تحديد الطول المناسب. كان يرى أن

الطول يجب ألا يقصر عن مستوى الركبة. لذلك لم تفلح كلّ توسلاتي بدفعه إلى تغيير رأيه والسماح لي بتقصير تنانيري.

وأمام رفضه، لجأت إلى اختيار أثواب صوفية رقيقة كي أتمكن من رفعها بحزام ما إن أتخطى عتبة القصر. هكذا كنت أمشي وأركض بدون أية إعاقة تضيق خطواتي.

عندما كنت أتجرأ أحياناً على فعل هذا في ممرات القصر، كان الجميع يضحك مستغرباً جسارتي. لأن عرض السيقان كان من الممنوعات المسلّم بها في القصر.

كنا آنذاك في الستينيات، وكانت التنانير القصيرة هي الموضة السائدة.

صحيح أننا كنا نعيش في دائرة شبه مغلقة، ولم يكن لنا أي احتكاك مع الخارج، إلا أننا كنا على اطلاع كامل بكل أخبار الموضة، ونتابعها بالتفصيل أولاً بأول، بفضل المجلات والجرائد المحلية والعالمية التي كنا نواظب على تصفّحها في الخفاء، وبعيداً عن عيون ريفل.

كانت لطيفة، الملكة الأم، والجواري أيضاً، يلبسن في المناسبات أحدث الموديلات في عالم الموضة.

في أحد الأيام بينما كنت أمرّ في أحد أطول الممرات، وتنورتي مرفوعة بالحزام إلى ما فوق الركبة، لم أقاوم الرغبة في النظر إلى المرآة التي كانت تزين الحائط. في تلك اللحظة رأيت الملك وجهاً لوجه أمامي.

بهلع شديد، رحت لا شعورياً أشد بأطراف ثوبي نحو الأسفل. اقترب مني ونزع الحزام الذي كان يحيط بخصري فانهدل ثوبي نحو الأسفل. عندها قال لي: عندك ما يكفي من قماش بحيث إنه بإمكانك لو شئت أن تحوليه إلى قفطان.

بعد يومين من ذلك وصلت خيّاطتنا العزيزة. كنا بصدد تناول طعام العشاء. استدعاني وأمرني بنزع ثيابي. نفذت ما طلبه منّي بانقباض تام وانكماش. أعطتني الخياطة البذلات التي كان قد أمرها الملك بخياطتها كي أقيسها. الأولى كانت مصنوعة من قماش صوفي. كانت تنورتها طويلة وضيقة فوق اللزوم. كان تصميمها يحاكي موضة الخمسينيات.

اقترب الملك وأخذ الدبابيس من يد الخياطة، ثم راح يتحسس سماكة القماش. كان من المستحيل رفعه كما كنت أفعل بالأثواب الصوفية الرقيقة. أمرني أن أروح وأجيء أمامه في الغرفة. وبعد أن استعرضني مطولاً أمر بشراء حذاء ذي كعب عالٍ ليتلاءم مع هذه البذلة التي لا مناص لي من

ارتدائها.

تدخلت إحدى الجواري لافتة الانتباه إلى أنني طويلة جداً، وأن الرجال لن يرغبوا بي لأنني سأتجاوزهم بهذا الحذاء طولاً.

بحركة من يده أبدى امتعاضه من رأيها، ثم توجه إليّ بالحديث وقال:

ـ الكعب العالي جيد لأنه سيجبرك على تحريك ركبتيك. وهذا تمرين جيد وسيمحنك قداً رشيقاً وناعماً، مما سيجعلك تبدين كامرأة.

مراهقة وحيدة

كانت ريفل تكره الرجال وتحتقرهم، ولا تملّ أو تتعب من تخويفنا وتحذيرنا منهم:

ـ حذار من هؤلاء الوحوش. إنهم مصدر عذابات النساء. يجب علينا أن نتجنبهم مثلما نتجنب الطاعون والكوليرا!!

هذا العداء المعلن للرجال لم يقتصر على الحيّز النظري بل تعداه إلى الحيز العملي، لأن ريفل فرضت علينا تدابير احترازية، تقينا من أي تلوث قد يصيبنا من هذا الوباء الخبيث.

التعليمات والإرشادات الصادرة عنها في هذا الشأن واضحة لا لبس فيها، وهي كناية عن قائمة ممنوعات، علينا التقيد بها حرفياً وتنص على ما يلي:

ـ ممنوع التواجد مع أي رجل في الممر.

ـ ممنوع إقامة أي علاقة عائلية مع أي رجل.

ـ ممنوع النظر من داخل السيارة إلى الخارج. وعندما كنت أفعل هذا أحياناً بدافع الفضول، كنت أتلقى منها صفعة قوية تطير صوابي.

عندما يحالفنا الحظ مرّةً بالذهاب إلى المدينة، كانت تمنعنا من الترجل من السيارة أو التجوّل.

هذه الإجراءات الاحترازية لطرد «الشيطان» ومنعه من الاقتراب منّا لم تكن مجدية ألبتة، لأن الرجال لم يكن لهم الحق بالمجيء لرؤيتنا أو الدخول إلى القصر باستثناء أبي، وهو نادراً ما يفعل ذلك، وابن عم الملك مولاي أحمد، بالإضافة إلى مجموعة «طريفة» لا تتعدى عشرة أشخاص تمّ اختيارهم لسعة علمهم، وذكائهم، وأخلاقهم...

كان هؤلاء يتجادلون فيما بينهم طول الوقت في المواضيع السياسية، لا سيّما منها المتعلقة بسياسة «جلالته»، وينتقلون منها إلى المواضيع الأدبية، يتبارون فيما بينهم بتلاوة الشعر العربي القديم، تماماً كما كان يحصل في بلاط هارون الرشيد في العصور الغابرة.

نعم هذه شاكلة الرجال الذين كان يحق لنا مخالطتهم بالإضافة إلى الملك، هذا إذا جاز لنا استبعاد العبيد والخدم، إذ وجودهم وعدمه سيّان.

ومن المفارقات المدهشة والغريبة أن من كان يعطينا دروساً في التربية الجنسية من خلال النصوص القرآنية لم يكن إلا فقيهاً كهلاً. كان يقول لنا بأن النساء خلقن فقط للطاعة وللإغراء والإثارة. وظيفتهن الأساسية إمتاع الرجل وإشباع رغباته وشهواته الجسدية، فأجسادهن إنّما خلقت لهذه الغاية.

بكل وقاحة كان يرسم لنا على اللوح الأسود الكبير الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة. كانت هذه الطريقة الفجة في التعليم تسبب لنا الصدمة. إذ لم نكن مهيآت بعد لاستقبال هذه الشروحات المستفيضة، كنا صغيرات جداً وتربيتنا التي كانت متزمتة إلى أبعد الحدود لم تكن تسمح بمثل هذا النوع من الصراحة والواقعية. وما كان يربكنا ويزيد صدمتنا هو كيف يمكن أن تترك الحرية لرجل دين للخوض بحرية مطلقة معنا في هذا الموضوع الدقيق والحسّاس. إنه رجل يفتقر إلى أبسط قواعد التربية العلمية السليمة. للأسف لم يكن يعول على ريفل أن تصوّب أو تصحح بعض المزاعم والفرضيات التي يأتي بها ذلك الفقيه. إنها تتعاطى مع كل ما يمتّ إلى الأنوثة بصلة بنوع من الرفض والعداء. إنها تعتبر الأنوثة لعنة يجب مكافحتها ومحاربتها، لأن الإذعان لها مكروه وحرام.

كيف أنسى كلّ العار والهوان الذي شعرت به عندما بلغت، مع أنني كنت آنذاك في الثانية عشرة من عمري. إن الألم الذي انتابني كان نفسياً أكثر منه جسدياً. شعرت بالوحدة والضياع، والإذلال.

كانت الحاضنات المغربيات مكلفات رسمياً بالإشراف على حسن سير أمورنا خلال فترة الحيض. المسألة معقدة وبعيدة عن أي تبسيط. هنالك قواعد وأصول يجب تطبيقها ومراعاتها:

- الحفاظ على النظافة البدنية والصحية.
- وضع فوط صحية قماشية بطريقة خاصة ومعينة.
- تعلّم كيفية غسل هذه الفوط بأنفسنا بعد الانتهاء منها.
- تعلّم كيفية الاغتسال من هذا الحدث والتطهر منه.

تلك الحاضنات كن يتعاملن معنا بقسوة شديدة. كان لهن الحق الكامل باستدعائنا في أي لحظة، يأمرننا بخلع سراويلنا الداخلية ليتأكدن بأنفسهن أننا لم نلطخها بدم النجاسة.

والويل لنا إذا ثبت الجرم على إحدانا، لأن الحاضنة كانت تنتقم من المذنبة أشد الانتقام، بأن تقرصها قرصة موجعة في المواضع الحميمة من جسدها. حتى إن حاضنتي لم تتورع مرة من إدخال المفتاح الذي كان بيدها بين فخذي بعنف شديد مما سبب لي ألماً مبرحاً.

العادة الشهرية كانت دائماً بالنسبة لنا بمثابة البلاء العظيم، كنا بسببها نعامل من قبل الحاضنات باحتقار، وكأننا اقترفنا خطيئة مميتة لا تغتفر، أو كأننا صرنا في مصافّ الخاطئات والساقطات.

كم كنت بحاجة ماسة إلى أم أو أخت كبيرة تصغي إليّ وتسمعني! تشرح لي هذه التحولات الطبيعية التي تطرأ على جسدي، تطمئنني وتخفف عني، تهدّىء روعي في هذه الفترة العصيبة والحاسمة من حياتي الإنسانية، وتقول لي إنه مدعاة للفرح والسعادة أن أصبح امرأة، وإنه لا يحق لأحد أن يعاملني بعنف وإذلال، ولا داعي البتة أن أشعر بأي عقدة نقص أو ذنب!

حاولت أن أستعيض عن غياب أهلي بصحبة الجواري. في البداية تجاوبن بحرارة، احتفلن بانضمامي إلى شلّتهن. أصبحن يتحدثن أمامي بصراحة وحرية، ويأتمنني على أخبارهن وأسرارهن. بعد سنتين تغيرن كلياً معي، صدمني هذا التحول الهائل ما بين ليلة وضحاها، خلت للوهلة الأولى أنني أنا السبب. ربما فعلت شيئاً أثار نقمتهن وعدائيتهن.

يا لبساطتي وسذاجتي. لم أفهم حينها أنني أصبحت شابة بعمر الزواج وأنني أصبحت أشكل منافساً خطراً لهن. كن يدقّقن النظر في جسدي عندما أكون في لباس البحر، أو أرتدي الملابس العصرية، أو عندما أتزين وأتجمّل. لقد شُنّت حرب خفية ضدي. كن يعملن بلا هوادة على استفزازي وإخراجي عن طوري. كل هذا الاستنفار وكل هذه الحروب والمعارك كانت للتقاتل على الملك؟ يا لسخرية القدر! ويا لتلك الحمقاوات! لقد أهدرن كل تلك الطاقة على شكوك من صنع رؤوسهن الفارغة الصغيرة، لأنني لا أعتقد ألبتة أن الملك خطر له يوماً أن يطلبني للزواج لأن هذه الفكرة لم تراوده حتى في المنام!

كنت أعيش بوجهين، وقلبين، ولسانين! أتظاهر أمام الجميع بالسرور والمرح والضحك والابتسام، ولكن الغصة والحزن والهم كانت تنغص حياتي وتكاد تقتلني. أين أمي لتذود عني

وتحميني من جور هذه المربية ريفل التي لم تترك يوماً يمر دون أن تذكرني أنني كائن وضيع، وأن للا مينا أرفع منّي قدراً وشأناً. كانت تمنعني من أن ألبس مثلها، أو أبقي شعري طويلاً، لأن هذا يخدش مشاعر للا مينا ويستفزها، لأن شعرها كان مجعداً لا تستطيع تطويله.

كانت أمي تحضر لي من لندن وباريس أجمل الملابس العصرية. كانت المربية تسمح لي بارتدائها مرة واحدة، ثم تستدعي الخياطة وتطلب منها تفصيل بعض الموديلات مثلها للأميرة الصغيرة. ثم تخفيها داخل حقيبة لا تلبث أن تغيب وتتوارى نهائياً عن عيني.

الله وحده يعلم ماذا كانت تفعل ريفل بتلك الملابس!

مع الأيام، تحولت هذه المعاناة المستمرة والصامتة تدريجياً إلى تمرد وثورة.

كنت أحب الأميرة وتحبني. وفي القصر كانوا يظهرون لي الكثير من العاطفة والاهتمام. ولكن هذا ما كان ليعوّض النقص الذي كنت أشعر به من جراء ابتعادي عن أهلي. كان من الصعب عليّ أن أعيش بلا ماضٍ، وأن أقتلع ذاكرتي وأرضى بأن أكون مجرد رقم يضاف إلى كل تلك الأرقام.

أمرّ ما في التبنّي أنه يجتثك من جذورك، ويجردك من هويتك الحقيقية، ويحرمك من حقك في الحرية والاختيار!

كان البلاط الملكي يغصّ بعدد هائل من نساء مجهولات الهوية. أما أنا، فقد كان لي أب، وأم، وعائلة. يمكنني لو سمح لي أن أجتمع بهم وأراهم. وهذا ما كان يحزّ في قلبي ويعذبني.

في الليل، وأنا مستلقية في سريري، كنت أحلم بالحرية، أستعيد المشاهد السينمائية المؤثرة، كنت أتخيل أن هنالك عالماً آخر، أخترع قصصه وأضعها بنفسي. كنت أقص فصولها على صديقاتي في عتمة الغرفة. وإذا كنت قد تأقلمت بسهولة مع واقع السجن فلأنني كنت معتادة عليه منذ طفولتي الباكرة. عرفت دائماً كيف ألزم الحدود التي ترسم لي مهما كانت ضيقة وخانقة. إنها مفردات أليفة لم تكن لتخيفني بل كنت أستأنس بها.

كان شوقي لأمي شديداً وشعوري بالوحدة يضاعف آلامي ما جعلني أفكر في الانتحار مرتين: المرة الأولى كنت في العاشرة من عمري عندما قررت أن أضع حداً لحياتي في حقل عباد الشمس الكبير الذي يقع خلف ڤيلا ياسمينة. سننت طرف قضيب خيزران ثم غرزته في إبهامي، ممّا أدى إلى تدفق الدم منه. بعد ذلك فركت الجرح بالتراب على أمل أن يؤدي ذلك إلى إصابتي بالتهاب. أغمضت

عيني، وقلبي يدق بعنف، بانتظار أن يأتي الموت ويخلصني مما أنا فيه. لكن الموت تأخر بالمجيء، وأنا مللت الانتظار.

لكنني كل يوم كنت أفرك الجرح بالتراب، علّ هذا يوقعني مريضة مما يستدعي نقلي إلى عيادة القصر للمعالجة. وهذا سيسمح لي برؤية أمي التي ستأتي بلا شك، هارعة لعيادتي والاطمئنان على صحتي.

وهذا بالضبط ما حصل، كما حلمت به وأكثر. لقد عاد عليّ هذا الانتحار الفاشل ببعض المنافع الجانبية.

أما المرة الثانية، فقد كنت في الثانية عشرة من عمري. أردت أن ألقي بنفسي أرضاً من الطابق السادس في الڤيلا في إفران. لكن الارتفاع الشاهق أخافني وأرهبني. فعدلت عن رأيي. هاتان المحاولتان الفاشلتان سكّنتا بعض الشيء من روعي، لأنني لولا غريزة البقاء من جهة وفقدان الشجاعة من جهة أخرى لما بقيت حتى الآن على قيد الحياة.

كنت ضائعة ما بين الشرق والغرب. في بيت أهلي وفي ڤيلا ياسمينة كنا نتكلم بالفرنسية. أما في القصر الملكي فكانت لغة التخاطب السائدة هي العربية. لغة البلاط كانت مميزة وخاصة، مليئة بمفردات منتقاة ومدروسة، ترافقها حركات وإيماءات كنا نتعلم كيف نقوم بها. كما كنا نتعلم كيف نلفظ الكلمات والجمل. والويل لنا إن لم نتقن فن المحادثة والكلام!

فيما بعد تعرضت لسخرية عائلتي على طريقة الكلام التي لم أتمكن من التخلص منها أو تغييرها، لكن ما هوّن عليّ الأمر أنني بسببها كنت أحظى باحترام المغاربة أينما ذهبت، كانوا يسألونني دائماً إذا كنت أنتمي لـ«دار المخزن» أي العائلة المالكة.

في ڤيلا ياسمينة كانت المربية تعطينا دروساً في آداب السلوك. تعلّمنا كيف نجلس على الطاولة، وفي الصالون، وأصول الضيافة، وكيف نستقبل ونودّع، ونطهو، كيف نفرض احترامنا، وكيف نصبح فتيات عصريات قادرات على التصرف في كل المجالس والمناسبات. أما في القصر الملكي، فقد تولوا تعليمنا كيف نصبح نساء منذ اللحظة الأولى لبلوغنا. علينا التقيد بالبروتوكول:

ـ ممنوع علينا بعد اليوم الخطأ.

ـ علينا عدم تجاوز عتبة البلاط، وملازمة جناح الحريم.

- علينا ارتداء الزي المغربي الطويل.

- علينا الخضوع، والانحناء، والسجود، والطاعة.

للأسف كانوا يولون جلّ اهتمامهم إلى النواحي السطحية وإلى القشور التي تهمش المرأة وتحولها إلى مجرد أداة للمتعة ووسيلة للولادة ليس إلّا، وتقتل في داخلها أي ملامح فكر أو إبداع.

كانوا يجبرونها على التخلي عن شخصيتها، ويعلّمونها كيف تتعبد في محراب الرجل آناء الليل وأطراف النهار.

لكن عزاءنا أن هناك نساء مسنّات كانت حالهن أكثر سوءاً بكثير من حالنا. وأي طالع أشد سوءاً من أن تكون امرأة في مجتمع لا يقدس إلّا الفحولة ويقود بالعصا قطيع النساء.

تعلمت متى أتكلم ومتى أصمت، وكيف أقرأ ما بين السطور، لقد تعلّمت أن أستعين على قضاء حوائجي بالكتمان الشديد، وأن التحفظ والحذر قاعدة ذهبية لا بديل لها.

لا تتحدّد في عمر المراهقة المعالم النهائية للشخصية. فأنا، ككل المراهقات، كانت تثير اهتمامي الملابس الجميلة، والمجوهرات، وحياة خليلات الملك اللواتي لم يكن عندهن أيّ وظيفة إلّا الاعتناء بأجسادهن وأشكالهن ليفزن برضا سيدهن ومولاهن. هذا الانجذاب إلى عالم البلاط لم يدم طويلاً، لأنني كنت أدرك أنني لم أخلق لهذا أبداً. كنت أشعر بالقمع والاضطهاد. كلما تقدمت في السّن كانت الحقيقة تصبح أكثر وضوحاً وبشاعة. لقد أدركت مع الوقت أنني كنت طوال تلك السنوات والأيام سجينة بين جدران القصر، وأنني كنت أذبل وأختنق تدريجياً.

عندما كنا نسافر براً، كنت أستغلّ مسافة الطريق للتأمل ملياً في المحيط الخارجي من خلال نافذة السيارة. كنت أرى أحياناً في إحدى السيارات التي كانت تمر بمحاذاتنا، عائلة مكونة من أب وأمّ مع أبنائهما، أو شاباً يركب فوق دراجته النارية، كم كنت أغار منهم، وأحسدهم على حريتهم وهنائهم. لأنني كنت أنتقل فقط من باب السيارة إلى باب القصر أو العكس. إن مجرد باب كان يفصلني عن الدنيا. ما بين إغلاق باب وفتح آخر كنت أعود مجدداً إلى حيث كنت، مجرد امرأة بين النساء المكدّسات في القصر هناك.

كان من الصعب عليّ تحديد المعالم التي تفصل ما بين هذين العالمين، وهاتين الثقافتين. كنت أشعر أنني قريباً جداً سيكون لزاماً عليّ أن أختار ما بين الاثنين. فأنا أنتمي إلى عائلة عادية تحكمها مبادىء

وقيم وأنماط تختلف عن تلك التي يعمل بها في القصر، حيث كانت حياتي خاضعة لسلطة ملكية مطلقة ومقدسة.

ترعرعت في البلاط بين العبيد، والجواري، والأميرات والملكات. كنا جميعاً ندور في فلك رجل واحد. لا بد أن يتغير هذا الواقع يوماً، ويصبح نمط الحياة عادياً داخل القصر ويتماشى مع روح العصر!

ذلك المجتمع الصغير الذي يقبع في أقبية التاريخ حماني من مخاطر الحياة، وأراحني من مشقاتها. لكنني لم أشعر يوماً بالانتماء إليه بل إلى مكان آخر لا أعرفه، ربّما كان أوروبا. لا غرو إن كنت أجد نفسي التي أبحث عنها متمثلة بشدّة في المرأة هناك.

أكثر ما كان يرعبني ويصدمني أحكام العقوبة التي كانت تنفذ في باحة حرم القصر بكل وحشية وبشكل دائم. هنالك كانت تضرب الجواري، وتجلد، ويتم نفيهن وإبعادهن إلى الأبد في سجن أحد القصور، كما في سجن قصر مكناس حيث كنّ يعشن كالأموات.

كان للسلطان يوسف، جد الملك، جاريتان تركيتان هما هاجر وقمر، أهملتا ونبذتا بعد موت سيدهما. لكن الأمير مولاي عبدالله أشفق عليهما، واستقبلهما في داره الكائنة في الرباط لتقضيا ما تبقى لهما من العمر بسلام. عندما قابلت هاتين الجاريتين الجميلتين ببشرتهما البيضاء الناصعة، وعيونهما الزرقاء، وشعرهما الأحمر ولكنتهما الغريبة وهما تتحدثان العربية، أدركت إلى أي مدى كانت هذه الحياة القاسية همجية ومن مخلفات العصور الوسطى. حاولت أن أفهم لماذا كل هذا الإجحاف والانتهاك، والعبث بالحريات والكرامات. ومن الذي يؤكد الاتهامات وينفيها، ويصدر أحكام العقوبات وينفذها أو يلغيها؟ لقد اختلطت عليّ الأمور، وتشابكت في رأسي الحقائق والوقائع.

الرحيل من القصر الملكي

عانت أمي بصمت من خيانات أبي المتكررة لها. هددته مئات المرات بأنها ستتركه وتهجره إلى غير عودة إذا عاود الكرة، لكنها كانت تسامحه مرةً بعد أخرى، على أمل أن تكون الأخيرة، وأن يعود الزوج الضال إلى رشده لأنها لا تريد أن تخرب بيتها بيدها.

يئست أمي من أي إمكانية لإصلاح أبي الذي لم يعد يأخذ بعين الاعتبار تهديداتها، لكثرة ما

رددتها ولوحت بها. لعلّه اعتبر أنها، ككل النساء، تقول ولا تفعل. لكنه أخطأ، لأن فاطمة الشنّا لم تكن امرأة عادية، وإن نامت على الضيم، فإنها لا تنساه، لأنها تحب أن تتناول وجبة الثأر باردة.

وها هي أخيراً تنفذ ما وعدت به. لقد تركت المنزل الزوجي إلى غير رجعة، متأبطة ذراع الضابط الشابّ الذي وقعت في حبه بدون أدنى مقاومة. بعد أن وضعت رؤوف ومريم في نزل داخلي فخم في غشتاد في سويسرا، وأجبرت أبي على منحها حق حضانة ماريا وسكينة، الأولى عمرها سنتان، والثانية سنة واحدة.

استأجرت أمي فيلا صغيرة في حي الطلبة في الأكدال، وافتتحت متجراً للملابس النسائية الجاهزة سرعان ما ارتادته محبّات الأناقة، وتوافدن إليه من كل أنحاء المدينة. لقد انقلبت حياتها رأساً على عقب. وأصبحت منذ ذلك اليوم سيدة نفسها، تفعل ما تريد، كيفما تريد، ومع من تريد. صارت تتعاطى بالشأن الفني والثقافي، وتربطها صداقة بالعديد من الفنانين والمثقفين.

كانت هذه الخطوة ضرورية لأمي كي تستعيد ثقتها بنفسها التي سلبتها إياها تصرفات أبي وخياناته. كما أنها كانت فرصة لتختبر من خلالها كفاءتها وقدرتها على الخوض في مجاهل الحياة بمفردها.

كانت صغيرة عندما تزوجت، ولم تعش أبداً عمر المراهقة، آن الأوان أن تعيشها اليوم وتنعم بها في أحضان هذا الفتى الضابط الذي فتنها دونما صعوبة تذكر. كانت تتخبط في لجة اليأس، والزوج المحبّ الغيور مشغول عنها بتهتكه ومجونه، فأي فريسة يمكن أن تكون أسهل منالاً منها؟!

كنت في الحادية عشرة من عمري. لماذا لم يكلف أحد نفسه عناء شرح ملابسات الطلاق الذي وقع بين أمي وأبي؟ كان من حقي أن أعرف هذا بدلاً من أن أبقى في شك وحيرة وفريسةً للهواجس! كانت نظرات الرثاء والإشفاق التي يحدجني بها أهل القصر تنهال علي كالسكاكين. لو أنهم فقط وفروا شفقتهم، وتركوني في سلام. ومن أين يجيء السلام؟! من الملك الذي أخبرني بنفسه أن أبي سيتزوج من امرأة أخرى، وأنه سيقيم له حفل زفاف ضخماً في قصر مراكش؟ أم من تهافت الناس وتسابقهم على إقامة حفلات التكريم على شرف مدام أوفقير الجديدة، والتي كان اسمها فاطمة أيضاً مثل أمي، والتي كنت ألقبها شخصياً بالحمقاء لكثرة ما كنت أجدها غبية وبلهاء.

هكذا بجرّة قلم تصبح فاطمة الشنّا في طيّ النسيان. ألم تعد تليق بالمقام؟! أفجعني تقلّب الناس

وتغيّر أهوائهم. كيف يتجرؤون على معاملة أمّي بهذه الطريقة، وهي التي كانوا يداهنون ويتزلفون من أجل كسب ودها ورضاها.

كان بودّي ألا يكون الملك هو من أقام حفل زواج أبي! لقد جرحني وآلمني بهذا! ثم لماذا أمر بمنع أمي من الاقتراب من بلاطه، وأوصد بوجهها كل الأبواب والمنافذ؟ ترى هل ما أصاب أمي سيصيبني أنا أيضاً في يوم ما؟!

عندما أرسل أبي بطلبي بعد زواجه، ذهبت لرؤيته في البيت الذي تغيرت معالمه وتبدلت وكأنني أزوره لأول مرة. رفضت بصلافة أن أصافح أبي، وقلت له إنني أكرهه... أكرهه لما فعله بالعائلة؟! كنت في منتهى العدائية معه. أعرف أنني جرحته في العمق، وأربكته حين راح يخبرني بصوت حزين ينمّ عن اليأس: لم أتوقف يوماً عن حب أمك.

كيف يمكن أن تحبّ امرأة وتتزوج أخرى؟ ما هذا اللغز المعقد! كيف يمكن لصغيرة مثلي أن تعي منطق الكبار؟ أشعر بحيرة قاتلة، ومن الذي سيردّ على أسئلتي العالقة؟ ميمي ورؤوف المتواجدان في سويسرا، أم الصغيرتان سكينة وماريا؟ أما للا مينا فلا تفهم شيئاً مما يجري أو يحصل. إنني وحيدة أكثر من أي وقت مضى.

لم يكذب أبي عليّ عندما قال لي إن مشاعره حيال أمي لم تتغير ألبتة، وإنه ما زال متيماً بحبها، لم يفقد الأمل بإمكانية استعادتها، لذا كان يطاردها مثل ظلها. وضعها تحت المراقبة، هددها، قضى ليالي بطولها داخل السيارة مقابل منزلها. أما الضابط المسكين فلقد أرسل في مهمّات عسكرية خطيرة إلى أقصى البلاد بهدف إنهاكه وإبعاده. طلب منه أن يقدم استقالته لكنه رفض. نعته قائد القوات العام بـ«المجنون» لأنه تجرأ على النظر إلى زوجة أقوى رجل في المملكة بأكملها.

ـ إنها الآن ملكي أنا! قالها بفخر وكأنه لا يصدق نفسه.

شاء القدر أن يقرر الملك القيام بزيارة إلى الجنوب، فأراد أبي أن يقيم حفل تكريم على شرف الملك في قريته، لذلك طلب مساعدة أمي على تنظيم استقبال يليق بمقام الملك. كانت هذه المناسبة هي التي أعادت المياه إلى مجاريها بينهما. طلق أبي زوجته ليعود ويتزوج بأمي. كانت أمي متعلقة بأبي لأنه كان متجذراً بقوة في داخلها. كانت دائماً تردد أمامي بأنه هو من علّمها الحياة، ومن صنعها، وبأنها مدينة له بما هي عليه. كانت تحبه، وظلت تحبه. لم أسمعها أبداً تقول إن ما تكبدناه من أسى وما تجرعناه

من مرارة كان بسبب أبـي. حتى عندما كنا نتلظى في أتون العذاب، لم تنطق أبداً بمثل هذا.

حملـت أمـي مجـدداً. كان أبـي يردد لهـا طوال أشـهر الحمل نفـس المعزوفة: أجمل هديـة يمكن أن تمنحيني إياها هي صبي يشبهني.

ولد الطفل ثمرة الوفاق سنة ١٩٦٩، في اليوم الذي وقعت فيه الهزة الأرضية العنيفة التي من حسن الحظ لم يكن عدد ضحاياها مرتفعاً.

أسماه الملك عبد اللطيف. لم يعش أبـي كثيـراً ليرى كيف سيصير الصغير، كان عمره ثلاث سنوات عندما توفي أبـي. لقد أصبح صورة طبق الأصل عنه. وهكذا تحققت أمنيته.

مضى وقت على عودة أبـي وأمي إلى حياتهما المشتركة، ومع هذا، لم تهدأ ألسنة المغرضين الذين يعشقون لوك سيرة الناس بألسنتهم السامة والسليطة. الجواري كن لا يتعبن من تقصي الأخبار عن اليمين وعن الشمال، وهوايتهن المفضلة اللهاث في أعقاب الفضائح التي يهللن لها طرباً. أعرف أنهن وضعن اسم أمي قيد التداول في القصر، وأنها بالنسبة لريفل المربية لم تكن أكثر من ضائعة وساقطة ليس إلّا.

سمعتها بأذني وهي تهمس بهذا لإحدى النّمامات عندما كنا ننتظر يوماً في العيادة نتيجة العملية الجراحية لاستئصال المرارة التي كان يتم إجراؤها لأم سيدي. لم أتمالك نفسي حينها، أعماني الشعور بالغضب والمهانة. فرحت أصرخ بحدة وأكيل لها الشتائم. أقبل الملك نحوي عندما سمع صراخي، نظر إليّ نظرة تأنيب، إذ لا يجدر بـي أن أفعل هذا، فلا المكان ملائم ولا الزمان.

تفاجأ الملك بنوبتي العصبية، ربّت على كتفي محاولاً تهدئتي، وطلب مني توضيحاً لما يجري. وأنا أجهش بالبكاء أجبت بأنني أريد العودة إلى بيتنا وقلت:

ـ لدي عائلة وأنا أتمزق ألماً لعدم رؤيتها. ثم أضفت أن للا مينا عديمة الوفاء، ومع هذا حاولت أن أتفهمها وأن أسعى لإرضائها.

صدمت عندما أجابني موافقاً:

ـ لا أخطئك، فقلة الوفاء هي من شيم العلويين.

لقد أصاب عزمي وتصميمي الملك في صميم كبريائه لذلك لم يصر على بقائي...

قبل هذا المشهد الدرامي، حاولت مرة أن أهرب خلال النهار دون أن يراني أحد. نجحت في حفر

فجوة تحت السياج. وفي إحدى الأمسيات تمكنت عبرها من المرور إلى الجهة الأخرى. لكن بريق الحرية بهرني وأخافني. لم أكن بعد مستعدة لذلك ولا أعرف إلى أين أذهب. دفعني الخوف من هذا العالم المجهول والغامض للعودة حيث كنت.

في اليوم التالي، كتبت رسالة يائسة إلى أبي أخبره فيها بأنني سأهرب. حاول عبر التلفون تهدئتي وتعقيلي، وأفصح لي أنه سيفعل المستحيل كي يستعيدني إلى أحضانه.

في الحقيقة كانت هنالك أسباب أخرى تدفعني بقوة وإلحاح في هذا الاتجاه. كان الملك يريد تزويجي من ابن أحد الجنرالات، وأنا لا أطيقه ولا أحبه. ولو أطلت المكوث في القصر لتحقق ذلك ربّما، ولما عاد بإمكاني اختيار حياتي كما يحلو لي: كيف سأكمل دراستي؟ وأسافر؟ وأصبح ممثلة أو مخرجة سينمائية كما كنت أحلم دائماً؟!

قبل أن أترك القصر، حاولت عدة مرات أن أتحدث مع الجواري لأفتح أعينهن على واقعهن الأليم، وقدرهن الغاشم. بدلاً من أن يفكرن ملياً بما ألفتهنّ إليه، كنّ يضحكن ويهزأن بي. تلك النسوة لم يكنّ غبيات لكن لا حاجة لهن بهذا. إنهن يعرفن جيداً ما هي الحياة التي أضعنها، وما هي تلك التي يكسبنها في المقابل الآن.

بقيت مدة ستة أشهر أنام ليلاً في بيتي، وأمضي النهار في القصر حيث كنت أواصل التعلم في المدرسة هناك. كنت في وضع حسّاس ودقيق.

لم يكن سهلاً التخلي عن حياة القصر والجواري، لا سيّما أولئك القديمات اللواتي ما فتئن يرددن على مسمعي مئات المرات بأنه لا يجدر بي ترك القصر أو التخلي عن للا مينا. من المؤكد أنهن يحقدن الآن عليّ لأنني خالفت وصاياهن وتعليماتهن. أشعر أحياناً بعقدة الذنب، ولكن لا يهمّ فأنا سعيدة بما فعلته، ومطمئنة، ولن أندم على أي شيء.

ما إن انتهت السنة الدراسية حتى ابتعدت نهائياً عن القصر. تلقيت العديد من الدعوات والاتصالات عبر جهاز التشريفات، غير أنني امتنعت عن تلبية أي منها، مما دفع أبي إلى التدخل من أجل إجباري على الذهاب إلى هناك، لأنه كان من المعيب وغير اللائق ألا أفعل هذا، لأن ذلك لا ينم عن التهذيب والاحترام. في كل مرة كنت أنفجر في نوبة عاصفة من الدموع، لقد كنت دائمة الخوف والهلع من أن يعيدوني إلى هناك.

منزل عائلة أوفقير (١٩٦٩-١٩٧٢)

العودة إلى المنزل

عدت إلى البيت مع هبوط الليل. ما زلت أذكر تلك العتمة، وذلك الشعور الغامر، في هدأة الليل، بالفرح والسعادة. كنت أتعجّل الوصول إلى مهد الطفولة، لأعوّض ما فاتني من حنان ودفء في الأيام الخوالي. هنا مكاني الطبيعي، في بيتي، وبين أهلي وعائلتي. لقد عدت إلى حيث يجب أن أكون.

كانت أمي في لندن، وأبي في الوزارة، والأطفال الصغار في غرفهم مع مربياتهم. استقبلني شخص مجهول لم أكن أعرفه، أزعجني جداً اعتداده الشديد بنفسه.

جُلت داخل البيت، داعبت الجدران والأثاث. نظرت مطولاً إلى الصور المعلقة، كل أفراد العائلة كانوا هناك باستثنائي أنا.

في كل تلك السنوات التي فاتتني بعيداً عنهم، كم غاب عني من قصص وحكايات وذكريات! هل هؤلاء حقاً إخوتي وأخواتي؟ هذا أبي في بذلته العسكرية؟ وهذه أمي في ملابسها الأنيقة؟ لم أرها في هذه الثياب قبل اليوم. ومن أين لي هذا، وأنا كنت سجينة ومنفية هناك...؟

دخلت إلى غرفة أمي، ورحت أتلمس أشياءها بخشوع. ما زالت رائحتها تهدهدني، وتدعوني للاسترخاء والنوم. كم كنت أحب أن أدفن وجهي في سترتها عندما كنت صغيرة، لأستنشق رائحتها وأشعر بالأمان والاطمئنان. في الصالون، تجرأت على الجلوس في المكان الذي كان خاصاً بأبي، فوق كنبته المفضلة، فركت وجهي بالمسند الذي كان يسند إليه ظهره. وأنا أداعب ولاعته بيدي، ذرفت دموع الحزن والفرح.

تأسفت على تلك السنوات التي ضاعت من عمري، والتي لم أدرك مدى مرارتها وقسوتها إلّا عندما رجعت. آه كم فاتني من أشياء وأشياء...

كان بيتنا يقع في شارع الأميرات على غرار البيت السابق، اشترى أبي الأرض بالمال الذي تقاضاه عندما تقاعد من الجيش الفرنسي. وبنى عليها ڤيلا بالقرض الذي استدانه من البنك.

كانت مساحتها واسعة، ومريحة، وتتسع للضيوف الذين كانوا يستقبلون فيها بمنتهى الحفاوة والتكريم. ما إن نجتاز بوابة الحديد، حتى نسلك طريقاً يقودنا إلى بيتنا ذي الجدران المطلية بطلاء أحمر، كذلك الذي كانت تطلى به جدران الڤيلا في مراكش. كان العشب الأخضر يغطي جانبي

الطريق ويرتفع سياج من أشجار السرو ليرد أعين المارة عنا.

على الجانب المقابل كانت هناك حديقة يابانية قامت أمي بتصميمها وإعدادها، مغطاة بالحجارة، ومزروعة بالأشجار القزمة القصيرة. كان هنالك أيضاً مسبح، وملعب تنس، وصالة سينما وحمام سونا، ومرآب يتسع لعشرات السيارات.

كان المنزل بعيداً كل البعد عن مظاهر التكلّف والبذخ. كان والداي يعطيان الأولوية للراحة، وليس للتصميمات الفاخرة الخالية من أي فن أو قيمة جمالية.

وفي قناعتهما أن المال وجد لتوفير الحاجات والرغبات، ولكن لا داعي للفحش والمبالغة. جهزت أمي الغرفة وأثثتها بمنتهى البساطة والأناقة، فقد كانت معروفة بذوقها الأصيل والمتميز.

معظم الناس الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا يقولون إن بيتنا كان من أجمل بيوت الرباط وأفخمها، لكنني لا أعتقد هذا. لقد كان بيتاً عادياً ليس إلّا! كانت غرفة الجلوس التي نجتمع دائماً فيها ذات مساحة ضيقة نسبياً، تتوسطها طاولة مستديرة ومنخفضة على الطريقة المغربية. في تلك الغرفة، كنا نتناول طعام الفطور والغداء، والعشاء، ونشاهد التلفاز. كانت غرفتي تقع في الطابق الأول، لقد كانت معدة بأناقة إنكليزية رفيعة، حتى تكون جاهزة لاستقبال رجوعي إلى كنف العائلة.

بعد مدة من رجوعي إلى المنزل، انتزعت الموافقة بالسكن في استديو صغير يقع ما بين حوض السباحة وقاعة السونا. كان أبي يعارض هذا القرار بشدة. كنت بحاجة إلى بعض الخصوصية وبعض الوقت كي أتأقلم من جديد في جو العائلة، وأنصهر في بوتقتها. على أي حال، تلك الغرفة الصغيرة التي كانت تحتوي على سرير، ومكتبة، وحمام، حققت لي بعض الاستقلالية الذاتية التي كنت أتعطش إليها.

احتجت إلى وقت طويل كي أتعرف على عائلتي، وأحيط بأمورها ومشاغلها وهمومها عن كثب. في الأشهر الأولى، عكفت على المراقبة، كنت أتمعن وأدقق النظر في تصرفات وحركات كل واحدٍ منهم على حدة. كان أخي عبد اللطيف، المولود الجديد، يستأثر بكل وقتي واهتمامي كلّما رجعت من المدرسة. لم يكن من السهل بتاتاً إعادة وصل ما انقطع بيني وبين أخي رؤوف من جهة، وأخواتي الثلاث من جهة أخرى. لم يعد هنالك من قواسم، ولا نشاطات واهتمامات مشتركة، ولا مخططات

ومؤامرات مشتركة، ولا أسرار مشتركة. فما الذي يجمع بيننا بعد؟ الدم، أم الحسب والنسب؟!

مع أمي كان الأمر عوداً على بدء، وهذا ما عوضني بعض الشيء. إذ سرعان ما استعدنا الود القديم الذي كان دائماً قوياً ومتيناً بيننا.

كان يخيم على منزلنا جو من الألفة والمحبة، ويعبق من جنباته أريج الفرح والسعادة. لكن كلما كان أبي يتبوأ مركزاً حساساً أكثر كلما كان يخفّ الدفء العائلي الذي كنا ننعم فيه، ويتسرب بعيداً إلى غير عودة.

أضحى المنزل محطة للذهاب والإياب. الرجال ينتظرون مجيء أبي في غرفة الاستقبال، والنساء يتأملن ثوب أمي الجديد، وقلوبهن تغلي حسداً. لقد كانت رمزاً يحتذى، ومحط أنظار كافة النساء اللواتي كن يتسابقن لتقليدها والتشبه بها.

لقد عشنا دائماً محاطين بهذه العينة من البطانة التي كانت تقحم نفسها في حياتنا. كان ديدنها النفاق، والتزلف، والمداهنة. وكان البيت يغصّ بهم ليلاً نهاراً. كانوا أكثر خنوعاً من هؤلاء الموجودين في القصر الملكي. إذا حالفنا الحظ يوماً بتناول الفطور العائلي بسلام تكون قد مرت علينا ليلة القدر. تلك الحاشية كانت تسد منافذ البيت، وكانت تكتظ في أروقته وغرفه في كل الأوقات، حتى إنهم لم يوفروا الصالون الصغير الذي كان أبي يستقبل فيه الوزراء والضباط في اجتماعات عمل. عندما كانت نساؤهم تصل للانضمام إليهم، كانوا يجلسون جميعاً في الصالون الكبير الموجود في الطابق الأرضي، حيث كانوا يشربون كأساً ويثرثرون. كان الكبار يتناولون العشاء في ساعة متأخرة من الليل، ونادراً ما كان عدد المشاركين يقل عن ثلاثين شخصاً.

لم نشعر مطلقاً بالزهو والفخر بالسلطة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما أبي. لم نكن نقيم وزناً لهذا الجانب من شخصيته. بالكاد اكترثت عندما أعلموني في القصر يوماً أنه رجل مهم. لقد كانت الملكة الأم تكنّ له محبة خاصة، والملك يكرس له قسماً كبيراً من وقته واهتمامه. لقد كان موضع احترام وتبجيل في البلاط الملكي برمته.

عندما عدت إلى المنزل اكتشفت أن الناس كانت تخافه وترهبه، وكانوا يصفونه بالمتوحش. أصدقائي كانوا يعتبرونه عدو الشعب رقم واحد. مجرد ذكر اسمه كان كفيلاً بأن يشنّجهم.

في مدرسة للا عائشة التي سجلني فيها أهلي لإكمال دراستي الثانوية، كانوا يظهرون لي الاحترام

والتقدير، ويتهامسون عليّ، ويشيرون نحوي بالأصابع. وقد نعتتني إحدى الطالبات بـ«ابنة القاتل» بسبب قضية بن بركة، التي كنت أجهل جهلاً تاماً أبعادها وفحواها.

لم أكن أملك أية معلومات تخولني النفي أو الرد على أي هجوم، كنت أنحو باللائمة دوماً على أجهزة القمع والإرهاب، وعلى السلطة في المناقشات السياسية التي كنا نخوضها أحياناً في المدرسة. يا لسذاجة الطفولة وبراءتها! ففي رأسي الصغير، كان أبي منزّهاً وغير معنيّ بكل هذا.

كنت أحب أبي بشدة، وأتصور أنهم لا يعرفونه مثلي على حقيقته، ولا يعرفون أنه طيب وحساس، وكريم، وأنه مخلوق هادىء، وجدّي. كان يبدو أكثر اعتدالاً من أمّي التي كانت تبدو متشددة لأنها كانت تعبر عن رأيها بصراحة قاسية. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك. كان هو أكثر فظاظة وقسوة منها، ولكنه كان يعرف كيف يخفي هذا، وكان يجيد فن الإرضاء والمسايرة، ولا يخاطر بإغضاب أحد. لذلك لم يكن يعرف كيف يضع حدوداً مع الآخرين.

بالرغم من طبيعته الحذرة، وتماسكه المعهود والمشهود له، كان عرضة أحياناً لبعض نوبات الغضب. الأرجح أنه كان متقلب المزاج، فهو تارة يبدو مرحاً، مسترخياً، سريع البديهة وحاضر النكتة، وطوراً ساهياً واجماً، منغلقاً على نفسه، وغامضاً كأنه أبو الهول.

صحيح أن مظهره كان عادياً ومتواضعاً، لكنه كان كريم النفس. لم يكن ليتورع، حتى عندما كان ضابطاً بمعاش زهيد، عن صرف كل مدخراته لقاء وجبة عشاء في مطعم يدعو إليه أمي. لقد كان جميل الهيئة، شامخاً، أبياً، يتمتع بكاريزما عالية، تخطف أبصار الموجودين في أي مكان يتواجد فيه أو يدخل إليه.

كان أبي مفرط الحياء، لم يقبّل أمي أمامنا يوماً. كان يكتفي بإمساك يدها، أو ضمها إلى صدره بحنان. كانت تربطهما علاقة حبّ واحترام. لم نسمعهما يوماً يتصارخان أو يتشادان مهما بلغت الأزمات والمشاكل أوجها بينهما. كان كلّ منهما يحترم الآخر، مع أنهما كانا ذوي طبيعتين مختلفتين. فأمي كانت فنانة، بوهيمية، فوضوية، مبذرة، كريمة، وتقدس الحياة البيتية والأسرية. كانت امرأة تضج بحب الحياة، وتعشق الحفلات والمرح، والطرب الشرقي الأصيل. كان صوتها جميلاً ورائعاً، وكانت تحب الغناء، والسينما، والسيارات السريعة التي كانت تقودها بنفسها في شوارع الرباط. لقد علّمت نفسها بنفسها، كانت تقرأ كثيراً، وكان لديها فضول كبير للمعرفة والاستكشاف.

كانت طباعها تستجلب الكثير من الأعداء، لأنها كانت صريحة، واضحة، عجولة وذات طبيعة نارية، بخلاف تلك البطانة التي كانت تحيط بها في البيت أو في القصر الملكي، والتي كانت على دراية وخبرة في فن المجاملة، والتصنع، والزيف، والخداع، والانتهازية، والوصولية. لم تكن أمي لتحفل بأبسط قواعد الدبلوماسية. ترى هل كانت بهذه الطريقة تعبر عن احتقارها وازدرائها لكل هؤلاء المراوغين والمخادعين، وما كان أكثرهم في كل محطات حياتها!

كانت أمي حاضرة في حياتنا أكثر من أبي الذي كان يتغيب عنّا كثيراً، مليئة بالحب والحنان، ولا تفرق بمقدار ولو صغير بين واحد منّا وآخر، مع أنه يمكنني القول بأنني كنت أتمتع وأنفرد ببعض العلاقات المميزة معها.

كانت أختي مريم البالغة من العمر آنذاك أربعة عشر ربيعاً عرضة دائمة للمرض. كانت تعاني من داء النقطة، ولم يترك والداي طبيباً في كل أنحاء العالم يعتب عليهما، لكن بدون جدوى. كانت النوبات التي تنتابها حادة وعنيفة. ربما لهذا السبب كان أبي يعاملها معاملة خاصة لم نكن نحظى بها.

أذكر أن أمي طلبت من أبي تأديبها لأنها رأتها وهي تزوّر شهادتها المدرسية. كان أبي لا يقوى على معاقبتنا، أو مدّ يده بسوء إلينا. لذلك طلب من ميمي أن تتبعه إلى الصالون. واتفق معها على التظاهر بالصراخ والبكاء كي تسمعها أمي التي كانت تأخذ عليه سهولته معنا.

أما أخي رؤوف (ولي العهد)، لأنه أول صبي رزقت به العائلة، فقد أفسدته نسوة العائلة بكثرة الدلع والدلال والتبجيل.

كان محبوباً من الجميع بمن فيهم الحرس. أما هو فقد كان إعجابه واعتداده مكرساً بالكامل لأبي الذي كان يحبه كثيراً، مع أن علاقتهما تخللها العديد من التوترات والأزمات. كان رؤوف شاباً وافر الجمال وفي عمر المراهقة. لعل مظهره الأنثوي الذي كان متمثلاً بشعره الطويل، وبشرته السمراء، وخدوده العالية دفعت أبي للتعامل معه بصرامة إذا لم أقل بعدائية. كان يخشى على خليفته من الشذوذ الجنسي.

كان أبي يبالغ بمخاوفه التي لم تكن في محلّها، لأن أخي كان قد حقق آنذاك نجاحات نسائية يحسد عليها. وكان قلبه لا يخفق إلّا للجنس الناعم.

بعد محاولة انقلاب الصخيرات الفاشلة، لم يعد رؤوف يفارق أبي طرفة عين، وأصبح جزءاً من

فريق المواكبة. عمل سائقاً خاصاً له، إذ كثيراً ما كان يحلّ مكان سائقه. كان يجيد قيادة السيارة وهو في الثالثة عشرة. وكان يصر على مرافقة أبي ليلاً وينتظره بكل صبر وأناة ريثما تنتهي اجتماعات العمل في ساعة متأخرة من الليل. كم كان أبي فخوراً بولده وهو يظهر هذا القدر الهائل من الشجاعة والنضج والمسؤولية!

كانت طباع كل من ماريا وسكينة مختلفة كلياً. الأولى البالغة من العمر سبع سنوات ذات طبيعة ديناميكية، مستقلة، محتالة، تعرف كيف تستقطب عطف أبي واهتمامه. أما الثانية التي كانت في ربيعها السادس، فكانت رقيقة وعاطفية، تمص إبهامها وهي تلوذ في صدر أبي، أو تغني له الأغاني بطريقتها الطفولية المضحكة التي كانت تزيل الهم والغم عن قلبه، فتلعلع ضحكته وتفرقع في كل أرجاء المنزل.

كانت سكينة تمضي كل وقتها وهي تخربش على الورق. حتى بات لدى أبي قناعة راسخة أنها ستصبح يوماً ما رسامة أو كاتبة!

أما عبد اللطيف الرضيع فكان مصدر فرح لنا جميعاً. لقد تحققت فيه أمنية أبي. إنه يشبهه كثيراً. كاد أبي أن يفقده لو لا قدرة قادر. لقد حاول افتراسه الشبل الذي أحضره إلى المنزل بعد أن قدم هدية له. والقصة جرت على النحو التالي:

كان ذلك الحيوان يرتع حراً فوق عشب الحديقة. فجأة هجم على كلبين من نوع يورك شاير قبل أن ينتقل الدور إلى الطفل الذي كان يلعب قريباً منه. تقاذفه كالطابة أمام أعين الحاضنات المسمرات أرضاً من شدة الصدمة. لحسن الحظ أنه في اللحظة التي فتح فيها فكيه ليلتهمه سمع صوتاً أرعبه فتركه وولى هارباً. تم استدعاء أبي على وجه السرعة كي يعاين بنفسه الأخطار الناجمة عن وجود هذا الحيوان المفترس. الحمد لله أن الفريسة نجت، وأرسل ذلك الشبل الصغير ليلعب مع أشباهه في حديقة الحيوانات.

أبي وأنا

كنا صديقين حميمين، نخطط معاً، ونتآمر معاً. كنت أعرف كيف أستدر عطفه، وأعرف أيضاً كيف أغضبه وأستفزه، بالطبع دون أن أتجاوز حدودي معه. كنت أتظاهر أمامه بالخنوع والخضوع، لكنه ما

كان يخفى عليه أنني فتاة متمردة مشاكسة، لا أرضى بالتسليم والاستسلام.

في الصباح كان يناديني لأسوّي له ربطة عنقه أو لأزرّر لـه ياقة قميصه. كنت فخورة بهذا الطقس الذي كنت أمارسه يومياً. في إحدى المرات وجدت صعوبة في تزرير قميصه، فبدأت أغمز من طرفه، ممازحة إياه بأنه بات له الآن ذقنان. لقد أخذ المسكين كلامي على محمل الجد وبدأ فوراً الاحتياطات اللازمة: جولة كرة المضرب مع صديقه الجنرال إدريس بن عمر، جلسات سونا، التقليل من كميات الطعام. للأسف لم يداوم على هذا البرنامج لمدة طويلة لأنه سرعان ما ملّ وعاد إلى سيرته الأولى.

كلما أزمع على السفر، كان يطلب مني أن أوضب له حقيبته.

كان يروي للوزراء بكل فخر واعتزاز أنه مازحني وقال لي:

ـ ألبسيني مثل نجوم الروك. أريد أن أتماشى مع الموضة.

كان يصل في الواحدة ظهراً عائداً من الوزارة أو القيادة العامة، فيدخل مباشرة إلى الصالون الكبير حيث يجلس على كنبته المعهودة ليحتسي شراب البيرة الذي يحضره الخدم على جناح السرعة. ما إن أنهي غدائي حتى أنضم إليه أنا وسكينة التي كانت متعلقة به وتكنّ له حباً كبيراً. كنت أضع نفسي في خدمته ورهن إشارته حتى يحين وقت رجوعي إلى المدرسة، فأودعه بمداعبة آثار جرح في يده اليمنى، خلّفه حادث سيارة قديم.

كان أبـي معتداً وفخوراً بمواهبـي الموسيقية. لذا كان يطلب مني العزف على البيانو كلما كان لدينا زوار أو مدعوون. كنت أقوم بهذا على مضض، إذ لم أكن أحب دور صبية المنزل.

بعد عدة أسابيع من عودتي إلى المنزل رافقت والديّ في رحلة رسمية إلى إسبانيا. كانت مناسبة للتقارب معهما، لأشعر من جديد أنني ابنتهما، وربما الوحيدة. أدين لهذه الرحلة أنها منحتني أجمل وأسعد اللحظات التي عشتها مع أهلي، حيث قضينا معاً أجمل الحفلات والسهرات التي أقيمت برعاية وإشراف الأرستقراطية الإسبانية، والتي رقصنا خلالها حتى طلوع الفجر رقصة الفلامنغو.

في هذه الرحلة تبين لي أن أبـي كان مرحاً، يحب البسط والانشراح، والسهرات الليلية، ويهوى الأغاني العاطفية، والغجريات الجميلات، وأنه أب متشدد أيضاً، لقد منعني من الخروج في إحدى الأمسيات، لأنني كنت أرتدي قميصاً شفافاً يظهر صدري بوضوح. إنها ليست غلطتي وإنما هي غلطة الموضة التي كانت سائدة آنذاك.

لكن انسجامنا لم يكن يحول دون حدوث بعض المشادات والمناكفات بيننا. كانت روحي متمردة، وتنفر من كل أشكال التسلط والهيمنة. لقد عانيت من جراء اللجم سنوات طويلة.

رفضت أن يصطحبني سائق إلى مدرستي في الصباح، وأن يعود ليقلني إلى المنزل بعد الانتهاء. أردت أن أحيا حياة طبيعية، شأن كل الفتيات، ولكن ذلك لم يكن مطلباً سهلاً، خصوصاً عندما يشاء القدر أن أكون ابنة الجنرال أوفقير.

انتظرت بفارغ الصبر أن أبلغ الثامنة عشرة من عمري كي أفوز برخصة سوق. علمني المرافق الذي كان يتولى حراستي كيف أقود سيارة. لكنه لم يعلمني أي شيء عن إشارات المرور. حصلت على إجازة سوق بفضل بعض رجال الشرطة في فريق المواكبة الذين طلبوا من المفتش أن يمنحني إياها.

كل مساء، كنت ألتقي بالشلّة التي كان أبي لا ينظر إليها بعين الرضا. كان يعتبر صباح، صديقتي المفضلة، وقحة للغاية. أما كلودين وفيرونيك اللتان كانتا معي في نفس الصف والمدرسة، فكان أبواهما شيوعيين متشددين، وكانا منضويين في حزب إبراهيم السرفاتي[٨]. كان منزلهما قريباً من منزلنا، أما حديقته فكانت مهملة تسرح فيها الكلاب وتمرح. وكان أبناؤهما يعيشون منفلتين ومتحررين، أي عكسي أنا، لكن هذا الواقع لم يؤثر على صداقتنا الحديثة العهد.

غالباً ما كانت تدعوني فيرونيك إلى بيتها لتناول الغداء بالرغم من تحفظ والديها الواضح حيالي. كانا لا يتورعان عن استفزازي ملمحين إلى أبي. وقد أوقفتهما مرة عند حدّهما قائلة:

ـ لا أملك أي معطيات سياسية تمكنني من الدفاع عنه، ولكنه أبي قبل أي اعتبار آخر، ولن أسمح لأحد بالتعرض له أو إهانته.

كان من بين أصدقائي من الجنس الآخر: أوزين آحرضان، ابن رئيس حزب البربر، والذي كان قد عيّن وزيراً عدّة مرات في عهد محمد الخامس والحسن الثاني، موريس السرفاتي ابن إبراهيم السرفاتي، إدريس باحنيني ابن رئيس الوزراء السابق، كذلك ابن أحد رجال الأعمال... وآخرون غيرهم. كان أوزين يقلّد النجم بوب ديلون، يطيل شعره، ويرتدي قمصاناً معرقة وكان يملك سيارة فولكس فاكن ضفدع يغير لونها كل يوم بحسب مزاجه: الاثنين باللون الأصفر، الثلاثاء يصبح لونها زهرياً. فيما بعد استبدلها بواحدة أخرى مكشوفة. ما كنت لأتردد قيد أنملة لو كان بإمكاني التخلي عن السيارات الفارهة التي كانت موضوعة بتصرفي مع سائقها مقابل سيارته المنهكة.

في إحدى المرات قررنا التسكع في الطرقات بدلاً من الذهاب إلى المدرسة. كنّا داخل سيارة أوزين نضحك ونمرح كالمجانين. فجأة عند الإشارة الحمراء توقفت بمحاذاتنا سيارة تقل أبي الذي راح يحدجنا بنظرات تقدح شرراً، مما أرعب الشلة السعيدة التي انزلقت للاختباء تحت المقاعد. انطلق أوزين المسكين وهو لا يلوي على شيء.

أحياناً كنت أذهب لزيارة موريس السرفاتي. هناك كنت أقابل بالصدفة بعض الحزبيين الذين يأتون لرؤية والده الذي لم يأخذني بجريرة أبي، وكان يثق بي لأنني صديقة ابنه. كان رجلاً ذكياً لم يورط أولاده بشؤونه السياسية، ولم يمنعني قط من التردد بشكل دائم على منزله.

أبدى أبي امتعاضاً شديداً من وجود هؤلاء الشبان حولي. كان يخاف على سمعتي وأخلاقي، لا سيما وأن البطانة المنافقة التي تحيط به كانت أقنعته بأن هذا لا يليق بعفافي وشرفي، ولكنني ثابرت على ذلك غير آبهة بهم. كم كان يسرني إغاظتهم وفعل كل ما يستفزهم ويثير حفيظتهم. كان ذلك يسليني ويشفي غليلي. بالطبع ما كنت أريد أن أخيب أمل أبي بي، لأنني لم أفعل ما يستوجب ذلك. كنت مغرمة بالرقص والموسيقى ولم أكن لأترك مناسبة أو سهرة تفوتني.

كنت ألعب دور الفتاة العاقلة بإتقان: بعدما أتظاهر بإنهاء واجباتي المدرسية، أنهض لأعانق والديّ، وأتمنى للمدعوين ليلة سعيدة مدّعية بأنني مضطرة للانسحاب لأن غداً يوم امتحان، ويجب أن أنام باكراً. ما إن أصل إلى غرفتي حتى أسرع إلى ارتداء تنورة قصيرة أو شورت، وأضع الماكياج، ثم أبعثر سريري وأضع على المخدة شعراً مستعاراً لأوهم الرائي أنني أنام ملء جفوني. عندها فقط أصبح جاهزة ومستعدة لقضاء السهرة.

لم أكن أطيق الحياة الخانقة والمقيدة التي كانت مفروضة علينا. كنا تحت المراقبة على مدار الساعة. لا نخرج بدون حراسة ومواكبة. كان منزلنا يعجّ بالمرافقين ورجال الأمن والشرطة، حتى الأشخاص الذين كانت مهمتهم تلقّي المكالمات الهاتفية كانوا أيضاً من المخبرين. لقد تصادقت مع واحد منهم، كان يساعدني في تنفيذ مخططات «التسلل الليلي» الذي كنت أواظب عليه، وكان ذلك يريحني بعض الشيء من جو البيت الضاغط.

كنت أنجح في ذلك بفضل خاليّ عز الدين و وحيد. الأول عمره عشرون عاماً، والثاني سبعة عشر عاماً. كانا يقلانني بسيارتها كل ليلة لموافاة الأصدقاء الذين يكونون بانتظارنا في أحد النوادي الليلية

العصرية. كان عز الدين شديد الغيرة والحمية... لم يكن يدع أحداً يقترب خطوة واحدة مني. كنا نستمر بالرقص حتى طلوع الفجر. بالكاد كنت أنام لأستيقظ عند الساعة السابعة صباحاً وهو موعد الذهاب إلى المدرسة.

أعطيت مرة كلمة شرف بأن أنجح في المدرسة. في إحدى الأمسيات لزمت غرفتي بهدف الدرس والاستعداد للامتحانات. بينما أنا كذلك لمحت وجه أبي يتلصص عليّ من فتحة النافذة. يبدو أن أحداً ما كان قد وشى بي. كم كنت سعيدة لأنه لم يضبطني بأي جرم مشهود. تلك الليلة نمت نوماً عميقاً بدون حراك.

في فصل الصيف كانت العائلة تتوجه إلى المسبح القريب من مدينة الرباط، حيث كنا نملك منزلين صغيرين بمنتهى البساطة التي كانت تفتقر إليها منازل البورجوازيين الشبيهة بالقصور. كان أهلي يستخدمون فقط منزلاً واحداً. قاموا بتجهيزه لهذه الغاية بكل ما هو ضروري وأساسي، في حين بقي الآخر فارغاً ومهملاً.

كانوا يلحّون عليّ بالبقاء لقضاء فصل الصيف برفقتهم هناك. لكنني كنت أرفض متذرّعة بالامتحانات التي تنتظرني، والتي يجب أن أستعدّ لها. في الحقيقة، كنت لا أريد الابتعاد عن الشلة وعن المغامرات الليلية التي كانت محفوفة بالأخطار، وعمليات التسلل والتمويه. كان منزلنا أشبه بالثكنة! وكان عليّ تضليل كل هؤلاء العسكر المدججين بأسلحتهم وعتادهم، والمتأهبين دائماً للسهر على أمني وسلامتي!

لم تنطل أحابيلي وألاعيبي على أبي الذي كان على ما يبدو ملماً بكل شاردة وواردة عن تحركاتي، وإن كان غالباً ما يتعمد غضّ الطرف عني. ما إن صحوت كالعادة في إحدى المرات حتى دعاني للقيام بنزهة في السيارة برفقته. رحّبت بحرارة وحماس، إذ نادراً ما كانت تسنح لي الفرصة بالتواجد معه على انفراد. طوال الطريق كان يلزم الصمت. ثم فجأة سألني، دون أن ينظر إلى وجهي: هل تعرفين نادياً ليلياً اسمه لاكاج. أجبته بالنفي، لم أجرؤ على قول الحقيقة، ولم أكن فخورة بمعرفته. أعاد السؤال ثانية، تظاهرت أنني لم أفهم المغزى الذي كان يرمي إليه. وكررت النفي ثانية. اكتفى بذلك وأغلق الموضوع. في هذا النادي الليلي، لاكاج، كنت أرقص وأسهر كل ليلة، لأعود إلى البيت فجراً، وأنام حتى الثانية عشرة ظهراً.

في المرة الثانية لم يتورع أبي عن مواجهتي ببعض الاتهامات أمام بعض الحضور: قال لي إن بعض الأشخاص شاهدوني في إحدى علب الليل في الدار البيضاء. لحسن الحظ كان هذا ادعاء كاذباً. وتمكنت بسهولة من تبرئة نفسي مما نسب إليّ. قلت لأبي باستهجان:

ـ من يقول إنه شاهدني أمس في الدار البيضاء، ليس مستبعداً أن يقول إنه رآني اليوم في لاكاج!

علق أبي بمكر:

ـ فيما يتعلق بالدار البيضاء يمكنني أن أصدّقك، أما فيما يخص لاكاج فلا أعرف، اللّه وحده أعلم!

الطامة الكبرى كانت عندما زرت لندن للمرة الأولى برفقته. يومها ضبطني وأنا أدخن في حمام مطعم بلاي بوي. انتظر خروجي ليعلن لي بأنه يمكنني أن أدخن أمامه بدلاً من فعل ذلك سراً. وأعاد هذه النغمة بدون إحراج أمام الجنرال بن عمر حيث قال: لا أحب أن تكذبي علي، وأن تفعلي الأمور من وراء ظهري. فالتدخين أهون عليّ ألف مرة من ذلك. دخّني إن شئت ولكن لا تكذبي! بدت الصدمة واضحة على الجنرال الذي لا يحبذ مطلقاً منطق أبي. فهو كان معروفاً بتشدده في تربية أولاده.

لم يكن أبي كثير التدقيق في أنواع الأطعمة التي يتناولها. كان يصدر أصواتاً وهو يمضغ. لكن أحداً لم يجرؤ على توجيه أي ملاحظة له بهذا الخصوص بمن فيهم أمي التي كانت لا تكترث ألبتة. كان لا يحب الأطعمة الخفيفة. كان، مثلي، يحب البيض المقلي. في إحدى الزيارات الرسمية لأگادير، خرج لرؤية صديق له يدعى هنري فريدمان يمتلك أحد أقدم النوادي هناك. كان هنري الوحيد الذي يتجرأ على التكلم بصراحة في وجه أبي. كان يهودياً، أصله من أوروبا الشرقية، أحمر الشعر، أزرق العينين، طوله متران، ووزنه مئة وخمسون كيلوغراماً. كان كالعملاق، يضع دائماً سيجاراً في زاوية فمه، صوته عميق ولهجته المغربية مكسّرة. كان يملك شهية طيبة ويحب الطعام ويجيد فن الطهو. المسكين كم كانت خيبته كبيرة وغضبه شديداً عندما تعمد أبي مناكفته بأن ألقى نظرة عابرة على الطاولة الممتلئة بشتى الأطباق التي كان قد حضرها بيديه من أجله وقال: اسمع هنري لا أريد شيئاً من كل هذا، أريد فقط طبقاً من البيض المقلي.

طبعاً لم يكن أبي يعني ما يقول. كان فقط يريد استفزاز هنري، وكان يجد متعة بالغة في إخراجه

عن طوره. كان دائماً ينجح بذلك.

في البيت كنت أتحاشى التواجد معه على طاولة الطعام. تربيتي الألمانية الصارمة لم تكن تسمح لي بالقبول بأي مس أو تجاوز لما يسمى آداب الطعام. كنت شديدة الحرص على تعليم أخوتي الصغار ما تعلمته بحذافيره. كنت أريهم كيف نقطع اللحم والسمك، وكيف نمضغ بهدوء وبدون صوت. كانوا يسخرون مني ومن تعاليم ريفل والقصر، ويتهمونني وإياهم بالمبالغة. لقد تملكتني تلك العادات بحيث أصبحت جزءاً من طبيعتي.

شاركت مرة في طعام غداء كان يضم ثلة من الضباط المقربين من أبي. استرعت انتباهي أصوات المضغ التي كان يصدرها كالعادة. نظرت إليه نظرة تحذيرية. استفزه هذا وحرضه على التمادي أكثر فيما يفعله.

أغضبتني ردة فعله فرحت أقلد طريقته بالمضغ. ثم قلت بصوت مرتفع:

ـ لا يمكننا هنا الخوض بأيّ حديث بسبب التشويش الذي نتعرض إليه من «موسيقى مضغك».

توقفوا جميعاً عن تناول الطعام ليعبروا لي عن سخطهم واستيائهم من سوء تصرفي، لقد استهجنوا وقاحتي وقلة تهذيبي. وددت لو أن أبي نطق كلمة واحدة. فلتكن بذيئة أو جارحة لا يهم! ظل صامتاً وهذا ما آذاني وعذبني.

كانت تحلو لنا لعبة شد الحبال بين الفينة والأخرى.

أذكر مرة أن أبي عاد من مقر القيادة العامة وهو يملأ جيوبه بالعلكة. وأبلغنا أنه قرر الامتناع عن التدخين. إنه يعرف حساسيتي ونفوري من أصوات الطقطقة والمضغ، أراد إغاظتي، فوضع علبة العلكة دفعة واحدة في فمه. وبدأ يمضغ بشيء من المبالغة المقصودة بالطبع، ومن ثمّ أخذ يفرقع. لم أقم بأي ردة فعل، اكتفيت فقط بالنظر إليه شزراً.

هذه المرة بدأت أنا الجولة. عمدت إلى رفع صوت الموسيقى الصادحة. كنت أعرف أن أبي يجتمع في الصالون مع عدد من الوزراء. ناداني وطلب منّي خفض الصوت قدر الإمكان. فعلت هذا. انتظرت عشر دقائق. ثم عدت إلى سيرتي الأولى... وهكذا دواليك. هذا الكر والفر بيني وبين أبي كان أشبه بالمسلسل اليومي.

في نهاية السنة الدراسية، كانت نتيجتي المدرسية مخيبة للآمال. كانت نتيجة حتمية بعد كل تلك

التسكعات والسهرات الليلية. فلم أترفّع من صفّي. انتقلت إلى الفرع الأدبي. وطلبت من أهلي تسجيلي في مدرسة داخلية. اعتقاداً منّي بأن ذلك سيجعلني أكثر حرية.

في بداية السنة الدراسية الجديدة سجلونا نحن الثلاثة، أنا ورؤوف ومريم، في ثانوية پول ڤاليري في مدينة مكناس. للأسف عادتي السيئة لم أغيرها. تابعت التسلل الليلي المعتاد. مما عرضني للتأنيب، ولتلقّي الملاحظات والتهديدات، وفي آخر المطاف صفعتين مدويتين لأنني بدل أن أعود إلى مدرستي فجراً كالعادة، بقيت طوال النهار برفقة صباح في الرباط ما أدى إلى انكشاف أمري.

شابة مدللة

ما هي حياة الناس العاديين التي كنت أحلم بها على مدار الأيام؟ هل هي السفر في الطائرة أو الحافلة أو القطار؟ أم هي قطع تذكرة سفر درجة أولى؟ هل هي التجول في عواصم الموضة والأزياء الأوروبية للتسوق والشراء؟ أم هي الملابس الممهورة بتوقيع إيف سان لوران التي كان يمكنني أن أستعيرها من أمي عند اللزوم؟ هل هي الحفلات والسهرات جنباً إلى جنب مع المشاهير والشخصيات التي كانت تملأ صفحات الصحف والجرائد؟ أم هي قضاء الإجازات في أي مكان من العالم؟

«العادي» بالنسبة لي كان: المال... الجاه... الملك... إذعان الآخرين لمشيئتي والتسليم لرغباتي... لا أحد كان يجرؤ أن ينظر إلى وجهي شزراً، أو كان يستطيع أن يرمقني بعين حمراء. كنت محط أنظار الناس ورعايتهم أينما ذهبت وتوجهت. كنت أعيش في عالم كل شيء فيه ممكن، ومتاح، ومتوفر... فوق العادة.

عندما بلغت الثامنة عشرة، أقام والداي حفلاً دعي إليه أبرز وجوه المجتمع المخملي المغربي، مثل الأمير مولاي عبدالله، الأميرة لمياء، كل أركان الحكومة ووزرائها، وعدد كبير من قادة وضباط المؤسسة العسكرية، بالإضافة إلى بعض النجوم والمشاهير. ولكن أين كنت أنا؟! وماذا تراها تفعل طفلة مدللة مثلي!؟

كنت أتأفف وأتذمر وأحرد. لقد أزعجتني وأرهقتني كل هذه البروفات والقياسات. فستان ديور غير مناسب لي، وهذه التسريحة المتكلفة تحولني إلى فتاة أخرى لا تعجبني ولا أحبها. مسكين ذلك المزين الذي أهدر ساعتين كاملتين على تلك التسريحة التي عقدتني ببشاعتها حسب رأيي!

كم كانت صدمته كبيرة، لقد أقسم أنه لن يأتي مرة أخرى ليسرّح لي شعري، حتى لو كلفه الأمر حياته. ما فعلته لا يغتفر، لأنني قبل أن ينتهي من توضيب عدته كنت قد أسرعت إلى الحمام لأضع تحفته الفنية تحت الماء. تركت شعري منسدلاً على طبيعته.

كان عليّ أن أقف في الصف إلى جانب أهلي لاستقبال المدعوين. كنت أبدو مقنعة بدور العروس التي لا ينقصها إلّا عريس مناسب.

افتتحت الرقص برفقة الأمير عبدالله، تودّدت وسايرت السيدات المسنّات، تبسّمت في وجه أبي، والجنرالات، والوزراء.

أديت هذا الدور بنجاح في الجزء الأول من السهرة.

وفي الجزء الثاني خلعت ملابس التمثيل جانباً. عندما بدأت فرقة جامايكا بالعزف، ظهرت هذه العروس العاقلة على حقيقتها. بدّلت ثوب الموسلين الأبيض ببنطلون جينز وتي شرت. رقصت طوال الليل وأنا حافية القدمين حتى انقطعت أنفاسي. معظم الرقصات كانت برفقة أبي.

انتهت السهرة على خير... حيث قُدّمت لي الهدايا النفيسة... ضمنها بعض الذهب والمجوهرات. تلقيت الكثير من عبارات الإطراء والمديح، أخبروني بأنني جميلة...

خلال سنواتي الأولى في السجن، احتفظت بألبوم صور هذه السهرة، ثم عادوا وانتزعوه منّي ليضموه إلى سائر ما سبق لهم مصادرته مني. لكنني تمكنت فيما بعد من استعادته عندما أطلقوا سراحي. كانت رؤوس الجنرالات الذين أعدموا بعد انقلاب الصخيرات محاطة بدائرة مرسومة بالقلم الأخضر.

بماذا تحلم الصبايا عادة؟ بالحب؟ لعلّ معظمهن يفعلن هذا! لكنني كنت أحلم بالأضواء. كانت السينما حبي الكبير، ومحط آمالي. بدأ حبها يتجذر في قلبي منذ الطفولة، عندما كنت أعيد تمثيل المشاهد التي تأثرنا بها في الأفلام التي نكون قد شاهدناها أنا وللا مينا وزميلاتنا في الثانوية الملكية. كان كل ما أصبو إليه هو أن أصبح نجمة.

كنت أسعى جاهدة للتقرب من نجوم التمثيل، علّني بهذا أجد معهم فرصة العمر التي أبحث عنها. كانت أمي تملك شقة في لندن في الهايدبارك. هناك التقيت الممثلة اليونانية إيرين باپاس، كانت تصور فيلماً تدور أحداثه في استديوهات لندن. هذا الأمر أدار رأسي. لحسن الحظ أنني كنت محاطة

بخاليّ عز الدين و وحيد ملاكي الحارس. كم كنت أستمتع بصحبتهما... وكم كنا نمرح سوية.

كنا نجتمع في شقة إيرين الواسعة التي كانت قد استأجرتها إلى حين انتهائها من تصوير الفيلم. كنا نرقص رقصة السيرتاكي اليونانية، ونحتسي شراب الڤودكا والشمبانيا ونضحك ونمرح وننشد الأغاني، ولا نغادر المكان إلّا عند طلوع الفجر، حيث كان يقلنا بسيارة المازيراتي أو اللومبرغيني ابن للملك السعودي فهد، أو ممثل صاعد اسمه يورغو. كانت تلك هي الفرصة المؤاتية والذهبية كي أتقن اللغة الإنكليزية وأتمرس بها.

كانت باريس دائماً تبهرني وتسحرني. في كل المناسبات كنت أتوسل إلى والديّ كي يرسلاني إليها. كالعادة كان يلزمني هناك، كما في كل مكان أذهب إليه، ملاك حارس. هذه المرة كانت قريبتي وصديقة طفولتي. ليل الشنّا هي من أوكل إليها القيام بهذه المهمة. أقمت معها في شقتها. كانت تكبرني ببضع سنوات. لكنها كانت فائقة الجمال. لا أحد يتفوق عليها في هذا المجال من كل بنات جيلها، مما استقطب إليها أنظار المخرج السينمائي الأخضر حامينا الذي وقع صريعاً في حبها، وأسند إليها أدواراً في معظم أفلامه، ومنها فيلمه الشهير الذي فاز بجائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان، كذلك ظهرت في أحد أفلام جيمس بوند.

كانت ليل تجسد حلمي. لقد حققت نجاحاً سينمائياً. إنها امرأة متحررة مستقلة، تربطها صداقات مع أبرز نجوم الفن في العالم الذين كنت شديدة الإعجاب بهم. لم تكن أبداً أنانية. لقد قدمتني إلى نجم النجوم، معبود النساء، آلان ديلون.

شخصياً لم أشعر بأي انجذاب عاطفي نحوه. كنت أجده مسناً وناضجاً فوق اللزوم ولا يناسب فتاة مثلي، عمرها سبعة عشر ربيعاً، مندفعة ومتهورة، وعنيدة. ما كان يربط بيننا هو صداقة خالصة. صحيح أن علاقتنا كانت مبهمة وأثارت الكثير من اللغط إلّا أنها كانت محض أفلاطونية.

قابلته عدّة مرات في باريس، بعد ذلك في نيويورك، ثم المكسيك، حيث كان يصور فيلم اغتيال تروتسكي من إخراج جوزيف لوزي، وكانت تشاركه في بطولته رومي شنايدر. لقد علمني العزف على آلة اليامز.

كان آلان يكن لي الكثير من العاطفة، لكنه كان يحترم عاداتي وتقاليدي المحافظة، مع أنه كان يبدي دائماً امتعاضه وتذمره منها. الفضيلة والشرف كانا من الثوابت الأساسية التي لا أحيد عنها، وكنت

أرفض كل ما يمس بها. كان كثير الاتصال بي هاتفياً عندما رجعت إلى الرباط. مما أثار حفيظة أبي وأقلقه، سيما وأن بطانته لم تكن تفوّت مناسبة دون أن تغمز من قناة كل ما يخدش سمعتي وشرفي.

كان آلان صديقاً مخلصاً وفيّاً، ولم يخب ظني أبداً به. لقد برهن لاحقاً أنه من الأصدقاء الذين يعوّل عليهم في وقت الضيق.

كان جاك بيرّان يتردد على شقة ليلى. وكان قد أنتج لتوه فيلم زد (Z). كان معجباً بي ولم يخف هذا. كان لي معه مغامرة صغيرة لم يكتب لها النجاح. انجذبت نحوه بعض الشيء. لكنني لم أكن بعد جاهزة للارتباط بأحد. حريتي الجديدة كانت غالية جداً ولم أكن مستعدة لأفرط بها قيد أنملة.

كانت الولايات المتحدة مهد الأحلام والمغامرات. كنت أقضي إجازات عيد الميلاد في نيويورك وهوليوود، وهي إجازات لا تنسى. وفي رأس السنة التقيت ابن شقيق موشي دايان، مر؟ين دايان الذي ربطتني به علاقة صداقة. لدى عودتي علمت أن هذا أسعد أبي، ولكنه أثار استنكار العديد من الوزراء.

كان لي في لوس أنجلوس أجمل الذكريات وأحلاها. مرة، رافقت الأميرة نزهة، الأخت الصغيرة للملك، وتلقينا دعوات من كل أنحاء هوليوود.

خلال بعض السهرات التي حضرناها، كانت كل واحدة منا نحن الاثنتين أكثر مفاجأة وانبهاراً من الأخرى. قابلنا هناك كل نجوم ومشاهير السينما العالمية، أمثال زازا غابور، إدوار روبنسون وكثيرين غيرهما. كنت مأخوذة كلياً ومسحورة بكل ما تقع عليه عيني. بالطبع كان يجدر بي أن أعرف بأنني كنت مدينة بكل هذا للاسم الذي كنت أحمله، والذي كان يفتح لي الأبواب ويشرعها على مصراعيها، وأنا لم يكن ليضيرني هذا.

في إحدى تلك السهرات وقعت بغرام كاوبوي السينما ستيوارت ويتمان. كدت أصاب بالإغماء لّما رأيت عينيه الزرقاوين الساحرتين. لم أتمالك نفسي، ففاتحت جارتي بأمري. كانت تجلس بقربي مصادفة. علمت أنها فرنسية تعمل عارضة أزياء. أصغت لي بجدية بدون أن يظهر عليها أي شيء. ثم بعد أن أنهيت كلامي قالت لي بابتسامة:

ـ نعم، أفهم هذا جيداً. لا شك أنه ساحر.

دفعني تسليمها بهذا الأمر إلى الفضفضة أكثر، والتمادي، فشرعت أصف لها ما أعجبني فيه، بدون

أن أهمل أي تفصيل يذكر. بينما أنا كذلك لمحت فجأة نزهة تشير إليّ كي أوافيها جانباً. ما إن أصبحنا بمفردنا حتى انفجرت بوجهي:

ـ مليكة! هل أصابك خطب في عقلك؟ فأنت لا تأكلين هذا الرجل بعينيك فحسب بل وتبثين عواطفك المحمومة وتنفثينها في وجه زوجته.

تلك المرأة الجميلة كانت زوجته؟! يا لغبائي وحماقتي!

لقد أصبحنا صديقتين، ودعتني إلى منزلها عدة مرات. لحسن الحظ أنها كانت متفهمة ولم تأخذ تصريحاتي العاطفية الصارخة على محمل الجد. لقد أغرتها سذاجتي وبساطتي هي وزوجها الذي من المؤكد أنه لا تزعجه زيادة عدد المعجبات!

في منزلهم في ماليبو، التقيت الممثلة الجذابة بريجيت فوسي، صادقتها، كان هنالك الكثير من القواسم المشتركة بيننا، إنها ابنة قائد عسكري، تماماً مثلي، كانت كذلك أمّاً لطفلة صغيرة عمرها أربعة أشهر تدعى ماري. لاحقاً، بينما كنت أرقص برفقة ابن دين مارتن في أحد النوادي الليلية في لوس أنجلوس قابلت ستيف ماكوين الذي دعاني للقيام برحلة استكشاف في صحراء كاليفورنيا. كان على معرفة مسبقة بأهلي. قضينا سوياً يوماً كاملاً نجوب بالسيارة ونخوض غمار الهضاب. لم أضحك طوال حياتي كما فعلت في ذلك اليوم الذي لا ينسى.

هذا الهوس بالتمثيل دفعني مرةً إلى انتزاع عقد لتمثيل فيلم من وكيل أميركي كان صديقاً لأبي. اتصل بي أبي هاتفياً لإقناعي بالعدول عن الفكرة. استخدم المسكين كل مهارته حتى تمكن من هذا. قال لي:

ـ مليكة، أعدك أن أرسلك للإقامة في الولايات المتحدة، وأن أدعك تفعلين ما تشائين. ولكن بعد أن تحصلي على البكالوريا. استجبت إلى منطق أبي، ووقعت في الفخ الذي نصبه لي.

عندما أستعيد الآن ذلك الماضي البعيد، أشعر بالتسلية والمرح وأضحك من نفسي كثيراً. كنت فتاة مدللة تغرف بدون حساب كل ما كانت تمطرها به الحياة من رغد وخيرات. ترى إلى أين كانت ستقودني تلك الدروب المعبّدة بالورود والرياحين؟!

إلى الزواج الميسور؟! إلى العزّ والجاه؟ إلى الضجر والملل؟! أم إلى الخيانات، والخواء العاطفي؟ إلى الاكتئاب والخيبات؟ إلى عدم الرضا والأمان والاطمئنان؟ إلى الهرب من كل هذا بالانغماس في حياة

المجون وفي إدمان شرب الخمور وتعاطي المخدرات؟! أعرف أن حياتي كانت ستكون مليئة بالمطبات الكثيرة، وستكون حافلة بالعصيان والتمرد والتعاسة، ممّا كان سيجعلها تغدو جحيماً لا يطاق. هذا الوصف ينطبق أيضاً على حالات معظم فتيات الأسر الغنية في المغرب.

لقد نجوت شخصياً من هذا القدر الأسود. لا أنكر أن الثمن الذي دفعته لا يقل سواداً وقتامة. لكنه على الأقل كان مشرفاً لأنه صقلني، وأظهر خامتي التي كان يحجبها الصدأ والصديد. تلك السنوات من عمري التي أضعتها تعلمت منها الكثير الكثير. لقد عدت إلى الحياة في اللحظة التي وطئت فيها قدماي عتبة الشيخوخة، إن هذا يقتل الروح ويدميها. علمتني الحياة أننا لا نبني الكون ونعمّره بالتصنع، والتملق، والزيف، والنفاق، ولا بالمواقع، والمراكز، والمال والغنى، فكل هذا زائل وفانٍ لا محال.

رحلتْ عن هذه الفانية، المأسوف على شبابها، سليلة الحسب والنسب، وربيبة الجواري والقصور، بعد أن احتضرت طويلاً بين جدران زنزانتها المظلمة. لم يشارك في جنازتها أحد سواي. كنت الشاهدة الوحيدة على نهاية تلك الصبية المدللة التي تقاذفتها رياح الأقدار العاتية.

كان لا بد أن تموت هي كي أحيا أنا.

أنا الآن امرأة جديدة أخرى، ولدت للتوّ من رحم المأساة والأحزان.

انقلاب الصخيرات

بدا لي هذا الصيف من سنة ١٩٧١ مقبولاً بشكل خاص. بالرغم من أن سنتي الدراسية كانت مليئة باللهو، إلّا أنني تمكنت من الحصول على معدل جيّد في امتحانات البكالوريا الفرنسية، ممّا أدى إلى قبولي في صف الفلسفة. وهذا معناه أنه سيتسنى لي قضاء إجازة لمدة شهرين كاملين، يمكنني خلالهما أن أخرج كما يحلو لي، أن أسبح، أن أرى الأصدقاء ساعة أشاء، أن أقوم ببعض الرحلات. كنت ما زلت نائمة في الساعة الواحدة من ظهر يوم ١٠ تموز/ يوليو، إذ كان أبي في الليلة السابقة قد دعا العائلة بأكملها للذهاب إلى المطعم. كانت هذه الدعوة بادرة استثنائية قليلة الحدوث في حياتنا اليومية. كانت السهرة ناجحة جداً، وضحكنا كثيراً. بعدما عدنا أدراجنا تابعت إحياء الحفلة في البيت طوال الليل. لذلك كان من الطبيعي أن أبقى نائمة حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. كانت

الحياة من حولنا هادئة ومريحة، ولا شيء يدعو للخوف والقلق؟ فما الذي يمكن أن يصيبنا؟!

أيقظوني من نومي بعنف. كان حرس المرافقة يتراكضون في أرجاء البيت بتوتر وعصبية. كنا نسمع أصوات الطائرات العسكرية تحلق في السماء. كان جو من الرعب يخيم. ما الخبر؟! إنه الانقلاب العسكري الذي جرى في قصر الصخيرات حيث كان الملك يشارك في الاحتفالات التي كان قد أعلن استمرارها لمدة ثلاثة أيام بمناسبة بلوغه سن الثانية والأربعين[٩].

لم نتمكن من الاتصال بأبي. أمي كانت تتناول الغداء عند صديقتها سيلفيا الدكّالي التي كانت تملك فيلا على شاطىء البحر. كان أخي قد خرج على دراجته النارية إلى المدينة مع مجموعة من أصدقائه. انشغل بالي على أخي، ولم أعرف ماذا أفعل. لذا قررت اللحاق بأمي. تفاجأ المدعوون بالنبأ، وكان البعض منهم ما يزال في ثوب السباحة. وكان منزل سيلفيا يقع على بعد كيلومترين فقط من قصر الصخيرات. عندما كنا أنا وأمي في طريق عودتنا إلى الرباط، شاهدت في الخط المعاكس قافلة من السيارات العسكرية.

لم نستطع العودة إلى المنزل. كان هذا شبه مستحيل. وبدلاً من ذلك التجأنا إلى منزل صغير كانت تملكه أمي في المدينة، حيث يمكننا قضاء الليل على الأقل. كانت برفقتنا سيلفيا الدكّالي التي كانت في حالة من القلق الشديد لأن زوجها، وهو سكرتير الملك، لم يعد إلى البيت، ولا تعرف أي شيء عنه. في الصباح الباكر اتصل أحدهم بأمي ليعلمها أن العربي الدكّالي كان بين المجموعة الأولى التي تمّ تصفيتها وإعدامها، في قصر الصخيرات الذي سقط فيه حوالى مئتي قتيل، كان ثلثهم من بين مدعوّي الملك الذي نجح بقمع حركة التمرد بالكامل بعد أن أوقع بين أفرادها خسائر بشرية فادحة. لقد تمت تصفية مئة وثمانية وثلاثين عسكرياً. كما تم اعتقال عشرة ضباط من بينهم أربعة جنرالات. ولم يمض وقت طويل حتى تمّ إعدامهم جميعاً.

كان هذا الانقلاب أول زوبعة تحصل في حياتي التي كانت تسير دوماً على أفضل ما يرام. لم يخطر على بالي قط أنه يمكن إلحاق أي مسّ أو ضرر بسلطة الملك. هل حقاً كان بإمكان هؤلاء الضباط الصغار تنحية الملك وإزالته لو لم يتم تغيير مجرى الأمور لمصلحته؟!

لم أكن بعد ناضجة بما فيه الكفاية ولم تكن لدي دراية بالشؤون السياسية كي أفهم حقيقة ما حدث. ما زلت أذكر بشكل خاص حالة الرعب والهلع التي كانت مسيطرة على الأجواء، بالإضافة إلى اللوعة

التي شعرت بها عندما علمت بموت العديد ممّن كانت تربطني بهم معرفة وثيقة وقرابة في قصر الصخيرات.

عندما بلغنا المنزل في الصباح، قررنا أنا وأمي التوجه إلى ڤيلا الملك الكائنة في شارع الأميرات التي تبعد مسافة كيلومترين عن منزلنا. وكان الملك قد لجأ إليها مصطحباً معه زوجاته.

كان الاستقبال حاراً جداً، ومؤثراً للغاية. حيث تعانق الجميع وبكوا.

كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي تتنازعني فيها الهواجس والأفكار المتناقضة. فأنا من جهة كنت خائفة على أبي وعلى الملك. ومن جهة ثانية كنت قد بدأت أضيق ذرعاً بالسلطة وبالملكية التي فقدت أي حماس لها.

كم شعرت بالعار عندما أعربوا لي عن تقديرهم وامتنانهم من العمل الذي قام به أبي. لقد ساعد في إخماد حركة التمرد. ولكن ألم يكن هؤلاء يناضلون من أجل القضاء على الفساد المستشري في البلاد؟!

لاحقاً توضّحت لي تدريجياً بعض المواقف والأمور من خلال المناقشات السياسية التي كنت أخوضها مع أصدقائي. ولكنني خلصت إلى قناعة بأنه ليس من السهل معرفة ما يدور في الواقع من أحداث.

كانت أمي تريد مقابلة الملك بأي ثمن. كنت أعرف جيداً الطريق الذي يوصل إلى حيث توجد الأجنحة التي يقيم فيها. ما إن وصلنا إلى عتبة بابه حتى فتح الباب فجأة، قبل أن يتسنى لنا الوقت الكافي لإعطاء إشارة تعلن عن وجودنا.

كان الملك في حالة من العصبية والخوف، لدرجة أنه تراجع خطوة إلى الوراء عندما فتح الباب وتفاجأ بوجودنا. ألقى باللائمة على أمي واتهمها بأنها أرعبته. كان على شيء من الكبرياء الذي يمنعه من إظهار أيّ لحظة ضعف أمام أعين الغرباء. والغريبة هنا كانت أمي ولم أكن أنا. لأنني كنت أعتبر من أهل البيت.

كانت أمي تريد استعادة جثة العربي الدكّالي، وحاولت إقناع الملك بذلك. استفزه الأمر فبدأ بالصراخ قائلاً:

ـ أنت تجهدين من أجل إسداء الخدمة، تهتمين بجنازة هنا، ودفن هناك. ولمن تقومين بكل هذا؟

لهؤلاء؟ تذكري جيداً قولي: كل هؤلاء الناس الذين تهتمين لأمرهم، لن يرفعوا إصبعاً صغيراً عندما سيصيبك ما أصابهم.

ولكنه، بالرغم من ذلك، عاد وسمح بتسليمها الجثة، كي يصار إلى دفنها كما يجب.

كانت الأيام التي تلت فظيعة. الضباط العشرة الذي كانوا قيد الاعتقال تم إعدامهم بدون أي محاكمة. كانوا جميعهم من الأصدقاء الحميمين لأبي. بعد إعدامهم عاد أبي إلى البيت بوجه شاحب وعينين حراوين وتقاطيع متشجنة. مباشرة صعد إلى غرفته حيث استلقى، ببذلته العسكرية، متعباً على فراشه. جلست القرفصاء بالقرب من سريره وأخذت يده ولثمتها. كانت أمي أيضاً هناك بجانبه لتواسيه وتشد أزره.

بكى أبي طويلاً وحزن لفقدان أصدقائه. أكثر ما أحزنه أنه لم ينجح بإقناع الملك بمحاكمتهم كما تقتضي القوانين.

كان في قرارة نفسه يعلم باستحالة نجاة أي منهم، أو إمكانية إصدار أي عفو لصالح أحد، بسبب فداحة التهمة التي كانت موجهة إليهم، وهي العبث بأمن الدولة وتهديد سلامتها. مع هذا سعى للدفاع عنهم ولإيجاد الذرائع المناسبة لتبرير موقفهم. كانت المرة الأولى في حياته التي يتصرف فيها بما تمليه عليه عاطفته وضميره، لا بما تمليه عليه مصالحه السياسية. لقد تجرأ أبي على مجابهة الملك الحسن الثاني والصراخ بوجهه. وإبان تشييع القتلى الذين سقطوا من بين المدعوين، وأولئك الذين قضوا وهم يدافعون عن العرش، كان الملك يشارك في الموكب وهو يرتدي سترة مخططة بالمربعات، كانت تحلو له بشكل خاص، عندها لم يتمالك أبي نفسه، فنظر إلى الملك نظرة عتب واتهام وقال له:

ـ أنت لا تحترم الموتى.

تركت جدّتي لأبي مكان إقامتها في واحة عين شعير، وأتت لزيارتنا وتفقّد أحوالنا. صحيح أنني كنت قليلاً ما أراها لكنني كنت أحبها كثيراً.

إنها تجسد بشخصيتها المميزة والفريدة مجموعة من القيم العظيمة: الزهد، والتقوى، والأنفة، وعلو الهمة والإباء.

هذه المرأة الصحراوية كانت بعيدة عن كل مظاهر التصنع والتعقيد، كانت تلبس قفطاناً أبيض بسيطاً، وكانت تشبه الهنود الحمر بخدودها البارزة، وعينيها الصغيرتين السوداوين الناعستين،

وشعرها الأسود المسرّح على شكل ضفائر.

وفوق كل هذا كانت تتحلى بشجاعة نادرة، إذ كانت تصطاد الأفاعي بكفّها العارية. وكانت كأبي فارساً ذائع الصيت. عندما التقت بأبي سلّما على بعضهما البعض على طريقة أهل الجنوب المغربي حيث قبّل كل واحد منهما يد الآخر.

ثم قالت له بانفعال واضح:

ـ حماك اللّه يا ولدي. لقد خلتك ميتاً.

توقف أبي عن البكاء وقال ببرود:

ـ أمي، لا تذرفي عليّ دمعة واحدة فيما لو رأيتني أموت شجاعاً. ولكنني أرجوك أن تفعلي إذا ما رأيتني أموت مجرماً جباناً.

فيما بعد، أغلقت باب الصالون عليّ وعلى أبي حيث أطلقت العنان للألم والغضب اللذين كانا ينهشان صدري. لقد ضقت ذرعاً بما كان يتعرض له أبناء الجنرالات الذين أعدموا من تنكيل على يد الجيش. لقد ضربوا، وطردوا من بيوتهم بغير حق. وما آذاني وأثار ألمي وجرحني هو ما كان قد تناهى إلى سمعي من أن أبي هو الذي أعطى الأوامر بذلك[10]. طلبت منه بإلحاح توضيحاً بشأن هذه الأقاويل.

رفض جملة وتفصيلاً ما كان قد نسب إليه. ثم أعلمني أنه يرغب برؤية أولاد الجنرال حبيبي الذي كان واحداً من أصدقائه المقربين جداً منه. وعدته بأن أفعل ما أستطيع، وقبلت أن ألعب دور الوسيط. بعد طول تردد وافق الابن البكر للجنرال أن يأتي إلى منزلنا تحت جنح الليل والظلام حيث دسّ أبي في يده محفظة ممتلئة بالنقود التي لم يفصح لي مطلقاً عن مقدارها، ثم خاطبه والدموع تتلألأ في عينيه قائلاً:

ـ أتمنى أن تتصرف دائماً أنت وأخوتك تصرفات خليقة بوالدكم.

أما مينا ابنة الجنرال مدبوح الذي قتل على يد الرجل الذي كان متواطئاً معه للقيام بالانقلاب، الكولونيل اعبابو حيث أرداه قتيلاً في قصر الصخيرات، فكانت آنذاك في الثانية والعشرين، وكانت على علاقة استلطاف مع الكولونيل المذكور وتخرج وإياه من حين لآخر وهي من مجايلي خالي عز الدين، مينا هذه كان من المستحيل أن تتمكن من استعادة جثمان أبيها الذي كان في مستشفى ابن سينا.

تدخّلت من جديد، وتوسطت مع أبي كي يعطيها بعض المال، ويستحصل لها على جواز سفر تستطيع من خلاله أن تغادر البلاد باتجاه فرنسا.

وهكذا اضطرت إلى تغيير كنيتها بكنية عائلة أمها التي كانت ابنة الماريشال أمزيان كي لا تتعرض لأي إزعاجات أو مضايقات.

صدمني هذا الإجراء وأذهلني فقلت في نفسي: مهما حصل في حياتي فإنني لن أتخلى أبداً عن اسمي وكنيتي.

مع مرور الأيام كان يعتريني هاجس أن أفقد أبي أيضاً في ظروف مأساوية مشابهة.

لم أجد أبداً تفسيراً منطقياً لهذا الهاجس الذي لم أستطع أن أتخلص منه لأنه كان أقوى مني.

في اليوم التالي للانقلاب أفصحت عمّا يجول في رأسي أمام أحد أصدقائي ويدعى كامل. قلت له:

ـ ما حصل هذه السنة شيء لا يذكر بالقياس مع ما سيحدث في السنة المقبلة. سترى أن الكارثة ستكون جسيمة لا تعوض.

ثم أسررت القول مجدداً لأبي. قلت له:

ـ أخشى أن تلقى ما لقيه مدبوح، فحذار.

أطرق بصمت مفكراً ولم يجب بشيء.

ما بعد الصخيرات

في أعقاب محاولة الانقلاب الفاشلة سافرت أمي إلى لندن بعيداً عن أجواء البلبلة والحذر التي كانت تخيّم على البلاد.

اصطحبت الصغار إلى قبيلة، وهي مصيف بحري تم تشييده حديثاً في شمال البلاد. لأول مرة، كنت مسؤولة بالكامل عن إخوتي، وقمت بدور الأخت الكبرى بمنتهى الجدية. في نهاية فصل الصيف، عدنا جميعاً إلى الرباط. كان أبي يتخذ من البيت تقريباً مكاناً للعمل. إذ ما يكاد يغادر البيت في الصباح الباكر حتى يعود بعد الظهر ويبدأ باستقبال الوزراء والضباط. لقد اتسع نفوذ أبي وازداد قوة، ولكنه تحول إلى شخص آخر. كان يبدو منكسراً، متجهّماً، ولم تعد البسمة تعرف طريقها إلى وجهه، وكأن كل هموم الدنيا منصبة فوق رأسه. أعتقد أنه كان في حالة حداد دائم لا تفارقه، لأنه

كان ما يزال حزيناً على فراق أصدقائه الذين قضوا بشكل مأساوي ومفجع.

بعد أن أعاد تجديد اهتمامه بعائلته الأولى، أي الجيش، أعرب عن شجبه واستنكاره لما نقوم به من أعمال بذخ وتبذير. ثم عاد وأبدى امتعاضه وتذمره من طريقة حياتنا التي كانت تفتقر إلى التقشف والبساطة حسب رأيه، وقد قاده ذلك إلى اتخاذ جملة قرارات تهدف إلى إحداث تغيير جذري في مجرى حياتنا. وفرض على البيت نظاماً عسكرياً صارماً. فأوعز إلى رجال الأمن بأخذ المزيد من الإجراءات الأمنية المتشددة، وعمل على تنحية وإبعاد العديد من أفراد الحاشية من المتطفلين، والمتملقين.

أما فيما يخصنا نحن، فلم يعد بإمكاننا حضور الأفلام كما كنا نفعل سابقاً، ولم نعد أحراراً كالعادة باستقبال من نشاء من أصدقائنا.

أجبر رؤوف على أخذ دروس باللغة العربية على يد ضابط كان ذا ميول وقناعات إسلامية.

أما فيما يتعلق بي، فقد أصبحت طريقة ملبسي موضع انتقاد، وأخذ ورد.

أثارت سياسة التغيير والتحول الجديدة هذه موجة من الاستنكار في صفوف عائلة أوفقير، وأدت إلى حصول مصادمات ومواجهات كلامية بين أفرادها كانت تقريباً شبه يومية.

ضاعف الملك من زياراته التي كان يقوم بها على حين غفلة إلى منزلنا. أضحت زيارته الفجائية والمتكررة بمثابة انتهاك لخصوصيتنا العائلية. كان يتراءى لي بوضوح أن الشرخ في العلاقة التي كانت تربط ما بين الملك وأبي يزداد عمقاً واتساعاً.

لم أعد أجد أي أثر للانسجام الذي ساد بينهما زمناً طويلاً. لقد أدمى قلبي وأحزنني هذا الواقع المرير الذي شاء أن يوقع بين هذين الرجلين الأحبّ إلى قلبي في هذه الدنيا بأكملها.

بدأت أضيق ذرعاً بما يجري في داخل البيت وخارجه، فهنالك وضع غير طبيعي وغريب بدأ يلقي بظله على البلاد، فالنظام الملكي أصبح على كف عفريت، وبدأ يفقد تأييد الشعب له، إذ إن الشعب بدأ يشكك بمشروعيته، وينال من موقع الملك الذي طالما اعتبره شخصاً مقدساً، وأميراً للمؤمنين لأنه حفيد الرسول.

في شهر كانون الثاني/يناير أعلن طلاب الجامعات والثانويات الإضراب، ووقع العديد من أعمال الشغب والاحتجاج، عمد أبي إلى إخمادها بالقوة على الفور. كان النبذ الذي تعرّضت له في ثانوية للا عائشة يزداد سوءاً مع الأيام. فلم يعد الطلاب يهتمون بإخفاء مشاعرهم العدائية نحوي، باستثناء

أصدقائي. ومع هذا واظبت على الذهاب إلى الثانوية. لقد كنت تلميذة مجتهدة، وأردت الحصول على شهادة البكالوريا بأي ثمن. ولكن المديرة أبدت خوفها وحرصها على أمني وسلامتي ونصحت والدي بسحبي من مؤسستها.

بعد عدة ساعات من المناقشات المحتدمة تمكنت من إقناع والدي بإرسالي إلى باريس، وإلحاقي بثانوية موليير، وتسجيلي تحت اسم مستعار. وهذا ما تمّ بالاتفاق مع ألكسندر دومارانش رئيس جهاز أمن الدولة الفرنسية.

أصبح اسمي الجديد مليكة الشنّا، لقد استعرت كنية أمي. وافق أهلي على استئجار شقة لي، تبعد عدة أمتار فقط عن موقع الثانوية بدلاً من تسجيلي في سكن الطلبة الداخلي. تولت صديقة فرنسية مسنّة تدعى برناديت مسؤولية السهر على راحتي، وسلامة تحركاتي، ورعاية شؤوني ومنعي من الخروج ليلاً. بيد أن المهارة في الإقناع التي كنت أتحلى بها أثمرت لاحقاً نتائج مرضية وأدّت إلى نسف كل وعودها وتعهداتها.

لم أدع أمي تشتري لي أثاثاً وفق ذوقها الذي كنت أجده بورجوازياً جداً. تحاشيت كلّ المقتنيات الفخمة والفاخرة، مخافة أن ينفضح أمري، وتنكشف هويتي الحقيقية أمام من سأتخذهم أصدقاء في المستقبل القريب.

وافقت أمي على تسليمي المال الذي بددته في شراء السلع الرخيصة من الأسواق الشعبية.

صرت أبدو كالمتشردة في حياتي الجديدة، وعملت جاهدة كي أحافظ على الظهور بهذه الصورة. وكان من سمات ذلك دأبي على تناول الأطباق المجلدة في شقتي المؤلفة من ثلاث غرف، بما فيها المطبخ، والتي كانت تقع في الدائرة ١٦.

كم كان يبدو لي ممتعاً ومشوقاً دور شخصية الفتاة اليسارية الكادحة الذي كنت أنتحله وأمثله! وأين الغرابة أن تشعر بهذا من كانت طفلة مدللة وميسورة مثلي؟!

باريس كلها كانت بمتناول يدي، فلم لا أنعم بها، ولم أحرم نفسي من كل ما يمكنها أن تقدمه لي؟! ولم لا أخرج كل ليلة للسهر؟!

أما عن برناديت، فقد تدبرت أمرها. توسلت إليها ورجوتها ألا تأتي على ذكر أي شيء من كل هذا لأبي أو أمي.

أصبحت زبونة مألوفة ودائمة عند كاستيل وريجين، هذه النوادي الليلية لم أكن أغادرها قبل طلوع الفجر. ومع هذا كنت حريصة على عدم إهمال دراستي، والعمل من أجل الحصول على علامات جيدة. كانت بالنسبة لي مسألة كبرياء وتحدٍّ لا تقبل أي تهاون أو مساومة.

في إحدى الأمسيات كنت مدعوة لحضور حفلة في بيت صديق مغربي عندما اتصلت بي برناديت هاتفياً لتقول لي بهلع شديد:

ـ مليكة، عودي حالاً إلى البيت. الأمر طارىء جداً، وأبواك لا يكفّان عن الاتصال بك.

كانت الساعة هي الأولى بعد منتصف الليل. أوصلني بعض الأصحاب إلى أمام مدخل المبنى الذي فيه شقتي حيث شاهدت حشداً من الناس يملؤون المكان. اقتربت بخشية وحذر، فإذا بي أمام رجال يرتدون ملابس الشرطة، وآخرين باللباس العادي. كانوا ينتشرون في كل زاوية هناك، في الساحة، في البهو، على الأدراج، حتى فوق غصون الأشجار. أكثر من بدا عليه الاضطراب والخوف كان سفير المغرب في فرنسا الذي كان قد وصل لتوه إلى هناك. لم يعطني أيّ تفسيرات لما يجري. طلب مني فقط إحضار حقيبتي التي كانت برناديت قد جهزتها قبل مجيئي. لم يدعني لأستقل سيارته مما ضايقني وأزعجني. قضيت ليلتي في بيته حيث أفضى لي بأن الشك يساورهم بنوايا العقيد القذافي، فهناك معلومات تشير إلى أنه كان يحاول اختطافي.

سألني إذا ما كنت قد لاحظت من حولي أي شيء غريب في الأيام الأخيرة الماضية. فجأة تذكرت بأن رجلين، قويي البنية، كانا يرتديان ملابس سوداء، قرعا باب شقتنا لثلاث أمسيات متتالية، وكانا يدّعيان في كل مرة أنهما على علم بأن شقتنا معروضة للإيجار، وأنهما يرغبان بإلقاء نظرة عليها من الداخل كي يتسنى لهما أخذ القرار المناسب بشأنها. لكن مظهرهما المريب أثار مخاوفنا وشكوكنا، فرفضت أنا وبرناديت التجاوب مع رغبتهما مهما كلف الأمر.

لاحقاً، تنبهت برناديت إلى أن أحداً ما كان يلاحقني ويتبع خطاي أينما تحركت عندما كنا نتسوق في شارع پومپ.

عرض عليّ رئيس جهاز أمن الدولة في فرنسا مجموعة من الصور علّني أتعرف من بينها على بعض الوجوه التي سبق لي أن شاهدتها من قبل. لكنني رفضت التجاوب مع هذا المطلب. فليس من عادتي الوشاية بأحد. هذه مبادىء ثابتة لا أتخلى عنها... ركبت الطائرة المتوجهة إلى المغرب حيث بقيت عدّة

أيام، في أثنائها رجوت أهلي أن يسمحوا لي بالعودة إلى فرنسا. في المقابل كان عليّ أن أذعن إلى التدابير الأمنية المشددة التي كانت مضروبة من حولي. على مدى أسابيع طويلة كنت أرى خلالها رجال البوليس في كل مكان تقع عليه عيناي. ربما كنت أبالغ قليلاً، ولكن آنذاك كان هذا انطباعي.

خلال الشهر الذي سبق امتحان شهادة البكالوريا، كدت أفقد إحدى عينيّ في حادث سيارة خطير كان يقودها أحد أصدقائي، يدعى لوك وهو ابن أندريه كولفي وهو رجل أعمال مقرّب من الجنرال أوفقير، بعد أن فقد سيطرته الكاملة على السيارة اصطدمت بعمود كهرباء كان قريباً من المكان. أما أنا فقد اخترقت بجسدي الزجاج الأمامي لأنني كنت أجلس بجانبه، ولم أكن أضع حزام الأمان.

نقلت إلى المستشفى في سيارة إسعاف. كنت في حالة يرثى لها. كان الوضع مزرياً: الخد مشوه، الأنف مجزّأ إلى ثلاثة أجزاء، قوس الحاجب ممزق، العين تالفة، الرقبة شبه مذبوحة، الفم مشروم كلياً، المعصم مكسور، الإبهام مطحون، وفوق كل هذا كان هنالك ارتجاج في الدماغ.

وأنا ملقاة على الطاولة في غرفة الطوارىء سمعت الممرضات اللواتي لا شك أنهن حسبنني في غيبوبة، يعلقن بأسى واستهجان:

ـ يا للخسارة... إنها مشوّهة كلياً... يا للفظاعة... لا شك أنها كانت جميلة... أما الآن... يا للمسكينة... ويا لحظها العاثر...

أجروا عمليتين جراحيتين لعيني، لحسن الحظ أن العملية الثانية نجحت. أرسل الملك مولاي عبدالله وبعض الوزراء لعيادتي وملازمتي. لم تفارقني أمي طرفة عين. كان أبي لا يكف عن الاتصال الهاتفي، فهو لا يستطيع المجيء إلى فرنسا، لأن هناك حكماً بالسجن المؤبد كان قد صدر بحقه في فرنسا بسبب قضية بن بركة. آنذاك تناهت إلينا بعض الأخبار تفيد أن الرئيس بومبيدو كان مستعداً لأن يدعه يجتاز الحدود فيما لو أتى لرؤيتي.

عندما تعافيت قليلاً، وصار بإمكاني الرد على مخابراته بنفسي، استحلفته وناشدته بأن لا يغادر المغرب.

بقيت في المستشفى أسبوعين كاملين. وفور خروجي أردت أن أستأنف حياتي الطبيعية. لقد عانيت طويلاً وكان عليّ أن أضع دائماً نظارات شمسية سوداء كبيرة كي أحمي عيني من الضوء.

بعد مضي وقت قصير عدت من جديد لرؤية الطبيب الذي أجرى لي العملية الجراحية. هنأني

وقال لي:

ـ مدموزيل أوفقير، أنت حالة فريدة ونادرة، إذ تمكّنت بشجاعتك وعزيمتك من إنقاذ عينك.

بعد عدة أيام استعدت نصف نظري. في الوقت الحاضر عاد وجهي إلى سابق عهده قبل الحادث. أما آنذاك فقد كانت الندوب ما تزال ظاهرة. ولم أتمكن بعدها من العودة إلى فرنسا كما كان مفترضاً، كي يصار إلى سحب الخيطان عن بعض القطب ومن أجل إجراء علاج بالتمارين.

في السجن عانيت من التشنّج الذي كان واضحاً في عضلات الوجه. وما زلت حتى الآن، عندما أتعب أو تتوتّر أعصابي، يبدأ عصب الوجه بالانتفاض بطريقة لاإرادية.

أعادني أبواي إلى المغرب لأقضي فترة النقاهة هناك. كنت قد عزمت على تقديم امتحانات البكالوريا التي ستجري في شهر تشرين الأول/ أكتوبر في ثانوية ديكارت. كانت هذه الدورة الثانية مخصصة للطلاب الذين لم يجتازوا امتحانات الدورة الأولى مثلي أنا. لقد شئت هذا، ولكن القدر شاء شيئاً آخر.

الانقلاب العسكري الثاني سنة ١٩٧٢

الملك الذي كان يستقبل الرئيس بومدين طلب مني أن أمرّ لرؤيته حالما أعود إلى الرباط. كنت ما زلت مشوّهة المنظر، كان وجهي متورماً، وعيناي محاطتين بهالات زرقاء، والندوب تغطي كل أجزاء الوجه تقريباً.

ما إن رآني حتى خف إليّ ليشدّ أزري ويرفع معنوياتي. قال لي:

ـ ألف لا بأس عليك يا مليكة. إسمعي. ما جرى معك أمر طبيعي يحصل لكل الناس. ما من أحدٍ إلّا وتعرض لحادث سيارة على الأقل مرة واحدة في حياته. انظري للامياء وأنا.. سأرسلك الشهر القادم إلى الولايات المتحدة الأميركية لاستشارة عمالقة الطب. بعد ذلك أعدك أن كل الآثار ستختفي، ولن نعود نرى شيئاً من كل هذا.

آنذاك كنا في بداية شهر تموز/ يوليو. أرادت أمي أن أذهب برفقتهم لقضاء الإجازة في قبيلة. ولكنني أصررت على البقاء لأنني أردت أن أبدأ بالاستعداد للامتحانات القادمة، كي أراجع دروسي بهدوء تام. لزمت المنزل مع أبي الذي كان منهمكاً وغارقاً بالعمل، وقد أصبح البيت وكأنه مقر

للقيادة العامة. لم يعد يفارقه أبداً، يقضي نهاراته باستقبال الضباط والوزراء. كان هذا الجو غريباً لا يبعث على الارتياح. في هذه الأثناء كنت أذهب لرؤيته كل يوم في الأوقات التي يستطيع فيها أن يستقبلني ويراني، أثناء تناول الغداء، أو آخر النهار مثلاً.

كانت أمي تمتلك مقابل ؟يلّانا بيتاً صغيراً، من صالون، وغرفة نوم ضيقة، وحديقة جميلة. أقمت فيه كي أحظى بالهدوء اللازم. كنت أدرس بجدية تامة وبدون انقطاع، أنا وصديقة كانت تعد لامتحانات سنتها الجامعية الأخيرة في كلية الحقوق. قرر أبي أن نذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قبيلة. كنت قلقة وغير مطمئنة فتلك كانت السيارة الرقم عشرين التي تستأجر له من أجل تنقلاته وتحركاته. ما هذا السرّ الخفيّ والغامض؟! بعد شهر بالكاد من حادث السيارة الذي تعرضت له كاد أبي يفقد حياته في حادث طائرة مروحية. وفي مرة أخرى نجا من انفجار وقع خلال احتفال رسمي لم يتمكن من حضوره لسبب أجهله. كنت أستشعر دائماً أن الملك كان يريد إزالته من الوجود، ولكنني لم أكن أملك أي دليل ملموس على هذا.

كان الجفاء يزداد اتساعاً ووضوحاً باضطراد ما بين هذين الرجلين. في أحد الاجتماعات الوزارية التي أقرّ فيها زيادة واضحة في أسعار المواد المعيشية من سكر، وزيت، وطحين، أخرج أبي مسدسه وهدد بقتل نفسه إذا ما تم ذلك.

أعتقد أنه كان يحلم بمملكة تقوم على الدستور، بعهدة وليّ العهد سيدي محمد، لقد كان التنافس على السلطة على قدم وساق.

كان قضاء نهاية الأسبوع في قبيلة حدثاً غير عادي. وكي أكون دقيقة أكثر أقول كان خارجاً عن المألوف. كان تصرف أبي غريباً ومستهجناً. فالذي أحاطنا خلال سنة كاملة بجو من التشدد والصرامة، ها هو ذا يقضي النهار بكامله وهو يرقص ويغني ويمرح. كنت أحضرت معي من فرنسا آخر التسجيلات الغنائية والموسيقية. وها هو يطلب مني في العاشرة صباحاً من وضح النهار أن يسمعها، وكان يلح في هذا مخاطباً إياي باسم الدلع: كيكا...

ـ هيا كيكا، ارفعي صوت الموسيقى على مداه، أريد أن أرقص.

هل هذا هو الذي لم يكف يوماً عن الطلب مني أن أخفض صوت الموسيقى!؟

لقد اكتشفت فجأة أباً آخر مختلفاً. كان أبا حقيقياً! كنت قد نسيت كم يمكنه أن يكون لطيفاً، مرحاً،

ممتعاً، فكاهياً. وكأنه في حفل مستمر من الصباح وحتى المساء. كان تجسيداً حياً لحب الحياة. ما إن يصحو في السادسة صباحاً حتى يهرع إلى البحر حيث يتمدد على الشاطىء بمفرده، وهو الذي لا يطيق البحر ولا يحبه عادة. كان يتأمل طلوع الصباح، أو يسرح نظراته في الأفق البعيد.

كانت جروح وجهي في طور الالتئام، وكان عليّ ألا أعرض نفسي لأشعة الشمس لكنني لم أكترث، ولم أتخذ أي تدابير وقائية، ولم أبال. كانت هذه طريقتي كي أقول له: لا تقلق، إنني طبيعية وبخير، ولا شيء يمنعني من البقاء معك حيث أنت. أخذ درساً في كيفية التزلج على الماء، وهو الذي لم يكن يجيد السباحة. لقد أخذ احتياطاته، وارتدى سترة للنجاة. كان منظره يثير الضحك مما دفعنا إلى تلقيبه: بـ«موبي ديك، ملك البحر».

في قبيلة، كانت الحياة بسيطة جداً. كنا نستقبل الكثير من الناس. وكانت أمي تصر على التسوق وشراء الحاجيات بنفسها، يرافقها بعض أفراد الحرس. وكانت أيضاً تشرف على وضع وتحديد لائحة الأطعمة التي يجب أن تقدم وذلك بالتنسيق مع الطباخ.

كانت امرأة تحرص على القيام بكل شيء بنفسها. فلم يخطر على بالها قط أنه كان بإمكانها أن تشير بإصبعها فقط من بعيد كي تتحقق رغباتها وتنفذ.

كان أبي لا يخلع المايوه إلّا آخر النهار، عندها فقط كان يضع عباءة رجالية هي زيّ الرجال في منطقته في جنوب المغرب.

بالرغم من ذلك، كانت مظاهر السلطة متجلية بأبهى حللها.

كان رجال الأمن والشرطة يحيطون بنا كظلنا، وكانت مجالسنا أكثر ما تستقطب بطانة المتطفلين الذين كانوا يلحقون بنا إلى كل مكان نقصده.

أما عن زوارنا فقد كانت ذروة القمة في التباهي لديهم أن يلمحوا في أحاديثهم أينما حلوا أنهم كانوا بضيافتنا، كأن يقولوا مثلاً بكبرياء مبطنة:

ـ لقد تناولنا طعام الغداء عند آل أوفقير...

بعد ثلاثة أيام من الروعة، قضيناها بمنتهى الحيوية والنشاط، ركبنا الطائرة للعودة باتجاه الرباط. عدت لمراجعة دروسي حيث كنت، في البيت الصغير. بعد ظهر أحد الأيام حوالى الساعة العاشرة، ذهبت لرؤية أبي. كان لوحده، جلست وإياه في الصالون الذي كان يطل على الحديقة. قدمت له كأساً

من الويسكي، ثم جلست إلى جانبه وأخذت يده بين يدي كعادتي. فجأة قال لي:

ـ ألا تودين الغناء معي؟

ـ أجل، فيما لو أحببت... ولكن ماذا سنغني؟

أخذ فوراً يدندن أغنية من أغاني الأطفال تقول كلماتها:

«الإثنين صباحاً، الملك، زوجته، والأمير الصغير، أتوا لرؤيتي ولإحكام قبضتهم علي».

كان ينشد هذا وهو يرمقني من وقت لآخر من طرف عينه نظرة كانت ذات مغزى. ثم كان يتوقف قليلاً ليحثني على مشاركته بالغناء ويقول:

ـ هيا... غني معي... هيا.

لم يوضح لي أبداً سر اختياره لهذه الأغنية بالذات. وما زلت، حتى الآن، أتساءل عن السبب الذي دفعه إلى ذلك التصرف الذي بدا لي مبهماً وأثار فضولي وريبتي.

في أحد الصباحات، حوالى الساعة التاسعة، كنت في الغرفة أدرس حين سمعته يناديني من الحديقة. أثار هذا الأمر استغرابي، فليس من عادته مطلقاً ألا يخبرني هاتفياً بمجيئه. بعد أن فتحت الباب، تراجعت خطوة إلى الوراء، مصعوقة بتلك النظرة التي كانت تطلّ من عينيه. وأنا أقف أمامه كان يرمقني بعطف وحب، ولم أعرف ماذا أقول. كنت مصدومة وقلقة ولا أجد تفسيراً لكل هذا. رحت أسأل نفسي: ترى هل هي الجروح في وجهي هي التي تدفعه لهذا؟ وهل تراه في قرارة نفسه يحمل عليّ بسبب هذا التشوه الذي أصابني؟

أخذني بين ذراعيه، وأحاطني بهما بقوة، وراح بعدها يسألني عن برامجي. كانت أمي تمتلك منزلاً في الدار البيضاء وكنت قد نويت أن أقصده لأكون قريبة من أصدقائي آل العياشي. لذلك قلت له:

ـ سأكون هناك على أفضل حال، ستساعدني الفتيات في دروسي، ثم اطمئن لأنني لن أخرج للسهرات. إن امتحان البكالوريا يشغلني عما عداه، وأعدك أنني سأفوز بهذه الشهادة.

ـ حسناً، إنك تعرفين بأنني أثق بك.

ـ بالطبع يا أبي، أعلم أنك تثق بي. اذهب وأنت مطمئن وقرير العين.

إن أبي الذي لم يكن أبداً متمهلاً بل كان دائماً مستعجلاً، يعانقني الآن ببطء وتمهل، كان يبدو تائهاً ومتردداً.

نزلت معه الأدراج. رفع عينيه وراح يحول نظراته نحو الصالـون... ومن ثم نحوي، حيث أطال تحديقه بـي.

ـ يا عزيزتي، إنك لا شك تعلمين أنني أحبك!

أخرستني عاطفتـه، فبعد أن غادر، بقيت مسـمّرة في مكاني لا أقوى على الحـراك. فجأة عاد الباب وفتح مجدداً. كان هو. اندفع باتجاهي، ضمني إلى صدره بـقـوة.

على مضض قفل عائداً من حيث أتى.

بعد ذلك اتجهت إلى الدار البيضاء. كان اليوم هو السـادس عشر من شـهر آب/ أغسطس ١٩٧٢. كانـت السـاعة الثانية من بعد الظهر. كنت قد وصلت إلى منزلنا في الدار البـيضاء حيث كنت أجلس في الصالون يحيط بـي أصدقائي. كنا نثرثر ونتحدث بسرور، فجأة دفعني شعور خفي ومبهم، أن أدير التلفزيـون. وإذ بمذيـع الأخبار يعلـن في نشرته أنه جرت محاولة انقلاب ضد النظـام[11] وبأن الطائرة الملكيـة تعرضـت إلى إطـلاق صاروخين عندما كانت تحلق فـوق أجواء مدينة تطـوان، وأنهم ما زالوا حتى الساعة يجهلون هوية الفاعل.

هرعت إلى الراديو لأتسقط الأخبار من إذاعة فرنسا الدولية؛، كنت أحدس في قرارة نفسي أن أبـي هو الفاعل. حتى أصدقائي، وهم يلتفون من حولي، كانوا يرددون بأنه هو، وبأنهم متأكدون من هذا. ولكن نشرة الأخبار كانت ضبابـية، وغير محدّدة. أشـارت فقط إلى احتمال أن يكون أوفقير هو المدبّر، كما أشارت إلى أن محاولة الانقلاب تمت بنجاح، وبأن الهدوء لم يستتب بعد.

ما إن سـمعت الأخبار حتى طفقتْ شـقيقة صديقتي هدى العياشي ترجو أختها وتـتوسل إليها أن تذهب معها. كانت تخشى أن يحاصر الجيش منزلنا، وأن يقوم بقتلها معي. كانت تبدو بحالة هستيرية وهـي تشـير بـإصبعها نحوي. غادروا جميعهم باسـتثناء هـدى، لم أتمكن من الاتصـال بأحد من أفراد عائلتي. كانت الخطوط إما مشـغولة أو لم يكن هنالك من أحد يـرد. كنت مرتعبة، خائرة القوى، ولا أدري ما أفعل.

حوالى الســاعة الســابعة ليلاً، رنّ جرس الهاتف. كان أبـي، كان صوته بلا حياة، صوت رجل قرر أن يموت، ويريد أن يقول كلمته الأخيرة، وقد أصبت بالرعب إذ خيل إلي أن شبحاً كان يكلمني على الطرف الآخر. كان صوته متقطعاً وهو يقول لي إنه يحبني وإنه فخور بـي. ثم أضاف:

ـ أطلب منك أن تحافظي على هدوئك مهما حصل. ولا تغادري المنزل ما لم يأت فريق المواكبة لاصطحابك.

رحت أصرخ وأقول له:

ـ أبي، قل لي إن هذا ليس صحيحاً، وإنهم لن يعيدوا فعل ما حصل السنة الفائتة.

ـ يا ابنتي، اسمعيني، أطلب منك أن تحافظي على رباطة جأشك، أنت تعلمين أنني أثق بك.

كان حديثه خالياً من كل ما كنت أتلهف لسماعه ولمعرفته. كان يودي أن يطمئنني، ويخبرني أنه لم يكن هو من خطط لمحاولة الاغتيال. لكنني منذ بداية محادثتنا فهمت أنه هو وأنه هالك لا محالة.

لم أستطع أن أتقبل انكساره. رحت أجهش بالبكاء دون أن أتمكن من إضافة كلمة واحدة. وهو بدوره لم يزد شيئاً وأقفل الخط. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوته.

لم أنجح بالنوم، رحت أسترجع وأستعيد حديث أبي وموقفه الغريب. لا شك أن أمراً خطيراً قد حصل. لم أتجرأ على الاتصال مخافة أن يؤكدوا لي ما أخشى حدوثه. حوالى الثالثة فجراً اتصل بي جدي قائلاً:

ـ مليكة استقلي السيارة، وعودي حالاً إلى الرباط.

ـ لا تتعب نفسك، فإنني لا آخذ أوامري إلّا من أبي، بالمناسبة أين هو؟

أصرّ العجوز المسكين بلا جدوى.

حوالى الخامسة، رن التلفون مجدداً، كنت ما أزال صاحية يفترسني القلق. كانت الأفكار السيئة تسيطر عليّ.

وبدون مقدمات، أخبرتني أمي بما كنت أخشى سماعه:

ـ مات أبوك، احملي متاعك وعودي إلى الرباط.

ثم أغلقت السماعة دون أن تفسح لي المجال للإجابة.

كانت هدى قد سمعت رنين الهاتف، فدخلت غرفتي، وقد لاحت على وجهها علامات الاضطراب.

ـ إذن؟

ـ لقد مات أبي.

صرخت، بكت، ارتمت بين ذراعي، أظهرت لوعتها بشكل صاخب. كنت كقطعة رخام. فهذه الجملة «مات أبي» لا تعني لي شيئاً.

إنها مبهمة. وأنا كنت أحتاج إلى دليل ملموس.

وصلت سيارة المواكبة. قدم لي رجال الشرطة التعازي وهم يبكون. تقبلتها بشكل آلي. شعرت أنني مجرد خيال، لا أستطيع أن أنطق بكلمة. كنت أردد في داخلي: «لا يمكن هذا، لا يموت الناس هكذا، لا يمكنه أن يموت».

ذهبت إلى النافذة. للحظات قصيرة، تعلّقت عيناي بمنظر الطبيعة. كانت الشمس تسطع فوق أشجار الحديقة. وكان هذا الصباح رائعاً مثل سائر الأيام. حاولت جاهدة أن أقنع نفسي بهذا لكن قلبي لم يطاوعني.

ـ لو أنه مات حقاً، لكان شيء ما سيتغير خارجاً، وكنت سأراه. فاستمرار الحياة بدونه كما كانت من قبل، كان يبدو مستحيلاً.

وفاة أبي

أوقفنا حاجز على الطريق المؤدي إلى الرباط، وأشار لنا بالتوقف جانباً. نزل من سيارة المواكبة أحد المرافقين وكشف عن هويتي. اندفع رجال الشرطة نحوي وهم يبكون.

لقد تكرر هذا المشهد على طول الطريق. كنت ما أزال أحتفظ ببعض الأمل بالرغم من مظاهر الحداد التي كانت بادية عليهم. ورحت أوهم نفسي بأن هذا الحزن المخيم كان فقط من اختراعي، وأنه من المؤكد أن أبي مصاب بجروح ليس إلّا. لا شك أنها خطيرة، إلّا أنه ما زال يتنفس، وما زال على قيد الحياة وأنني سأتحدث معه ما إن أصل...

الحشود الغفيرة التي كانت تسدّ منافذ المنزل، والسيارات التي كانت متوقفة في كل مكان، كل ذلك قضى على آخر بارقة أمل كانت لدي.

استقبلني عمي الذي كان وجهه متجهماً، بمعية جدي لأبي الذي كانت آثار الفجيعة مرتسمة عليه. حاول جاهداً أن يسدّ عليّ الطريق ويمنعني من الدخول. قاومته بعنف وأنا أصرخ:

ـ دعني أدخل يا جدي، أريد أن أراه. أريد أن أعرف أين هو.

ـ اهدئي يا ابنتي، لا يحق لامرأة أن ترى جثمان رجل ميت. إنهم يقومون بغسله.

ـ أريد أن أرى جثمان أبـي.

قلت هذا، ودفعت باب الصالون غير عابئة بأحد. الرجال الذين كانوا ينهمكون بغسله، قاموا فور رؤيتي بتغطيته بشرشف أبـيض. وقف الجميع. طلبت منهم أن يدعوني بمفردي معه. جلست بجانبه لأتأمله ملياً.

كان وجهـه جامـداً، بحثت بلهفة كالمحمومة في تقاطيعه عمّا يسكّن ألمي ويهـدىء من روعي، عمّا يقول لي إنه مات بكرامة. كانت ترتسـم على شـفتيه ابتسامة ازدراء صغيرة مثل كل هؤلاء الذين قضوا نحبهـم إعدامـاً. هل غـادر الحياة بلامبالاة؟ ولماذا تراه رسـم على شـفتيه ابتسـامة؟ هـل كان في تلك اللحظة يرمق بازدراء آخر شخص وقعت عيناه عليه؟

لقد أحصيت عدد الرصاصات التي خلفت آثاراً على جسده، كان هنالك خمس منها. تلك الأخيرة التـي أصابـت العنـق آلمتني بجنـون. لقد كانت الضربـة القاضية. لا شـك أنه عانى مـن الرصاصات الأربع أكثر بكثير من الخامسة. لقد أطلقوا عليه الأولى في الكبد، والثانية في الرئـتين، والثالثة في البطن والرابعة في الظهر.

قلت لنفسي:

ـ وحده الجبان يستطيع أن ينفذ مثل هذه المجزرة.

غـادرت الغرفة، بعد أن نزعت ملابسي، ارتديت جلباباً أبـيض، نزعت أيضاً مصاغي. كان واجباً عليّ أن أحدّ عليه، أردت بهذا أن أقول له إن حياتي بعده لا معنى لها.

طلبـت الحصول على نظارتيه وبذلته العسـكرية فلـم يجدوها. انطلقت أبحـث عنها في كل مكان. وأنا أفتح أحد الأدراج. وقعت على حقيبة بلاستيكية في داخلها بذلته الملطخة بالدم. تنفست الصعداء للحظة قصيرة. كان هذا هو الجزء الذي تبقى لنا منه. وجدت أيضاً نظارتيه.

أمـي التـي كانت قد وصلت للتو مـن قبـيلة طلبت هي الأخـرى رؤية جثمانه. كان أبـي مغسـلاً، شعره مسرّح، وكانوا قد أدرجوه في كفن أبـيض. كان يرقد في نعش وضع في قاعة السينما. لم يكن يظهر منه إلّا وجهه، كان يـبدو ساكناً. وكان الناس يتقدمون في صف طويل ليقدموا تعازيهم.

بانهيار، كانت أمي تـنـتحب ولا تكف تردّد:

ـ لقد قتلوه، لماذا؟ لماذا؟!

العسكريون الموجودون رفعوا تقريراً إلى جلالته يتضمن أقوال أمي.

أرسل لنا الملك الطعام من القصر. كانت التقاليد تمنع أهل الفقيد من الطبخ في بيوتهم. رفضت هذه اليد الممدودة.

وهل هي حقاً هكذا؟ لم أشأ أن أخون أبي، وأمشي على جثته.

إن التخاذل يستغرق لحظة فقط، لكن الثمن النهائي يكون مرتفعاً جداً. ولا مجال للعد. ما من ثمن يمحو آثار الأعمال الدنيئة ويزيلها. فكيف إذا كان الثمن زهيداً.

كرهت ذلك النفاق الذي أرادوا فرضه علي. انتهى كل شيء بيني وبين الملك، مع أنه أبي بالتبني، وقد كان هذا سر مأساتي ومعاناتي.

لقد لاموني على هذا الموقف، ولكي يبرروا احتجازنا، زعم بعض البسطاء بأن الملك عاقبنا لأنني تجرأت على إهانته برفض عطيته.

كيف كان يمكنني أن أرد بغير هذا؟ لو لم أكن ابنته بالتبني، لو كان بنظري مجرد حاكم وليس أباً، ربما لم يكن رفضي بهذه الشدة، ولم تكن ثورة غضبي بهذا المقدار. كنت سأتصرف معه وفق مقامه. لكن علاقتنا كانت قوية العاطفة. عندما تحديته، أردت أن أرد له الضربة، بضربة أخرى. بالنسبة للجميع، كان هنالك مغزى سياسي لكل ما أقوم به.

خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت الدفن اهتممت بالصغار. كانت أمي ما زالت في حالة هستيريا. كان عليّ إخراجهم مما يتخبطون فيه. كان رؤوف ما يزال تحت وطأة الصدمة. لقد خسر قدوته، أغلى رجل على قلبه.

لم تتوقف الفتيات عن البكاء. قالوا لهن بأن أباهن موجود في السماء. ولكنهن لم يتقبلن فكرة أنهن لن يرينه بعد اليوم. حتى عبد اللطيف الصغير شعر أن هنالك أمراً خطيراً قد وقع. كان أصدقاؤنا يأتون ويذهبون لتهدئة خاطرنا وتعزيتنا. كان وجودهم لا يقدر بثمن. لكنني نادراً ما تنبهت لهذا.

في النهار كنت أتصرف بما يسعني من رباطة جأش؛ كان هنالك الكثير الذي يجب أن ينجز ويتمم. لم يكن عندي وقت للتباكي على نفسي. أما في الليل، فكان الكابوس نفسه يتكرر بلا انقطاع: كنت أرى جثة أبي، الرصاصات الأربع في صدره، والخامسة في عنقه، وكنت أسمع كلماته الأخيرة. كان صوته

يخرج من طرف القبر، يقول لي بأنه يحبني.

كنت أغرق في البكاء، ولا أستطيع النوم.

رفضنا التحدث إلى الصحافة التي راحت تطاردنا وتلاحقنا.

أحد الصحافيين، بالصدفة، سأل خالي عز الدين:

ـ هل تعتقد أن صهرك كان الرجل الذي ينتحر بإطلاق خمس رصاصات على نفسه؟

رد خالي بأنه تم إعدام الجنرال أوفقير. تصريحه أذيع في اليوم نفسه، على محطة فرنسا الدولية.

استودعت أمي لدى أصدقائها في طنجة، السيدة گسوس وزوجها، بذلة أبي الملطخة بالدم. وأحرقت واحدة أخرى مكانها في موقد الحمام، بالاتفاق مع خالي عز الدين. في اليوم التالي، أرسل الملك رئيس الشرطة ليطلبها، أعلمته أمي بأنها أحرقتها. قال وهو يرتجف: قال لي جلالته: انتظر، وسترى أنها سترد عليك بأنها أحرقتها. فتشوا الموقد رأساً على عقب. وقاموا بتحليل ما وجدوه من بقايا القماش. ظن الملك أن دليل الجريمة تبدد في الهواء ولا يمكن العثور عليه. ترى هل عادت السيدة گسوس وسلمته بدافع من خوفها؟ لم نتحدث أبداً في هذا الموضوع.

في اليوم الثالث، حملوا الجثمان في الصباح الباكر، حيث أعطى الحسن الثاني تعليماته لدفنه في صحراء تافيلالت. كانت أمي تفضل الرباط، حتى تستطيع التردد على قبره. لكن آخر وصية لأبي كانت أن يرتاح تحت نخلة من نخلات قريته. احترمت أمي هذه الرغبة. أخي رؤوف، بمعية رجال العائلة، رافقوا أبي إلى مثواه الأخير.

في تلال عين شعير والقرى المحيطة اتشحت النساء بثياب الحداد وتجمعن حول نعشه حيث أجهشن بالبكاء.

جرت مراسم دفنه بمنتهى البساطة والتواضع، في مدفن صغير، لم تطأه قدماي أبداً. يراودني إحساس دائم، بأن اليوم الذي سأفعل فيه هذا سيكون آخر أيامي.

في اليوم التالي، في ٢٠ آب/ أغسطس فرضت علينا الإقامة الجبرية في المنزل، كذلك الأمر بالنسبة لجدي وعائلة أمي، وبعض المخلصين مثل آن براون مربيتنا الإنكليزية، وحورية، وفاطمة، وسالم. لقد ضيقوا الخناق علينا.

خضعت أمي لتحقيقات مرهقة من قبل المفوّض اليوسفي الذي قابلناه لاحقاً في السجن. كانت

أمـي قد شـاهدت رؤيـا في منامهـا. في البداية لم أعرها أي اهتـمام. لكن بـين قضبان السـجن أضحت شـغلنا الشـاغل لكثرة ما تحدثنا عنها. رأت أننا نعدو معاً فوق جوادينا على طريق أخذ يضيق تدريجياً ليتحـول إلى نفـق، كان سـقفه يطبق أكـثـر فأكـثــر علينا. وفي اللحظة التي كان يسـحقنا فيها، نجحنا بأعجوبة بالغة بالخروج. توقف الجوادان عن العدو في وسط تلة، كانت تشرف على مدينة الرباط. لقد تبيّـنـت تفسـيـر هذه الرؤية لاحقـاً؟ كانت الخيول ترمز إلى الحياة، والنفق الـذي كاد يطبق علينا، كان يرمز إلى السجن.

مـرةً أخـرى كبّلنا مصاب جديد، وزاد من حرقتنا ولوعتنا. خالي عز الدين، هذا الشـاب الشـجاع جـداً، مـات في حادث سـيـر بعدما صدمت إحدى سـيارات قوى الأمن سـيارته عمـداً. لم يمت على الفـور، ظل في مكانه عدة سـاعات وهـو في حالة غيبوبـة، بانـتـظار قدوم النجدة التـي تأخرت كثيراً بالمجيء.

أحببت عز الدين كثيراً. تشاركنا معاً كل اللحظات، كان أخي وصديقي ومستودع أسراري. لطالما دافع عني وحماني، ودللني، وتستّر على حماقاتي.

لقـد كان جيـلاً جذاباً، ومليئاً بالحياة. بدا لي حادث مقتله مثيراً للشـبهة. شـعرت أنهم لم يقولوا لنا الحقيقة، لم يؤكد لي أحد قط شكوكي حول ملابسات الحادث الذي أدى إلى موته.

ظل الشك دائماً يملأ قلبـي. كان هنالك الكثير من الدموع ومن الحزن.

أمي التي كانت تعرف أن الأيام العجاف في بدايتها، كانت تسأل نفسها كيف سيمكننا أن ننجو من ويلاتها. كان الملك يكرهها. كان قد أعلن على الراديو أنها هي المحرض الخفي للانقلاب العسـكري، وأنهـا دفعت أبـي للإقـدام عليه. ما بـين قضية البذلة العسـكرية، وموقفنا الذي اعتـبر مهيناً، والكره الذي عاهد الملك نفسه عليه، كان لا بد من العقاب.

لقـد أثـار موضوع فرض العزلة الفردية عليها. لكننا، نحن الأبناء، لم نشـأ تركها مهما كلف الثمن. حيث تذهب سنذهب معاً، متحدين في الضراء.

على مدى أربعة أشهر وعشرة أيام تلت الوفاة، كنا مسجونين في منزلنا.

مـن جهتـي سـعيت جاهـدة أن أحافـظ عـلى المظاهـر الاعتيادية، كنـت أعطي الـدروس لإخوتي الصغار، حاولت أن أجعلهم يعيشـون حياة طبـيعية. بـين الفينة والأخرى كان يتخلل حزننا العميق

بعض الومضات الضاحكة التي كانت ترسم البسمة على وجوهنا، وتعيد لنا بعضاً من أنفاسنا الحبيسة. كانت مصائبنا ماحقة. كان المنزل ممتلئاً برجال الشرطة الذين كانوا يتنافسون كي يناوبوا في شهر رمضان لأن اللحم كان لذيذاً ونحن كنا كرماء. من أجل إعادة إدخال أصدقائنا الذين سبق لهم أن غادروا المنزل، ويرغبون برؤيتنا مجدداً وضعنا خطة محكمة.

كنا ندسّ المنوّم الذي طلبنا الحصول عليه في أباريق الشاي. ثم نقدمه إلى الحراس الذين لا يلبثون جميعاً أن يناموا. هكذا يقفز أصدقاؤنا فوق سور الحديقة حيث يبقون عدّة أيام معنا. ثم في المساء المقرر لرحيلهم نعيد ما فعلناه في المرة الأولى. وهكذا يعودون من حيث أتوا.

في تلك الأيام، فكرت ملياً بأن أهرب. لكننا كنا مراقبين جيداً. ثم إلى أين أذهب؟ كنت ما أزال صغيرة السن على الهرب. جدي كان عجوزاً هرماً، وأمي كانت تتلوى من الحزن. كنا عزّلاً ولا سلاح لدينا. كنت أشعر بأننا ننتظر حكم القدر الذي سيكون مأساوياً.

في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر، انتهت فترة الحداد. خلعت أمي ثوبها الأبيض. كنا نستعد لاستقبال عيد الميلاد، فالأطفال يحتاجون إلى بعض البهجة. الأشرطة الملونة زيّنت الجدران والثريات، شجرة الميلاد ارتفعت في الصالون، وضعنا حولها الهدايا. حاولنا قدر الإمكان تلطيف الجو.

وصل قائد الشرطة بعض الظهر، وأعطانا أمراً بتحضير أمتعة تكفي لمدة خمسة عشر يوماً. اصطحبونا إلى جنوب المغرب. لاحقاً ختم باب بيتنا الخارجي بالشمع الأحمر. لم يعد لأحد الحق في الدخول إليه، في حين أن قائد الشرطة كان قد أكد لنا قائلاً:

ـ إن الملك أعطاكم كلمته.

قبل أن نرحل، اشتركت في إعداد الترتيبات اللازمة. طلبت من الصغار أن يوضبوا حقائبهم. من جهتي، أفرغت محتويات كل الرفوف والأدراج. نعتتني أمي بالمجنونة. لأننا سنتغيب فقط خمسة عشر يوماً ليس إلّا.

أعطيت حورية كل الملابس الجديدة التي كنت قد اشتريتها من باريس، والتي لم أضعها على جسمي بعد، كذلك الحلي، والعطور، والجزادين، والأحذية.

قالت لي:

ـ لكنك لن تجدي شيئاً لتضعيه عندما ستعودين...

همست في سري:

ـ هذا إذا عدت... إن هذا سيكون أعجوبة فيما لو حصل.

أودعتها أيضاً علبة تحتوي على ألبوم الصور، ورسائل، من بينها واحدة عزيزة عليّ جداً، كانت رسالة حب أرسلها أبـي إلى أمي مع باقة من الورود.

أما القسم الأكبر الذي حملته معي فكان بعض الملابس العملية، ورواياتي، والكتب المدرسية لي ولأخوتي الصغار، وألبوم صور حفلة عيد ميلادي الثامن عشر.

سمحوا لنا باصطحاب شخصين فقط معنا. كان الاختيار صعباً.

كانت عاشورا السباقة في إبداء رغبتها بالذهاب معنا، وهي ابنة عم أمي وتكبرها بسنة واحدة. كانت قد أتت للعيش معها عندما كان لها من العمر عشر سنوات، بعد أن مات أبوها الذي كان أخا جدي. تعلمت الصغيرة فن الخياطة والطبخ. تزوجت بعد عدة أشهر من مدرس ذي ارتباطات سياسية. رزق الزوجان بابنة ماتت وهي صغيرة جداً.

لم يعد بإمكان عاشورا الإنجاب من جديد. فضّلت أن تطلب الطلاق على أن تشاركها في زوجها امرأة أخرى... بعدما أصبحت وحيدة، طرقت باب ابنة عمها التي استقبلتها بالترحيب. أصبحت مربيتنا وشاركتنا حياتنا وحدادنا، وأبدت استعدادها لمرافقتنا حتى إلى الجحيم.

الثانية حليمة عبودي كانت أخت فاطمة الصغرى، مربية عبد اللطيف التي تركت المنزل بعدما أفزعتها الأحداث، حيث أعاد الجنرال الدليمي[١٢] تشغيلها لديه.

أما حليمة التي كان لها مثل عمري، ثمانية عشر عاماً ونصف، فقد أتت لتقديم التعازي لنا، وبقيت عندنا طوال فترة الحداد التي استمرت أربعة أشهر وعشرة أيام. عندما علمت برحيلنا، اقترحت علينا بعفوية أن تأتي معنا، إذ لم تشأ أن تنفصل عن عبد اللطيف الذي كان في الثانية والنصف من عمره، كانت شديدة التعلق به.

قالت لأمي بتوسل:

ـ خذوني معكم.

آن براون، المربية الإنكليزية، وحورية صديقتي أرادتا أيضاً المجيء معنا، لم يكن هنالك من مجال أبداً. بعدما عشت مدة طويلة في القصر، بت أعرف كيف تجري الأمور عندما يصار إلى إبعادنا. على ما

يبدو كنت ما أزال بعيدة عن الحقيقة.

تم ترحيلنا عشية عيد الميلاد. كنا ثلاث نساء وستة أطفال محاطين برجال شرطة مدجّجين بأسلحتهم. اختبأت ماريا وسكينة في صدري بخوف. كان رؤوف يصر قبضته، وعبد اللطيف كان يمص إبهامه.

أدرت رأسي لألقي نظرة أخيرة على المنزل، وأودعه إلى الأبد. كان انتحابي صامتاً كي لا أرعب الصغار. لم أبك فقط أبي، بكيت أيضاً حياتي، هذه الحياة التي سرقوها مني.

إذا كان المنفى مؤلماً للجميع، فقد كان لي أنا أكثر ألماً. كنت الوحيدة التي تنبأت بأنه لن يكون هنالك من شيء عابر ومؤقت.

الهوامش

(١) محمد الخامس (١٩١١ ـ ١٩٦١) من سلالة النبي (صلعم) ومن العائلة العلوية. خلف والده السلطان يوسف بن يوسف وتبوأ المنصب في العام ١٩٢٧ وقد كانت البلاد تحت الانتداب الفرنسي. عام ١٩٥٧ أصبح ملكاً للمغرب فور نيل المغرب استقلالها وقد حكم حتى وفاته في العام ١٩٦١.

(٢) أم سيدي: عدا الحسن الثاني أنجبت للا عبلة للملك محمد الخامس أربعة أطفال: للا عائشة، للا مليكة، مولاي عبد الله، وللا نزهة. كما أنجب محمد الخامس من إحدى محظياته للا فاطمة الزهراء ولم يعترف بهذا إلا بعد حين؛ فحين أعتق جميع سراريه عشية نفيه قررت للا فاطمة الرحيل معه فتعلق بابنته منها وحظيت الصغيرة بتربية أميرية. للا ومولاي ألقاب تطلق في المغرب على أعضاء العائلة المالكة للدلالة على كونهم من الشرفاء (أي سادة علويين)، وكذلك للتعبير عن بالغ الاحترام.

(٣) سمية سيدي: إسم السيد، أي مَنْ اسمه سيدي.

(٤) سيدي: أي مولاي الملك.

(٥) ولد الحسن الثاني في التاسع من تموز/ يوليو من العام ١٩٢٩، وتبوأ العرش في الثالث من شهر آذار/ مارس من العام ١٩٦١.

(٦) مهدي بن بركة مدرّس رياضيات سابق للملك الحسن الثاني، ورئيس جناح المعارضة المغربية، ومؤسس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تمّ اختطافه في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥ من أمام مقهى في باريس على يد رجلين من الشرطة الفرنسية اقتاداه إلى فيلا تقع في ضواحي باريس، ومن لحظتها اختفى نهائياً عن الأنظار، ولم يعثر على أي أثر له.

وجهت الحكومة الفرنسية التهمة إلى كل من وزير الداخلية المغربي الجنرال أوفقير، ومدير الأمن العام الكولونيل

الدليمي، بأنهما كانا وراء التخطيط لهذه العملية التي راح ضحيتها بن بركة. على أثر ذلك أصدرت مذكرة دولية لاعتقالهما. مثل الدليمي أمام القضاء الفرنسي حيث جرت تبرئته مما كان قد نسب إليه، وذلك في سنة ١٩٦٧، أما بالنسبة لأوفقير فقد أصدرت المحكمة الفرنسية بحقه حكماً بالسجن المؤبد. وقد جاءت ردة فعل المغرب على لسان ملكها الذي أبدى أسفه لهذا القرار «المجحف»، وأعرب عن تمسكه التام وثقته المطلقة بشخص أوفقير.

(٧) سيدي محمد ولي العهد، فالملك عند وفاة والده تحت اسم محمد السادس، من مواليد العام ١٩٦٤، وللا حسنا من مواليد ١٩٦٥، وللا أسماء من مواليد العام ١٩٦٧، أما مولاي رشيد فهو من مواليد ١٩٧٠.

(٨) أبراهيم السرفاتي: خريج أحد أشهر معاهد الهندسة الفرنسية. كان معارضاً للنظام، أسس منظمة عقائدية متطرفة اسمها «إلى الأمام». سجن في شهر كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٧٢، ثم أطلق سراحه، ثم سجن من جديد في العام ١٩٧٤ في سجني غبيلا والسجن العسكري (القنيطرة). أطلق سراحه في أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٩١ وأبعد إلى فرنسا. بعد وفاة الحسن الثاني وتبوّؤ محمد السادس سدة الملك سمح له بالعودة إلى المغرب، مطلع أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ عين مستشاراً للمدير العام للمكتب المغربي للأبحاث والمساهمات المعدنية.

(٩) في ١٠ تموز/ يوليو ١٩٧١، قامت مجموعتان عسكريتان تابعتان للمدرسة الحربية الملكية بمداهمة قصر الصخيرات الملكي أثناء الاحتفال الذي كان يجري بمناسبة عيد ميلاد الملك، مما أدى إلى مقتل عشرات من المدعوين، والضباط، وأركان البلاط، والمشاهير والشخصيات المحلية والعالمية. كلهم كانوا من الرجال لأن هذه الحفلة كانت مخصصة فقط لهم. في هذه الأثناء لجأ الملك إلى الاختباء في الحمام.

كان المتمردون قد أحكموا السيطرة على محطة الإذاعة، بعدها عمدوا إلى القيام بهجوم مسلح على قصري الصخيرات والرباط.

وفي وقت لاحق نجح الملك بإحكام سيطرته على الوضع. وعاد إلى الإمساك بزمام الأمور. كان الجنرال المدبوح هو من قاد هذا الانقلاب احتجاجاً على الفساد المستشري في البلاد، ولكنه قتل أثناء الهجوم الذي حصل على قصر الصخيرات، على يد الكولونيل اعبابو الذي كان من المفترض أن يكون شريكه، إلّا أنه عاد وانقلب عليه. وبأمر من المحكمة العسكرية العليا تم تنفيذ حكم الإعدام بحق عشرة ضباط من بينهم أربعة جنرالات. سعى الجنرال أوفقير لدى الملك من أجل إصدار عفو عام بحق ١٠٨١ من تلامذة المدرسة الحربية، ونجح بالحصول عليه.

لم يتوفر أي دليل على مشاركة الجنرال أوفقير بالتخطيط لهذا الانقلاب غير أن طريقة تحركه التي لم يأل فيها جهداً من أجل تخفيف الإجراءات التي اتخذت بحق المتمردين، وسعيه الدؤوب لإصدار أحكام بالعفو عنهم، ما انفكت تثير حيرة المطّلعين والمراقبين. الجدير بالذكر أن ما حصل في هذا التاريخ يعتبر أول تصدع في العلاقة المتينة التي كانت تربط ما بين أوفقير والملك.

(١٠) بعد واقعة الصخيرات عيّن الملك الجنرال أوفقير وزيراً للدفاع وقائداً للقوات الجوية الملكية فكان يراقب الجيش والشرطة وقوى الأمن الداخلي.

(١١) في ١٦ آب/ أغسطس ١٩٧٢ تعرضت الطائرة الملكية العائدة من باريس إلى مطاردة في الجو فوق مدينة تطوان، حيث قامت طائرة من سلاح الجو المغربي بتعقب الطائرة الملكية وأطلقت باتجاهها عدة صواريخ إف ٥. وقد انطلقت الطائرة من مطار القنيطرة، مقر المؤامرة، ويقودها كل من الكولونيل أمقران، والمقدم كويرا. وكان هذا الأخير قد تم إلقاء القبض عليه بعد أن ألقى بنفسه من الطائرة. وقد تمكنت الطائرة الملكية من الهبوط بسلام في مطار الرباط. أما الكولونيل أمقران فقد فر هارباً على متن طائرة هليكوبتر يرافقه أربعة آخرون، حيث طلب اللجوء السياسي، بعد أن أشار، بطرف خفي، بأصبع الاتهام إلى أوفقير الذي لطالما اعتبر من أوفى الأوفياء.

باستدعاء من الملك، توجه أوفقير إلى قصر الصخيرات، وهناك تقابل مع الرجل الذي كان يعد ذراعه الأيمن أحمد الدليمي، ورئيس التشريفات حفيظ العلوي. الرواية الرسمية خلصت إلى القول بأنه قضى منتحراً بإطلاق خمس رصاصات على نفسه، وبأن تلك التي اخترقت العنق أصابت منه مقتلاً.

(١٢) الجنرال أحمد الدليمي كان مساعد أوفقير الرئيسي ورئيس جهاز الأمن. كان موجوداً بباريس أيام اختطاف بن بركة. أصبح قائداً للقوات المسلحة، ظل في منصبه معاصراً حرب المغرب ضد جبهة البوليساريو حتى وفاته في حادث سير مشبوه في شهر كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٨٣. والغريب أن ساعده الأيمن غالي المحلي لاقى المصير نفسه بعد أسابيع.

عشرون عاماً في السجن

سنة في الصحراء (٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٢-٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣)

واحة آسا

إلى أين نحن ذاهبون؟ لا أعرف. تسير بنا السيارة في عتمة الليل، إنها سيارة أميركية بلا ستائر، تبدو الطريق من نوافذها غير معبدة. رجال المواكبة الذين أوكلت إليهم مهمة مرافقتنا، يحاولون جهدهم تلطيف الأجواء، والتخفيف عنّا. أرهف السمع علّني ألتقط بعض الأخبار التي يبثها راديو البوليس. ما زلت أجهل إلى أين يقودوننا، لكنني ألاحظ أن الطريق مزروع برجال قوى الأمن وأننا موضوعون تحت المراقبة الشديدة.

في الصباح الباكر، توقفت السيارات في قرية گلميم، على مسافة من مدينة أگادير. اقتادونا إلى بيت مسؤول المحلّة، كشفوا له عن هويتنا، إننا عائلة الجنرال أوفقير. استقبلنا بحفاوة بالغة، وأحسن وفادتنا، وقدم لنا فطوراً صباحياً فخماً.

يكاد رأسي ينفجر، اختلطت عليّ الأمور، ولم أعد أقوى على التفكير. لماذا أشعر بكل هذه الهواجس والظنون؟ لماذا أنا متأكدة بأننا نسير نحو الهاوية؟ هل حقاً مات أبي؟ إنها حقيقة يصعب تصديقها. أجد الأمر غريباً عندما يتحدث المسؤول عنه بصيغة الماضي. يقول إنه كان رجلاً قديراً ومحترماً. يترحم عليه بحرارة ظاهرة، في حين أن رجال الشرطة لا تسهو أعينهم طرفة عنّا.

كل شيء يبدو غامضاً ومبهماً، إنه عسير على فهمي وإدراكي. أين المنطق في كل هذا؟ أين العدالة والإنسانية؟ إنه الضياع بعينه. إننا نتخبط في مملكة العبث والجنون. ما ذنب الصغار حتى يؤاخذوا بجريرة الكبار وما علاقتهم بما ارتكبه؟!

بعد أن قضينا يوماً كاملاً في دار مسؤول گلميم، ها نحن نساق مجدداً، إنه طريق الصحراء. بعد هبوط الليل، توقفت عجلات السيارات عن الدوران... المشهد جميل وموحش، القمر يضيء تلك البطاح القاحلة، وتلك الجبال السرمدية في أعالي الأطلس، بقممها التي تشمخ عالياً، والتي تلوح

للناظر بالرغم من العتمة.

أعشق الصحراء، كم كنت أقفز فرحاً عندما أجيء لزيارة مناطقها بصحبة للا مينا ومولاي أحمد، ابن عم الملك. أشعر أن ذلك الماضي بات سحيقاً وبعيداً، كأنني لم أعشه أبداً، وكأنه مجرد وهم من صنع خيالي وأوهامي. بعدما أنزلونا من السيارة، أجبرونا على الوقوف صفاً على أرض هذه الفلاة النائية. ورجال الشرطة بمواجهتنا يهددوننا برشاشات الكلاشينكوف. مالت أمي عليّ هامسة في أذني:

ـ كيكا، إنها النهاية.

للأسف، يا ليتها كانت النهاية، إن هذا أرحم بكثير مما ينتظرنا من جحيم. وللأسف إنها ليست إلّا البداية.

صدق حدسي، وأصابت توقعاتي. هذا التوقيف الفجائي، وهذا العرض للقوى، لأجل إرهابنا، وإذلالنا.

الرحلة شاقة وأليمة، خصوصاً للأطفال، عودهم طريّ، ولم يبلغوا الحلم بعد. الطقس حار، وكلنا نشعر بالخوف والعطش، والجوع. من ذا الذي يطمئننا، ويطيب خاطرنا، ويزيل هذه المخاوف التي ما انفكت تنهش قلوبنا وتفترسنا؟!

ها هي الرحلة تشرف على نهايتها، لقد اصطحبونا إلى قرية صغيرة، معالمها غير واضحة، لأن السيارة تسرع السير، ومن الصعب ضبط المشاهد. راديو البوليس يعلن بأننا ندخل الثكنة العسكرية في آسّا، هذا المكان معزول، في عمق الصحراء، وقريب من الحدود الجزائرية. في زمن الانتداب، كانت هذه الثكنة منفى، يضع فيها الفرنسيون المناضلين السياسيين والمعارضين.

في صبيحة اليوم التالي لوصولنا، استيقظنا على أصوات غريبة. حصل انهيار في الليل راح ضحيته سبعة جنود من القوات المساعدة، تم انتشالهم من تحت الأنقاض. التصقنا بقضبان النافذة بذعر، نشاهد الجثث المحملة وهم ينقلونها إلى الداخل. إنه فأل سيئ، لا يبشر بالخير!

رجال الشرطة الذين أحضرونا إلى هنا جميعهم من مدينة الرباط. إنهم يحبون أبي، ويكنون له الاحترام والتقدير. عندما يأتون على ذكره، يظهر الحزن جلياً على وجوههم. كانوا لطفاء معنا، وعاملونا بكل ود.

ولكن يبدو أن تعليمات مختلفة سبقتنا إلى هؤلاء الذين كانوا في انتظار وصولنا. ربما أعطيت

الأوامر لهم بأن يعاملونا بقساوة وفظاظة كغيرنا من المساجين، وبأنه من غير المسموح إبداء أي تساهل أو رأفة معنا.

لذلك تمت الاستعانة بهم، إنهم من المناطق النائية في المغرب. لا يعرفوننا جيداً، ولن تأخذهم بنا شفقة أو رحمة. ولن يغير في الأمر شيئاً أن يكون رؤساؤهم من مدينة الرباط.

ساقونا إلى منزل تحت الأرض يقع داخل الثكنة. وأول ما واجهنا رجل طاعن في السن، يرتدي جلباباً عسكرياً، هندامه غير مرتب، ويبدو منظره متغضّناً، يقف بالقرب من طاولة فوقها تسع قطع من الخبز المدور، وعدة علب سردين.

إنه بو عزة آمر المعسكر. يا للمسكين، يبدو أنه يجد صعوبة بالغة في السيطرة على طقم أسنانه الذي يتراقص كلما فتح فمه بكلمة. يا ألله، يراودني إحساس بأنه سيلفظه أو سيبتلعه. أضحك في سرّي من هذا المشهد الفكاهي، بالرغم من أن الخوف كان يعتصر قلبي. يا للقرف، إنه يتجشأ بفظاظة وبدون إحراج. يأخذ نفساً عميقاً، ثم يبدأ بالصراخ في وجوهنا:

ـ من الآن فصاعداً، يجب عليكم أن تطيعوني طاعة عمياء. إنني أستطيع أن أكسر رقابكم وأسحقكم لو شئت...

لم نحرك ساكناً، ولماذا نقوم بما يستفزه ويثير حفيظته، لا شك أنه يعني ما يقول، إنه يتلقى أوامره من الملك.

أطأطىء رأسي حزناً وخيبة، إذاً إن بو عزة مجرد بوق، يردد ما يقوله سيده الذي كنت يوماً ابنته وكان بمثابة أبي.

تسلّم بو عزة إدارة السجن العسكري في مدينة القنيطرة أربعين عاماً، وواكب الانقلابات العسكرية، احتجز عشرات المساجين السياسيين، إنها المرة الأولى في حياته التي يوكل إليه فيها مهمة من هذا النوع: حبس ثلاث نساء، وستة أطفال، من بينهم طفل عمره فقط سنتان ونصف. وماذا عساه يفعل؟ أسقط في يده. إنه لا يرى في قضيتنا إلّا أمرين اثنين:

ـ عليك إذلال وترويض عائلة أوفقير. إنها أوامر الملك.

ما أقسى هذا التغيير، وما أشد وطأته. بين ليلة وضحاها، ننتقل من العز والجاه، إلى الفقر والبؤس. هذا التحول صدمني وأفجعني. مع أن هذا كان منتهى الترف والدلال، بالقياس مع ما

سينتظرنا لاحقاً.

يا لسخرية القدر، فتاة مثلي لا تطيق شظف العيش، ولا تحتمل منظر البشاعة والوساخة، تنتهي إلى هنا، إلى هذه القاذورة التي تثير التقزز، وتبعث الرغبة في التقيؤ. لا مناص من استخدام هذه الأغطية العسكرية البالية، والتي كسبت لونها مما علق بها من أوساخ. كيف أنام على هذا الفراش الإسفنجي؟ إنه وكر للرمل والغبار. هذه الحيطان السوداء المتشققة تدب الرعب في القلوب! يبدو أن هذا مقرنا الجديد، لأنهم أحضروا لنا حقائبنا، ورموها فوق الأرضية الرملية لهذه العلية الصغيرة التي علينا، بدءاً من الآن، أن نعتبرها مقرنا الإلزامي لا الاختياري، وما بين الأول والثاني موت وحياة.

لحسن الحظ أن وجود الأطفال يضفي جواً من البهجة والمرح، ويفجر بعض الحركة والحياة في هذا القبر الساكن، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، أمتلىء عزيمة وتصميماً على الصمود والمقاومة.

في اليوم التالي طردت شبح اليأس، وقررت أن أتعايش مع هذا الواقع الجديد. هذا هو الخيار الوحيد. فلأبدأ أولاً باستكشاف هذا الجحر الصغير، إنه مؤلف من ثلاث حجرات ضيقة، على أرضها بعض الفرش فقط، وهذا كل شيء. لا خزائن ولا غيرها، اضطررنا لوضع أغراضنا على شراشف، أما المياه فكانوا يزودننا ببضعة أسطل منها، نستعين بها على قضاء حاجاتنا... وأينما همت أنفسنا أدركنا وجود الحراس في كل مكان.

عندما فتحنا حقائبنا، لاحظت بمرارة التناقض الحاد بين هذا المحيط البائس وبين ملابسنا الثمينة. تمكنا أن نحضر معنا حوالى العشرين حقيبة ممتلئة بملابس من أفخم الماركات العالمية، مثل فيتون، غوتشي، وهرمس، كانت جميعها مزدحمة بالأشياء الجميلة. في حياتنا الماضية، كانت أمي تلبس منتوجات الخياطين الباريسيين، وكانت تشتري الملابس للصغار من جنيف. أما أنا، فقد كنت أفرغ محلات الموضة في باريس، ولندن، وميلانو. في قلب الصحراء، كل هذا يبدو فجأة تافهاً ومثيراً للسخرية.

تركت أمي تقريباً كل مجوهراتها كي يتسنى لها حمل حقيبة صغيرة فقط. الحمد لله أننا أحضرنا معنا الستريو، والأشرطة، وراديو يمكننا بواسطته التقاط كل المحطات الإذاعية في العالم.

وزعت الماء، والصابون، وطلبت من الجميع مساعدتي في التنظيف. ثم وضعنا الستريو في زاوية محددة أنا ورؤوف. عندنا براد يبدو أنه لا يعمل جيداً. إنه يصدر أصواتاً مزعجة لا تطاق في الليل. أما

الأضواء فإنها باهتة وخافتة لدرجة أننا نخالها شموعاً.

بالرغم من كل شيء، كنت في المساء أدير زر الستيريو، علّ الموسيقى والأغاني تخفف قليلاً عنّا. لقد كانت لا تكف عن الصداح طوال الوقت، فهي تسليتنا الوحيدة وكذلك الراديو الذي نستمع إليه أقل، وأحياناً نلعب الورق مع الأطفال.

حاولنا جاهدين خلق جو مقبول. ووصل بنا الأمر إلى أن نربي العقارب كي ننظم لها لاحقاً سباقاً فيما بينها. إنه الفراغ اللعين. عشت قصة خيالية بالمقلوب. الأميرة التي كنتها تحولت بالعنف إلى سندريلا. تدريجياً، ابتدأت أتخلى عن عاداتي: أرتدي ملابس قديمة، تتشابه يومياً، لأنني لا أغيرها، ولِمَ هذا العناء. السراويل والقمصان النظيفة ستذكرني كثيراً بالماضي. أما الصحراء فتعلّم التصحر.

لقضاء الوقت، لا نكف عن الأكل. علينا تقنين الغذاء، لأن المدينة بعيدة، والطريق إليها غير معبد، والمواد التموينية لا تصل إلّا مرة واحدة كل ثلاثة أسابيع.

وجبتنا اليومية مؤلفة من خبز، وزيت الذرة، ليس علينا أن نتذمر بل أن نحمد الله لأننا غالباً ما نحصل على لحم الماعز ذي الطعم الحاد بالقياس مع لحم الخروف. على الأقل نحن لسنا جائعين، لأننا نجد ما نملأ به بطوننا.

في الصباح، نطيل المكوث لتناول الفطور. بعدها ننظف معاً الأواني ثم نبدأ بإعداد وجبة الغداء. أتقاسم الأعمال أنا وأمي، هي تطبخ، وأنا أغسل الثياب في حوض في الهواء الطلق، تساعدنا أيضاً حليمة وعاشورا.

نعيش تقريباً طوال النهار في البهو الصغير. بعد العصرونية التي تستغرق عدة ساعات، يهبط الليل بسرعة. نتعشى، نسهر، تقرأ لنا أمي بعض القصص كي ننام. كم تبدو الليالي طويلة... إنه الشتاء، البيت مثلج، كنا نشعر بالبرد القارس ولا نقدر على النوم. لكن مصابيح الغاز تبث بعض الدفء، لحسن الحظ.

كما في طفولتي التي قضيتها في القصر، الليل يفاقم همومي ومعاناتي. صلتي الوحيدة مع الحياة هي الراديو الذي يتحول أحياناً إلى أداة تعذيب. كل أغنية أسمعها منه تذكرني بلحظة سعيدة كنت قد عشتها في الماضي. أفكر في كل شيء مضى، وفي أصدقائي. تعلمت أن الحنين مدمر وقاتل.

من الصعب عليّ أن أنتزع من قلبي كل ما أحببته. أشعر أنني عدت القهقرى إلى القرون الوسطى، وأتمالك نفسي كي لا أنفجر بالصراخ.

في الظلام، أسمع نشيج أمي. فإلى جانب حريتنا المسلوبة والضائعة، كانت تبكي قبل كل شيء زوجها الذي حرمت منه وهي ما تزال في ريعان الصبا، حكم عليها أن تعيش وحيدة وهي لم تبلغ السادسة والثلاثين من عمرها. أي قدر غاشم هذا! في الصباح غالباً ما تقرأ القرآن، وكنت أرى الحزن ينضح من عينيها المتورمتين من كثرة البكاء. مسكينة هي أمي كم تقاسي وتعاني.

سمحوا لنا بقضاء ساعتين يومياً في القرية، التي تقع في الواحة. في البداية رفضت الذهاب كي أبقى برفقة أمي التي كانت لا ترغب بالخروج وكذلك نكاية فيهم، لأنني أرفض أن أمتثل لقراراتهم ومشيئتهم. مريم، عاشورا، حليمة، أمي، وأنا، بقينا جميعاً في البيت. في حين كان الصغار يخرجون مصحوبين بفرقة مواكبة من رجال الشرطة الذين كانوا لطفاء جداً معهم. كانوا يزورون حقول النخيل المسكونة برجال سمر البشرة، ويعودون من هناك محملين بالحنة، والتمر، والسلال التي صنعتها النساء. عندما علم أهل القرية بأن الزوار الصغار يرجعون إلى هناك كل يوم وفي ساعة محددة، أصبحوا يحضرون لهم مسبقاً الشاي، والخبز الطازج الذي يخرج ساخناً من الفرن، بالإضافة إلى الحلوى.

كانت تلك الساعات مهمة جداً للأطفال. يستطيعون أخيراً معاودة حياة شبه طبيعية، يعبّرون، يحكون قصصاً، ويكتشفون. إنهم في مدرسة الطبيعة. يبدو عبد اللطيف في غاية الانسجام. لم يبلغ بعد الثالثة، كل شيء يراه يعتبره لعبة مناسبة يتلهى بها. أركبوه على ظهر بغل كي يتنزه، وفي نزهته تلك شاهد الأبقار، والعجول والدجاج.

إحدى القرويات أعطتنا بعض الفراخ. لكل واحد منا فرخ.

كل واحد منها بات له اسم وانتحل شخصية تناسب صاحبه. هذه المخلوقات الصغيرة ساعدتنا على تمضية الوقت. نتحدث عنها فيما بيننا، نلهو بها، نحاول أن نجعلها تنام داخل العلبة الكرتونية. في المساء كان الفرح يغمرنا ونحن نركض خلفها وهي تفلت من أيدينا لتتابع هربها ذات اليمين وذات الشمال. إنها لا تريد الدخول إلى منزلها الكرتوني. ترتفع ضحكات الأطفال، وهم يجرون في إثرها، ويسعدون عندما تفر منهم وتتباعد.

أحاول بكل جهدي أن أجعلهم يعتقدون، ولو قليلاً، بأن وجودنا هنا شبه طبيعي. أدخلهم في عالم الخيال، أخترع لهم بعض الألعاب، وأسرد لهم القصص. أريد أن أبعد عنهم القلق والهموم. بكل تفهم وشجاعة، يتظاهرون بالتجاوب معي. لكنهم يعرفون أن هذا ليس ممراً عابراً أو مؤقتاً، كما أحاول أن أدعي.

حتى عبد اللطيف يعرف هذا، كنت أراه، بقامته الصغيرة، يقول بلكنة طفولية، وهو يأكل الكثير من الحروف والكلمات:

ـ أنا، عندما أكبر، سيصبح عندي بيت ولكن ليس كهذا البيت هنا. ستكون أرضه مغطاة بالموكيت وليس بالرمل والغبار.

إذاً كان هذا الطفل الصغير في غاية الاستياء مما نحن فيه من بؤس، ويحلم بغد أفضل، فأقصى ما بدأنا نطمح إليه هو بيت عادي لكنه نظيف وأرضه ليست مفروشة بالحصى والرمل. ترى بماذا يفكر الباقون وبماذا يشعرون؟

آكدز، المحطة المؤقتة (٢٨ نيسان/أبريل ـ ٣٠ أيار/ مايو ١٩٧٣)

في صباح أحد الأيام الأواخر لشهر نيسان/ أبريل رحّلونا بأقصى سرعة إلى آكدز، وهي قرية تقع في الصحراء، قريبة من زاكورة وورزازات. عندما أرهفنا السمع، التقطنا بعض المقتطفات المتعلقة بهذا الترحيل الفجائي. القرويون بدؤوا يتساءلون عن سبب وجودنا. لقد عرفوا حقيقة هويتنا، وباتوا يستاؤون ويستنكرون هذه المعاملة التي لا تفرق بين الصغار والكبار.

سرنا مسافة ثماني عشرة ساعة بدون توقف في شاحنة طُليت نوافذها بالقطران، لقد أصبحت معاملتهم لنا أشد قساوة. لم يكن لنا الحق بالنزول، ولا بقضاء حاجتنا. كنا نفعل ذلك بالدور داخل علبة حليب فارغة بعد أن فتحنا غطاءها. مع حلول المساء وصلنا إلى هذه القرية الفقيرة. احتجزونا في منزل رئيس البلدية، حيث قضينا فيه شهراً كاملاً، في الظلام الدامس، ولم نغادره خلالها أبداً. في الخارج تبدو الحياة بسيطة ومريحة. خرير المياه في النبع، همسات الريح، حفيف الأشجار، صرخات الأطفال وصيحاتهم وهم يلعبون، ضحكات النساء، ونباح الكلاب، كل هذا يبدو لنا أليفاً، بعيداً جداً، وقريباً جداً، إنه يدمي قلوبنا ويمزقها.

اعتدنا على قتل الوقت بالطبخ، وبالتهام الطعام. تحضر أمي بعض الأطباق الصغيرة على ضوء الشموع. أما أنا فقد انغمست في صناعة حلوى الكريب المغربية التي يتلذذ بطعمها الصغار. نظمت أيضاً بعض المسابقات الرياضية والألعاب التي تطرد الملل عنهم. وجعلت ضحكاتهم تلعلع علها تخفف من هذا الحزن وهذا الجو الكئيب. إنهم يظنون أنفسهم في مخيم صيفي. وماذا لدي لأرفّه عنهم؟ أعاني من العيش بهذه الطريقة البدائية: القذارة، والأغطية العسكرية، وغياب المنشآت الصحية، والأسرّة المصفوفة جنباً إلى جنب كما في المستشفيات. ما زالت عاداتي القديمة تلح عليّ وتأبى أن تدعني بسلام. فما زلت أتصرف كفتاة مدللة.

ولكي أتغلب على تعاسة الواقع كنت أسافر عبر الخيال.

أفتح كتاب الجغرافيا، الأطفال يتحلقون من حولي ويحملقون بي بانتظار أن أعلن لهم بدء الرحلة، لنبدأ معاً التحليق والطيران.

ـ انتبهوا جيداً واستعدوا لأننا سنحط فوراً في كندا.

أحلم بهذا البلد وأنطلق في وصفه بدقة. غاباته، جباله، بحيراته، المساحات الشاسعة المغطاة بالثلوج. وكلما عارضوني سارعت إلى إقناعهم. حتى أمي كانت تنجرّ إلى اللعبة فتقول: لا، ليس إلى كندا، إنه بلد بعيد جداً، وطقسه بارد. لا نستطيع أن نعيش فيه بعيداً عن أهلنا ووطننا، لن نتخلى مهما كلف الأمر عن انتمائنا، ولن نقطع أواصرنا.

في صباح أحد الأيام، وصل بوعزة، وأكد لنا بأنهم كتبوا عنا وعنه في مجلة الباري ماتش. كان يبدو فخوراً بنفسه، لأن ذلك أدخله التاريخ، ما منحنا بعض الأمل. فإذا كانت الصحافة تتطرق إلى موضوعنا، فهذا معناه أنهم لم ينسوا وجودنا بعد، وأن العالم لن يسمح باستمرار مثل هذا الظلم والعدوان.

بدأ هذا السجن الجديد يترك أثراً بالغاً عليّ. عندما وصلنا إلى آگدز كنت ما أزال فتاة طبيعية، لم أكن أفكر بعد مثلما تفعل أي سجينة، مع أنهم كانوا يعاملونني على هذا الأساس، وأنهم من الآن وصاعداً سيستمرون على هذا المنوال وبوتيرة متصاعدة، مهما فعلت وقلت، وأينما حللت وكنت. أنا متأكدة من أن أيام البؤس والشقاء لن تعرف النهاية.

عدنا إلى آسا، أواخر شهر أيار/ مايو. لقد تغيرت ظروف حياتنا. فخلال غيابنا قاموا ببناء بيت

جاهز على أرض بور تبعد عن الثكنة. كانت الحيطان والسقف والأرض جميعها بلون التراب. إنه أشد متانة من الثكنة التي كانت مهددة بالانهيار في أي لحظة فوق رؤوسنا. هل هذا هو السبب الذي دفعهم إلى إخراجنا منها وإبعادنا ريثما ينتهون من تجهيز هذا المقر البديل؟ إنهم لا يريدون موتنا إذن. ربما ليس بعد.

لقد أقمنا في هذا المكان الجديد، هكذا نص القرار.

يتألف البيت من مدخل، وصالون، وحمامات، ورشاش للاستحمام، وعدة غرف مصفوفة واحدة تلو الأخرى على طول الممر. لكل واحد منّا غرفة خاصة به. بعد كل البؤس الذي مررنا به تبدو لنا هذه الشقة قصراً. في الأفق البعيد لا نرى إلّا السماء، والجبال. سمح لنا أن نخرج إلى هذه الأرض البور، محاطين كالعادة بالحراس.

في أعماقنا، لم يتغير شيء ألبتة. لا أذكر أنني كنت يوماً بدون حرس ومرافقة. ما إن أفتح النافذة حتى أراهم مصطفين أمامي، لأنهم مكلفون بأمني وحمايتي. هنا، بدلاً من أن يحمونا يراقبوننا، أما الذهاب إلى القرية فممنوع منعاً باتاً. وبالرغم من إلحاحنا، فإننا لا نستطيع أن نرسل الرسائل أو أن نتسلمها. طلبنا من أحد الحراس الاتصال بجدي. وعدنا بذلك لكنه أخلف وعده.

أحد الصغار اكتشف فتحة في الأرض: أخذنا قرارنا بأن نستكشف ماذا يوجد تحت الأرض. ربما كان بالإمكان حفر نفق. فكرة الهرب وجدت طريقها إلى رؤوسنا. لكننا لم نكد نهبط الأدراج حتى غطتنا آلاف الصراصير التي تجتاح جدران القبو وأرضه.

مع حلول فصل الصيف. كانت الحرارة ترتفع في النهار لتصل إلى ستين درجة مئوية في الظل. كانت الشمس تخترق السقف بسهولة. وفي الليل، كانت الحرارة تنضح من الرمل، ومن الصخور التي كانت قد امتصت الحرارة في النهار وخزنتها. أما فوق رؤوسنا فكان السقف يتمدد بأصوات مريعة. كنا نختنق في الداخل وكأننا في فرن مشتعل. كنا نقضي كل السهرات والليالي في الخارج.

كي نتمكن من النوم قليلاً، كنا نتغطى بشراشف مبللة، ونواصل رشها وترطيبها بدون انقطاع، كنا نغطي أباريق الماء بمحارم رطبة، كي تحافظ على برودتها بعض الشيء. ومن ألطاف اللّـه الخفية، أنهم لم يفرضوا علينا تقنين الماء.

خلال فصل الجفاف كانت تهب رياح الصحراء عنيفة، فيتحطم زجاج النوافذ من جراء قوتها.

وكان التراب يدخل ويتغلغل في كل أرجاء المنزل، ويغطي وجوهنا وأجسادنا. وكان يجر معه العناكب الضخمة السامة والمؤذية، حاولنا مراراً تجنّب العقارب التي كانت تختبىء تحت الأسرة، وعلى الحيطان، وفي شراشفنا وأغطيتنا. أنا وأمي كنا ننظف كل مكان من أجل اصطيادها والتخلص منها. هذا الأمر أضحك الثكنة بأكملها. كنا نجهل بأن العقرب يعشق الرطوبة. وقد أصيبت زوجة بو عزة بلدغة عقرب، فاغتاظت كثيراً لأننا نجونا بأعجوبة من أي لدغة.

لتقصير النهار، كنا ننام طوال فترة الصباح، ونسهر ليلاً حتى طلوع الفجر، كنا نضحك، ونلعب، ونروي قصصاً وحكايات. عندما كان الطقس يتحسن قليلاً، كنت أنظم بعض الألعاب لتسلية إخوتي الصغار. اختلقت قرية صغيرة، ووزعت الأدوار على كل واحد منهم. سكينة لعبت دور الخياطة اليهودية، وعبد اللطيف كان مساعداً لها.

فتح رؤوف محلاً لبيع البيتزا، ووضع طاولة في المدخل. كان ينادي بأعلى صوته: «بوبينو، ملك البطاطا». كان يجب دفع المال من أجل تناول الطعام عنده. ماريا أخذت دور مزينة الشعر، وأنا خبيرة التجميل. أمي كانت الزبونة الوحيدة في هذه التمثيلية. كان يجب عليها أن تذهب إلى الخياطة، وصالون الحلاقة والتجميل، وتتناول طعامها عند بوبينو.

استعدت ما كنت أفعله في القصر. وبدأت أمثل الأدوار التي يمنعونني من ممارستها في الواقع.

«زوين، زوين، بيزاف»

كان بو عزّة يضيق الخناق علينا، باضطراد، كلما زاد خوفه من الرباط. فيعاملنا بالسوء. وكان أحياناً يفقد أعصابه فيسيء معاملتنا ويهددنا، كل مرة فيهددنا ويتوعدنا. في صباح أحد الأيام انفجر بالصراخ في وجوهنا، و كاد طاقم أسنانه أن يقع على الأرض.

ـ عملت أربعين عاماً من حياتي في نطاق السجون. غير أني كنت أتعامل مع رجال. أما الآن فقد فرضوا عليّ أسوأ عقاب تلقيته في حياتي، أن أقتل امرأة وأطفالاً. هذا ليس عملي، ولا من اختصاصي، لم أتخيل لحظة واحدة طوال عمري أن أقوم بهذا الدور الذي كلفوني به.

ثم أخذ يغلي، ويرمي كلمات الغضب والتململ في الهواء. لقد طفح به الكيل. بعد مدة، أعلمنا بأنه قريباً سيترك المعسكر. كان يبدو مرتاحاً لهذا. ثم أخبرنا أن في القرية عرافاً ذا بصيرة ثاقبة يتنبأ بالمستقبل

بدقة وبدون خطأ. لا شك أنه قد أخبره برحيله عن المعسكر.

غيّر بو عزة طريقة تعامله معنا، أصبح رقيقاً ومتعاطفاً، وبلغ به الأمر أن أحضر لنا ذلك العراف إلى البيت. كان رجلاً مشلول الأطراف، لا يستطيع أن يقف على قدميه، أو يحرك يديه وذراعيه. كان ممدداً على بطنه، وذقنه تلامس الأرض. كان رجال الشرطة يحملونه، وضعوه أمامنا كرزمة، ترافقه امرأة من القرية، بربرية سمراء البشرة. بعد أن تخلصت من غطائها، وضعت أمامه عدته المؤلفة من غربال فيه طحين يضع عليه الزبائن أيديهم.

درس العراف آثار اليد بدقة. مع أنه كان أعمى. خاطب أمي بلغته البربرية التي لا تفهمها[1]... لغة وسط الأطلس، منشأ أمي، كانت مختلفة عن تلك التي يتكلمها برابرة الصحراء. كان أبي واحداً من القلة النادرة التي تتحدث ثلاث لغات بربرية هي المتداولة في المغرب.

كان الرجل يعبّر بصعوبة بالغة. ما إن يفتح فمه حتى يسيل لعابه كالأطفال. كانت المرأة التي ترافقه تتولى ترجمة كلامه. قال أولاً بأنه يجب عليّ ألّا أتعرض للشمس حفاظاً على جروحي. تأثرنا بقوة، لأنه لا يرى، فكيف عرف ذلك؟

لقد أعطاني مرهماً لمداواة الجروح.

ـ تضعين منه على وجهك، ستختفي الجروح مع الوقت. إنه أفضل دواء لمعالجتها.

حدّد بأنه يجب إضافة خليط مكون من بودرة الحرباء، التي تجفف ثم تطحن، وتمزج بحليب الجمل. كل يوم يجب وضع عدة نقاط من هذا المزيج داخل أنفي كي أجرب أثره على جلدي المتلف. يجب أن أعترف بأنه كان ذا فعالية سحرية.

أخبرنا عن ميمي وإصابتها بداء النقطة الذي لن تشفى منه. بالرغم من أن والديّ كانا قد استشارا أفضل وأشهر الأخصائيين في فرنسا وأميركا، ومع هذا، لم يكن هذا ما يقلقنا، ولم نكن متلهفين جداً لمعرفة أوضاع كل منّا الصحية.

كنا نتعطش لسماع أي خبر عن حياتنا ومصيرنا.

ـ متى سنخرج من هذا الجحيم؟ متى سنرى عائلتنا، وأصدقاءنا؟ متى سنعاود حياتنا الطبيعية؟

إنهلنا عليه بكم هائل من الأسئلة المنهكة. تنفس الصعداء وقال:

ـ ما زال الوقت مبكراً جداً، وسيكون الأمر مأساوياً. لكن المعجزة ستتحقق، والعالم بأكمله

سيتحدث عنها. وستحصلون أخيراً على ما تتوخون... لكنني أحذركم من أن هذا سيطول حتى كأنه لا ينتهي.

طلبت منه أمي بإلحاح أن يحدد لنا تاريخاً معيناً على الأقل. لكنه رفض ذلك. لأنه توقف عن هذا، منذ أن تعرض لمسّ الأرواح الشريرة، هذا ما أخبرتنا إياه المرأة المرافقة. بشّرنا فقط بأننا محاطون برعاية خفية لأننا من سلالة الرسول. لذلك فإننا لن نصاب بالأمراض الخطيرة.

وهذا ما تحقق بالفعل.

في كل مرة نكون فيها غارقين في الضباب، وتتقاذفنا لجج اليأس العاتية، وفي كل مرة يكون الواحد منا على وشك الانهيار، كنا نسترجع كلام هذا العجوز الضرير:

ـ «زوين، زوين، بزاف»: إنها ستكون معجزة المعجزات، وأعجوبة الأعاجيب.

هذه النبوءة شدت أزرنا، وأمدتنا بالأمل، وزودتنا بالصبر. بفضلها نجحنا بالصمود عشرين عاماً.

خلال السنوات الأولى في السجن، لم أكن أحلم إلّا بالملك، وليس بأبي مطلقاً. كنت أستحضر في ذهني القصر، الجواري، ضحكاتنا، والتهاريج والبهلوانيات التي كنت أقوم بها، مواجهاتي وخلواتي معه، ولحظاتنا المميزة والنادرة.

كل المشاهد والصور العائلية التي كانت عالقة في خيالي كانت حزينة ومأساوية. موت أبي المفجع، مراسم الحداد التي تلت، بينما كنت في غمرة هذا، لم يكن يراودني أدنى شعور بالضغينة أو الحقد ضد أحد. حتى إنني لم أتخيل أبداً أنني قمت في أحلام اليقظة بأي ثورة، أو تمرد، أو مواجهة. وحدها ذكريات الطفولة الباكرة كانت مقبولة نوعاً ما، لكنهم سرعان ما سرقوها مني.

كنت أنفضها عني لأعود إلى الواقع، وأنا يمزقني شعور قاتل بالعار والذنب. كنت أبقى بعدها مشتتة ومبعثرة لا أجرؤ على البوح بهذه الكوابيس أمام أحد من أهلي. إنهم لن يفهموني، ولن يتقبلوا أبداً هذه الخيانة مني.

نجحت بتحمل عشرين سنة من السجن أفضل من أخوتي. ربما لأنني كنت متمرسة وصاحبة تجربة وخبرة في هذا المجال، أعرف ماذا تعني الوحدة، وماذا يعني الهجران. ليس هذا هو كل ما يؤلمني ويمزقني. كل شيء يمضي ويمرّ، إلّا أن يكون عدوك جزءاً لا يتجزأ منك. وتلك هي المصيبة

والهزيمة.

كم كان رهيباً وموجعاً أن يكون مَنْ ربّاني هو جلادي، وأن تعصف بـي بلا رحمة أو هوادة مشاعر متضاربة من الحب والكراهية نحوه. منذ البداية، كانت مشاعري النفسية حيال الملك معقدة وشائكة، ومـن الصعب بمكان تحديدها وبلورتها. لقد حـاول أبـي أن يقتل أبـي بالتبني مما أدى إلى قتله. كانت كارثة وقعت على رأسي أنا.

أحيانـاً، أضيع ولا أعرف على من أبكـي، وعلى من أتحسر. كنت ثمرة تربيـة القصر، كل ما كنت عليـه أديـن به أولاً لمن ربـاني ولكنني كنت أحـب أبـي كـثيراً. هـذا التنازع الروحي أرخـى ثقله عليّ كعـذاب الجحيم. أعود دائـماً إلى الوراء. أبحث دائماً عن جواب يخلصني من كابوس التسـاؤل، الذي يلاحقني ويطاردني ليلاً نهاراً. هل كان بمقدوري أن أفعل شـيئاً لتفادي ما حصل؟ هل أنا المذنبة؟ إذا كنت أحترم دائماً الحسن الثاني باعتباره أبـي بالتبني، فإنني كنت أكره فيه الظلم والعسف اللذين أنزلهما بنـا بـدون رحمة. أكرهه لحقده علينـا، أكرهه لما ألحقه بأمي وأخوتي مـن أذى لا يُحتمل. ضاعت طفولة أخـوتي إلى غير رجعة. عانـت أمي الأمرّين، وأنا تحطمت حياتي. كيف طاوعـه قلبه على ارتكاب هذه الجريمة بحقّنا، وعلى قذفنا عشرين عاماً في أتون السجن المحرق؟

أسوار تامتّاغت (٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٣ - ٢٦ شباط/فبراير ١٩٧٧)

قصر الكلاوي

هـذا الغناء الذي يمزق سـكون الليـل، ابتدأته أنا، ثم انضم إليّ على التـوالي: رؤوف، ميمي، أمي، عاشـورا، حليمـة. أصواتنا المختلطة تـتعالى بتلـك الأغنية التي تـتحدث كلماتها عـن المنفى، والأمل، والرحيل في الليل. إنها قصتنا.

لقد دمرتم لنا حياتنا، لكن العدالة لا بد أن تنتقم لنا.

المرة الأولى التي سـمعنا فيها هذه الأغنية كانت عندما كنا في آسّـا. المغنون هم مجموعة من الشـبان المغاربـة، وفرقتهم الغنائية معروفة جداً في المغرب. رئيسها الذي يدعى درهام، هو زوج إحدى بنات عمي.

تلك الأغنية التي هزت قلوبنا، ولامست أرواحنا، لم نكن نعرف آنذاك أنه تمّ وضعها وتأليفها من

وحي مأساتنا، وأنها كانت مهداة لنا. رجال الشرطة الذين اصطحبونا في هذه الرحلة الثالثة، في هذه الشاحنة التي ألقونا بداخلها، شرعوا هم أيضاً بترديدها وإنشادها. ضممت الصغيرتين إلى صدري، وبدأ دمعي يجري على خدّيّ. رحّلونا عن آسّا بسرعة قصوى في بداية فصل الشتاء، دون أن يشرحوا لنا سبب ذلك. لاحقاً اكتشفت السبب بنفسي بعدما فكرت ملياً في هذا الترحيل المفاجئ وفي هذه الأونة بالذات، إن الملك يستعد لتنظيم المسيرة الخضراء[٢]، للمطالبة باستعادة الصحراء الغربية. لذلك، يجب إبعادنا عن الجنوب المغربي، لأن عائلتنا من هذه المنطقة التي لا شك أن فيها الكثير من أنصارنا والمتعاطفين معنا.

الشاحنة التي تقلنا إلى وجهة أخرى جديدة، كان الحراس قد فرشوا أرضها بسجادة حمراء، وزودوها بالماء من أجل الصغار. ما زلنا قادرين على قهر العتمة، والاكتئاب، والإنهاك، والغبار، والقلق، بما لدينا من روح الشباب، ومن حب قوي للحياة. إننا نقهر كل ما يواجهنا من صعاب بالإرادة والأمل.

بالرغم من الحالة المزرية التي نتخبط فيها من جراء هذه الرحلة، تمكنت ميمي، دلوعة العائلة، من النوم وفمها مفتوح دون أن تبالي بالتراب الذي ينهال على وجهها بعد أن وجد طريقه إلى داخل السيارة عبر الفتحات والنوافذ. كان المشهد مؤثراً ومضحكاً، ما جعلنا ننفجر ضحكاً من منظرها.

في إحدى المرات التي توقفنا فيها، شاهدت مرور قافلة سيارات ودراجات نارية تقوم بسباق في الصحراء. إننا فقط على بعد عدة كيلومترات من هؤلاء المتسابقين، ولكنهم لا يروننا، ولا يسمعوننا، ولا يشكّون حتى بوجودنا. فالحياة تستمر، إنها هنا، قريبة منا، وعلى مرأى منّا ومسمع، لكن لا أحد فيها يبالي لأمرنا.

بعد هذا الطريق الطويل الشاق والمنهك كما في كل مرة، اقتادونا إلى تامتاغت البعيدة عن ورزازات. هذا المنفى أبعد ممّا سبقه وأكثر وحشة وعزلة. وضعونا في حصن شاسع كبير، تبعث رؤيته الخشية والرهبة في النفس، أين منه الصحراء بوحشتها ورهبتها! إنه بقايا قصر قديم، أسواره الشاهقة تحجب عن أعيننا رؤية السماء.

لم تمت أحاسيسنا بعد، ما زلنا قادرين على تذوق بعض مباهج الحياة، ولا نعمى عن رؤية الجمال، ونقدر الفن والإبداع. لا بد أن هذا القصر كان تحفة رائعة في غابر الزمان. وما زالت بعض الآثار فيه

تدل على ذلك. حيطانه وسقوفه مطلية بألوان ساحرة، عليها نقوش وزخارف يدوية. يعود هذا القصر لصاحبه الباشا الگلاوي[٣] باشا مراكش. الذي كان يعيش في قصر أكثر أبهة وفخامة من قصور الحكام.

دخلنا إلى هذا الحصن عبر بوابة كبيرة مطلية باللون الأزرق. جهزنا غرفتين في الطابق الأول كي نستقر فيها نحن التسعة. في الأسفل كهف ترابي صرنا نستخدمه كمطبخ. في بقعة أخرى صغيرة جداً وضعنا المواد التموينية والغذائية: لقد كان المكان يعج بالعقارب، كلما أمسكنا بواحد منها نضعه في مرطبان ممتلىء بالكحول. ومرّةً وجدت حليمة ثعباناً ضخماً كان ملتفاً حول نفسه، أرعبنا أقل مما أرعب الحراس الذين فروا هاربين عندما وقعت أعينهم عليه.

إننا نستحم في الطابق السفلي بالقرب من موقد يبقى متقداً طوال النهار. اخترعت أمي بعبقرية ما يشبه السونا. صنعت خيمة مؤلفة من خمس قصبات سميكة موصولة ببعضها بحبل، وغطتها بغطاء من البلاستيك، حيث كنا نضع عليه كذلك أغطيتنا، التي كنا نتدثر بها. بعد أن تقوم أمي بتسخين صخور صغيرة بيضاء كانت تضعها في سطل داخل هذه الخيمة. عندما كانت ترش الماء عليها كان يتصاعد منها البخار الساخن. كنا نستحم بالدور. تبدأ أمي وعبد اللطيف، يليهما أنا والصغيرتان، ثم ميمي، فرؤوف، وأخيراً عاشورا فحليمة. كان هذا بالنسبة لنا أشبه بالذهاب إلى الحمام، كان هذا الإنجاز الذي حققته أمي حدثاً مفرحاً وسعيداً لنا جميعاً.

هنالك سلالم عالية توصل إلى غرفتين رئيسيتين. في أعلى الدرجات بابٌ يفتح على ممر طويل ضيق كالتابوت. في نهايته غرفة صغيرة، نضع حقائبنا في داخلها. إنها مظلمة، لكننا اكتشفنا فيها فتحة تؤدي إلى واحة.

يجب الصعود ثلاث درجات أخرى للوصول إلى مقرنا المؤلف من قاعة ذات أرضية إسمنتية مضاءة بكوتين صغيرتين، محفوفة على جانبيها بدهليزين، هما عبارة عن ممرين طويلين، سقفهما عالٍ وضيّق، تغلفهما العتمة الشديدة. إنهما مكان نومنا.

هنالك زاوية فيها مغسلة وثغرة كنا نستخدمها كمرحاض. في بهو القاعة وضعنا طاولة مخصصة للدرس، فرشنا أرضها بسجادة، يجلس عبد اللطيف للعب عليها، وفي ركن منها وضعنا فراشاً، كانت أمي تستلقي عليه خلال النهار، مصحوبة بمجموعة من الكتب بالإضافة إلى الراديو.

كان الأثاث محدوداً وزهيداً، ولكننا كنا نتدبر أمورنا، بإمكانياتنا الفقيرة، أضفينا على هذا المكان بعض الرونق والحياة. صنعنا طاولات صغيرة، من صناديق الكوكا كولا، بعد أن كنا نغطيها بأقمشة جميلة، علقنا على أحد الجدران بعض الصور، وعلى الجدار المقابل له بعض المنمنمات الصغيرة، مرايا، وتحفاً، علّ هذا يبدد وحشة هذا القبر ويدب فيه بعض الروح.

في بادىء الأمر، كنا ننام جميعاً في ممر واحد، على الأرض التي لا تغطيها إلّا طبقة رقيقة من القش، في فصل الشتاء، في البرد القارس، كنا ندفىء أيدينا فوق المصباح الغازي. أما في الصيف، فكان الحر خانقاً ولا يطاق أبداً. كانت الحياة في الصحراء مذلة ومهلكة.

كانت الجرذان تزورنا دائماً، وقد زادها الجوع الشديد شراسة وعدائية. وكانت المطرقة أنجع وسيلة للقضاء عليها. ومرّةً تعرض أخي رؤوف لعضة في وجهه بعدما انقضّ عليه أحدها بينما كان يرميها بسطل من الماء.

كانت الليالي محفوفة دائماً بالهواجس والأخطار. كان القلق يتملك أمي. فكل ليلة، بينما هي تقرأ على ضوء المصباح، كانت تشعر بلفحة أنفاس تداعب وجهها، وبأحد ما إلى جانبها. أما رؤوف فكان ضحية ليلية لشتى أنواع الكوابيس المرعبة. قررنا إخلاء الدهليز بعدما تفاقم الوضع بشاعة وخطورة. أصبحت ماريا مسكونة بالهلع، فهي تستيقظ كل ليلة كالمجنونة، وتبدأ بالنحيب والصراخ. بات من المؤكد لنا أن هنالك شيئاً غير طبيعي في هذا المكان.

حوالى الساعة الرابعة فجراً، كنت أسمع يومياً أصوات خطوات، وتمتمات مجنونة، ثم لا ألبث أن أرى أناساً يحملون بأيديهم أسطلاً فارغة، يذهبون ويجيئون في الحمام وعلى السلالم والأدراج. كانت تلك الأشباح تميتني رعباً. في إحدى الأمسيات بينما كنت أرقد في وسط الغرفة، تراءت لي بشكل ظاهر امرأة بقامة شيطانية تنام فوقي وتعصرني حتى كادت تغتصبني. أيقظتهم جميعاً وأنا أتصبب عرقاً وأرتجف من الخوف.

بعد ذلك لم يغمض لأحد منّا جفن، وظلت أمي تقرأ القرآن حتى مطلع الصباح، علّها بهذا تنجح بطرد تلك الأشباح المخيفة.

روينا هذه الوقائع لأحد أكثر الحراس لطافة معنا. صدّقنا، وأفشى لنا بأن هذا المكان ملعون، لأنه مشيّد فوق مقبرة. هل يعقل أننا كنا جميعاً دفعة واحدة ضحية تخيلات وهلوسات؟ أم أننا كنا فعلاً

نتعرض لمطاردة حثيثة من أرواح الموتى التي حاولت أن تسكننا وتتلبّسنا؟ إننا نستطيع بسهولة أن نحارب أعداء ملموسين على الأرض، ولكن كيف لنا أن نقاوم قوى فوق الطبيعة؟

هجرنا الدهليز دون أن نجرؤ على وضع قدمنا فيه مرة أخرى. لا شك أن الأشباح كانت تتخذ منه مقاماً، لكنها صارت تتراءى بصورة أخف وطأة عما كانت عليه في داخل الدهليز.

ما زالت أمي تشعر بلفحة أنفاس فوق وجهها، لكنها اعتادت عليها. بعد عدة أشهر مريرة، كان زوار الليل، بعدما ألفنا وجودهم وحضورهم، قد اختفوا إلى غير رجعة.

لدى وصولنا إلى هنا، كرست الأيام الأولى للترتيب والتوضيب وتنظيم المكان. أردت بأي طريقة أن يشعر الصغار ببعض الاطمئنان والاستقرار في هذا الوضع المزري الذي كنا مكبلين فيه، لذلك حاولت أن أوجد لهم قدر الإمكان طريقة معقولة لتنظيم حياتهم المشتتة والضائعة.

كانوا يقضون معظم نهارهم في القاعة المسماة صفاً. كنت أقوم بجدية تامة بدور المعلمة. وضعت عدة برامج دراسية بمستويات مختلفة. كانت الصغيرتان في المرحلة الابتدائية الأولى، ورؤوف في الثالثة، أما ميمي فكانت في الثانوي الأول. كنا نستيقظ جميعاً في الساعة السابعة، نغتسل، نتناول فطورنا، ثم نعكف على الدرس عند الساعة الثامنة. بعد أن أوزع على الصغيرتين نصّين مرفقين بأسئلة حولها وأطلب منهما تلخيصاً لما ورد في كل نّص، أتركهما يعملان بمفردهما، وأعيد الأمر نفسه مع رؤوف وميمي. بعدما أعاين الأخطاء، والصعوبات التي يقعون فيها، كنت أدوّن بعض ملاحظات تساعدني على وضع حلول تربوية لذلك. كنت أصرّ على تعليمهم يومياً على الأقل خمس كلمات جديدة، وأطلب منهم حفظها غيباً مع معانيها، كما وردت في القاموس. كذلك كان عليهم وضعها في جمل مفيدة، أو استعمالها في كتابة نص من عدة أسطر. تدريجياً أضفت إلى البرنامج اللغتين الإنكليزية والعربية. أخذ رؤوف على عاتقه تعليم مادة الرياضيات. بعد أن نراجعها معاً، يقوم بتدريسها للصغار.

في هذه الأثناء، تكون أمي في طور إعداد طعام الغداء. لم يكن هنالك تقنين غذائي مفروض علينا، لكننا لم نكن نملك شيئاً من الفاكهة أو الزبدة أو الكريم أو البيض أو السكاكر للصغار. حالما تفرغ من ذلك، كانت تنصرف للاهتمام بعبد اللطيف الصغير.

كانت تعلمه الحروف الهجائية، وتحضر له بعض الألعاب لتسلّيه وليشعر وكأنه في حضانة أطفال. فيما كانت حليمة وعاشورا تقومان بأعمال التنظيف والغسيل، وغير ذلك، بعد أن تنتهيا من مساعدة

أمي في المطبخ. في أوقات الفراغ كانت حليمة تنصرف لحياكة الصوف، أما عاشورا الأميّة فكانت تراجع دروس الفرنسية التي أكون قد أعطيتها إياها.

بعد أن نوقف دروس الصباح ظهراً، نغسل أيدينا، نتحرك قليلاً بانتظار الجلوس إلى طاولة الطعام. نعاود الدروس عند الساعة الثانية من بعد الظهر، مما يتيح لأمي المجال لبعض الراحة والاستماع بهدوء إلى الراديو.

كان نهار السبت مخصصاً للمناظرة بدلاً من الدرس. كنا نختار موضوعاً هاماً، ونجري نقاشاً حوله يشترك فيه الجميع.

كان رؤوف والصغيرتان يهتمون بشكل خاص بأحداث الحرب العالمية الأولى، ولشدّ ما كانت تستهويهم مادة الجغرافيا، كنا نقوم دائماً برحلات خيالية إلى شتى أنحاء العالم. كنا نتحدث عن لويس الثاني، وبا؟ير الذي كان يسحرني ببلاده، وتاريخه. صحيح أن الطرق التعليمية التي اتبعناها لم تكن نموذجية، لكنّها كانت تلقى الاستحسان لديهم.

حوالى الساعة السادسة، كنا نذهب في جولة إلى الخارج نترك خلالها لخيالنا العنان. كانوا لا يسمحون لنا بالخروج إلّا إلى ساحة صغيرة معتمة، محاطة بأسوار مرتفعة، كانت تشعرنا بأننا مدفونون أحياء في أحد القبور. ومع هذا كانت وسيلتنا الوحيدة لاستنشاق بعض الهواء المنعش. كنا نفرش سجادة على أرضها، ونوقد الكانون كي تصنع لنا أمي الكريب الشهي الذي كنا نتهافت على التهامه. لقد كانت هذه أيضاً وسيلة أخرى لنحظى ببعض الأجواء العائلية الطبيعية.

في آخر المطاف كان يحين وقت الاستحمام، يليه العشاء، ثم القراءة الإلزامية. الصغيرتان كانتا تقبلان على الأمر بسرور، أما رؤوف فكان متكاسلاً ومتطلباً كي يتحمس للمطالعة، كانت تستهويه قصص الحرب، والمغامرات، أو الطيارين والجنود في حرب الهند الصينية. نستمر بالمطالعة حتى الساعة العاشرة ليلاً خلال الأسبوع، فيما نتأخر أكثر في نهايته.

في الليل، كانت الوطاويط تأتي لتحط فوق رؤوسنا. بادىء ذي بدء، كانت تخيفنا، ثم سرعان ما صرنا ننتظر مجيئها بفارغ الصبر، كي تحدث في هذا الصمت القاتل بعض الضوضاء.

مرة واحدة كل شهر، كنا نستعد لعرض مسرحية بعد أن نقوم بتحضيرها ملياً. حضرت للمناسبة مسرحيتين، واحدة بالفرنسية، وأخرى بالعربية، بالكاد كنت في الحادية والعشرين من عمري،

لكنني كنت أملك طاقة جبارة. كنت أتصرف بهم كما يحلو لي، بشبابهم، بسذاجتهم، كي أحقق أحلام طفولتي. كنت أقوم بدور واضعة السيناريو، وقائدة الفرقة، وضابطة الإيقاع، والمخرجة.

كنا نرقص، ونغني، ونقوم بالإيماء. جمهورنا الوحيد كان أمي. كنا نكتب كل هذه المنوعات من أجلها. ونقوم بالتحضيرات بدقة شديدة. أما الملابس فقد كنا نتدبر أمرها ضمن إمكانياتنا، ونختارها من بين ملابسنا. قصصت شعر عاشورا وفق تسريحة ميراي ماتيو، لأنها كانت ستؤدي إحدى أغانيها. المسكينة لم تكن تفهم كلمة واحدة بالفرنسية. كم كان منظرها فكاهياً، وهي تغني أغاني البلاي باك، وتلبس فستاناً أسود، كذلك وهي تتعرف على أداء بعض الحركات والرقصات التي أصررنا عليها أن تعيدها أكثر من مرة. كان من الصعب علينا أن نقاوم الرغبة الشديدة في الضحك. غالباً ما كنت أقلب الأدوار. كنت أرتدي جلباباً رجالياً، وأرسم لحية صغيرة على ذقني، وكان رؤوف يأخذ دور زوجتي. بقامته الطويلة، وسيقانه الممتلئة بالوبر، وصدره المزيف تحت العباءة المغربية التي يضعها. كان يؤدي الحركات النسائية بإتقان ومهارة مبالغ بها، مما كان يجعل أمي تستغرق في الضحك طوال مدة العرض الذي يستمر ساعتين كاملتين. أجمل تعويض يمكن أن نحظى به هو أن نراها، ولو للحظة صغيرة، سعيدة فرحة.

في بعض أيام السبت، كنا نمثل بعض الأدوار ونعيد بعض المشاهد المقتبسة من الوقائع التي تجري في كازينو مونت كارلو. ممثلو العائلة، سكينة ورؤوف، صنعوا لعبة روليت، ورسموا سجادة خضراء، فيما حاولت أمي أن تستعين بذاكراتها كي تساعدنا على وضع الأرقام بالترتيب كما يجب.

بعض حبات الحمص اليابسة، كنا نستخدمها بديلاً للطابات. كان رؤوف يؤدي دور غريس كيلي، وأنا دور الأمير رينيه. كان يرتدي فستان سهرة مكشوف الظهر، ويضع الماكياج، والتسريحة المناسبة، وإن كان لا يشبه الأميرة بدقة، إلّا أنه لم يكن أقل جمالاً منها في شكله الجديد. أعددنا مخازن تشبه تلك التي كانت في آسّا، ولكن بسلالم أطول، وصنعنا أيضاً لعبة مونوبولي. لقد علمتهم لعبة اليامز التي كنت ألعبها مع آلان ديلون.

كنت أسرد دائماً للأطفال بعض الوقائع والأحداث التي حصلت معي عندما كنت مراهقة. نادراً ما كانت ذكرياتي تغادرني، كانت السلاح الوحيد الذي أمتلكه لأقاوم الجزع والكرب. مع أنني بهذا كنت لا أكلّ عن الدوران حول نفسي. كل واحد منا كان يروي القصص التي عاشها في الماضي،

علّهم بذلك يؤكدون لأنفسهم وللآخرين بأنهم سبق لهم أن عاشوا من قبل، وبأنهم ما زالوا على قيد الحياة. عبد اللطيف هو الوحيد الذي ليس عنده ما يقوله، لأن وعيه تفتح هنا بين قضبان السجن. مع السنوات والأيام، وبلا وعي، بدأنا بتحوير وتبديل ذكرياتنا، هنا ننقص، هناك نزيد، نبدل ونغير علّنا بهذا ننجح بإضفاء بعض التجديد. أحياناً كانت تختلط الأمور علينا ونروح نسرد ذكريات بعضنا وننسبها لأنفسنا، كنا نتبادل الأدوار. كنا نكافح ونناضل ضد السقوط في الهاوية السحيقة التي كان يشدنا إليها الملل والفراغ.

كان علينا أن نتعلم كيف نعيش جميعاً مع بعضنا البعض، في حالة من التشويش والاختلاط، والإرهاق، والظلمة، والقذارة، والعزلة، والتقوقع، والسجن. الأمر لم يكن دائماً سهلاً وبسيطاً، لأن الصغار كانوا يكبرون يوماً بعد يوم. بالرغم من كل الطاقة التي كنت أبذلها، كان ما زال لديهم قناعة ثابتة بأن وجودهم مهدد وعلى كف عفريت. كان أخي رؤوف يكتم لوعته وحزنه في نفسه. عندما وصلنا إلى تامتاغت، كان عمره خمسة عشر عاماً، ولم يكن بعد قد فرغ من الحداد على موت أبيه، وفي هذه السن يكون المرء بحاجة ماسة إلى وجود أبيه.

لم يكن باستطاعته أن يثأر له. ومع الأيام فقد القدرة على التعبير عن نفسه، وقد كان محاطاً، كظله، بالنساء والأطفال. بالنسبة لنا جميعاً، كان هو أكثرنا وحشة ويتماً.

عاشت سكينة مراهقة صعبة. كانت متقلبة الأطوار طوال الوقت. لم تكن تعرف ماذا تريد، وكيف تحيا؟ تارةً تكون مبتهجة، وأخرى متكدرة وحزينة، وهكذا دواليك. كل يوم كانت تضع لي رسالة تحت وسادتي تخبرني فيها أنها تحبني، وتكشف لي أيضاً ما ينتابها من قلق وهواجس، وشكوك، ورغبات. بعدها كنت أسارع لتهدئة روعها والتخفيف عنها، ونتناقش معاً حول الكثير من الأمور.

كان التعامل مع ماريا حساساً للغاية، بالرغم من تعلقنا المتبادل ببعضنا البعض، إلا أنها كانت هشة وسريعة العطب، تؤذيها أقل صدمة فتمتنع عن الطعام، والكلام، واللعب والحركة. كان يكفي أن ننظر إلى عينيها لنعرف مبلغ الرعب الذي تشعر به. كانت تبدو وكأن صاعقة أصابتها.

مريم التي كانت غارقة في مرضها، كانت تحتمل بشقّ النفس مظاهر الحداد، والسجن، وظروف حياتنا. كانت مدمنة على تعاطي دواء الموغادون الذي كنا نؤمنه لها بواسطة بعض الحراس، ومع هذا كانت نوبات الصرع تتعاقب عليها الواحدة تلو الأخرى، وبفترات متقاربة. مسكينة ميمي كم كان

وضعها أليماً وفظيعاً! كنا نقف إزاءها مكتوفي الأيدي، وعاجزين حتى عن تهدئتها وتطييب خاطرها. في غمرة إحدى النوبات التي كانت أعتى من سابقاتها، سقط من يدها قدر الحليب المغلي، لينصب على فخذها. استغرقت الحروق عدة أشهر كي تبرأ وتزول آثارها بسبب سوء العلاج.

كنا نبالغ بتدليل عبد اللطيف جميعاً دون استثناء، علنا بهذا نعوضه بعضاً من طفولته المفقودة. كان هو محور عطفنا واهتمامنا، وكنا نصنع له بعض الألعاب من الخشب والكرتون، ونقص عليه الحكايات، ونغرقه بالمداعبة والقبلات، بالإضافة إلى بعض الحيل والأكاذيب.

ربّما أسأنا التصرف معه عندما أحطناه بهذه الحماية الزائدة والمبالغ بها. للأسف، لم يكن هذا الأمر في صالحه عندما أطلق سراحه، لا بل سبّب له مشاكل كثيرة، وأضراراً بالغة. لعلنا نجحنا في التخفيف من وطأة الحاضر الذي كان يحياه في وحشة السجن، لكننا أخفقنا بمساعدته في مواجهة المستقبل وأعبائه. ولكن ترى هل كان ذلك الخيار الذي انتهجناه معه فعلاً من صنع أيدينا؟ وهل كانت أمامنا خيارات أخرى؟!

كان العراف على حق: كنا فعلاً محاطين بعناية إلهية، فلم نسقط ضحية الأمراض الخطيرة والفتاكة التي كانت تتعاقب علينا، لكننا كنا في كل مرة ننجح بالنجاة منها. كدت أن أموت مرة بعد أن أصبت بحمى التيفوئيد، بسبب الحرارة المرتفعة التي لازمتني عدة أسابيع متتالية. كانت أمي تسهر على معالجتي، تضع على جبهتي ضمادات الماء كي تخفّض الحرارة. إحدى ممرضاتنا، أعطتني حبوب الأسبرين، وهو الدواء الوحيد الذي كان بحوزتها بعدما وجدت أن حالتي تتدهور من سيىء إلى أسوأ. اتصل قائد المعسكر بالرباط لكن ذلك كان مضيعة للوقت، ولم يُجْدِ نفعاً، فأنا من تكبدت بمفردي تلك الآلام المبرحة. قبل أن أقع في الغيبوبة، عندما هجرتني الحمى، كنت في حالة مزرية وفظيعة، أصبحت كهيكل عظمي، وفقدت كل شعري. ومع هذا لم أمت بل بقيت على قيد الحياة.

كنا نعيش حالة من العزلة التامة، ولكن بفضل جدي، «بابا الحاج» كما كنا نناديه، كنا نتلقى قليلاً من الرسائل والكتب. منذ اختفائنا، لم يألُ المسكين جهداً ولم يترك وسيلة للتواصل معنا، وتنسّم أخبارنا وإرسال بعض الأشياء لنا، متحملاً بمفرده كل الأعباء والمخاطر التي تترتب على تحركاته في ظل حالة من القمع والتعسف، أصبح معها كل من يمت بصلةٍ لعائلة أوفقير من قريب أو من بعيد تحلّ عليه اللعنة.

بعد أن كان قد طرق كل الأبواب، وكاتب رؤساء الدول الأجنبية، وكتب إلى الرئيس جيسكار ديستان، والمنظمات الدولية والإنسانية، ذهب لالتماس المساعدة من الأمير مولاي عبداللّه. توسل إليه أن يتوسط عند الملك كي يسمح له بإرسال بعض الكتب والرسائل إلينا.

لم ينسنا الأمير. مرة أخرى، أظهر مدى إنسانيته عندما وافق على طلب جدي. وبذلك تمكن «بابا الحاج»، وبشكل دوري، من إرسال بعض الروايات، والمسابقات، والمخطوطات المدرسية التي كنا قد أوصيناه عليها، وكنّا بأمسّ الحاجة إليها. عندما وصل صندوق الكرتون الكبير الممتلىء كتباً إلى تامتاغت، لم تسعنا الفرحة، كنا نتصرف مثل الأطفال الصغار عندما تقع أعينهم على شجرة الميلاد. كانت الدليل الحي والملموس على أن هنالك في الخارج إنساناً ما زال يحبنا.

هذا الجميل كلف مولاي عبداللّه غالياً، إذ أثار عليه نقمة الملك الذي اقتص منه وفرض عليه ملازمة داره لكنه لم يستسلم وهو على فراش الموت، رجا أخاه مرة أخرى أن يفرج عنا ويطلق سراحنا. داخل الصندوق الكرتوني، كنا نتسلم رسالة شكلية من «بابا الحاج»، تكون فيها الأخبار ملفقة وحذرة. ولكن بفضل نجاح جهوده الخثيثة مع بعض الحراس تمكن من إقناعهم بإيصال رسائل لنا لا تطالها عين أي رقيب أو حسيب. وبهذه الطريقة أصبح بإمكاننا تلقي رسائل عديدة من أقاربنا وأصدقائنا. كانت تسلم أولاً بالطبع إلى جدي.

ماما خديجة، زوجة جدي، كانت تتولى بنفسها حمل البريد سرّاً. تعطيه للحراس، وتحصل منهم على رسائلنا، وذلك وفق مواعيد سرية، كانت تذهب على دراجتها النارية، وهي تتوخى أقصى درجات الحيطة والحذر. كانت الأنظار الملكية تحدق بكل من كانت تربطنا به صلة، من كل حدب وصوب. هي أيضاً دخلت في المقاومة. لكنها لم تقم طويلاً بدور الوسيط: لأنها قضت نحبها حسرةً علينا بعد مضي عدة سنوات على سجننا.

في باريس، كدت أعقد قراني على شاب يدعى علي العياشي. كان يواظب على كتابة الرسائل الملتهبة بكلمات الشوق والحب والتي توجه عادة من رجل إلى خطيبته. في البداية تجاوبت مع رسائله، ولكن أسلوبه المتوهج والمتقد سرعان ما أصابني بالنفور. إنه لم يستوعب الحالة التي كنا نتخبط فيها، سعيت جاهدة أن أشرح الفروقات الشاسعة التي تباعد بيننا. كتبت له مرة في إحدى الرسائل:

«هنالك من هم في الداخل، وهنالك من بقي في الخارج، هنالك عالم يفرق بيننا وأسوار تفصلنا.

حتى في أعماقنا لا شيء يجمع بيننا».

توقفت عن مراسلته، وبهذا وضعت حداً لتلك القصة. في كابوسنا اليومي، لم يكن هنالك مكان لأحلام المستقبل، ولا للحب، مع أنني كنت في العمر المناسب والمطلوب.

كانت الرسائل الأخرى تثير ألمنا وأشجاننا أكثر مما كانت تفرحنا. كنا نترقب وصولها بفارغ الصبر، لأنها كانت الصلة الوحيدة بيننا وبين الخارج. كنا مصدومين إزاء أنانية وسوء تصرف بعض هؤلاء الذين كانوا يراسلوننا. وماذا عسانا نقول؟ كانوا يصفون لنا بعض التفاصيل عن حياتهم الهادئة والمريحة، وسهرات الميلاد وموائدها الغنية والمنوعة، والرحلات، والأعياد، والأحداث السعيدة. وكل المتع والمباهج التي تدل على حياة طبيعية. كنا نغصّ بريقنا عندما نقرأها، ونشعر بالضيق لأننا كنا محرومين من كل هذا.

راسبوتين

من بين الخمسة والعشرين حارساً الذين أوفدوا لحراستنا ليلاً نهاراً، ثلاثة أرباعهم كانوا ممن كلّفوا بمراقبة بيتنا في الرباط.

كانوا يعرفون أبي، من قريب أو من بعيد، ويحترمون أمي، ويحبوننا بطريقة أبوية صرفة. كانوا يحضرون لنا البيض الطازج، والحلوى للصغار، واللحم اللذيذ، والبطاريات للراديو. كلما ذهبوا لشراء حاجياتهم، كل منهم حسب إمكانياته المادية، كانوا يشترون لنا معهم بعض الحلوى، ويمررونها لنا خفية عندما يضعون لنا أسطل الماء التي كانت مخصصة لنا يومياً.

أحدهم أعطى عبد اللطيف حمامة صغيرة. بعد فترة وجيزة، أحضروا لنا أخرى. وباضت الحمامتان وفقس بيضهما، وصار عندنا، بعد عدة أسابيع، مجموعة كبيرة. وضعناها داخل صناديق كرتونية باتجاه حائط البهو.

صارت الحمامات محوراً تنظم حوله حياتنا. كل واحد منّا أخذ واحدة له، ومنحها اسماً ولقباً، تماماً كما كنا فعلنا مع الفراخ من قبل.

كنا نستمتع بمراقبة سير نموها وتطورها ساعات بكاملها، سيما أيام الآحاد حيث لم يكن هنالك أي حصص دراسية. إحدى الإناث بينهن كانت تدعى حليمة. كنا نتأمل حياتها الغريزية مع الذكر،

قبلاتها، وتعبيراتها العاطفية والجنسية.

إلّا أن السجناء يظلون دائماً سجناء، بالرغم من حبنا للحمامات، لم نترك فرصة تفوتنا دون أن نخطف بيوضها. كانت أمي تصنع لنا بها الكاتو بالليمون، مما يؤذي مشاعر ماريا، المدافعة الكبيرة عن الحيوانات، والتي كنا نطلق عليها لقب بريجيت باردو.

بعد خمسة أو ستة أشهر على وصولنا إلى تامتاغت، قذف لنا رجال الشرطة حبة بطاطا من فوق السور، خبّأوا بداخلها رسالة صغيرة، لتحذيرنا من أن حملة تفتيش واسعة ستطال مقرنا عمّا قريب. وبأمر مباشر من وزير الداخلية، وصل الكولونيل بن عيش إلى المكان قادماً من الرباط. هذا الرجل، كان قد فقد أخاه، الطبيب الشخصي للملك، أثناء أحداث انقلاب الصخيرات، وهو يحمّل أبي مسؤولية موته. كانت تلك إشارة إلى أن الملك لا مكان في قلبه لعائلة أوفقير.

داهم المكان بعنف، وراح يدفعنا، كنت ما أزال في قميص النوم، وشعرت كأنني أتعرض للاغتصاب، كنت دائماً أقوم بنفس ردة الفعل الحمقاء في كل مرة يتطاول فيها أحد عليّ ظلماً وافتراء، كنت أردد في نفسي هذه العبارة:

ـ آه، لو أن أبي على قيد الحياة، لما تجرأ أحد من هؤلاء الـ..

دخل إلى الدهليز الذي نستخدمه قاعة صف عندما يكون الطقس قارساً.

كانت صورة أبي معلقة على الحائط. كانت نقطة ضعفنا جميعاً، وكانت أثيرة لدينا، لأنها أخذت له عندما كان مع كتيبته في إيطاليا. أعطى أمراً بنزعها، ثم راح يطأها بقدميه. فعل الأمر عينه بصورنا الأخرى، وبأشيائنا، وبأثاثنا الزهيد، وبالأوعية التي كنا نحتفظ فيها ببعض المواد التموينية.

صادر الكتب التي لم يتسنّ لنا الوقت الكافي لإخفائها بعدما أحاطنا رجال الشرطة علماً بذلك.

بعد رحيله، كان البهو أشبه بساحة معركة. كنا مجمّدين من الخوف، والحزن، والقلق. لم تصدق أعيننا ما شاهدت من مظاهر وحشية وعنف. وبدأنا نعي أننا سنحتجز هنا لمدة طويلة الأجل، وأنه لن يكون لليلنا هناك من آخر. لقد كنا رهن الاعتقال، ولا داعي لإضافة كلمة أخرى.

حتى ذلك الوقت، كنا لا نزال نعامل جيداً، كنا نشبع، وكانت الموسيقى والراديو يسمحان لنا بالتواصل، مع الخارج.

غيّر وصول بن عيش مجرى حياتنا. كلف رجال الشرطة باضطهادنا وتعذيبنا. من الذي أعطى أمراً

بالتشدد والقساوة في معاملتنا؟! من الذي كان له مصلحة بتضييق الخناق علينا؟ لم نكن نملك أي جواب يشفي غليلنا، ويبدّد حيرتنا.

المخازنية، وهم قوات مساعدة للشرطة، كانوا ينفذون أوامر رؤسائهم بحذافيرها. التزموا بالبرنامج الجديد التزاماً أعمى. أما رجال الشرطة، الذين كانوا أكثر رقة وحساسية، فقد ردوا على ذلك بأن أقاموا حولنا شبكة مساعدة سرية مناوئة. إنهم من الجيل القديم الذي كان قد قاوم الانتداب الفرنسي. كانوا معتادين على المجازفة مع أخذ أقصى درجات الحيطة والحذر. كانوا يعرفون كيف يتحركون دون أن يثيروا الانتباه من حولهم.

كانوا يعلموننا مسبقاً بمواعيد حملات التفتيش والمداهمة. وذلك من خلال قذف جزرة أو حبة بطاطا من فوق السور، هذه التحذيرات كانت تتيح لنا المجال لإخفاء كل ما هو مهم، مثل الراديو الذي كنا نخشى أن يصادروه. البعض منهم كانوا يذهبون بأنفسهم إلى الرباط لمقابلة جدي كي يحضروا لنا البريد والأدوية، بما فيها الموغادون لميمي، وبعض المال الذي يساعدنا على تحسين ظروف معيشتنا.

كل خمسة عشر يوماً، عندما كان الحراس يفتحون الباب كي يزودونا بالمواد التموينية، كنت أسارع أنا ورؤوف للمكوث في الساحة علّنا نتمكن من إلقاء نظرة على المنظر خارج حدود السور. عندما اقتادونا إلى هذا الحصن، كان الوقت ليلاً، لم نكن نعرف أي شيء عن المكان الذي كنا نحتجز فيه. والأسوار العالية التي تحيط بنا كانت تحجب عن أعيننا الرؤية.

في كل مرة يفتح فيها الباب، كان هنالك رجل صغير، منظره مضحك، يحاول أن يبعث لنا برسالة ما بنظرة من عينيه. كان شكله الخارجي غريباً، بلحيته، وشعره الطويل، ونظراته النفاذة والمركزة كما لو أنه كان يتعاطى المخدر، ممّا ذكرني براسبوتين، ولكن بحجم صغير. لم نعرف أبداً ماذا كان يريد، وكنا نجده غريب الأطوار. في صباح أحد الأيام، دخل أحد رجال الشرطة، وألمح لنا بتكتم شديد أن علينا استدعاء ممرّض. ثم أشار بعينيه نحو من أسميته راسبوتين الصغير بدافع الحذر، تظاهرنا أننا لم نفهم شيئاً. لاحقاً، وتحت وطأة إلحاح ذلك الصامت الملتحي، قررنا استدعاءه للدخول.

إنه من أبناء قرية جدي لأمي، كان غيوراً، وذا مروءة ككل البرابرة، ولم يكن ينشد إلّا مساعدتنا. في الليلة التي أعقبت لقاءنا الأول، سمعنا جلبة مدوية، في ساحة الحصن. نزلنا بسرعة مذهلة، وجدنا

على الأرض كيساً من الطحين.

أرسل لنا راسبوتين إشارات ضوئية من فانوسه. بالكاد لمحنا وجهه، كان هنالك إلى جانبه أشخاص آخرون.

حتى تلك اللحظة، الحراس الذين كانوا يدللوننا، كانوا يفعلون هذا على دفعات: مرة لحم بفتات، وأخرى علبة بيض، قليل من الطحين، وبعض السكاكر التي تكون غالباً قد عبرت من جيب إلى آخر.

بفضل راسبوتين، دخل التموين مرحلة جديدة، صار أشبه بسوق تموين، صار لدينا كيس طحين، كيس أرز، كيس سميد، كيس سكر، صفيحة زيت، مئة وخمسون بيضة....

كي يوصل إلينا كل تلك المواد التموينية، كان على راسبوتين والمتواطئين معه أن يحملوها من الواحة التي تقع في أسفل الحصن ثم يدخلوا بها إلى حيث الجزء المتهدم من الحصن، ومنه إلينا عبر حبل طويل كانوا يربطونها به. وهم يتسلقون تلك الصخور كانوا يعرضون أنفسهم للمخاطر، لأن أي ضجة كانت كفيلة بلفت نظر أحد أفراد القوات المساعدة، الذين كانوا يراقبون كل منافذ ومداخل السجن ومحيطه.

كانت عملية تفريغ الحمولة، تستغرق مدة لا يستهان بها من الليل.

في آخر المطاف، كان الممرض، يصحبه رجلان من الشرطة، يهبط إلينا عبر الطريق التي سلكتها إلينا أكياسه. كان هذان الشرطيان خجولين بعض الشيء، لكنهما كانا فخورين بهذه الفرصة التي أتيحت لهما فيها مصافحتنا. في كل مرة، كانوا يرفدوننا فيها بالإعاشة، وبالطبع في حال تسنى لهم ذلك، كنا نجلس وإياهم للحديث والنقاش حتى مطلع النهار.

كان هذا التواصل قيماً جداً لنا، وخصوصاً لأخي رؤوف الذي كان في حاجة ماسة إلى رفقة ذكورية. كنا نشرب الشاي، ونأكل الكاتو الذي أحضروه لنا معهم. الصغار كانوا في حالة قصوى من البهجة والإثارة. كان عبد اللطيف يرفض الذهاب إلى النوم. ويشد نفسه إلي وهو يقاوم النعاس. حتى بالنسبة إليه، كانت هذه اللحظات مهمة جداً. كنا نتحدث عن شتى المواضيع، نمزح، ونتبادل النكات، وآخر المستجدات العالمية، لكن راسبوتين كان لا يدع مناسبة تفوته ليذكرنا بحقيقة الواقع المرير. كان يقول لنا: لن تخرجوا أبداً من هنا، ضَعوا جانباً كل الأوهام الأخرى.

كنا، لسذاجتنا، نمنّي النفس بالحصول على عفو ملكي قد يتم في يوم عيد العرش، أو في عيد ميلاد الحسن الثاني. بيد أنه حطم كل أحلامنا وحوّلها إلى سراب، باسم سياسة الاحتياط والتدبير التي كان يعتمدها.

أمي التي كانت لا تعير أذنها لهذه المباحثات، كانت تسعى بكل ما أوتيت من قوة، إلى تهدئة مخاوفنا وخنقها في مهدها، فتسارع إلى القول:

ـ ألا ترون أنه رجل مجنون؟ لا تتركوه يدير رؤوسكم، يا صغاري، إنه ببساطة لا يعرف ماذا يقول.

صحيح، أن كل المظاهر توحي بأن راسبوتين ربما كان معتوهاً، لكنه كان رجلاً شجاعاً، مستعداً للقيام بأي مساعدة. بعد شهرين كاملين على آخر زيارة له عشنا في جو من الأمل والترقب، بانتظار حلول موعد مناوبة الحراس، الذين كانوا سيحملون لنا معهم الرسائل، وراديو، وكتباً أخرى، لأن ما أرسله جدي منها في المرة الأخيرة لم يكن كافياً.

أتى اليوم الموعود، رؤوف الذي كان على أحر من الجمر، تسلق السور المرتفع، واعتلى حافته، انضممت إليه، ورحت أراقب بأم العين وصول الشاحنة. عندما تقابل رجال الشرطة المقبلون مع زملائهم الذين كانوا متأهبين للرحيل، تصافحوا، وتعانقوا، ثم جرت بينهم عملية التسلم والتسليم. هللنا لمرأى الصناديق التي لمحناها في مؤخرة الشاحنة. ووعدنا أنفسنا بأيام مديدة من المطالعة، والموسيقى، والفرح.

لكزني رؤوف بكوعه وقال لي بصوت قلق:

ـ كيكا، انظري، حصل شيء غير طبيعي. إنهم يتراكضون في كل الاتجاهات.

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه بأصبعه، رأيت حشداً من الجنود، ورجال الشرطة في حالة من الاستنفار، فيما كان راسبوتين يندفع راكضاً. لا شك أن أحداً ما وشى به... بعدما وقع المرض في أيديهم، فتشوا أمتعته، وجدوا المال، والراديو، والكتب، وجهاز الستيريو، صادروا كل ما كان بحوزته، ما عدا الرسائل التي كان قد تمكن من إخفائها جيداً.

بعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعة على فرط عقد شبكتنا، وصل اليوسفي، المقدم في جهاز المخابرات، يرافقه ثلاثة من رجال الشرطة. كنا نعرفه من قبل، فهو الذي استجوب أمي بعد موت أبي.

بعدما فتشوا كل مكان، وضعوا على طاولة صغيرة آلة كاتبة وفتحوا ملفاً وبدأ التحقيق، وراحوا يستجوبوننا بلا هوادة. استغرق الأمر طوال النهار. بعد طول لف ودوران أعلمونا بأن الممرض اعترف لهم بأننا نحيك مؤامرة للقيام بعمل هدّام.

بذكاء، ادّعى راسبوتين تورط جميع الحراس بتسهيل مهمته. وهكذا لم يعد بإمكانهم معاقبة أحد بعينه. وتابع بأنهم ساعدونا لأسباب سياسية وإنسانية في آن معاً. وقال:

ـ تصرفنا كما يتصرف أي ربّ عائلة مع أولاده. أي شخص آخر كان سيفعل الأمر نفسه.

كانت النتيجة اعتقال كل رجال الشرطة، ليعودوا لاحقاً ويخلوا سبيلهم. أما في الحصن، فكان علينا أن نعاني الأمرين عقاباً لنا على ذلك. فقد وصل الفريق الجديد من المخازنية الذي أرسلوه للقيام بمهمة وضعنا تحت المراقبة المشددة، والتي شملت التفتيش، والمداهمة، ومضاعفة الحراسة، ومنع البريد، والكتب، وقطع أي اتصال لنا مع عائلتنا.

فرضوا علينا سياسة تقتير، وصاروا يقطرون لنا المواد الغذائية بالقطارة. لحسن الحظ أن أجسامنا في فترة الدلال الماضية قد خزّنت بعض الاحتياطي، لأن ما نحصل عليه ما كان ليسدّ رمقنا. وبالرغم من ذلك، استمررنا في الصمود والتصدي.

المقاومة

ثارت ثائرتنا من هذه الظروف الجديدة التي تحيط بنا. ولكن ماذا نفعل؟ كنا في حالة من العجز، والعزلة، والخضوع التام للإرادة الملكية النافذة.

في ليلة من ليالي السهاد واليأس، خرجت إلى الساحة لأخفف حدة هذا البركان الذي يتأجج في صدري. ولأول مرة منذ زمن بعيد بدأت أبكي. ورحت أفتش من بين دموعي عن جواب، وأتطلع بتساؤل وحيرة نحو السماء التي كانت تلتمع فيها النجوم المضيئة. كان الليل يسدل عباءته السوداء الحالكة، ويخفي بها بقوة وجه الكون. جاوبني الصمت والسكون، لا أحد يسمع همس استغاثاتي وتوسلاتي. حتى الله لم يستجب لنا عندما ناديناه مراراً وتكراراً كي ينقذنا ويخلصنا من هذا الموت البطيء. لقد دفنونا أحياء، هكذا سنهلك ونهترىء دون أن يتمكن أحد من إنقاذنا. أردت أن أصرخ بأعلى صوتي، لكنني خفت على الأطفال الصغار من نفسي. حبي لهم، وخوفي عليهم، ينتصران في كلّ

مرة أكاد أخرج فيها عن طوري، وأطلق لثائرتي العنان.

في صباح عيد ميلادي الثالث والعشرين، استيقظت باكراً، جلست على كرسي، كنت بمفردي والجميع نيام، غصت في تفكير عميق حول حياتي، وعمري الذي يضيع، وشبابي الذي تذوي شعلته، استغرقت في هذه اللجج المتلاطمة من الأفكار ساعات منهكات.

تمعنت ملياً، بعين الرضا، كيف خط الزمن بريشته الساحرة فوق صفحات وجهي وجسدي. كان شعري طويلاً مسترسلاً يصل إلى آخر ظهري. كان يكفي أن أنظر في مرآتنا الكبيرة، التي ما زلنا نمتلكها، وأضبط الحراس وهم يتأملونني، كي أعرف أنني كنت جميلة، وأنني كنت واثقة بأنهم من حسن نواياهم يكنون لي عاطفة أبوية خالصة. كان جسدي الغضّ يتفجر أنوثة وإغراء، وكان وجهي فتياً وناعماً. كنت أعرف أن هذا سيذبل ويتلاشى بلا عودة خلف أسوار هذه المقبرة الجماعية. وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء كانت ضرباً من المستحيل. ولماذا الحسرة والأسف، كيف سأحب؟ ومن هذا الذي سيحبني؟ فليرحل ربيع العمر عني... لا أبالي!

لم تكن أمي في كل حياتها جميلة كما كانت الآن. غالباً ما كنت أتلهّى عن العمل الذي أقوم به كي أمتع أنظاري بها. يا للخسارة، كم كان أبي سيفرح ويسر بمرآها!

الفتاتان الصغيرتان، كبرتا بلا طفولة، وصارتا في عمر النساء. من يردّ لهما طفولتهما المغتصبة؟ من يعوضهما كل ما فاتهما؟

ماذا أقول عن رؤوف الذي حرم من كنف أبيه قبل أن يشتد ساعده؟ وعبد اللطيف المحروم من كل شيء! هذا الصغير الذي تفتحت عيناه على حياة التيه والشتات؟ وحليمة وعاشورا اللتان دفعهما وفاؤهما وإخلاصهما إلى ملازمتنا كظلنا! كنت أحمل أوجاعهم جميعاً في قلبي، وأصلي من أجلهم ولا أطيق رؤيتهم يعانون ويتألمون. بعد أن كنت في حداد على أبي، صرت في حداد على حياتي وحياتهم.

الحرية زائد الأمل تساوي الحياة، العبودية زائد اليأس تساوي الفراغ والعدم. في غمرة حزني كنت أسمع صوتاً خفياً يهمس لي: انهضي، واخلعي ثوب اليأس عنك... ما زال أمامك درب شائك وطويل من المقاومة والتحدي. وهذا ما كان يعيد دائماً النشاط إلى شجاعتي المتهالكة.

رفعنا عريضة إلى الملك وقّعناها بدمنا. سلموها إلى آمر المعسكر، الذي رفعها بدوره إلى رؤسائه. بسذاجة، وربّما بصبيانيّة، كانت هذه الرسائل تستصرخ الشهامة الملكية والمروءة الملكية. كتبنا له أنه لا

يليق به أن يسمح بتعذيب امرأة وأطفالها. وكأننا كنا نتوخى أن تكون إجابته بمستوى عريضتنا.

أنا وأمي، ورؤوف، وميمي بدأنا تنفيذ إضراب عن الطعام، في عز الشتاء. كانت الأرض والجدران مغطاة بالجليد. لازمنا أسرّتنا، ورحنا نتكوّر تحت أغطيتنا الهزيلة نلتمس تحت طياتها بعضاً من الحرارة والدفء.

في البداية، كنا نمتلىء حماسة وجدية، ولم نكن نشعر بالضعف والوهن. ثم لم تلبث أن انتصرت غريزة الطبيعة، عدنا إلى تناول الطعام خفية عن أعين الحراس. في إحدى حقائب أمي، الموجودة في ركن معزول مع سائر أمتعتنا، كنا نحتفظ بقطع خبز، بعد أن كنا قد وضعناها تحت الشمس، كي تلين وتصبح طرية. كنا نسمي هذه العملية بـ«الجلسة البرونزية».

كنت أنظف قطع الخبز بفرشاة أحذية كي أنزع عنها العفونة، ومن ثم أدور بها على المضربين من سرير لآخر. كذلك كنا نمتلك ذخيرة من الحمص، كنا نضيفها إلى قائمة طعامنا السرية. وكانت وجباتنا تتوزع على الأطباق التالية: طاجين بالحمص، حساء الحمص، مقبلات من الحمص. هذا التموين الهزيل سمح لنا بالصمود، وبأن نعيد الطعام القليل إلى السجّانين.

ولكن سرعان ما تراخينا، فالوعد بالحصول على كيلو زبدة أثار شهيتنا للكريب والكاتو ووضع حدّاً لإضرابنا. على أي حال، هذا الإضراب لم يلق صدىً عند أحد. فلا أحد يهتم لمصيرنا، لذلك لم يحقق أي نتيجة مرجوة.

ومع هذا، كان يجب أن نتابع تحركنا. عقدنا النية على فكرة الهرب. قبل فترة وجيزة من إضرابنا، عثر رؤوف، الذي كان من عادته أن ينقب في كل مكان، على نافذة في الغرفة الصغيرة حيث كنا نضع أمتعتنا، كانت مغطّاة بالطين. وكان هو يتحرق فضولاً ليعرف إلى أين تفضي هذه النافذة. لذا عمد إلى إزالة جزء من الطين، ليكتشف صحة ظنه. كانت هناك نافذة حديدية سرعان ما فتحناها.

كان المشهد الطبيعي رائعاً، أثار حلكة الغرفة. وأخيراً صار بإمكاننا الاستمتاع بالنظر إلى السماء. عبر الفتحة رأينا واحة تقع على بعد خطوات فقط. كان يتناهى إلى أسماعنا عبرها نعيب الغربان، وهديل الترغل، وأصوات الرعاة الصغار وهم ينادون على قطعانهم، بالإضافة إلى خرير المياه.

كنا نتزاحم ونتسابق كي نتمكن من أخذ دور لتمتيع أنظارنا بالمشاهد الجميلة والساحرة التي كانت تنكشف من خلالها. وأخيراً، عدنا نسرّح أعيننا في الأفق الواسع والرحب، ونستنشق ملء

صدورنا الهواء النقي المنعش. كنا قد نسينا هذه المتع التي لم نعرف قيمتها إلّا عندما حرمونا منها.

أعدنـا إغـلاق النافذة إغلاقاً غير محكم بحيث نسـتطيع فتحها مجدداً عندمـا نريد. من حين لآخر، وكلـما أحسّ أحدنا بالكآبة، يجلس مقابل هذه النافذة، يشـاهد منها طلوع النهار، أو مغيب الشـمس. وكان فصـل الربـيع يكسـب الواحـة رونقاً وجمالاً. إذن لم يتغـير شيء ألبتة. ما زالـت الطبـيعة تخضع لدورة الفصول.

كانت ماريا وسـكينة أكثر من يتردد على ذلك المكان. كانتا تـتابعان بشـغف شديد أدق التفاصيل. ولا تطيقـان أن يفوتهـما منهـا شيء. كم كنت أتألم وأشـعر بالغصة، عندما أجدهـما قابعتين هناك، وهما تلصقان وجهيهما الحزينين بقضبان الشباك الحديدي.

من الصعب بمكان رؤية طفل جائع أو مكتئب. إنه منظر فظيع تقشعرّ له الأبدان.

عندمـا قررنـا الهرب، أول فكرة طرأت لنا هي أن نوسـع فتحة هذا الشـباك. لكن الحـراس تنبهوا للأصوات التي كنا نحدثها بـينما كنا نجمع الردم وننقله لإلقائه في فجوة الحمام البالغة من العمق خمسة أمتـار. الجلبـة كانت مدوية، مما دفع الحراس إلى المداهمة والتفتيش. بقدرة خفية، كنا قد نجحنا في إزالة كل الآثـار وإخفائهـا قبل اقتحامهم. لم يعثروا عـلى شيء. هذه الحادثة كانت بمثابـة إنذار لنا بضرورة توخّي مزيد من الحيطة والحذر.

كان يجـب علينـا تغيـير وجهـة خطتنا. المطبخ الذي كان ترابـياً، بدا لنا أنـه المكان الأمثل. أخذ كل منـا، أنا ورؤوف، ملعقة بـيده، ورحنا نحفر بها الحائط الذي يرتفع عشرين سـنتيمتراً عن الأرض، لم يكـن بحوزتنـا أدوات أخرى، وكنا نريد أن نفتح ممراً في الحائـط. في زهاء أقل من عشر دقائق على بدء الحفر تساقطت كمية كبـيرة من التراب، لكن كان علينا أن نـتحاشى انهيار الأحجار.

خلال بعد ظهر يوم واحد، أحدثنا ثغرة تكفي للتسلل. زحفت أرضاً إلى داخل هذا النفق، وجدت نفسي أمام فتحة، حاولت أن أوغل في التقدم، وإذبـي أشعر بشيء ما يمس فخذي، انتفضت مذعورة، ورحت أصرخ، وأولول:

ـ رؤوف، هذا وكر للجرذان، كيف لي أن أتقدم؟

ـ كيكا، أصغـي إليّ جيداً، ألا تريدينا أن نهرب من هذا المكان الملعون؟ إنها فرصتنا الوحيدة! هيا تعقلي، وتسلّحي بالشجاعة، وتقدمي... هيا بعض الشجاعة تكفي...

لكثرة ما ألحّ رؤوف واستحلفني، أطعته لا شعورياً. بما أنه كان لا مناص من هذا فلأتقدّم... كي نتقدم...

شرعنا بإزالة الأحجار. كان عملاً خطيراً وشاقاً. كنا نحمل الردم الثقيل بتأن شديد، مخافة أن يقع منه شيء ما أرضاً، ويثير انتباه الحراس. ها نحن أخيراً نحصد ثمرة مثابرتنا وإصرارنا. من بين الركام نجحنا بالعبور من الفجوة إلى الجهة الأخرى. ما أروع الشعور بالحرية.

كنا نترنح تعباً من وطأة السماء والهواء. مشينا بصمت دون أن ننبس بكلمة، كنا نتخاطب بلغة العيون والإيماءات. منذ ثلاث سنوات ونحن نعيش في الفراغ والسكون، كادت تلك تكون آخر نزهة نقوم بها. على حين غرة انهار أرضاً عمود حجري، على بعد شعرات منّا. أحدث سقوطه دوياً مفزعاً. بالكاد كان معنا الوقت الكافي كي نتنحّى كلمح البرق جانباً.

كان يلزمنا عدة دقائق كي نستعيد أنفاسنا المخطوفة من أثر تلك الصدمة المرعبة. كان بوسع هذا العمود الحجري أن يقضي علينا بالكامل. تلاقت نظراتنا أنا ورؤوف. كنا نفكر في نفس الأمر. ما هذه القدرة العلوية التي أنقذتنا من موت محتم؟ دون الحاجة إلى النقاش فهمنا أنا وأخي، أن علينا وضع خطة دقيقة للهرب تشبه تماماً عمليات الكوماندوس. في كل مرة يهرب اثنان، أما هرب الجميع دفعة واحدة فهذا أمر محفوف بالمخاطر.

خلال ساعتين، مكثنا في الخارج كي نحلل، ونقيّم، ونجري كشفاً دقيقاً لخطواتنا. بعدها تسلقنا صعوداً إلى طابق الحصن الأخير، ونحن نحاذر الصخور التي قد تنهار علينا في أي لحظة.

في الأسفل، كان بعض الحراس يستنشقون الهواء الطلق في الواحة. كان يمكننا بسهولة سماع صدى ضحكاتهم. استكشفنا من مكاننا الموقع، فهنالك أشجار اللوز، والأعشاب الكبيرة، والأرض الحمراء.

ثم لفت رؤوف انتباهي إلى خط صغير يبعد عن الواحة قليلاً.

ـ هل ترين؟... هنالك جدول يحيط بالحصن... عبره نستطيع الوصول إلى ورزازات.

على مضض رجعنا على أعقابنا. كان لا بد من إقناع الآخرين بالموافقة على السير في خطتنا المدروسة.

تحمس الصغار، وهللوا لكل حرف وكلمة، يريدون البدء بالتنفيذ فوراً. كان الشك يرتسم جلياً

على وجه أمي. بصمت مطبق، وبدون تعليق اكتفت بالاستماع إلينا.

حاولنا إقناعها، وعقدنا شراشف فرشنا ببعضها البعض.

شرحنا لأمي أن حبلاً طويلاً من الشراشف سيوصلنا إلى أسفل الجهة المقابلة للدور. كان الارتفاع يبلغ حوالى عشرين متراً. عندما أريناها المكان المقصود. رفضت بحدة وجزم قائلة إنها لا تريد أن تدعنا نخاطر بأنفسنا. لم تفلح كل الجهود التي بذلناها في دفعها إلى تغيير رأيها. قالت لنا:

ـ لا أعترض على فكرة الهرب، ابحثوا عن وسيلة أخرى، أقل خطورة، لا أريد أن أخسركم...

بعدما فكرت قليلاً، تهلل وجهها وأضاء. لا شك أن هنالك باباً في الحصن يفضي إلى الواحة. يكفي أن تعثروا عليه، وتزيلوا الجدار الذي يغطيه، ساعتئذ يمكننا أن نعبر منه.

بحثنا عن الباب بين الأعمدة المتهدمة والمنهارة، وكتل الصخور.

وأنا على عجلة من أمري، تعثرت بحافة ما، ولولا حدسي، وإلهامي وبالطبع ملاكي الحارس، لكنت هويت في الفراغ، وانتهيت في الهاوية. عندما استدرت، كانت أمي شاحبة اللون كالأموات.

حتى اليوم، ما زال طيف تلك الحادثة يحتل مكاناً في ذكرياتنا المخيفة والمرعبة. لقد انطبعت في ذهني إلى الأبد نظرة الهلع التي اعتلت وجه أمي.

مدفوعة بإلهام سرّي، طلبت منّا أمي فجأة أن نساعدها لإزاحة صخرة كبيرة من مكانها. الباب الذي أضنانا البحث عنه كان موجوداً خلفها. لم يعد هنالك داع لأن نجازف بحياتنا كي يتاح لنا الهروب من هنا.

قبل مجيء اليوم الموعود، كان علينا أن نتمرن على التجلّد والصبر. ثلاث مرات أسبوعياً، كنا نخرج أنا ورؤوف ظهراً، في الساعة التي تكون فيها الشمس في أوجها. كل واحد منا يحمل كيساً ثقيلاً على ظهره، ونروح نمشي في الباحة قرابة أربع ساعات.

كل خططنا ومشاريعنا ذهبت سدىً. كان في حوزتنا بعض المال القليل الذي تبقى لنا مما كان يرسله جدي. بعد أن نجتاز الواحة سنستقل الباص باتجاه ورزازات. يلزمنا في رحلتنا بعض المواد الغذائية. ليس لدينا بطاقات هوية. لكنني وجدت بين أوراقي دفتر التلقيح لصديق مغربي تعرفت عليه عندما كنت في فرنسا. أعطيته لرؤوف كي يستعمله، وحفظت في رأسي جيداً اسم شقيقته في حال تم توقيفنا. كل هذه الأفكار كانت خرقاء وصبيانية. كان يوجد بين كتبنا واحد لا نعيره أي اهتمام، لأنه يدور

حول موضوع السـحر، والتنجيم، وعلم الأبراج. بالصدفة، وقعت أمي عليه، وبعد ما تصفحته ملياً، قررت تطبيق بعض الوصفات وأعمال السحر على نية تسهيل عملية هروبنا.

صنعت لعبة من شمع، وخزتها بالإبر، وهمست ببعض التلاوات الغامضة التي من شأنها مساعدتنا في تحقيق مبتغانا. ضحكنا حتى انهمرت دموعنا. نعتناها بالساحرة، أما هي التي لم تكن تؤمن طوال حياتها بكل هذه الشعوذات، فقد بدت منسجمة في حالة من التركيز الشديد. لا عجب، فالموجوع يتعلق بحبال من هواء.

في اليوم المقرر للهرب، بينما كنت أنا ورؤوف في الخارج لإجراء مراجعة شاملة ونهائية، وإذ بإحدى الفتيات تهرع باتجاهنا وتهتف بجزع: عودوا بسرعة، إنهم هنا، يريدون مقابلة أمي.

وصلنا كالريح، بأنفاسنا المقطوعة، وبمظهر أشعث يغطيه الغبار.

أعلمنا رجال الشرطة بأننا سنغادر تامتاغت. صببنا جام غضبنا وكبتنا على أمي. ورحنا نضاعف من سخريتنا إزاء ما كانت قد قامت به مؤخراً من أعمال سحرية أعطت على ما يبدو نتائج عكسية، ونعتناها بأنها ساحرة «الرزايا والبلايا».

ردت بسخرية وألم:

ـ كنتم تودون الانتقال من هنا؟ أليس كذلك؟ ها قد تحقق لكم ما أردتم.

كان الصغار مسرورين بالرحيل. مضت أربع سنوات ونصف على تاريخ احتجازنا. قضينا أكثر من ثلاث سنوات منها هنا، في هذا الحصن المهدم. عبد اللطيف الذي ولد في شباط / فبراير، سيحتفل عما قريب ببلوغه سن السابعة. الفتاتان كانتا في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة. ورؤوف في التاسعة عشرة. أما مريم فكانت في العشرين، وأنا في الثالثة والعشرين، وأمي بالكاد بلغت الأربعين. كانت الصغيرتان متحمستين، كنت أنا متهيبة، وخائفة وقلقة، توقعت أن يكون ما نحن مقبلون عليه أسوأ مما نحن فيه.

بالطبع، لم يخبرونا ألبتة عن وجهة سيرنا، لكنهم تركونا نمنّي النفس بالأوهام. نعتقد بأن ظروف حياتنا ستتغير نحو الأفضل. توهمنا أنها كانت رداً على عريضتنا... نعم... وبأن الملك أخذته الرأفة بنا أخيراً، وأن معاملتهم لنا ستلين وستتحسّن، وبأنهم سيطلقون سراحنا، وبأن غداً ربما كان يوم الحرية، بدليل أنهم طلبوا منا لملمة أغراضنا الشخصية فقط، وترك الفرش والأغطية و... كل ما تعود ملكيته

للدولة. من المؤكد أن ملف قضينا سيتم إغلاقه إلى الأبد...

استوحينا هذا من تصرفاتهم، مع أنهم كانوا متكتمين جداً. ولكن لماذا كل هذا الغموض؟ بلا شك، لكي تتم عملية الانتقال بدون مشاكل، وأن نتجاوب معهم بإرادتنا ورضانا. كنا نشعر بمزيج من الخوف والأمل. كم كنت محظوظة، عندما احتفظت بالراديو الصغير في جعبتي لأن حدسي كان صائباً وفي مكانه.

كانت لدي قناعه راسخة بأن هنالك حدوداً لكل شيء في حياة الإنسان، بما في ذلك المعاناة والألم. لكنني في بير جديد تبين لي أنني كنت مخطئة...

سجن الأشغال الشاقة في بير جديد (٢٦ شباط/فبراير ١٩٧٧-١٩ نيسان/أبريل ١٩٨٧)

البداية السيئة

ها هي حقائبنا ملقاة أرضاً في الباحة. يسيطر علينا جو من الترقب والانتظار. لم نكن نريد ترك تامتاغت بدون اصطحاب حماماتنا النفيسة، التي أخذت تحوم فوق رؤوسنا، وتتجمع حولنا، تصفق بجناحيها وتطير، وهديلها الجزل يصمّ الآذان. إنها لا تعرف أننا بعد لحظات وجيزة سنهجرها ونرحل.

ها هم الصغار يتراكضون في كل الاتجاهات في إثرها، عندما ينجحون بالإمساك بها كانوا يضعونها في سلال القش. ضحكات عبد اللطيف، وماريا، وسكينة تجلجل مدوية. يخالون أنفسهم على موعد مع رحلة للعب والتسلية. بعكسنا نحن الكبار، شعور القلق والخوف ما زال يستوطن نفوسنا.

دقت ساعة الصفر، حاملة معها رياح الإرهاب العاتية. رجال الشرطة يصرون على تفريقنا، وإجبارنا على الصعود إلى عرباتهم المصفحة، كل اثنين في عربة على حدة. بفظاظة وعنجهية راحوا يدفعوننا بأعقاب بنادقهم إلى الأمام. ترفض أمي الإذعان لمشيئتهم، تصر على بقائنا مجتمعين مع بعضنا البعض. أخذت تنوح وتبكي، وتتوسل إليهم ألا يفعلوا بنا ذلك حتى تراجعوا عن غيهم. مما لا شك فيه أن خشيتهم من إحداث بلبلة وفضيحة هي التي دفعتهم إلى تعديل قرارهم. عدنا وتوزعنا على النحو التالي: صعدت أمي برفقة عبد اللطيف ورؤوف، مريم بمعية حليمة وعاشورا، وأنا والصغيرتان. كادوا يوقعوننا أرضاً، وهم يدفعوننا للجلوس بسرعة. وضعنا أمام أقدامنا السلال

التي تحتوي الحمامات الثمينة. للأسف لم نستطع الإمساك بها جميعها. في المقعد المقابل يجلس جنديان من المخازنية، مع كل منهما بندقيته. حتى الأطفال لا يحركون ساكناً. تسمم الجو وتغير. بورّو، الآمر الجديد للمعسكر، لم يكن أيضاً رقيق القلب. جاء ليحل محل زميله السابق منذ عدة أشهر. ومن يومها، تمت مضاعفة عدد عناصر المخازنية الذين يقومون بحراستنا. هذه الإجراءات الجديدة وضعت تحسباً لأي عملية هرب قد تحصل بواسطة كتيبة مغاوير مبهمة تصل من الجزائر لهذه الغاية. أصحيح هذا؟ أم إننا لم نستوعب الأمر جيداً؟ أليس لهذا السبب تم ترحيلنا من تامتاغت؟

عبثاً نحاول الاستفسار والسؤال، لم يعطونا أي شرح أو توضيح كالعادة. كنا نأمل فقط ألا يتبعنا بورو إلى حيث يقتادوننا.

استغرقت الرحلة أربعاً وعشرين ساعة، كانت تزداد صعوبة ومشقة تدريجياً وباضطراد كلّما أمعنّا في السير. يراقبوننا بدون توقف، ولا يبعدون أعينهم عنّا طرفة عين، حتى عندما نهبط من السيارة لأمر ما، يصطحبوننا بأنفسهم، ويقفون فوق أنوفنا ريثما ننتهي من قضاء حاجتنا كي يعيدونا. إنهم لا يتركوننا نسترد أنفاسنا.

إننا في شهر شباط/ فبراير. اغتنمت فرصة تباطؤ عجلات السيارة، ألصقت وجهي بزجاج النافذة، الأشرطة الملونة تزين الأشجار. من المؤكد أنها من ضمن التحضيرات التي تسبق عيد العرش، إنها تدل على أن الملك ما زال أقوى من أي وقت مضى.

أغوص في ذكرياتي وتأملاتي لحظات قليلة. في القصر، هذا العيد كان مصدر سعادة وغبطة، ونحن كنا فيه موضع غنج وتدليل. ينتشلني من شرودي الواقع المرير، وكالمحمومة أروح أتلفت من حولي، أين نحن؟ وماذا نفعل هنا؟ الظلام الدامس يوقظ اللوعة والأحزان في قلبي.

تحت وطأة الإنهاك، والتعب، والبرد القارس، أحاول جاهدة أن أتنفس بعمق. الهواء مشبع بالرطوبة، أسمع نقيق الضفادع. أستنتج أننا تركنا الصحراء، وصرنا بالقرب من الساحل. صحت تكهناتي وظنوني. ثكنة بير جديد، تقع على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً من الدار البيضاء. هذا ما عرفناه لاحقاً بعد مدة طويلة.

سيول الفياضانات قطعت الطريق، مما جعل مرور العربات المصفحة التي تقلنا مستحيلاً. إننا مجبرون على الهبوط منها، والصعود في عربات لاند روفر. أبقونا موزعين إلى ثلاث مجموعات كما كنا.

غطوا أعيننا، لكن بينما كانوا يقومون بذلك تمكنا بلمح البصر من التقاط المشهد. إننا في منطقة زراعية تغطيها الحقول. وعلى مقربة منّا مزرعة مسيجة بأسلاك حديدية شائكة ويعلوها برج مراقبة. ترى هل سيرمون بنا هنا؟

لشدة شعوري بالبرد، أخذ جسدي يرتجف، وأسناني تصطك، في غمرة الليل البهيم، كما يحصل عادة في المسرحيات والأفلام. فجأة سمعت صوت رجل، ينم عن الثقافة، والتميز، والإنسانية. سرعان ما اختلط صوته بصوت بورو وأصوات بعض المخازنية.

وإذ بالرجل يخرج من الظل. إنه الكولونيل بناني، المسؤول المشرف على عملية نقلنا من سجن لآخر. إنه يقترب مني ويغمرني بسترته، ويعرض عليّ السجائر التي أحضر لي منها علبتين. طفرت الدموع من عيني لكثرة ما تأثرت بنبل أخلاقه، وشهامته. ثم تابعنا طريقنا. قطعنا مسافة خمسمائة متر، قبل أن تتوقف القافلة أخيراً. عندها بدأت أسمع صوت هدير مولد كهربائي. ترى.... هل استجاب الملك للعريضة التي كنا قد رفعناها إليه؟

أدخلونا إلى أحد المنازل، كنا ما نزال معصوبي الأعين. أغلقوا الباب، ثم نزعوا المناديل التي كانت تحجب عنّا الرؤية. المبنى صغير، ومشيد وفق التصميم الاستعماري من مادة الإسمنت. شكله الهندسي بشكل عام يشبه الحرف أل (L) كما يكتب بالفرنسية.

ندخل إليه عبر بوابة خشبية، تفتح على ممر طويل يؤدي إلى باحة صغيرة تنتصب فيها خمس شجرات من التين، تقف كأنها من عناصر الحرس. وللمبنى أربعة أبواب، إنها زنزاناتنا الأربع، ثلاث منها تتتابع بخط مستقيم، أما الرابعة والأخيرة المخصصة لأمي فتفصلها زاوية قائمة عن الثلاث الأوائل.

في تجويف صغير يقع قريباً من أول خلية، ترتفع نخلتان ضخمتان، تتجمع أغصانها الوارفة كغيمة فوق المكان. الجدران التي تقبع بين جنباتها عالية وسميكة، لا نرى من خلالها بصيص ضوء. إنها جدران مشتركة مع إحدى ثكنات برج المراقبة. يحيط بالمكان العديد من المقاتلين والجنود المجهزين بكامل سلاحهم، لا نستطيع أن نأتي بأي حركة دون أن تلتقطها عين المراقب الشاخصة باتجاهنا.

أعلمونا بأنهم سيفرقوننا في المبيت ليلاً. وبأنه لنا الحق أن نرى بعضنا خلال النهار، وأن نتناول وجبات الطعام سوية، لكن في الليل يجب على كل واحد منا أن يعود إلى زنزانته. توزعنا على الشكل التالي:

أمي وعبد اللطيف، أنا وأخواتي الفتيات. عاشورا وحليمة. أما رؤوف فقد كان بمفرده.

نزل علينا هذا الخبر كالصاعقة، وأخذنا نجهش بالبكاء. استصرخت أمي ضمائرهم، ورجتهم، وناشدتهم قائلة بأن ليس لهم الحق أن يفرقوا بينها وبين صغارها... وأضافت بأسى وانكسار:

ـ أستطيع أن أتحمل كل شيء إلّا هذا... إنه فوق طاقتي...

ـ سيدتي اعلمي أنني أشعر بالعار مما أقوم به.

قاطعها الكولونيل بناني ثم أضاف وهو يبدو في أقصى درجات التأثر والارتباك:

ـ هذه المهمة ستصم حياتي بالعار إلى الأبد. لكنني من سوء حظي العاثر تلقيت أوامر، وأنا مجبر على تنفيذها.

هذه الزنزانات الغارقة في البؤس، لم تغير أي شيء في واقعنا المرير والبائس أيضاً. كنا قد اعتدنا على الإنهاك والتعب، والاتساخ، لكننا هنا كنا في مكبّ للنفايات. كيفما استدرنا، أو لمسنا، كان يصيبنا رذاذ القذارات. الجدران مطلية باللون الرمادي، الرطوبة خانقة، الماء يرشح من السقف نزولاً حتى الأرض. الضوء الكهربائي شحيح، يزودنا به مولد كهربائي، لا يعمل إلّا ساعتين فقط في الليل. أما الفرش الإسفنجية البالية فكأنها ملتصقة بالأرض، ويغطيها شرشف لا داعي للحديث عن نظافته.

كل زنزانة تحتوي على عدة غرف صغيرة، وسقيفة تكاد لا تتسع لشخص واحد، ذات سقف تنكشف منه السماء، تغطيه القضبان الحديدية والسميكة والمشبكة. إنه مصدر الهواء النقي الوحيد لدينا. تلك المخصصة لأمي نصل إليها بعد أن نجتاز ثلاث درجات. أما الرئيسية فهي مجهزة بحمام وغرفة مهملات، علوها متر ونصف المتر عن الأرض، مشيدة في وسط ارتفاع الحائط، نصل إليها بمساعدة سلّم.

قديماً، كان للزنزانة نافذة، تم إغلاقها، وتغطيتها بلوح بلاستيكي داكن اللون. واستطاع عبد اللطيف الذي كان ما يزال صغيراً على التجلد والتحمل، أن يجد فيها متنفساً له. فقد نجح في إحداث ثقب في البلاستيك بواسطة سيخ اللحم المشوي، وألصق عينه به محاولاً اكتشاف ما يوجد خلفها في الخارج.

في زاوية الباحة، تقع الزنزانة التي تقاسمتها مع أخواتي، بالإضافة إلى العلية المشبكة بقضبان الحديد، هنالك غرفة، فيها أربعة أسرة، يتسلل إليها ضوء خفيف من كوة في الحائط مغطاة بقطعة من

البلاستيك، وحمام، وخزانة أودعنا فيها حقائبنا، وما يسمى «غرفة رياضة»، وزاوية مرحاض صغيرة مخصصة للاستحمام الذي نقوم به بواسطة بعض الأسطل الممتلئة بالماء. نستخدم الماء الذي يزودوننا به للشرب وللاستحمام. عندما نتركه يسيل أرضاً، نستمتع بمشاهدته، بهذه الوسيلة نحاول خلق جو من المزاح، والمرح. بواسطة قضبان حديدية انتزعناها من الأسرة، نرسم بالماء خطوطاً وأشكالاً. ونسابق خط الماء الجاري على الأرض. عندما يحظرون علينا الخروج من زنزاناتنا، نستخدم صفائح الماء بدلاً من المرآة.

تنبطح أمي أرضاً على بطنها، نفعل بدورنا مثلها. وهكذا فإن انعكاس صورنا يسمح لكل واحد منا رؤية ظل الآخر. خلال سنوات، كانت هذه طريقتنا الوحيدة لنتواصل مع بعضنا البعض، بغير الصوت. كانت لحظات مؤثرة بشدة. كم كنا بحاجة أن نتعانق، ونتلامس. لكن الجدران والحواجز كانت تفرق ما بيننا.

زنزانة عاشورا وحليمة ملاصقة لنا. المرأتان تنامان في غرفة صغيرة جداً، مسقوفة بطبقتين من القضبان الحديدية المشبكة. بالقرب منها زنزانة رؤوف، الحمام فيها كناية عن ثقب محفور في الأرض، وتطل على الباحة المزروعة بأشجار التين. الإجراءات الأمنية أكثر تشدداً على أخي. للوصول إليه، يجب المرور بثلاثة أبواب.

جرت أول مداهمة في بداية شهر نيسان/ أبريل. بعد شهرين من وصولنا إلى بير جديد. أرادوا إرهابنا وترويعنا ليس إلاّ. يدير هذا المعسكر بورو. إنه شخص عبوس، يفتقر إلى رهافة الروح، خالٍ من أيّ ذرة إنسانية، يتلقى أوامره من الرباط وينفذها بحذافيرها كلمة كلمة. يصادر الأسطوانات، والكتب، والأجهزة... من حسن حظنا أننا اكتسبنا مهارة في ردة الفعل الحذرة والسريعة.

فيما البعض يشغلون المخازنية يسارع أحدنا إلى الجهاز، وبمنتهى الخفة يسحب الأسطوانات ويخبئها بين فخذيه. المذياع الصغير أخفيناه عن أعينهم بنفس الطريقة، كذلك الكتب المدرسية، والشريط الكهربائي. خلال هذه الإحدى عشرة سنة من الكابوس المتواصل، وصلنا هذا المذياع الصغير بالعالم الخارجي. ربما بدونه ما كنّا لنتمكن من البقاء أحياء.

بعد عدة أيام مضت على تفتيش غرفنا، أتوا يحملون بأيديهم معاول، وأزالوا كل ما من شأنه أن يضفي بعض الحياة على المكان مثل الأزهار، والأشجار.

كنّا، كلّ سنة، في ذكرى عيد ميلاد الملك، نرسل له بطاقة نطلب فيها العفو عنا. في شهر تموز/ يوليو، أرفقنا الرسالة ببعض الصور التي رسمتها بنفسي له، ولولده سيدي محمد، ومحمد الخامس.

لم يتأخر شكره لنا طويلاً، إذ بعد مدة قصيرة، سجننا بورو وزمرته جميعاً في زنزانة رؤوف منذ الصباح وحتى حلول المساء. تناهى إلى أسماعنا ضجيج حطام، وتكسير، وضربات مطرقة. عندما أخرجونا، صدمنا من حجم الأضرار التي أحدثوها. أخذوا كل ما تبقى لنا من بعض المقتنيات الزهيدة، والكتب المدرسية، وألعاب عبد اللطيف، والمواد التموينية، وكل ملابسنا تقريباً، ومصاغ أمي، وألبوم صوري. ثم أضرموا النار في كل هذه الأشياء التي جمعوها، وسمحوا لنا بالاشتراك في حضور المشهد، ما أحدث للصغار صدمة نفسية، أقوى من تلك التي أصابتهم عندما هجم بورو مرة على سكينة يفتشها بعنف، بحثاً عن بطارية المذياع الصغير التي وجدها معها. أصيبت من شدة الصدمة بالحمى التي استمرت عشرة أيام وجعلتها طريحة الفراش.

في صباح اليوم التالي، عادوا مجدداً، أخرجونا إلى الباحة. كان بورو يذرع المكان ذهاباً وإياباً، قال لنا إنه يعرف إلى أية درجة كان الصغار متعلقين بالحمامات. والحق أنها منذ سنوات تدعم معنوياتنا. وأضاف بأن هذه الحمامات إنما خُلقت لتؤكل. لذلك كل يوم سيذبح اثنتين منها. بالرغم من دموعنا وتوسلاتنا، نفذ كلامه، على مدى عدة أيام، كانوا يعودون كل صباح باثنتين مذبوحتين. قررنا تجنيب عبد اللطيف هذا المشهد الفظيع، هذا الطفل الذي بلغ عامه السابع في ٢٧ شباط/ فبراير، نفدت قوته وتلاشت منذ اليوم الثاني لوصولنا إلى بير جديد.

بعد وقت قصير من مجيئنا، حاول الانتحار. كان يمتطي دراجته التي ما زال يحتفظ بها. راح يجري بها في الممر المحاذي لباحة شجر التين. كنت أتحدث مع أمي، عندما لمحته بطرف عيني وهو يقع أرضاً. اندفعنا باتجاهه، وصلنا إليه. كانت نظراته ساهمة، ولا يستطيع أن يقف. فجأة غاب في سبات عميق، أسنده رؤوف تحت إبطه فيما حاولت أنا أن أسقيه كوباً من سائل عشبة الحنة المغلية.

بلغت الهستيريا الجماعية مداها. راحت عاشورا وحليمة تنوحان، وتصرخان وتشدان شعرهما. أعصاب الجميع متشنجة جداً. بالنسبة لأمي، كانت جامدة بلا حراك، كأنّ أحداً ما جردها من قوتها ومن لون وجهها الذي كان غائضاً بلا حياة. كانت لا تستطيع حتى الصراخ أو البكاء.

نجحت في استعادة كمية لا بأس بها من الأدوية التي ابتلعها، من فاليوم وموغادون، التي كانت

أمـي تخبئهـا في علبة صغيرة اسـتعداداً لأي نوبة قـد تصيب ميمي. إنها تحتفظ بها دائـماً معها. لا نعرف كيف تمكنت من الحصول عليها. بعدما أخبـروه بما حصل، جاء بورو، اقترب من سرير عبد اللطيف، حسبه نائماً، هز كتفيه بلامبالاة. لا يستطيع أن يفعل أي شيء بدون إذن الرباط.

ـ ماذا، إذا مات؟ قالت أمي وهي تجهش بالبكاء.

مرة ثانية اكـتفى بهز كتفيه قبل أن ينصرف.

كان عبد اللطيف قوي البنية. لذلك استيقظ دون أي أعراض جانبيـة.

التفسـيرات التي قدمها لنـا، أصابتنا في صميم قلوبنا. لقد ضاق ذرعاً بـكل المرارة التي تنضح من محادثاتنا وحركاتنا وسكناتنا. لا شيء إلّا الهم والغم، والخوف والقلق، والتوتر... منذ نعومة أظفاره لم يعرف عالماً آخر إلّا الجدران، وقضبان السجن.

ـ الحـل إذن هـو أن أضـع حداً لحيـاتي. هكذا فكر برأسـه الصغـير، ولكن بعقل ناضـج، أنضجته المصائب.

إعتقد، لبراءته، أنه بموته سـيخرجنا من هنا، ويضع خاتمة لمعاناتنا وأحزاننا. منذ ذلك اليوم قررنا تجنيبه كل إزعاج قدر الإمكان. لم نعد نتحدث أمامه في أي موضوع يخدش مشاعره وإحساسه، ابتلعنا لوعتنا وألمنا، واخترعنا له عالماً من الأحلام، وجعلناه يعتقد بصحتها.

الجحيم

الخطـوة الأولى التـي اجتزنا بها بوابة الجحيم، صارت في طيات الماضي. منذ تلك اللحظة المشـؤومة رحنا نتقدم، بلا حول ولا قوة، خلال إحدى عشرة سـنة من مرحلة تعذيب إلى أخرى. صمد تماسـكنا العائلي وتلاحمنا أمام هذه الويلات والتحديات. واتحادنا، ومحبتنا المتبادلة لا يعرفان حدوداً. في بـير جديد فرقونا، وبعثرونا، وقضوا على أية خصوصية عائلية. فماذا بعد؟ لقد تجاوزوا ما كنا نعتبره خطاً أحمر.

في البدايـة، كان مسـموحـاً لـنـا بالخـروج جميعاً مع بعضنـا البعـض إلى الباحة. عند السـاعة الثامنة صباحاً، كانت تفتح الزنزنات أبوابها، مما يسـمح لأحدنا بالتوجه فوراً لزيارة الآخر. معظم الأحيان، كان اجتماعنا يتم في زنزانتي. حرية التجول هذه استمرت عدة أشهر، لكنني أنا، ورؤوف، وأمي علمنا مسبقاً بأن العزل سيأتي عاجلاً أم آجلاً، لذلك لا بد من أن نتحضر نفسيا له.

وهكذا وقع ما كنا نخشاه في بداية سنة ١٩٧٨.

في ٣٠ كانون الثاني/ يناير، يوم عيد ميلاد رؤوف العشرين، احتجزوه في زنزانته، وفرضوا عليه العزلة الكاملة. لم يعد له الحق بالخروج أو برؤيتنا. لاحقاً بعد عدة أيام أتى دورنا، بحجة أننا تجرأنا وطالبنا بزيادة عدد قوارير الغاز الصغيرة لأننا كدنا نموت من شدة البرد. نجت حليمة وعاشورا فقط من هذه الإجراءات التعسفية. سمحوا لها بالخروج من الزنزانة مرة واحدة في النهار، وبالتقاط الأوراق المتساقطة وتجميعها لتلقيم الكانون بها طلباً للدفء.

بعدما فرقوا بيننا نهائياً، كان بإمكاننا الخروج إلى الباحة لاستنشاق بعض الهواء في أوقات مختلفة. تخرج أمي من الصباح وحتى الساعة العاشرة، ثم يأتي دورنا بعدها مباشرة.

خلالها كنت أتسمر تحت نافذة رؤوف الذي كان يطل عليّ من خلف القضبان، ونروح نثرثر في العموميات. كان يحتكر الحديث، وعنده حاجة ماسة للتعبير عن لواعجه، وأفكاره. لقد كان العزل خنجراً حاداً في خاصرته. محادثاتنا غالباً ما كانت تدور حول أبي، ورغبته بالثأر له. كان مهووساً بهذه الفكرة. ولكن، سرعان ما لبثوا أن منعونا حتى من هذه الفسحات.

صرنا سجناء ليلاً نهاراً، أقاموا الحواجز بيننا، منعونا من أي اتصال، وأخذت معاملتهم تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، انتزعوا منّا بصيص الضوء الأخير، حرمونا من تواصلنا ولقائنا العائلي، أصبحنا مجرد أرقام ليس إلّا. أضحت الزنزانة عالمنا النهائي المفروض ومقرنا الوحيد الإجباري. حتى مقاييس الزمن تغيرت، لم يعد هنالك أي قيمة للوقت. إنها مرحلة الفراغ والعدم.

كانت حملتهم الشعواء مركزة على رؤوف، وأمي، وعليّ. أرادوا تحطيمنا أولاً وكسر شوكتنا بالكامل. أمي لأنها زوجة الرجل الذي يكرهونه. أنا، لأنهم يعرفون تأثيري الكبير على أفراد العائلة في أمور الحل والربط. أما رؤوف، فلأنه ابن أبيه، وأنه ربما سينتقم له من جلاديه. في أذهانهم فكرة واحدة، ألا وهي كيف يحولون بينه وبين ذلك. كان رؤوف أكثرنا معاناة واضطهاداً. لقد ذاق الأمرين.

صدر تعميم منع بموجبه الحراس والمخازنية من معاملتنا بأي رأفة أو إنسانية. وأوعز إليهم باستخدام أكثر درجات التضييق والإرهاب. فكان أن مورست علينا سياسة القبضة الحديدية بأبشع صورها.

عشت حالة من الرعب اليومي، كنت أموت خوفاً من أن يقتلوني أو يعذبوني جسدياً، أو يغتصبوني، أو أن يضاعفوا من إذلالهم وتعنتهم. كم كنت أشعر بالخزي والعار، لأنني تركت الخوف يتسلل إلى قلبي ويقهرني.

لم نتعرض أبداً لأي اعتداء جسدي، باستثناء رؤوف الذي صبّوا عليه جام غضبهم وحقدهم. لقد تعرضت مرة واحدة إلى لكمة على وجهي لأنني تجرأت على تحدّي أحد الضباط، مما أوقعني أرضاً، فارتطم رأسي بأرض الممر الصلبة. كانت الصدمة عنيفة، هُرعت الفتيات إليّ وتدافعن نحوي، وهن في حالة من الهلع. لملمت نفسي بسرعة كي لا أزيد من لوعتهن، ورحت أهدىء من روعهن مدعية أنني فقدت توازني فوقعت، وأنني بخير ولم أصب بأذى. أخفيت عنهن الحقيقة المرة، ولكن ليس لوقت طويل، لأنني عدت ورويت لهن بنفسي ما حصل، لكنني رجوتهن ألا ينبسن ببنت شفة لأمي. كنت أشعر بالذل، ولمت نفسي كثيراً.

الرجل المرعب لم يكن هذه المرة بورو بل الكولونيل بن عيش... أحد ضباط الملك، وهو الذي قلب حياتنا في تامتاغت رأساً على عقب. كانت مهمته أن يجعل حياتنا جحيماً. فهو الذي أعطى الأمر بذبح الحمامات، وهو الذي حرمنا من الغذاء. نادراً ما كنا نراه. كنا نعرف بقدومه عندما نسمع هدير الطائرة المروحية التي تحلق في السماء، أو من حركة المخازنية والحراس التي تصبح غير عادية. مع الأيام بدأ يتكشف تدريجياً بأننا كنا تحت رحمة مخطط إجرامي يستهدف تعذيبنا والإجهاز علينا. لم نكن سجناء فحسب. الأمر أبعد من ذلك، لأن المطلوب هو تفريغنا من محتوانا، وتحويلنا إلى أشكال بشرية شوهاء. لكن عروقنا ظلت نابضة، فبالرغم من أننا كنا الضحية، إلّا أننا لم نستسلم أبداً، وحاولنا قلب الطاولة على جلادينا بوسائل بدائية فطرية زودنا بها ربّ السماء. غريزة البقاء كانت في أوجها، وتملي علينا أفكاراً وفنوناً، كي نصمد، ونستمر.

حاولنا أن نستخدم معهم فن المناورة والمراوغة، لكن لم يكن النجاح حليفنا دائماً. مع بن عيش كان الأمر مستحيلاً، ومع بورو كان صعباً إلى حد ما، إذ لا شيء يردعه. كان ينفذ الأوامر كرجل آلي، فلو طلب منه قتلنا بالسلاح الأبيض لفعل دون تردد أو إبطاء. لكن المخازنية، وإن كانوا قساة القلب، مجردين من إنسانيتهم، إلّا أنهم كانوا أغبياء، ومن السهل زعزعتهم. وفي مطلق الأحوال، كانت المقاومة هي خيارنا النهائي والوحيد، ولا بد منها.

مرة واحدة كل شهر، كانوا يزودوننا بحمل من الحطب للمطبخ. بعد فتح الباب المصفح، كانوا ينادونني بخشونة، وبأعلى صوتهم، مما يبعث الرعب في قلبي. أتحرك باتجاههم، وأقف عند عتبة الباب، لم يكن لي الحق باجتيازه. عندها أروح أرفرف بعيني، يبهرني الضوء المتسلل من فتحة الباب. أتخطاه بعد أن يبعثروا أرضاً قطع الحطب، كانوا يأمرونني بلملمتها وتجميعها.

في البداية، كان الحطب عبارة عن غصون طويلة، تبلغ زهاء متر ونصف المتر. بلا اكتراث، كنت أتباطأ في فرزها، وأعطي الأكثر طولاً منها إلى الفتيات. اقترح علينا رؤوف الاحتفاظ بها، وتخبئتها جيداً في تجويف موجود في مكان مرتفع من الحائط داخل زنزانتنا، تحسباً لعملية هروب محتملة.

إنها تصلح كدعامات في تشييد نفق. بعد ثلاثة أشهر من ذلك، توقف الحراس عن تزويدنا إلّا بقطع الحطب الصغيرة. يبدو أنهم تكهنوا بما يدور في رؤوسنا.

أطلقنا على أضخم عملية في مقاومتنا تسمية «الإعداد والتجهيز»، تلك العملية أدت إلى كسر الطوق الذي كان محكماً من حولنا، فقد أزلنا بعض الحواجز الأساسية التي كانت تعيق حركة التواصل بيننا وتمنعها، إذ نجح رؤوف بنزع بلاطة من تحت سريره بمساعدة ملعقة وسكين. حيث أخفى داخلها، مذياعنا «المنقذ، المخلص»، بعد ما غلفه بمنديل قديم، لحمايته من الرطوبة. في الليل، كان يخرجه، ليستعين به على وحدته المدمرة. ثم راودته فكرة أن يستخدم الميكرفونات وشريط المسجل الكهربائي لتمديد شبكة توصل من زنزانة لأخرى.

لجأنا إلى استعمال قضبان السرير المعدنية بدل الموصل، كل ليلة كنت والفتيات ننتزع قضبان أسرتنا ونربطها ببعضها البعض بشكل مستقيم بهدف مدّها عبر ثغرات موجودة في الجدران. كان من المفترض أن يمتدّ خطّ القضبان من زنزانتنا ليصل إلى زنزانة حليمة وعاشورا، ولكن للأسف كان الطول غير كافٍ وبالكاد وصل إلى نصف المسافة المطلوبة.

وجد رؤوف حلاً يقضي بوصله بشريط مكبرات الصوت الكهربائي، ومن ثم بالميكرفون الذي يمتلكه. فعلت الشيء نفسه من جهتي. أدوات الوصل كانت كناية عن أشرطة رفيعة من الفولاذ، حصلت عليها من الطبقة الثانية من التشبيك الذي كان يمر من فوق باب زنزانتنا المصفح. ثم كنا نلفها حول السالب والموجب لميكرفوناتنا. أثناء البث، غالباً ما كان يجب تبديل الأشرطة الحديدية التي كانت تنقطع، ما عدا ذلك، كان الصوت ينبعث إلى حد ما بوضوح.

عندما يبدأ برنامج إذاعي يثير اهتمام رؤوف، كان يعاجل وصل الميكروفونات بالكهرباء، كي يصل صوت البث الإذاعي إلى أسماعنا. أمي وعبد اللطيف صارا أيضاً يستفيدان من الأمر. كنت أستعين بطرف أنبوب ماء كنت قد نشلته من الباحة، مستغلة تحول أنظار الحراس عني. أنجزت به خط «تلفون» كان يخترق الحائط المشترك بيننا. خلال النهار كنت أخفيه في سرير ميمي. كان الحراس لا يتجرؤون على الاقتراب منها، وتفتيشه، بسبب نوبات الصرع التي كانت تنتابها مما كان يرهب هذه النفوس المريضة. كانوا يعتقدون أن الجن يتلبسها.

بواسطة هذه الوسائل الشحيحة والبدائية، ولكن الفاعلة، تمكنّا من التواصل مع بعضنا البعض طوال الليالي. كان الأثر سحرياً عندما كانت أصوات جوزيه آرتير أو غونزاغ سان-بري تخترق الجدران، وترافقنا في وحدتنا، وكأنهم يجلسون إلى جانبنا. كم كنا نستمتع بذلك. لاحقاً، صرت كل ليلة أسرد لهم حكاية بواسطة الوسيلة نفسها.

لقد قمت بتطوير الاختراع على الوجه التالي: تخليت عن قضبان الأسرّة، فهي ثقيلة الوزن، ومن الصعب التحكم بها. استعضت عنها برفاصات انتزعتها من حقائبنا، دون أن أغير شيئاً في المبدأ المتبع.

في المساء، ما إن يدير الحراس المحرك الكهربائي، حتى كنا نستغل الضوضاء كي نقوم بالتمديدات. نخرج القضبان، ونمررها من زنزانة لأخرى. خفف نظام الاتصال الذي اخترعناه من وطأة الكابوس الذي كان يجثم فوق صدورنا. لن يكتشفوه أبداً، لأننا كنا دائماً نخبىء الميكروفونات بين أفخاذنا.

في النهاية، لم يتبق منها إلّا واحد، لم تتلفه الرطوبة، وكنت أحتفظ به في حوزتي. كان بمثابة طوق نجاة لأخي رؤوف، وصلتنا الوحيدة. حفاة الأقدام، بأثواب رثة، كنا نرتعد من شدة البرد شتاء، ونختنق من حدة الحر صيفاً. لم يعد لدينا ممرضة، ولا أدوية، انتزعوا منّا الساعات، والكتب، والأقلام، والأشرطة، وألعاب الصغار. كان لا بد لنا من الاستجداء والتسول، كي ننال بركات وحسنات السجانين. كنا نستخدم، بحرص شديد، قلماً وحيداً لا نملك غيره ونوفره للحالات الطارئة. كذلك كنا نستهلك البطاريات بحيث كانت تخدمنا عدة أشهر، نجحنا بالحصول عليها بواسطة رجل كبير السن، كان يعرف أحد أعمامي الذي كان وجيهاً في منطقته.

أوقاتنا كان يقسمها الحراس. كانوا يدخلون إلى زنزاناتنا ثلاث مرات يومياً، عند الصباح يحضرون

لنا وجبة الطعام، وعند الظهر يحضرون لنا الخبز. حوالى الساعة الثامنة والنصف يأتوننا بفطور الصباح الذي تكون عاشورا قد حضّرته في بهو زنزانتها، وهو كناية عن قهوة ممزوجة بدقيق الحمص، ولكن كان يبدو كالماء الساخن لا طعم له ولا رائحة. كنا نعرف بقدومهم من حركة المفتاح في قفل الباب، ومن خشخشة مفاتيحهم. كان حضورهم يرهبنا، لأن الخوف يتملكنا من أن يكتشفوا أمر المذياع، أو البطاريات، أو الثقوب المحفورة في الجدران.

إذا صدف مرة أن تزامن فتح باب زنزانتي مع زنزانة أمي، التي تقع في المقابل، كنت أتعمد وإياها التواجد في تلك اللحظة بالقرب من الباب كي نتمكن من إلقاء نظرة خاطفة على بعضنا البعض. كانت تخطر لنا مثل هذه الأفكار في لحظة وبدون تخطيط مسبق.

عند الظهر تقريباً، كنا نسمع صوت الصفير الذي كان يعلن عن وصول الشاحنة التي تحمل الخبز. ثم عند السابعة والنصف، كانوا يعودون مجدداً لإحضار وجبة المساء التي كانوا يضعونها أرضاً بالقرب من الباب.

كانوا يبذلون ما بوسعهم كي يشعرونا بأننا سجناء حقيرون، في زنزاناتهم البائسة. أما المراقبة فقد كانت مستمرة، ساعة بساعة، وليلاً نهاراً. عندما كنا ندفن وجوهنا في الشّباك علنا نلمح السماء، كنا لا نقع إلّا على نظراتهم العابسة التي تطالعنا من برج المراقبة، الذي كان يعمل على مدار الساعة.

في الأشهر الأولى، حاولنا أن نضع برنامجاً يومياً قدر الإمكان لتحركاتنا، ونقضي به على شعورنا بالملل. في الصباح، كنت ألعب مع أخواتي «الكرة الطائرة» في «صالة الرياضة»، صنعنا طابة من قصاصات المحارم، وبحسب مزاجنا كنا نتبعها بجلسة تمارين رياضية، نذهب بعدها للاستحمام ونحن نتصبب عرقاً، ويأخذنا التعب. عندما شبّت سكينة، بدت عليها آثار السمنة، وظهرت بعض المؤشرات على أنها من النوع الذي يختزن الوزن بسهولة. كنت أقلل لها من كميات الطعام، وأجبرها على الرياضة، كي لا تتمادى أكثر في إهمال نفسها.

لاحقاً، توقفنا نهائياً عن القيام بالرياضة البدنية، لم تعد أجسادنا تطيعنا، مللنا كل شيء، ولم يعد هنالك ما يثير اهتمامنا. كانت الأيام تمر ببطء لا ينتهي. عدوّنا الرئيسي كان الوقت، كنا نراه، ونشم رائحته، ونشعر به ونلمسه لمس اليد. إنه وحش مخيف وخطير. كم كان يصعب علينا ترويضه. خلال النهار، كان يكفينا أن نتنسم بعض الأثير المتسلل من الكوة كي نتذكر أنهم دفنونا أحياء في هذا القبر.

غسق الصيف يذكّرني بحلاوة تلك الأيام الخوالي. يحملني إلى شاطىء البحر حيث كنت أملأ رئتي بعبق رائحته المنعشة، وأتسكع على رماله الناعمة بقدمين عاريتين، وأملأ عيني ببريق زرقته، وأرمي نفسي في أحضانه، ثواني معدودات، أغيب لأعود بعدها أكثر يأساً وألماً. تلك الذكريات لم تعد تحمل لي السلوى والعزاء بقدر ما باتت تجلدني وتكويني. كل الأيام والساعات باتت متساوية متشابهة. لا نفعل فيها شيئاً مهمّاً وذا بال.

أحياناً كنا نتابع بنظراتنا تحركات الصراصير الكثيرة وهي تنتقل من زاوية إلى أخرى. أصبحنا جثثاً متحركة خالية من الروح. نعرف أن النهار قد ولى من تغير الضوء. لقد كان احتضاراً بطيئاً لا يعرف قراراً. لكن الموت ما زال بعيد المنال. وكلما لاحت طلائعه، عاد واختفى. حتى الموت أصبح ضنيناً. فهو الآخر يمارس ساديته وعنجهيته علينا بهذه المتعة. إنه لا يرغب بنا ولا يريدنا. أما لعذابنا أن ينتهي ولمعاناتنا أن تحط رحالها. كان الصمت يزحف علينا وينهشنا بأنيابه، دون أن يجهز بالكامل علينا. كان يسرّه التشفّي بنا، والتلذّذ برؤيتنا نتألم، ويرضي غروره أن يرى في أعيننا الرعب والخوف... كم كان يثور ويغضب من وقع خطى الحراس، وخشخشة مفاتيحهم، وصفير الريح، وحفيف النخيل، وزقزقة العصافير... كانت هذه الأصوات تكدّر صفوه وهناءه وتعكر عليه انسجامه وهو يتفنن في ترويعنا وتعذيبنا.

فقدت الأشياء دلالتها واختلطت الصور والأشكال والأصوات. نسينا الضجيج في المدن، والأزقة، والساحات. نسينا حركة مرور السيارات، وتدفق البشر وتدافعهم في الشوارع، وتجمعهم في الأماكن العامة والمقاهي، نسينا كيف يتحدثون، ويتسامرون، ويضحكون، كيف يعملون ويخططون وينجحون، كيف يحبون ويحلمون ويتزوجون. تبلدت أحاسيسنا وتخدرت، كمريض خرج لتوه من غرفة الجراحة، وما زال تحت تأثير البنج.

كانت ميمي هي الوحيدة بيننا التي كانت تتمتع بقدرة خارقة على تحديد الوقت. كان يكفي أن تحملق في الشعاع الذي كان يجد طريقه إلينا بخفر وحياء من الكوة المرتفعة في الجدار. ما إن نتساءل بصوت مرتفع: ترى كم الساعة الآن؟ حتى تبعد عن وجهها الغطاء الذي تتدثر به وهي مستلقية في سريرها، بعد أن تلقي نظرة عابرة على أشعة الضوء، وتجيب على الفور:

ـ إنها الثالثة وعشر دقائق تماماً.

كنا نكتشف لاحقاً أنها أصابت كما في كل مرة، فهي لم تكن تخطىء في التوقيت.

في كل شهر، كانوا يتكرمون علينا بعلبة تايد، كنا نستعملها للغسيل، والجلي، والتنظيف، وغسل وجوهنا أيضاً. أما أسناننا فكنا نفركها بالملح. قبلاً كنا نفعل هذا بالتراب الذي كنا نستخدمه أحياناً لجلي الصحون. ولكن في أحد الأيام استيقظ عبد اللطيف صباحاً بفم متورم، أزرق اللون، وبلسان ممتلىء بالبقع البيضاء، ما جعلنا نقلع جميعاً عن هذه العادة واستبدلناها بالملح.

أحياناً، ما إن يفتح الحراس باب الزنزانة حتى أتوجه مباشرة إلى حنفية الماء البارد الموجودة في الحائط المقابل لنا لكي أغسل شعري بمسحوق التايد. كانت رغوته تتناثر في كل مكان... كان لدى المخازنية قناعة تامة بأن شعرنا كث وجميل لهذا السبب. سمعت مرة واحداً يقول للآخر:

ـ إن شعرها ساحر. أنا أيضاً جربت غسل رأسي بنفس المسحوق، غير أن النتيجة كانت مريعة ومخيبة للآمال.

على أي حال لقد وقانا الاستحمام بمسحوق التايد من الصلع والأمراض الجلدية.

لم نكن نغير ملابسنا أبداً. هي نفسها دائماً، ملابس القتال، كما كنا نطلق عليها. كانت أمي تخيط لنا من ملابسنا القديمة ومن الشراشف التي تغطي فرش الأسرة الإسفنجية سراويل بأحزمة مطاطية. كانت تتعمّد ألا تسلمنا إياها قبل أن تنهي خياطتها جميعها كي توزعها علينا نحن السبعة في نفس اللحظة. ربما كانت هذه طريقتها لإخبارنا بأنها تحبنا بالتساوي، ولا تفرق بيننا. عادة ما كانت العادة الشهرية تباغتنا جميعاً في نفس الوقت تقريباً.كانوا لا يحضرون لنا القطن، ولا الفوط الصحية. كنا نستعيض عنها بمناشف الحمام المهترئة لكثرة ما استعملت. نضعها بعد أن نطويها عدة طيات. ثم بعد ذلك كنا نرسلها لحليمة كي تغليها وتغسلها. كنا نباعد ما بين سيقاننا ريثما تجف تلك الخرق المبلّلة كي نستعملها مجدداً.

كانت حرمتنا منتهكة، وخصوصيتنا مغتصبة، كانوا يحصون علينا أنفاسنا. نعيش تحت رحمة أنظارهم. نغتسل، ونذهب إلى الحمام، ونتأوه من الألم، ونرتعش من الحمى... كل هذا تتقاسمه معهم... الليل وحده كان يلفنا بغلالته السوداء ويسترنا من نظراتهم الفتاكة. عندها كنا نستسلم صاغرين لأحزاننا التي تجتاحنا كالسيل الجارف، فنبكي ونبكي حتى تجف دموعنا.

كانت حالة التفاهم والانسجام تسود بيننا اللهم إلّا في بعض الأحيان حيث كان الفتيات

يتخاصمن فيما بينهن. وكنت أنا دائماً بيضة القبان، ومشتكى الضيم، والحكم.

كنت بمثابة أم لهن. علّمتهنّ الثقافة، والتهذيب والعلم، وآداب السلوك، واحترام الآخرين. تابعتهن منذ البداية بنفسي. هنا، أو في بير جديد، في سجن الأشغال الشاقة، لم أكن لأسمح لهن بأي عبث واستهتار، أو تجاوز للقواعد والأصول. كنت أصرّ على التقيد بآداب الطعام أثناء تناول الوجبة: غسل اليدين، المضغ بتأنٍّ وروية، الجلوس المستقيم، وعدم إهمال عبارات شكراً، من فضلك، معذرة...

وفي موضوع النظافة لم أكن لأسمح بأي تساهل أو تهاون. كنت أصر على أن نعتني بنظافتنا كل يوم، على أكمل وجه، حتى في أيام الدورة الشهرية، بالرغم من أن الماء الذي يوزعونه علينا في عز الشتاء كان قارساً ومتسخاً، وكانت ملامسته تبعث الرجفة في أبداننا، فنشهق، وتحمرّ بشراتنا. فما تعلمته في القصر التصق في جلدي إلى الأبد. عندما كان رؤوف يريد أن يسخر مني، كان يقلد لهجة المربية ريفل وهو يخاطبني، سيّان عندي لأنني لم أكن أبالي. بالطبع لا شك أن الروح تترك أثرها على الجسد، والجسد بدوره يؤثر عليها. هذه العلاقة بينهما لا يمكن تجاهلها. كنت أتشدد في موضوع النظافة البدنية لسببين اثنين: أولاً كي نرفع من روحنا المعنوية، لنتمكن من التصدي والمقاومة. وثانياً: كي لا نفقد إنسانيتنا بالكامل، ونتحول إلى مسوخ بشرية.

حاولت مرة أن أدسّ أنفي في شؤون لم أكن لأكترث بها عادة. أردت أن أتسلى من جهة، وأن أجرب هذا النوع من الاهتمامات التي كانت تستهوي الكثير من النساء من جهة أخرى. قررت أن أعتني بجمالي. وما شجعني على ذلك أن أمي كانت قد أفشت لي سرّ جمال المرأة البربرية، قالت لي بأنها تضع قناعاً لوجهها من معجون التمر. أثره فعال، يرطب البشرة وينقيها من الشوائب، ويبعد عنها التجاعيد. تحمست للفكرة وقررت تنفيذها، خصوصاً أنهم كانوا في شهر رمضان يضيفون إلى الوجبة بضع حبات من التمر. جمعتها وعجنتها بعد أن رطبتها بالبخار كما تقتضي الوصفة، ثم دهنت بها وجهي وأخلدت إلى النوم. النتيجة كانت تثير الضحك، أتت الفئران ليلاً، وأخذت تلعق التمر عن وجهي، لقد كانت محظوظة، إذ وجدت وجبة جاهزة ولذيذة بانتظارها. أما البشرة فلم يزدد رونقها ولم ينقص، بقيت على حالها.

كنا نقصّ شعرنا بمقص صغير كانت أمي تحتفظ به لخياطة ملابسنا بعلمهم، وبإذن مسبق منهم.

كان أخي رؤوف قلقاً لأن لحيته لم تنبت بعد مما جعله موضع سخريتنا وتعليقاتنا. فيما بعد، راحت تنمو ولكن ببطء، ثم ما لبث أن صارت غزيرة مما أرضى رجولته الهلعة وأسكن روعها. بالإضافة إلى أن هذا وضع حداً لغمزنا ولمزنا وللشكوك التي كنا نثيرها من حوله لمناكفته ومداعبته. لقد بدا متأكداً من نفسه وهو يقول في إحدى المرات: لن أحلقها إلّا في الوقت المناسب، لأن هذا سيكون مؤشراً على قرب موعد خروجنا من السجن. وفعلاً هذا ما حصل. لقد طلب من السجانين في صباح أحد الأيام أن يحلقوا له لحيته. ولإقناعهم لعب على وتر رجولتهم الحساس، اشتكى لهم قائلاً:

ـ أنا رجل، ولا يمكنني البقاء في هذه الصورة.

اصطحبوه إلى الباحة حيث أجلسوه، وأزالوها له. وبعد انقضاء شهر أفلتنا من براثن السجن. وهكذا تبين أن جملة رؤوف التي قذفها عبثاً أصبحت نبوءة.

الجوع

تباً للجوع، وسحقاً له! كم يذلّ الإنسان ويحطّ من قدره. إنه ينسيك أهلك، وعائلتك، وأصدقاءك، ويجردك من كل قيمك ومبادئك. وينتزع منك كرامتك وإنسانيتك. إذ يحولك إلى وحش بشري لا يأتمر إلّا بغريزته. وهذا ما أصابنا نحن. لقد كنا نرزح دائماً تحت نير الجوع الدائم. ولم نشعر يوماً بالشبع. أما التخمة فقد امّحت منذ زمن سحيق من قاموس تداولنا. نحن بالكاد نجد ما نسد به الرمق.

مرة واحدة كل خمسة عشر يوماً، كان بعض المخازنية يضعون لنا بعض المواد التموينية في زنزانة عاشورا التي كانت تتولى بنفسها طبخ وجبة الطعام لنا جميعاً. بعد أن تنتهي من إعدادها كانت تناولنا الكمية الضئيلة الخاصة بنا من فجوة صغيرة في الحائط المشترك الذي كنا قد حفرناه بيننا. كان عليها أن تتولّى أمرها جيداً وتعمل ما بوسعها كي تتمكن بهذه الكمية المحدودة من أن تطعم تسعة أشخاص يومياً، وعلى مدى خمسة عشر يوماً، حتى يحين موعد التسليم الجديد. لقد كانت هذه المهمة صعبة وشبه مستحيلة. كانت هذه المواد الهزيلة لا تشتمل على الحليب، والفاكهة. فقط بعض حبات تمر ضامرة، وحبّات ليمون عفنة كانوا يضيفونها إلى القائمة من وقت لآخر. بالإضافة إلى بعض الخضار المهترئة الذابلة، وكأسين من الطحين، وقليل من الحمص والعدس، واثنتي عشرة بيضة فاسدة، وقطعة لحم هزيلة، وبعض قطع السكر، وليتر من الزيت شهرياً، وعلبة من مسحوق التنظيف. هذا

كل ما كنا نحصل عليه فقط. لم يكن لنا مجال للتفريط بذرّة واحدة من هذه المواد بما فيها الفاسدة ومع هذا، وفي أحيان كثيرة، كان معيننا ينضب قبل موعد تسليم الحصة الغذائية الأخرى.

طوال سني عمري لم تقع عيناي على خضار في حالة مقرفة شبيهة، وما كنت لأتصوّر لحظة واحدة أن بإمكاننا أن نقترب منها أو نتذوقها. كان الجزر أخضر اللون بجذور طويلة وسميكة. والباذنجان أزرق اللون، رخواً وليناً كالكريما. كانت عاشورا تحضر به طبقاً أسماه الصغار بـ«الطاجين الياباني». كان العدس مليئاً بالسوس الذي يطفو على سطح الماء.

لكثرة ما كانت الطبخة تترك فوق النار، كانت تفقد بعضاً من مذاقها الحاد والمنفّر. إنه مقزز ومع هذا كنا نتسابق فيما بيننا على اختطافه والتهامه، إن مشاكلنا الهضمية كانت طفيفة قياساً مع مشاكلنا الصحية الأخرى. يبدو أن أجسامنا اعتادت على الميكروب وقلة النظافة. بدلاً من العصير كنا نتجرع الماء العكر والملوث.

إكتشفت أن عاشورا وحليمة كانتا تقومان بعملية سطو منظم على المواد الغذائية التي كنا نودعها في حوزتهما. كانتا تقتطعان بعضاً من الخبز والسكر لنفسيهما دون سائر المساجين. في كل مرة كنت أضرب أخماسي بأسداسي وأعيد حساباتي علّي أقع على سر هذا اللغز المحير. لقد نضبت المواد بسرعة البرق فما الذي يحصل؟ عندما كنت أتساءل أمامهما بصوت مرتفع كانت إجابتهما دائماً بنفس النغمة:

ـ إنها الجرذان... إنها الفئران... لقد فسدت وأتلفت...

لكنني علمت أنهما غير صادقتين، وفقدت ثقتي بهما، قررت أن أتولى إدارة المواد التموينية بنفسي. فصرت أنتزعها منهما وأصادرها مباشرة بعد حصولنا عليها. أخذت أضعها في الغرفة الصغيرة، أما الخبز فقد كنت أخبئه داخل الحقيبة. كنت أريد الاقتصاد في الاستهلاك قدر الإمكان كي لا تفرغ جعبتنا قبل أن نحصل على البديل.

يومياً، كان يلزمنا قليل من السكر لقهوتنا الممزوجة بالحليب، بالإضافة إلى فطور خفيف للصبيان حوالى الحادية عشرة والنصف، لا سيما عبد اللطيف الذي كان في طور النمو ويحتاج إلى الطعام. نحن الفتيات، كنا نكتفي بالقهوة والحليب صباحاً ولا نزيد عليها شيئاً طوال النهار بانتظار وجبة العشاء التي تحتوي على قليل من الخضار. في الصيف لم نكن نشعر ألبتة بالجوع بسبب شدة الحر من جهة، ولأننا كنا معتادات على هذا النظام التجويعي من جهة أخرى. في الشتاء، كانت معدتنا تصرخ من شدة

الجوع إلّا أننا لم نكن نصغي إليها.

في المساء، كنت أزوّد عاشورا بالمواد اللازمة كي تحضر الطاجين فوق الكانون، بعدها تقسم الكمية إلى تسع حصص على عددنا جميعاً. نفس المشهد كان يعاد دائماً. الطباخة الماهرة لعائلة أوفقير كانت من خلف الحائط تجهش بالبكاء قائلة:

ـ ولكن يا كيكا كيف تريدينني أن أطعم الجميع بهذه الكمية الزهيدة؟

لم تكن دموعها لتؤثر بي. كنت حازمة وبلا شفقة. للصمود حتى آخر الشهر، كان لا بد من إدارة حكيمة.

في فصل الربيع، كنا نقتات نباتاً برياً يشبه الهندباء، كانت تقتلعه حليمة من تربة الباحة وتسلمني إياه كي أغليه. أضيف إليه الثوم، وزيت الزيتون، ثم أحشو السندويشات بهذا الخليط. لقد اخترعت طبخات من وحي القلة والعوز. في الشتاء كنت أعدّ وجبة مؤلفة من كوب صغير من الطحين، والسميد، والحمص المطحون، أضع المزيج في الوعاء وأضيف عليه بعض الزيت والسكر، وأسكبه في أكواب، وأوزعه على الجميع. القهوة التي كنا نحصل عليها كانت من النوع الرديء، أما الشاي فقد كنا نوهم أنفسنا بشربه، إذ كنا نسكب الماء الساخن فوق عرق النعناع المستهلك لكثرة ما استعمل على مدار عدة أيام.

كل يومين، كان الحراس يحضرون لنا الخبز في أوعية كرتونية، كنا نفرغها أرضاً من محتوياتها ونبدأ بتفكيك ثناياها المطوية. كانت تفيدنا لتدوين القصص التي كنت أرويها. كان هذا الكرتون بأهمية الغذاء وبقيمته بالنسبة لنا.

في أحد الأيام، بينما كنت منهمكة كالعادة بتفكيك القطع الكرتونية، لمحت الفتيات وهن على أربع يلحسن فتات الخبز اللاصق بزواياه. منذ تلك اللحظة وضعت قانوناً لهن يقضي بتخصيص يوم لكل واحدة منهن لفعل ذلك بانتظار أن يأتي دور الأخرى في يوم آخر، وهكذا دواليك، بدلاً من أن يتقاتلن كالكلاب المهتاجة.

لم نعرف أثناء احتجازنا في بير جديد ماذا يعني البيض الطبيعي. كانت القشرة الخارجية خضراء اللون، وفي داخلها سائل أسود اللون أيضاً تنبعث منه رائحة كريهة تشمئز منها النفس. كنت أضعها في وعاء بعد أن أكسرها، وأتركها طوال الليل لتهوئتها، وفي الصباح كنت أخفقها مع قليل من السكر.

أغمس قطع الخبز في المزيج ثم أقليها بالزيت. وتصبح جاهزة للتوزيع، ما إن تزول الرائحة حتى تعم البهجة والسرور من زنزانة إلى أخرى. مزجها بالخبز أضاع طعمها الرديء إلى حد ما. وأصبح بإمكاننا ازدرادها كي نسدّ بها جوعنا.

بتنا خبراء في فنّ التوفير والتدبير. لم نأنف من التهام الخبز المبلل ببول الفئران وقذاراتها. كانت تجوب الزنزانة من زاوية لأخرى طوال الليل. وكأن ميمي ما زالت ماثلة أمام عيني وهي جالسة في سريرها تنظف قطعة الخبز بأطراف أصابعها من بعر الفأرة الأسود، ثم تضعها في فمها. كل ما لدينا من خبز كان دائماً ممهوراً بقرض الفئران.

كي نخفف من استعمال موادنا التموينية، كنا نلتقط ثمر التين المتساقط من الشجر المزروع في الباحة. في السنة الأولى، عندما كان ما زال يحق لنا الخروج من الزنزانة، كنا نجمع كمية كبيرة منه ونكدسها لوقت الحاجة. كانت عاشورا تصنع منه طبقاً من السلطة وتضيف إليه بعض المُطيّبات. عندما أجبرنا على التزام أماكننا باتت حليمة تقوم بالتقاطه بمفردها.

عندما لاحظ الحراس مبلغ اهتمامنا بهذا التين باتوا يحرصون على إسقاطه من الشجرة، ثم يدخلون إلينا ويبدؤون بالتهامه أمام أعيننا. لذا لم يكن يتبقى لنا إلّا بعض الفاكهة المهترئة أو الجافة. بالرغم من ذلك كنا نحمد اللّه على أننا كنا على الأقل نجد ما يجنبنا الموت من الجوع.

كم كنا نلهث خلف الفتات، نأكل، نلحس، نمسح، لا نبقي ولا نذر. إذا فرغ أحد من حصته قبل الآخر كنا لا نتوانى عن التهام ما بيده من طعام بعيون الحسد.

لقد ساهم حسن التصرف والتدبير بشد أزرنا ومنعنا من الاختصام فيما بيننا. كم كنا نتلذذ بأحلام اليقظة التي كانت تدور حول قطعة من اللحم. وكم كان يسيل لعابنا عندما تتسلل إلى أنوفنا رائحة الطاجين المخصص للحراس. أصبحنا مهووسين بالطعام الذي بتنا نفكر فيه ليلاً نهاراً. كم كنا نحتقر أنفسنا ونخجل من تصرفاتنا التي انحطت إلى هذا الدرك الوضيع.

ميمي، التي كانت أكثرنا ضعفاً وهشاشة، لم تكن تتردد في سرقة بعض حبوب الفول خلسة، لتمضغها سراً وهي تخبيء رأسها تحت الغطاء ممددة في سريرها. كنا نلقبها «ميمي الخبازة» لأنها كانت تعشق الطحين والخبز. وحتى عندما كنا نمارس لعبتنا المفضلة التي تقول: «معك أربعون دقيقة من الحرية لتفعل خلالها ما تشاء»، كانت تسارع للإجابة:

ـ أقف أمام الفرن، ألتهم ما يحلو لي من الخبز، ثم أطناناً من قطع الكاتو.

أما رؤوف فقد كان يود مضاجعة كل امرأة تمر أمامه. أما أنا فكنت أتوق إلى إفراغ مكتبة بكاملها من محتواها، أو على الأقل أن أحمل أكبر قدر من الكتب. ثم أتنهد وأضيف: وأمارس الحب مع رجل أقابله صدفة كي يتسنى لي أن أختبر هذا الأمر.

أما الصغار فقد كانوا يحلمون بالألعاب.

كان الميلاد عيداً مقدساً لدى عائلتنا. حتى في القصر، حيث تُراعى المظاهر الإسلامية، كان للميلاد موقعه المميز وسحره. لكن مع الأسف واقع التقنين الغذائي المفروض كان يمنعنا من الاحتفال به كما يجب، كذلك الحال بالنسبة إلى أعياد ميلادنا. كنا نستعد لمجيئه قبل أشهر، حيث كنا نقتصد ونشد أحزمتنا كي نتمكن من تحضير قالب من الحلوى. كنا نقتصد في كمية المواد المستهلكة ونحرم أنفسنا من البيض والسكر لتأمين المقادير اللازمة. ولكننا كنا نعوض هذا الحرمان في يوم العيد حيث كان كل واحد منا ينال قطعة كبيرة. كان الحراس يتولون بأنفسهم توزيعها على الزنزانات، وهم كالأطرش بالزفة، لا علم ولا خبر. كنا نخفيها جيداً تحت ملابسنا؟

خلال الأيام القليلة التي تسبق مجيء الرابع والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر، كانت حليمة وعاشورا تمرران لي أنبوب الغاز عبر الفجوة الموجودة في الحائط المشترك بيننا، كي أوصلها بموقد صغير. هكذا كنا ننجح بتحضير قالبين من حلوى العيد بخليط مؤلف من الحمص المقلي، والطحين، والبيض والزيت، والقهوة، والسكر. كنا على درجة عالية من التنظيم.

أما العمل فكنا نتقاسمه فيما بيننا. نتوزع المهام المتنوعة ما بين زنزانة حليمة وعاشورا وزنزانتنا. لم نفتقد وجود البراد أبداً. لقد كان الطقس قارساً مما دفعنا للاستغناء عنه والاكتفاء بترك قالب الحلوى كي يتجمد خارجاً. كانت شهيتنا لا توصف ونحن نلتهمه لدرجة أننا كنا نتدافع ونتسابق لاختطاف القطعة الأخيرة المتبقية منه.

لا قيمة للميلاد بدون ألعاب. لذلك كنا نحاول صنع لعبة للصغير من الألواح الكرتونية التي كنا نجمعها مسبقاً، وكلما استطعنا. في إحدى السنوات صنعنا له حاملة طائرات، ودبابات، وشاحنات مرسيدس، وسيارات فولكس فاكن بلون الزعفران، وبعجلات من أوراق فضية اللون. في تلك الآونة كان يمكنني أن أبتكر أشياء كثيرة بقطع من الورق. أما اليوم، فلا أعرف لماذا فقدت هذه المهارة.

على مدار تلك السنوات، وبمناسبة الميلاد، كنت أكتب له رسالة، وأنا أتعمد أن أغير خطي. كنا ندعي بأن بابا نويل هو من تركها خصيصاً له. ظل يعتقد بهذا حتى سن الرابعة عشرة. كانت حليمة تحضر بعض التراب لأمي كي ترسم فيه نقوشاً وأشكالاً على أرض الزنزانة، كانت فرحة عبد اللطيف عارمة، وكانت رؤيته على هذه الحالة تبعث الدفء في قلوبنا.

شهرزاد

كنا مساجين بلا كتب ولا دفاتر ولا ورق، لذلك توقفت عن التدريس، غير أن الفتيات كنّ يتحرقن فضولاً لمعرفة الحياة. كنّ دائماً يسألنني إن كنت مررت بمغامرة عاطفية، وكذلك عن قبلة الفم وبعض جوانب العلاقة الجنسية. كنت حريصة على إعطائهن إجابات شافية تناسب أعمارهن، مستعينة على ذلك ببعض ما كنت قد قرأته في الكتب عن هذا الموضوع الحساس.

كان عبد اللطيف متعطشاً للعلم والتعلم، وأمي كانت بحاجة للحديث وللقيام ببعض الاهتمامات. أما رؤوف الذي كان الأكثر عزلة بيننا، فقد استفاد من «التمديدات الإذاعية» كي ينفس كربته وضيقه بعض الشيء. المسكينتان عاشورا وحليمة كانتا مصابتين بالضجر والاكتئاب.

كرّست نفسي لخدمة عائلتي المنكوبة، فلم أبخل عليهم أبداً بما أستطيع تقديمه حتى لو كان على حساب نفسي. كان وقتي مخصصاً بالكامل للإصغاء إلى كل ما يدور في خلدهم من أفكار وهواجس وأحلام وأمنيات... بطيبة خاطر كنت أعلّم، وأوجّه، وأنصح، وأصوّب، وأحضن، وأشدّ الأزر، وأشيع الأمل... و... كنت «إذاعة متحركة» لا تتوقف عن البث طوال النهار، مما يتركني محطمة القوى ومنهكة ليلاً... لقد أعطيتهم كل ما كان لدي من قوة وطاقة. لم يكن بإمكاني التنصّل من مسؤولياتي حيالهم. لقد قاومت وتجلّدت وتصبّرت، وعضضتُ على جرحي وألمي، ولأجلهم هم وحدهم تمسكت بالحياة.

فجأة أتاني إلهام داخلي كبير، ورحت أقصّ عليهم إحدى القصص. من خلالها كنت أحدثهم عن الحياة والحب... وأحلّق بهم بعيداً... حيث كانوا يضحكون، ويبكون، ويتألمون، ويحلمون، ويسافرون... وكنت أضمّن السرد الكثير من الوقائع التاريخية، والجغرافية، والأدبية. كنت أنقل إليهم كل ما أعرفه... والباقي كنت أختلقه من مخيلتي.

كانـت مهمـة شـاقة ومعقـدة. كان علـيّ أن أرضيهـم جميعـاً دون اسـتثناء، على اختـلاف أذواقهم وأعمارهـم. في عمـر العشرين لا بد أن يكون لدى رؤوف اهتمامـات ورغبات أخرى تختلف عن تلك التي تهم الفتيات الصغيرات أو حتى عبد اللطيف. هذا إذا لم أقل أيضاً أمي أو عاشورا وحليمة. لكل منهـم ذوقـه الخاص به. ومع هذا، لقد لاقت الفكرة إقبالاً وتهافتاً مـن الجميع. صرنا ما إن يُدار المولد الكهربائي حتى نسـارع إلى توصيل «التمديدات» اللازمة من خلية لأخرى. بعد ذلك بسـاعة، عندما يتوقـف هـذا الهدير الذي يصـمّ الآذان كنت أروح في قلـب الظلام أروي حكايتي. نعـم هذا ما كنت أقوم به ليلة بعد أخرى، وعلى مدار إحدى عشرة سـنة وأنا حبيسـة بـين جدران السجن. لقد غدوت «شهرزاد الحزينة» بـين ليلة وضحاها.

في البدايـة كانت الحكاية تسـتمر حتى السـاعة الثالثة فجـراً، ثم ما لبثت أن تقدمـت نحو الرابعة، وبعدها صارت تمتدّ حتى الساعة الثامنة صباحاً، موعد مجيء الحراس لإيقاظنا. لقد ابتدعت مسلسلاً إذاعياً... أحمل الميكرفون بـيدي وأبتعد عن كل ما حولي إلى عوالم أصنعها بنفسي.

ما إن أبدأ بالكلمة الأولى حتى تكر السـبحة، ويأخذ الأشـخاص أشكالهم وأسماءهم... وتـتحدد الأماكن والأزمان، وتـتشكل الروابط والعلاقات... لقد أنجزت مئة وخمسين قصة شيّقة، كل واحدة منها تختلف عن سـابقتها. كنت أصف شكل الأبطال الخارجي، ثم مواصفاتهم الشخصية، والحياتية، والمصيرية. وأخترع لهم ماضياً وأصلاً وسلالة عائلية، كان الصغار يصرون على معرفة كل شيء عنهم، ويغمرونني بأسئلتهم.

أمـا القصـة فكانت تدور أحداثها في روسـيا إبان القرن التاسـع عـشر، ولا أدري لماذا ذهب خيالي إلى هناك، فأنا لم أشـاهد فيلماً من قبل، ولم أقرأ أي كتاب عن روسـيا باسـتـثناء رواية الدكتور جيفاگو، وهذا ما فعلته لاحقاً.

لقد وصفت قصر سان بـيترسبورغ وكأنني كنت أعيش بـين جنباته، وتحدثت عن المهمات التي كان يتولاها القوزاق، وعن النزهات على سطح نهر الڤولغا المتجمد، عن الأرستقراطيـين وعن الموجيك. كنـت أقوم بعـدة أدوار دفعة واحدة: الكاتبة، السيناريسـت، المخرجة، والممثلـة. وأنا أختلق كل هذه الشـخصيات، كنت أطلق العنان لانفعالاتي، ورغباتي، ومكبوتاتي، وهلوساتي. هكذا كنت أعيش من خلالهم بعض المحرمات، والشـذوذ الجنسي، والخيانة، والحب الكبـير. كنت أحاول أن أتوغل داخل

النفس البشرية وأعبّر عنها بكل تقلباتها وتناقضاتها. فتارة أكون محبة، كريمة، خجولة، متحفظة، وطوراً شريرة، قاسية، ظالمة، مدمّرة... كنت البطل، والبطلة، والمحللة في آن معاً. أربكتني قدرتي التي تكشفت لي فجأة بالتأثير على الآخرين والمعالجة، وتحريك ميولهم ومشاعرهم. كانوا ينسجمون مع القصة ويواكبون تطوراتها بشغف وانفعال، لأنها بالنسبة لهم واقعية، ومن هنا كان من السهل عليّ اللعب على هذا الوتر الحساس، وتحويله إلى الوجهة التي أريدها. عندما كنت أستشعر أن الجو أصبح حزيناً وكئيباً، والتأثر بلغ أشده، سرعان ما كنت أضفي بعض الانفراجات والانقشاعات من خلال بعض العبارات والمواقف. كانت القصة تقارب واقعنا اليومي المعاش، بكل تفصيلاته وخباياه، وشجونه وهمومه، وأحزانه وأفراحه، وعداواته وصداقاته، ونزاعاته، وأزماته... لدرجة أنهم كانوا خلال النهار يتابعون فيما بينهم الحديث عنها، وينتظرون بلهفة شديدة تطورات الأحداث، فكانت سكينة تسأل بقلق:

ـ أتعتقد أن ناتاشا ستنجو من هذه المعمعة بسلام؟

بدوره كان رؤوف يجيبها مطمئناً:

ـ لا عليك، لأنني أشك في أن تعلن روسيا الحرب...

كانت القصة بعنوان «النداتف السوداء»، وبطلها أندريه أوليانوف. كان أميراً، شاباً، يعيش في روسيا في زمن القياصرة. ومع أنه كان جميلاً وذا ثراء فاحش، إلّا أنه كان فظاً وشيطانياً يثير الرعب والشر فيما حوله. فقد أبويه عندما كان طفلاً صغيراً. فقد ماتت أمه وهي تلده، وأبوه انتحر فيما بعد. ولم يتبق له في هذه الدنيا إلّا جدته لأمه التي ورث عنها هذا الجمال الخارق. كان أوليانوف يعيش في قصر واسع كبير، تحيط به بساتين وجنائن تبلغ مساحتها آلاف الهكتارات. ويمتلك حوالى ألف من الفلاحين العبيد. كانت هوايته الوحيدة هي ركوب الخيل. كانت جدته ترغب في تقديمه إلى البلاط، لكنه كان يصر دائماً على الرفض. فهو يفضل أن يصول ويجول في ممتلكاته كما يحلو له من الصباح وحتى مغيب الشمس. عندما كانوا يشعرون بوصوله أو يسمعون صوت خطواته كانوا يسارعون للاختباء... كان شريراً ويسعده إلحاق الأذى بالآخرين، ويتلذذ برؤيتهم يتعذبون ويعانون. وفي إحدى الأمسيات، وقع عن صهوة جواده، فالتفت بسرعة ليتأكد من أن أحداً لا يشاهد ما حصل له، لأن ذلك مذلٌ له، ويجرح كبرياءه. فهو يعتبر نفسه أفضل فارس في المملكة على الإطلاق. بينما

كان يستجمع قوته للنهوض عن الأرض، لمح شيئاً صغيراً يلمع بين التراب. التقطه، فإذا به تعويذة، أخذها، وعاد إلى قصره. هناك، أصر على معرفة هوية صاحبتها، وإلّا أعدم كل الفلاحين العبيد دون استثناء. هرع مدير أعماله ليطلب المساعدة من إيفان العجوز، وهو بطريرك ذو لحية طويلة بيضاء. لقد امتقع لونه بعدما عرف بأمر التعويذة، لأنها تخص حفيدته ناتاشا التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها. طلب منه مدير الأعمال أن يستدعيها فوراً، لكن ناتاشا كانت قد لاذت بالفرار.

وفي اليوم التالي، وبينما كان أندريه أوليانوف يتنزه كالعادة فوق جواده لفتت انتباهه أصوات وحركات وضحكات، اقترب بهدوء شديد، وراح يراقب ما يجري هناك من خلف أوراق الأشجار: كانت ناتاشا وحبيبها نيكيتا يسبحان عاريين في الغدير. كانت ساحرة جميلة، وبقدر ما كان شعرها داكناً، كان شعر نيكيتا أشقر. كانت ترقص له، فجأة لمحا أندريه أوليانوف، فتملكهما الرعب، وفرا هاربين بسرعة الريح. لحقهما على حصانه، وتمكن من القبض عليها فيما اختفى حبيبها داخل الغدير. بعدما اغتصبها عاد بها إلى قصره. بعد يومين، أتى لرؤيته نيكولا بارينسكي، ابن حاكم موسكو. ليخبره بأنه ذاهب للالتحاق بالجيش، ومعه مجموعة من أصدقائه، من ضمنهم واحد اسمه برجنسكي كان مضطراً للاختفاء عن الأنظار. لقد وجدوا عنده مناشير سياسية. قبل أندريه أن يساعده على الفرار. أعاره جواداً، وعبر به الغدير وصولاً إلى الجهة المقابلة، إلى بر الأمان. كانت هذه المرة الأولى التي يتورط فيها بعمل مناوىء للسلطة. لكنه كان يجهل تبعات مثل هذه الخطوات، والنتائج التي قد تترتب عليها.

هكذا بدأ الفصل الأول على هذا النحو، ثم صرت كل ليلة أضيف تدريجياً بعض الشخصيات الأخرى، وأجعلها تتقابل وتتحاور، وأمعن في وصف أماكنها، وردود فعلها، مستخدمة كل أنواع التشويق والإثارة، حتى نجحت بجعلهم يحبسون أنفاسهم من شدة التأثر والانسجام. الغريب أنني اليوم لا يمكنني سرد أي قصة بدقة وتفصيل بمثل ما كنت أفعل سابقاً. حقاً، أنني لا أعرف كيف جادت مخيلتي بكلّ ذلك، ولا أعرف سرّ تلك المهارة العالية التي كنت أتمتع بها آنذاك، والحيوية والطاقة، طوال إحدى عشرة سنة، وكيف أنني لم أشعر قط بالملل والتعب، وحافظت على استقطاب شغف المستمعين واهتماماتهم. بينما أنا مأخوذة في متابعة سرد روايتي، غالباً ما كان خط ما في التمديدات بيني وبين رؤوف ينقطع وذلك في عز الليل المدلهم. وما كنت لأتنبه لذلك، لولا

مسارعة إحدى الفتيات إلى لفت انتباهي إلى صفير رؤوف الذي يحاول بهذه الطريقة أن يشعرنا بذلك. بعد أن نوصل ما انقطع ونتمكن من إصلاح مكان العطل والخلل يتوقف رؤوف عن الصفير إذ يصله صوتي مجدداً في تلك اللحظة. هذا النوع من الحوادث كان يتكرر عدة مرات في الليلة الواحدة، لذلك كان الحراس يستغربون ويسألون رؤوف عن سبب صفيره. ليقطع عليهم الطريق، كان يرد بأنه إنما يفعل ذلك لإخافة الفئران والجرذان التي تسرح وتمرح داخل الزنزانة. عندما كانوا ينظرون إليه بريبة كان يتابع بحدة متعمدة وسخرية:

ـ ماذا؟ ألا تعرفون هذا؟ ومن لا يعرف أن الصفير هو الطريقة المثلى لإخافة الجرذان والفئران وإبعادها عن المكان.

كان الحرس يبدون اندهاشهم من سعة اطلاعنا وحسن تدبيرنا. وإن كانوا يعاملوننا بخشونة وسوء، إلّا أن هذا لا يعني أنهم لا يكنون لنا التقدير والإعجاب. كانوا يحترمون ذكاءنا في التعاطي مع ما يمر بنا من محن وظروف، لذلك لا عجب أن يصدقوا ما لقّنه لهم رؤوف. ومنذ تلك الأونة، ما إن يصفر رؤوف حتى يشاركوه بذلك من جهتهم. من جهتنا كانت تتنازعنا رغبة بالضحك على غبائهم وقلة عقلهم، والخوف من القيام بأي حركة قد تسترعي انتباههم، وتفتح أعينهم علينا.

تابعت بشغف القيام بدور شهرزاد، وكانت جعبتي لا تنضب من القصص والروايات. سافرت بهم عبر الدول والأقطار، من روسيا القيصرية إلى بولونيا، والسويد، والنمسا، وهنغاريا، وصولاً إلى ألمانيا والولايات المتحدة الأميركية أيام الحرب الأهلية. كان يعشعش في مخيلتي لويس الثاني حاكم مقاطعة با؟اريا أو الملكة سيسي. حتى أنني كتبت رواية حول جدة وحفيدتها الصغيرة قامت سكينة بتدوينها، ووضع وتصميم غلاف لها.

لقد احتفظت بأثر هذه القصة لأنني كتبتها على ورق الكرتون ولكن، لسوء الحظ، لم تكتب النجاة لأي من دفاتري القديمة التي أتلفها صديق لي كنت أودعتها لديه عندما هربنا، فعل ذلك بدافع الخوف من التورط بالمشاكل والمتاعب التي قد تجر عليه الويلات.

في الوقت الحاضر، نادراً ما نثير مجدداً فيما بيننا موضوع السجن والاعتقال، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للحكايات التي ما زالت تحتفظ في نفوسنا برونقها وسحرها، لدرجة أنه عندما يتذكر بعضنا إحدى شخصياتها، تضيء وجوهنا جميعاً وتلتمع، إنها عزاؤنا الوحيد عن تلك الفترة السوداء المرعبة.

أعتقد جازمة، بعيداً عن الادعاء والغرور، أن هذه الحكاية أنقذتنا جميعاً من براثن الفراغ، والفوضى، والعبث، والوحدة، والصمت، وخصوصاً من سيف الرعب الذي كان مسلطاً فوق رؤوسنا كظل ثقيل، ولا نعرف ماذا نفعل حيال الطوق الخانق الذي ضربوه من حولنا بدون شفقة أو رحمة. بهذا السلاح الوحيد قهرنا الصمت، والوقت والملل والروتين والخوف والعتمة، واستعدنا زمام الأمور بعض الشيء. أصبح هنالك حدث عشنا معه في حالة من النشاط والتنظيم والحركة. فالمذياع ساعدنا فقط على معرفة التواريخ التي لم يكن يهمنا بينها إلّا مواعيد أعياد الميلاد وبعض المناسبات الأخرى. لا أنكر مساهماته العديدة في كسر عزلتنا وربطنا بالعالم الخارجي. لكن أهم ما في القصة أنها أخرجتنا من طور الجمود والركود والاستلاب، إلى طور المبادرة والحيوية والحركة. فكنا عبر الشخصيات والمواقف التي نختلقها نعبّر عن أفكارنا وهواجسنا، ونجد فيها متنفساً وتعويضاً يخرجنا مما كنا نتخبط فيه ولو بصورة وهمية ومؤقتة. من خلالها كنا نعيش الحياة التي حُرمنا منها. كنا نحب، ونخطب، ونتزوج، ونرزق بأبناء، ونمرض، ونموت. حتى الآن، نستشهد ببعض الوقائع والأحداث التي وردت في سياق القصة كي نؤكد أحاديثنا أو مواقفنا. ويكون حوارنا على النحو التالي:

ـ بلى، بلى، ألا تتذكرين؟ كان الطقس حاراً لا يطاق في اليوم الذي التقت فيه ناتاشا الأمير.

ـ لا، لا، إنك مخطئة، فأنا لم أصب بالحمى في اليوم الذي ولد فيه حفيد أندريه، ولكن في اليوم الذي أصبح فيه قيصراً.

لولا ذلك المتنفس لأصبنا حتماً بالجنون. عندما كنت أغوص في وصف الأماكن والأشياء من حمّامات البلاط، إلى الفساتين المرصعة باللؤلؤ والمزينة بالدنتيل، والتفته، والحلي، إلى العربات، وبذلات الضباط العسكرية، والكونتيسات الجميلات اللواتي كن يرقصن الفالس على وقع أنغام الفرقة الموسيقية الملكية، كنت أحاول أن أحملهم وأهرب بهم بعيداً إلى عالم آخر ليس فيه براغيث، ولا أزمة فوط صحية، وبرد، وجوع، وقذارة، وماء ملوث، وتيفوئيد، والتهاب أمعاء. أردتهم أن ينسوا آلامهم وألّا يستسلموا للقنوط واليأس.

الأمراض والآفات

ما كنا لنبقى على قيد الحياة، لولا العناية الإلهية التي أحاطتنا بالحماية والرعاية اللازمتين. ما إن كنا

نصـل إلى حافـة الموت المحتم حتى كانت تمتد إلينا يد خفية وتنتشـلنا من السـقوط في الهاوية. أكثر من عشريـن مـرة تعرض كل واحـد منّا للإصابة بأمراض خطـيرة كادت تطيح به، إلّا أنـه كان يخرج منها سـليماً معـافى. هـذا الإله الذي كان يحمينـا، وينقذنا من الموت، لمـاذا تركنا نواجه ذلـك المصير الحافل بالويلات المرعبة؟

كانـت بعض الأمراض خطيرة مثل: الحمى، الالتهابات، الإسـهال، والفيروسـات التي لا نعرف لها اسماً. وأخرى أقل خطورة مثل: التهاب اللوزتين، والشعب الصدرية، أوجاع الرأس والأضراس، البواسـير، والروماتيـزم. ولكنها لم تكـن أخف وطأة وألماً، لأننا لم نكن نمتلـك أي دواء. كنت أداويها جميعها بزيت الزيتون.

عندمـا أصيبـت ماريا بمرض فقدان الشـهية، كانت تغلي مـن فرط الحرارة وتـتصبـب عرقاً وهي طريحـة الفراش الذي كانت تلازمه طوال النهار. لذلك كنت أواظب على تنظيفها بالماء وتجفيفها أربع أو خمـس مـرات في اليـوم الواحد. ثـم كنت أضع لها فـوق مكان الألم علبـة الحليب الصغـيرة الممتلئة بالماء الذي تقوم عاشـورا بتسـخينه، كان هذا هو العلاج السـحري لنا في كل أزمات الهلع التي كانت تصيبنا.

كانـت ميمـي أكثرنا عرضـة للإصابة بالمرض. كانت نوبـات الصرع تنهك قواهـا ولا تغادرها إلّا بعـد أن تكـون قـد امتصـت كل طاقتهـا. والانقطاع عن تنـاول المهدئـات كان يصيبهـا بالاكـتئاب. قضت حوالى ثماني سـنوات وهي ممددة في الفراش، كنا دائماً نجبـرها على النهوض من فراشـها، وعلى الاستحمام.

المسـكينة ميمي كانت تعاني أيضاً من داء البواسـير. مما كان يفقدها كميـات كبـيرة من الدم يومياً. كنت يومياً أنظف جروحها بالماء والصابون منعاً لاسـتمرار النزف، وبهدف تخفيف الألم. فقد كان من المستحيل وهي في هذه الحالة أن تذهب إلى الحمام. فضلاً عن أنها فقدت شهيتها للطعام.

في آخـر المطـاف، خسرت ميمـي كل صحتها، وأصبحـت معلقة في هذه الحياة بخيط واهن جداً، بـدون طعـام مع نزيف مسـتمر. أصبحـت تعاني أيضـاً مـن مرض فقر الـدم، ومع هـذا كانت تـتحلى بالتجلّد والصبر. فلـم نسـمعها يوماً تشـكو أو تـتذمر. رجوت بورو مرة أن يرسـل لها الطبـيب ولكن محاولتـي باءت بالفشـل. كانت لثتهـا بـيضاء اللون، ولونهـا أصفر بالإضافة إلى أنهـا فقدت أظافرها.

كانت تـتلاشى أمام أعيننا تدريجياً، دون أن نتمكن من أن نفعل لها أي شيء. عدا عن ذلك، كنا أحياناً نحتـك مـع زوار يحملون ميكروبات كثيرة. عندما تمطر السـماء بغزارة، كانت الضفادع تـتسـاقط على الأرض، فنلتقطهـا ونضعها في الأسـطل بأعداد كبـيرة كـي نعطيها لأخي عبد اللطيف الذي يفتقر إلى الرفقة والألعاب، علها تشغله بعض الوقت وتسليه، وتدخل السرور إلى نفسه.

كذلـك كانت الصراصير الضخمة السـوداء اللـون رفيقنا الدائم. في الليالي التي كنت لا أنام فيها بسـبب آلام المفاصل، وأنا مستلقية في العتمة، كنت أشـعر بهذه الصراصير فوق جسدي وهي تدغدغ جلدي.

كانـت زنزانتنا تحت خزان الماء الرئيسي: الجدران ترشـح بالرطوبـة، حتى في فصل الصيف، وكان البعوض يجد فيها مرتعاً خصباً له. كانت تغطي السقف خلال النهار وفي الليل كانت تهاجمنا وتلسعنا، أصـوات أزيزهـا كانـت تصمّ الآذان كهديـر الطائرة. كنا ننظم مسـابقة فيما بيننا، مـن يقتل أكبر عدد مـن البعوض فإنه سـيفوز ببـيضة كاملـة. كانت ماريا هي بطلـة عملية التطهير والإبـادة، وهي التي تفـوز بهذه اللعبة. كل ربـيع كان السـنونو يأتي ويقيم فـوق الحائط الصغير المقابل لزنزانتنا. كان فرحنا بـه لا يوصف، فهو يسـلينا عـن همومنا وأفكارنا بعـض الشيء ويقضي على الملـل والروتين. على مدار أسـبوعين كنـا نواكب تحركاته وتصرفاتـه أولاً بأول. كان هناك زوجان يواظبـان على المجيء إلى ذلك المكان على مدار إحدى عشرة سـنة. لقد شيّدا عشـهما وتزاوجا، ووضعت الأنثى بـيضها. كنا نواكب كل مرحلـة بملاحظاتنا وتعليقاتنا، ولطالما اسـتوقفتنا مرحلة الحب والتـزاوج. على ما يـبدو أنهما كانا لا يكـتفيـان بمرة واحدة. اسـتنتجنا ذلك مـن أصواتهما وتحركاتهما خلال النهار. لكن طيور السـنونو كانت تحمل معها كذلك البراغيث التي كانت تَخِزُنا بدون هوادة. كان يحلو لها الوخز تحت الإبط، وما بـين السـيقان، الألم الذي كان يتسـبب لنا به وخزها لا يطاق، ولم نكن نتوقف عن الحك حتى ينفر من جلدنا الدم. وبعد عدة أيام من ذلك كانت المواضع تنتفخ وتـتورم، ما كان يسبب لنا ألماً أثناء المشي أو احتـكاك الفخذيـن. ولكننا كالعادة كنا نعلق على آلامنا ومصائبنا بروح متهكمة وسـاخرة وتنقل النبأ إلى الآخرين على هذا النحو:

ـ قضي الأمر، لقد صار لكلّ واحدة من البنات خصيتان.

كانـت الفئران أكثر لطافة. كانت صغيرة، سريعة، وتـختبـيء في كل زاوية ومكان، وتـخرج ليلاً

من جحورها، وتتسلق أسرّتنا. كنا نتقبل حضورها أكثر من الجرذان التي كانت تجتاحنا بالرغم من كل التدابير الاحترازية ومساحيق البودرة، والمصائد التي كنا ننصبها لها، سيما في مواسم الجفاف. وصل بنا الأمر إلى تبنّي إحدى الفئران، أسميناها بينفون، الاسم الملكي لتاليرون، لأنها مثله تمتلك رجلاً أقصر من الأخرى. ولقد ماتت المسكينة أخيراً لكثرة ما كانت تأكل. إنه لغز يصعب فهمه واستيعابه، في الوقت الذي كنا نعاني فيه من شدة الفاقة والجوع، كانت هذه الفئران تستوطن الأماكن التي كنا نضع فيها موادنا التموينية بدون حسيب أو رقيب. كانت تلتهم كل ما تقع عليه، والأنكى من ذلك أنها كانت تخلف وراءها قذاراتها دون أن تجد في ذلك أي إحراج. كنت أمتلك جلباباً صوفياً بلون الخوخ وأحتفظ به معلقاً خلف الباب لوقت الحاجة سيما عندما يبدأ موسم البرد. ومرةً، ذهبت لإحضاره كالعادة في مطلع كل شتاء، فكانت المفاجأة، لم يتبقَّ منه إلّا أشلاء ونتف متناثرة. لقد قرضته الفئران التي لم تكن توفر أي شيء تصل إليه أنيابها.

طوال أشهر، ظلت تنبعث من الزنزانة رائحة منفرة كريهة. احترت في أمري، وحاولت معرفة السبب. استحممت، غسلت ملابسي، نظفت المكان. لم يتغير الوضع. طلبت من الفتيات مساعدتي على تفتيش الفرش. الطامة الكبرى، أن فأرة كانت تعيش مع صغارها داخل الفراش، لعلها وجدت في هذا المقر الدفء الذي كانت تنشده وتبحث عنه، وأنا أتمدد فوق الفراش، سحقتها جميعاً؛ أخرجنا جثثها الهامدة. كاد يغشى علينا من تلك الرائحة النتنة.

لا بد من الإشارة أيضاً إلى الجراد، الذي كانت أصواته المزعجة تثقب آذاننا، والذي كان يتغلغل في كل مكان، ما إن يصبح الطقس حاراً. ولا أنسى كذلك صديقاتنا العقارب التي كانت تقوم بجولات استطلاعية في أرجاء زنزانتنا للاطلاع على سير أمورنا.

كانت الجرذان هي أكثر ضيوفنا تخويفاً وترويعاً لنا. في الليل، ما إن يدار المولد الكهربائي حتى كانت تهب لزيارتنا. كنا نترقب مجيئها واقتحامها بهلع وخوف. ونحن نتقوقع في أسرّتنا، والدماء متجمدة في عروقنا. الغريب أننا كنا نصاب بنوبات من الضحك ونحن نعلق على مجيئها. كان يحلو لها التنافس والتسابق بعدائية باتجاه زنزاناتنا وتنجح بالتسلل إليها من تحت بابها المصفح. أصوات تدافعها كانت تمزق الصمت، وتبعث الارتعاد في فرائصنا. ما إن تتسلق أسرّتنا، حتى تبدأ بالقفز والتجول

فوق أجسادنا المتشنجة من شدة الهلع والرعب. الحق يقال، لقد كانت «نبيلة» وأخذتها الرأفة بنا فلم تحاول ولو مرة واحدة أن تعضّنا.

عندما عمد الحرس إلى نصب كمائن وأفخاخ لها، ازدادت عنفاً وشراسة. فالجفاف ضاعف من جوعها ونهمها. فأصبحت لا تتورع عن المجيء إلينا في عزّ النهار، للبحث عن أي شيء تلتهمه. إحدى الإناث، السمينات، كانت دائماً تجر في إثرها جرذين صغيرين، كنت قد سمعت مرة بأنها عادة تحمل معها البراغيث التي تسبب الإصابات بوباء الطاعون، أردت أن أتأكد من ذلك بنفسي، لذا عاجلت، بمساعدة الفتيات، إلى حشر أحد صغارها في زاوية، ثم وخزته بعصا صغيرة كنت أحملها لهذه الغاية. ملايين البراغيث الحمراء اجتاحت الزنزانة. كدت أتقيأ من فظاعة منظرها وهي تغطي كسجادة أرضية المكان. لذا قررت أن أباشر فوراً في شن الهجوم. طاردت واحداً منها بعد أن سددت المنافذ بإحكام في وجه الباقي. أهويت عليه بعصاي بكل عزم وتصميم. الخوف والغضب ضاعف ثلاث مرات من حجمه الطبيعي، أصبح شكله يشبه هراً برياً. نظر إليّ بشراسة واستنفار، وكشّر عن أنيابه الأمامية متحفزاً للهجوم.

دبّ الهلع في قلبي. لكنني تمالكت نفسي وتجلدت. ورحت أهمس في داخلي:

ـ هيا... دعي الخوف جانباً... تشجعي إنه ليس إلّا جرذاً... فلماذا كل هذا الجبن والتردد...؟ هيا...

ما إن هممت بتسديد ضربة له، حتى تسلق الحائط كالبرق، ثم قفز بقوة نحو رأسي... صرخت صرخة مدوية وأنا أنتفض وأتلوى... بهلع سارعت الفتيات لإنقاذي من مخالبه، وبكل يأس واستماتة رددت له الصاع صاعين حتى أجهزت عليه. اقشعر بدني، وأصبت بالصدمة، تراءى لي أنني قتلت كائناً بشرياً... الأصوات والحشرجات التي صدرت منه وهو يلفظ أنفاسه... ظلت دائماً تطاردني...

تدريجياً، أخذت زيارات الجرذان إلينا تخف وتتباعد، حتى أصبحت تقتصر على المجيء مرة واحدة أسبوعياً. مع أننا كنا قد اعتدنا على حضورها يومياً. لاحقاً، أخذ هذا الموضوع حيزاً في محادثاتنا، فعندما كنا نسأل ميمي: كم الساعة الآن؟ كانت تجيبنا بتهكم ودعابة: إنها الساعة التي نتشرف فيها بزيارة الجرذان.

التهكم والسخرية

كان في تامتاغت قائد درك يدعى شفيق، ارتطمت قدمه مرةً بالطاولة. المسكين لم يكن يجيد الفرنسية جيداً، ولكنه أراد أن يتظاهر أمامنا بالعكس، سيما وأنه سمعنا نتحادث فيما بيننا بهذه اللغة. لذلك استدار باتجاه أمي وقال لها جملة لم يعرف «المغفل» أنها كانت «مكسرة». فبدلاً من أن يقول: ارتطمت قدمي بالطاولة، قال: ارتطمت قدم الطاولة بي. كدنا ننفجر جميعاً بالضحك، لولا عون الله ورحمته.

أحد الرقباء يدعى الريس إبراهيم، أطلقنا عليه تسمية «كاباسيكو»، وهو اسم طباخ كان يعمل لدينا، ويشبهه كثيراً. كان هذا الرقيب يمشي دائماً وهو يدندن، ويضع يديه في جيبه، في أحد الأيام، بينما كنا نتحدث وإياه، أشار بسبابته إلى رأسه وقال لنا:

ـ كل ما لدي موجود هنا، كل الإليكترونيك يخرج من هنا.

منذ ذلك اليوم، أصبحنا كلما أردنا أن نقول إن فلاناً ذكي، نشير بسبَّاباتنا إلى رؤوسنا، مثله تماماً، وننفجر بالضحك.

روح التهكم والسخرية سمحت لنا بالبقاء والصمود، خصوصاً أنها كانت تتجلى في أقصى لحظات الفجيعة والألم. وكلما اجتاحتنا المآسي والأحزان ازدادت هذه الطبيعة فينا تجذراً وحضوراً. أصبحنا على هذه الشاكلة منذ اللحظة التي توفي فيها أبي. لا نجد وسيلة أخرى نعبر فيها عن خيبتنا، وحزننا، وألمنا، ومعاناتنا، إلّا الضحك، والتهكم والسخرية.

كنا نتلذذ بالسخرية من كل شيء، من مصائبنا، ومن همومنا، ومن الآخرين، ومن أنفسنا. التهكم والسخرية كانا ردنا الوحيد على الظلم والقهر، والجور، والتعنت، وتكالب الزمان علينا... باتت لنا لغة خاصة مليئة بالغمز واللمز والإشارة والرموز. لا أحد يفهمها غيرنا. هذا التواطؤ فيما بيننا أردنا من خلاله أن نحمي ساحتنا، ونفرض طوقاً دفاعياً حول أنفسنا يقينا من كيد المعتدين وشرهم.

في ذلك الجو البوليسي الإرهابي، اضطررنا إلى استنباط نظام الرسائل السرية التي كنا نتبادلها غالباً فيما بيننا. من كان يسمعها كان يظنها بلا معنى، لأنه لم يكن لها أول ولا آخر... فمثلاً كنا إذا أردنا أن يُبلغ أحدنا الآخر بأن المهمة التي كانت مطلوبة منه قد نجح بإتمامها كان يقول: عاد القندس إلى سيدني بالرمح الصغير...

وإذا أرفق الجملة بتمتمة خرساء من بين شفتيه فمعنى هذا أن النجاح كان باهراً. وإذا كان أحدنا

يتحدث مرة واختلطت الأمور عليه، فلم يعرف كيف يعبر عما يرمي إليه، كنا نعلق بأنه «في طريقه إلى مالاغا»، لأن الرحلة الجوية إلى مالاغا كانت عادة محفوفة بالمطبات الهوائية. هذه الرموز فيما بيننا ما زالت سائدة، إذا أردنا أن نمرر لبعضنا رسالة سرية معينة، ولا نرغب أن يعلم بها أحد من الحاضرين.

الأميرة نزهة، شقيقة الملك، ماتت في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧ في حادث سيارة. سمعنا النبأ، عبر المذياع، وأحزننا لأننا كنا نحبّها كثيراً. توثبت لدينا روح التهكم فسارعنا إلى هذا التعليق: لو أنهم يخرجوننا من هنا كي نكون في عداد «الطُّلْبَة»[٤].

هؤلاء «الطُّلْبَة» بجلابيبهم البيضاء، يتم استئجارهم لقراءة القرآن على الميت، وكان معظمهم من المرتزقين، وأكثر ما يستهويهم في عملهم هو الولائم والمآدب التي يقيمها أهل الفقيد إكراماً لذكراه، فما بالك إذا كانت هذه العائلة ملكية أو بورجوازية. ساعتئذ يكونون على موعد مع ليلة القدر، وتفتح لهم أبواب الرزق من السماء. لذلك رحنا نحلم ونحن في السجن ونتمنى لو أن بمقدورنا الذهاب إلى هناك، متنكرين بجلابيب «الطُّلْبَة» البيضاء، كي نتوجه فوراً إلى الموائد لنحمّل ما نستطيع تحميله، ونأتي به إلى سجننا. نعم إلى هذا الدرك الأسفل انحدر سقف طموحنا وأحلامنا.

كل واحد منا كان يمتلك عدة ألقاب، حسبما تقتضي الظروف وتستدعي الحاجة. كانت ماريا «هيلاسيلاسي» أو «نيجي» لأنها كانت شديدة النحول. ورؤوف كان «بوبينو، ملك البطاطا» أو «مونش» أو «جيجي المشاكل»، وجيجي اسم كلبة صغيرة كان يقتنيها أبي، كانت تدور دائماً حول نفسها تماماً كما يفعل رؤوف غالباً، و«المشاكل»، لأنه كان يجر على نفسه المشاكل والمتاعب...

كانت ميمي «بتي بول»، على اسم دب والت ديزني الصغير لأنها كانت تشكو دائماً من البرد، وأيضاً كانت «ميمي الخبّازة» بسبب حبها للخبز. في نطاقنا الخاص جداً، كنا نناديها أحياناً بـ«بيبير الذرّة»، أطلقت أمي عليها هذا اللقب في لحظة تململ بلغ أشده «لقلة درايتها وتدبيرها. قالت مرة بغضب بعد أن خرجت عن طورها بعدما رمت بصحن الطعام أرضاً، وحطمت سطح السخانة التي كنا ندفىء أيدينا فوقها.

ـ إنها بلهاء مغفلة، لا تحسن القيام بأي عمل. كلما لمست شيئاً أعطبته.

أردت تخفيف الاحتقان فقلت لها:

ـ لا يا أمي، إنك مخطئة تماماً، إنها ستصبح عبقرية. فألبرت آينشتاين عندما كان يجري أبحاثه على الذرّة، كان هو أيضاً أهوج مثل ميمي وكان يشعل الحرائق طوال الوقت.

ومن لحظتها غدت ميمي «بيير الذرة»، ما إن تأتي بأي حركة خرقاء حتى نناديها بهذا اللقب ونحن نضحك.

أما سكينة فكان صدرها يضيق لأي دعابة نوجهها إليها. اكتفينا بتسميتها علناً «شارلي»، وسراً من وراء ظهرها: «بوب سمين جداً، ليتحرك بسرعة أكبر»، إشارة إلى استدارتها وسمنتها، إنها إحدى الجمل المأخوذة من الدروس الإنكليزية التي علمتهم إياها عندما كنا في تامتاغت.

أما أنا فقد كنت «هتلر»، «مازارين»، «موسوليني»، «ستالين» بسبب شخصيتي الآمرة، وميلي الدائم للإمساك بزمام الأمور.

أطلقنا على أمي وعبد اللطيف تسمية «وسيلة وبورقيبة»(*) إشارة منّا إلى تلاصقهما الدائم، وارتباطهما المتين ببعضهما البعض. كنا ننادي أمي أيضاً «سيغموند» نسبة إلى سيغموند فرويد، لأنها كانت تفسر نفسياً كل الظواهر التي تحيط بها. كذلك كنا نلقبها بـ«غران بيكسو»، بسبب تبذيرها وإسرافها مع أنها أصبحت معدمة وفقدت كل ممتلكاتها. عاشورا كانت «بارنابه» أو «بَبي».

أما حليمة التي كانت مهووسة بالاعتناء بشعرها، فكانت تلملم الأعشاب من الباحة لهذه الغاية وكانت تخبيء شعرها بمنديل تعقده حول رأسها. وبالرغم من ذلك، كانت تظهر منه خصلتين على شكل أذني «دنغو». ارتأينا أنه الاسم المناسب لها.

فيما بيننا، كنا نلقب أبي بـ«الذئب الشرير»، أو بـ«موبي ديك، ملك البحر»، هذا اللقب أطلقناه عليه عندما قضينا برفقته نهاراً كاملاً على شاطىء البحر، وكان يرتدي سترة نجاة ضخمة ويقوم بالتزلج على الماء. عندما كنّا نتذمّر مما أقدم عليه، وكلفنا ما نعانيه من السجن، كنا نردد بتهكم وسخرية لاذعة: كان أفضل لـ«موبي ديك» لو أنه مات غرقاً في ذلك اليوم، فلولاه لما كنا نحن هنا، ولحظي هو بعد موته بحداد وطني على الأقل...

عشرون عاماً خارج الزمن

بفضل المذياع الصغير، كنا على علم بكل ما يجري حولنا من أحداث. رؤوف الذي كان يستمع

إليه طوال النهار، كان يزوّدنا بكل المستجدات العالمية. كان يمضي ساعات بكاملها وهو ينقل إلينا كل ما التقطته أذناه من أنباء. عبر التمديدات التي وضعناها، كنا نستمع نحن كذلك لكل برامج البث الإذاعي، الأدبية، والأخبار السياسية، المغربية والفرنسية. كنا نتابع محطات راديو فرنسا الدولي، وفرانس أنتر، وأوروبا الأولى.

لم أكن أفوت أبداً، ومهما كلف الأمر، برنامج «راديو سكوبي» لجاك شانسيل، و«بوب كلوب» لجوزيه آرتير. كنت أستمع إلى حكايات جان بيير شابرول التي كان يرويها بصوته الأجش. كذلك البرامج التاريخية لآلان ديكو. البرنامج الذي كان مفضلاً لدى أمي هو «ما يرغبه المستمعون». كنا نحب أيضاً ماشا بيرانجيه وجان ـ بيير الكباش، جاك براديل، كلمنتين سيلاريه، آلان ديه شالفرون... وحيث إننا لم نكن قد شاهدناهم من قبل رسمنا لهم في أذهاننا صوراً تتماشى مع أصواتهم: لقد كانوا أصدقاءنا في محنتنا، ورفاقنا في وحدتنا، إننا ندين لهم بالكثير... لأنهم ساهموا في دعم صمودنا، واستمرار مقاومتنا.

كانوا هم بمثابة صلة الوصل بيننا وبين الحياة التي كنا نعيش على هامشها. مثل غريق ينتظر فوق الجزيرة قارب الإنقاذ، كنا ننتظر على أحر من الجمر مواعيد برامجهم. في منتصف الليل كنا نستمع إلى برنامج «الخط المفتوح»[1] لغونزاغ سان بري. عندما كانت تصدح مقدمة البرنامج الموسيقية التي أعدها إريك ساتي، كان الصمت المطبق يعم زنزاناتنا. كان يتهيأ لنا جميعاً أنهم كانوا يخاطبوننا نحن فقط. غدا صوت المذيعة أليفاً لدرجة أنني بت مقتنعة أنها تعرفنا، ولن تتأخر بالتطرق إلى ذكرنا، باعتبار أننا أصدقاء مقربون لها.

في إحدى الأمسيات كان ميشال جوبير يتحدث عن المغرب، فيما كان غونزاغ سان بري يتوجه إليه بأسئلة حول البرابرة. بدأ قلبي يخفق وجف حلقي، حبست أنفاسي ورحت أصغي إلى الحوار بكل جوارحي. حدس خارق أعلمني بأنهم سيتطرقون بحديثهم إلى ذكر عائلتي. لم يطل الأمر حتى طرح عليه غونزاغ السؤال التالي:

ـ ميشال جوبير، أليس الجنرال أوفقير رمز هذا الشعب المعتزّ بالصحراء؟

وافق الوزير على كلامه بشكل ضبابي، وقفز بسرعة إلى موضوع آخر. في العتمة التي كانت تغلفنا، انتابتني فرحة عارمة، لم أستطع أن أفسرها. سمعتهم يذكرون اسم عائلتي، يعني أننا ما زلنا

موجودين في أذهانهم، جميعاً، ولم نمت، وأنه بـإمكاننا العودة إلى الحياة من جديد يوماً ما.

كان السـور الـذي يفصل بـيننا وبـين العالم الخارجي سـميكاً جـداً، وكانت المـواد الغذائية تصلنا مغلفـة بالجرائـد وكذلك اللحوم والخضار، كان الحراس يسـارعون إلى تمزيقها كي لا تصل إلى أيدينا، ونكتشـف مـن خلالهـا التواريخ والأحـداث. بالرغم مـن كل احتياطاتهـم، كانت عاشـورا وحليمة تنجحـان مـن حـين لآخـر بتهريـب قصاصة مـن إحـدى الجرائد خلسـة عن أعينهـم. بهـذه الطريقة أيضـاً وصلـت صفحة جريدة شـبه ممزقة عليها صورة امرأة جميلة شـبه عارية. خبأهـا رؤوف بجانب مقتنياته الثمينة الأخرى كالمذياع، والميكرفونات... كنا نسـخر منه ونسـأله بدعابة عن أخبار «خطيبته العزيزة»... إلى أن وصلته قصاصة جديدة، بالوسـيلة عينها، وكانت كناية عن صورة أحد النقابـيين، بشـاربـين طويلين، وعلى شيء من السمنة. كانت فرصة له ليرد لنا الصاع صاعين، فراح بدوره يسخر منّا قائلاً بأن هذا الرجل الظريف يصلح حبـيباً لي أو لأمي...

مرة أخرى، كان دوري كي أحصل على صورة لاعب كرة قدم بقامته الرياضية الممشـوقة، كان من الصعب عليّ أن أمنع نفسي من الإعجاب به. كنا جميعاً مغرمين بكرة القدم، وأولهم أنا. خلال مشاهدة دورات كأس العالم لكرة القدم، كنا نضع منديلاً في أيدينا، نعض عليه، كلّما تحمسنا، بدلاً من الصراخ سيما عندما كانت فرنسا تشارك في اللعب.

ما زلت أتذكر جيداً المباراة الشـهيرة التي جرت سـنة ١٩٨٢ بـين فرنسا وألمانيا. كم كانت خيبتنا كبـيرة عندما خسرت فرنسـا بضربات الترجيح أمام ألمانيا. قامت أمي بصنع كرة قماشية لعبد اللطيف من بقايا الخرق، كان يلعب بها داخل الزنزانة، وراح يقذفها بقدمه باتجاه الجدران.

بعدما شرحنا له المبادىء الأساسية لهذه الرياضة أصبح من أشد المتحمسين لها.

عـبر المذياع، عايشـت موضـوع «الحركات النسـوية»، و«التحـرر الجنسي». لولا ظـروفي القسرية آنـذاك، لكنـت بـدون أدنى شـك ناضلت في صفوفهـن، ودافعت عـن مطالبهن الحقـة. كنت معجبة بـــ بنوات وفلورا غرولت وبـ ميريـيل سـيرف وبنجـاح ريجين دي فورج الباهـر في روايتها «الدراجة الزرقـاء»، لقد حسـدتها قليلاً على النجاح الـذي حققته عبر هذه الرواية، وأجـبرت نفسي على العمل بجد على قصصي وأن أسرد بأسلوبـي الخاص بعض روائع الأدب العالمي.

بمرور السنوات، أصبح المذياع بدوره أيضاً مصدراً للألم والمعاناة، عندما كنت أسمع أنه تم إخراج

فيلم ما، كنت أقول لنفسي بتحسر: ربما كان يمكنك أن تحصلي على دور، لو...

وعندما أسس روبير حسين فرقته المسرحية، لم تمضِ ليلة واحدة لم أحلم فيها بالانتساب أنا أيضاً إلى فرقته.

عندما كنت أسمع المذيعين يتحدثون عن «الاختراعات الحديثة»، عن التلفزيون الملون، والشرائط الممغنطة، وآلة الفيديو، والكومبيوتر، وطائرة الكونكورد، أو قطار السرعة القصوى، كانت هذه الأنباء تذكرني بمصيبتي الكبيرة، وبمدى تخلّفي وابتعادي عن عجلة الحياة التي كنت أعيش على هامشها.

كنا نوهم أنفسنا بأن كوكب الأرض، لدى خروجنا من هناك، سيكون بأبهى حلله، وسيمكننا أن نحقق ما نشاء من رغباتنا بكبسة زر، كما يحلو لنا، وبدون عناء نحصل على الفطور، والعشاء، وننجز أشغالنا اليومية. كنا نستمتع كثيراً في رحلة الخيال والهذيان.

ولكن ما إن نصحو من تلك الأحلام، مع انتهاء البرنامج الإذاعي، حتى نجد أنفسنا مدفونين أحياء بين أربعة جدران مدلهمّة تحت الأرض السابعة. كل شيء في الكون يتغير ويتبدل إلّا مصيرنا وقدرنا...

الليل

لم يعد هنالك من شيء نفعله إلّا التفكير، والتأمل، والتساؤل طوال النهار. كان رأسنا لا يكف ثانية واحدة عن العمل. أما في الليل فحدّث ولا حرج، كان الماضي ينهال عليّ كالسيل الجارف، ليقلب مواجعي ويؤلمني. أهرب إلى الواقع الحاضر، أجده حالكاً مدلهماً، أفرّ إلى المستقبل... إنه سراب لا حقيقة.

عندما كان أخواتي يخلدن إلى النوم، كنت أنهض من فراشي، أنظر باتجاه الكوة في أعلى الجدار، أبحث بعيني عن أثر للسماء. أريد أن أعاتب الله وأسأله لماذا يُفعل هذا بنا؟ لماذا؟ المسكينة أمي ما زالت تصر على التمسك بعبادته وبمحبته رغم تلك الشرور التي تنتشر في الأرض؟

أما أنا فكنت كلما خاطبته وجهت له شتى التهم، ولطالما عتبت عليه ولمته، واعترفت له بأنني لم أعد أؤمن بوجوده... لكنني كنت دائماً أعود عن جهلي بطلب المغفرة منه وأرجوه أن يقبل عذري، ربما

كنت أخاف من عقابه وانتقامه. لا أعرف لماذا كان تتجاذبني نحوه سلسلة من المشاعر المتناقضة. بعدما كنت أفرغ من نوبة غضبي، كنت أتراجع عن كل ما أعلنته من مواقف سابقة حياله، فأقول له: أتراجع عن كل ما قلته. فلنبدأ من الصفر، ولكنني أحذرك. إنني أنتظر منك إشارة...

انتظرت معجزة من السماء، لكنها لم تأت. يبدو أن قدرنا الأسود لن ينتهي.

كنت أنتظر مجيء الليل بفارغ الصبر كي أنعم ببعض الحرية. في النهار، كنت أضع قناعاً. كنت مليكة القوية، الآمرة، التي تبث الأمل والحياة في نفوس الآخرين. ولكن، ما إن يلوح الغسق حتى ألقي دروعي جانباً. أخيراً أشعر بأنني قريبة من سائر البشر. فهم مثلي يشعرون بالنعاس، ويرغبون بالنوم. ولكن هل تطاردهم الأشباح والكوابيس التي تطاردني؟

كنت لا أكفّ عن التفكير الدائم بأبي. في السنوات الأولى، كنت أراني مسؤولة عن موته. ربما كان بإمكاني أن أفعل شيئاً ما لإنقاذه. كنت فتاة مستهترة، لا يعوّل عليها. كم كنت أرتعب كلما تذكّرت طريقة إعدامه، إنها صورة فظيعة، تضغط على صدري وتخنقني... كيف استطاع أن يتحمل كل تلك الوحشية والإذلال. كلّما تذكرته غلى الدم في عروقي ونشهني الألم والغضب واللوعة. أريد أن أتفجر ذرات متناثرة كي أشفي غليلي.

قاومت من أجله الملك. هذا الإسم الذي أراد محوه من الوجود، يجب أن يبقى دائماً رمزاً للشجاعة.

لا شك أنهم يخبرون الملك عن صبرنا وتجلّدنا بالرغم من كل ما أنزله بنا. موقفنا المقاوم المتحدّي يعني أننا نتصدى بكل عزم وتحدٍّ لكل أنواع العقاب الذي يريد الملك به أن يكسر شوكتنا، ويحني رؤوسنا. ولكن لا، لقد خاب ظنه، لأننا، آل أوفقير، لا نموت إلّا وقوفاً. إنه قدرنا، وخيارنا الوحيد، لا مجال أبداً لأي مساومة أو مقايضة.

لطالما تساءلت في سري: ترى لماذا فرض الحسن الثاني علينا هذا الموت البطيء، ولم يقتلنا فوراً؟ لكان بهذا هوّن علينا وعلى نفسه.

هذا السؤال كنت لا أنفك أطرحه على نفسي في خلواتي. وناقشناه عدة مرات أنا، وأمي، وأخي رؤوف، ولكن دون أن أجد إجابة مقنعة تضع حداً لتخبطي وحيرتي، حتى توصلت بحدسي إلى خلاصة في أحد الأيام مفادها ما يلي:

لعـل إبقاءنـا على قيد الحياة مرده إلى جـو التوتر والاضطراب الذي كان يسـيطر آنذاك على البلاد، التي كانت قد خرجت للتو من انقلابـين عسـكريـين متتاليـين، الأمر الذي زعزع أمنها واسـتقرارها وأدى إلى حالـة مـن الغليان والاحتقان على الأرض. والملك لم يعد موضع إجماع عام، بعد أن كان دائماً أمير المؤمنين ممثل الله على الأرض. لقد أصبح يعاني من العزلة السياسـية، ولم يعد محاطاً برجال أقوياء كأبـي على سـبيل المثال، كي يسـاعدوه على الخروج من هذا المأزق السـياسي، وإعادة إحكام السيطرة على مقاليد الأمور. بعد تلك الضربات السياسـية والعسـكرية التي تعرض لها، لم يسـتطع الخروج من مرحلـة الزعزعـة والفـراغ. إذن المناخ العام لم يكن ملائـماً البتة في تلك الآونة للقضـاء علينا مع ما قد يمكن أن يترتب عليه من نتائج خطيرة.

لقد سـمحت له المسيرة الخضراء باسـتعادة نفـوذه نوعاً ما داخـل البلاد، وبـإعطـاء المغرب دوراً في السـاحة الدوليـة. لقد أجاد توظيف هذه القضية جيـداً: التغطية الإعلامية التي رافقت هذا الحدث كانـت ضخمة ومدروسـة، وعادت عليه بنتائج باهرة ومرضية. لقد سـاهمت هذه المسـيرة في تهميش قضيتنا، وطيّ ملفنا في الأذهان.

فلماذا يخاطر إذن بالقيام بأي عمل قد يؤدي إلى إعادة نبش هذه الأحداث مجدداً؟ فلتبق الأمور على حالهـا، معلقة. وهكذا، بدلاً مـن أن يجهز علينا ويريحنا، تركنا نموت في غياهب السـجن المظلمة موتاً بطيئاً.

لا شعورياً حاولت مرة أن أعطي للمسألة تفسيراً نفسياً وعاطفياً. فقلت لنفسي إنه ربما كان يتنازعه شعوران متناقضان، ما بـين الكره الذي يكنه لنا في الوقت الحاضر، وما بـين المودة القديمة التي كانت توحدنا وتجمعنا. كلما ازداد صراعه الداخلي ومعاناته كلما رغب بالاقتصاص منّا أكثر، نحن الأطفال، ذرية هذه السـلالة، وأيضاً هذه المرأة، أمـي، الوحيدة التي تجرأت على مقاومته ومجابهته. لا بد إذن من أن تدفع الثمن ويخمد حسّها إلى الأبد.

على أي حال، كان السـجن وما زال تقليداً راسـخاً ومعتمداً من قبل القصر، ويدخل ضمن أقصى أنـواع العقاب الملكي على الإطلاق. للاقتصاص من أي معارض، يتم إخفاؤه عن الأنظار كي يُمحى اسمه ويزول من الأذهان، ويترك كي يموت بمفرده موتاً بطيئاً. إنه أشبه ما يكون بالدفن الحي، ومجرد التطرق إلى ذكره جريمة لا تغتفر تجرّ على صاحبها المصائب والويلات. بالنسبة لنا، صحيح أننا نجونا

مـن المـوت الـذي كان محتماً، لكننا صرنا على هامـش الحياة، بعد أن انتقلنا من مملكـة الأحياء إلى مملكة الظل. لقد سـلخونا عن كل ما يمت بصلة إلى الواقع المعاش، وراهنوا على تبدد قوانا وتلاشـينا في هذا القبر الذي وضعونا في جوفه أحياء.

كـم كان هذا الانسـلاخ قاسـياً ومريراً. لقد كنا في عمر الشباب والثورة والحركـة. كان علينا، كي نضـع حـداً لآلامنـا، أن نخمد مشـاعرنا وأحاسيسـنا ونصبـح كآلة صـماء. كم كنت أتـوق إلى الموت وأشـتهيه، بات ذكره يؤنسـني، وصرت أقضي الليل بكامله أناجيه، وأستصرخه أن يتحنّن عليّ بنظرة، وأن يـبادل شوقي بمثله.

كانت الرؤى التي نراها في منامنا تساعدنا على الهروب من السجن إلى عالم الأحلام، كنا نحاول من خلال تفسير وقائعها استقراء بعض شؤون الحاضر والمستقبل.

حلمـت مـرة أن الملـك كان في مدينة إفـران، وأنه أعلن عن مبـادرة للوفاق الوطنـي: هذا ما تحقق بالفعل لاحقاً وذلك سنة ١٩٨٣ كما علمنا من المذياع.

حلمـت أيضـاً، أن حفـلاً ضخـماً أقيم في القـصر احتفاءً بـزواج الأمير مـولاي عبـدالله. بعد عدة أسابيع، توفي المذكور سنة ١٩٨٤.

مـرة أخـرى حلمت أن الملك موجـود في الصحراء الغربـية، وهو محاط بحشـد غفـير من الرجال رجال سـود، يلبسـون جلابـيب بـيضاء، ويواكبـه سرب من طيور الترغل. ترقبنا هـذه الرحلة بفارغ الصـبر على أمـل أن تعود بالنفع علينا. لقـد حصلت بالفعل، لاحقاً، لكنها كانـت مخيبة للآمال، لأنها كانت نجاحاً سياسياً بالنسبة إليه، لكنها لم تأتِ بأي جديد يغير في قضيتنا.

قبـل فـترة وجيزة، من أخذ قرارنـا بحفر نفق، رأت حليمة في منامها يومـاً أبـي. كنا جميعاً مجتمعين في غرفة من طين، بدون سـقف، كانت هي الوحيدة التي تـتحدث معه. أعطاها حبلاً وطلب منها أن تعطينا إياه: إنه سيكون ذا نفع لنا عندما نهرب.

لاشعورياً بتنا نترقب في كل مرة أن تـتحقق بعض التنبؤات التي نكون قد تكهّنّا بها مسـبقاً خلال تفسيرنا لبعض الرؤى والمنامات.

منـذ أن كان عمري خمس سـنوات، وأنا أرى كابوسـاً مرعباً، يجثم فوق صـدري كل ليلة. أراني في ثوب رثّ، في حديقة ڤيلا ياسمينة، أتسلق الأدراج ركضاً، أفتح الباب، وأقف هناك يحيط بـي الظلام

الدامس. عبثاً أحاول الوصول إلى مفتاح الضوء، السواد يغلف كل شيء، والفيلا كانت مدمرة.

مع الأيام، تحول الليل إلى مصدر للهواجس والآلام. لم أعد أجد فيه أي متعة. السلام الذي كنت أنعم فيه تلاشى، والوحدة التي كانت تمنحني بعض الشعور بالخصوصية تحولت إلى كابوس حقيقي. منذ بدأت أروي لهم الحكايا، قلّ نومي، وهاجمتني أوجاع الروماتيزم، دفعة واحدة. كان سرد الحكايات يستمر أربع أو خمس ساعات. لذا كانت عضلاتي تتقلص من قلة الحركة.

وما إن أستلقي على سريري حتى تؤرقني شدة الألم وتقضّ مضجعي. لدرجة أنني كنت كلما تحركت، أتأوه، وأتوجع. فمن كانت تعيسة الحظ مثلي، عبثاً تنشد الراحة.

الحب والجنس

كانت مناسبة عيد ميلادي مثل خنجر ينغرس في قلبي. وعندما بلغت الثالثة والثلاثين، شعرت باليأس والاستسلام. لأنني لن أعيش أبداً أي قصة حب كبير، لن أبني عائلة، ولن يحتضنني أي رجل بين ذراعيه، ويقول لي أحبك، هل تقبلين الزواج بي؟ كنت أجن وأذوي مثل حبة فاكهة ذابلة. في الليل كنت أحلم بفارس يخطفني على حصان أبيض، يهيم بي حباً، يتزوجني، ويسعدني، يسمعني كلاماً جميلاً، ويعانقني.

لماذا أعذب نفسي بمثل هذه الأوهام المستحيلة؟ قررت أن أضع حداً لها. تعلمت كيف أسيطر على نفسي، وأخنق هذه الأفكار في مهدها، لأنها كانت تضاعف ألمي، وتدمرني. إن ما لديّ من مصائب ومتاعب يكفيني، ولا أحتاج إلى المزيد منها. دأبت بكل جوارحي على وأد مشاعري وأحاسيسي، كانت حرب إلغاء ضد الرغبة، والجوع، والبرد، والعطش... حولت نفسي إلى امرأة بلا عاطفة... امرأة من ورق... كنت أركز في حكاياتي على الحب الكبير، وأحاذر الاقتراب من التصويرات ذات الإيحاء الجنسي، كي لا أثير الكوامن والرغبات المكبوتة، وعقد النقص والحرمان لدى المستمعين. تعلمنا جميعاً بين جدران الزنزانة كيف نخدر رغباتنا الجنسية ونكتمها.

استلزم الأمر من أخي رؤوف جهداً جباراً، لا شك أنه كان يعاني بضراوة من شدة الكبت والحرمان. لقد عاش بعض التجارب الجنسية قبل دخوله السجن، شأن كل شبان العائلات البورجوازية. كان يحلو له أن يحدثنا بإسهاب عن كل مغامراته العاطفية والجنسية، أسلوبه كان فكاهياً ومضحكاً للغاية،

مع أنه كان يخفي وراءه شعوراً بالحسرة والمرارة.

لم يستغل المخازنية وضعيتنا الهشّة الضعيفة كي يتحرشوا جنسياً بنا. حصل فقط مرة واحدة أن حاول أحدهم اغتصابي. بعدما تمت مصادرة المذياع، حاولت باستماتة الحصول على آخر. أصبح من الصعب رشوة أحد الحراس كي يحضر لنا الأشياء الضرورية التي تساعدنا في الحفاظ على سلامة عقولنا مثل الأقلام، والبطاريات.

وقع اختياري على الرجل المسؤول عن مفاتيح زنزانتنا، الرقيب الأول كاباسيكو، أسبوعاً بعد آخر حاولت أن أستميله، وعدته أنه إذا أحضر لي مذياعاً، فإنني سأعطيه المال الذي سيرسله لنا جدي فيما لو نجحنا بإعادة الاتصال به. كونه لم يقل لا، فسّرنا الأمر على أنه نعم. وأخذنا ننتظر إحضاره بفارغ الصبر. لكن كاباسيكو كان يتلكأ ويراوغ.

بعد ظهر أحد الأيام، فتح الباب في ساعة غير معتادة، ودخل كاباسيكو. طلب من الجندي الذي يرافقه أن ينتظره في الخارج. أمرت الفتيات أن يلزمن فراشهن، أردت أن أتفاوض معه بمفردي. دفعني إلى الحائط، ألصق جسده بي، أخذ يمسح بيديه فوق جسدي. كان يتنفس مثل حيوان هائج، أُصبت بالقرف من رائحته المقززة، شعرت برغبة للتقيؤ، حاول أن يقبّلني، وينزع عنّي قميصي، استجمعت قوتي لأبعده عنّي، ابتلعت صراخي، لا أريد أن أدبّ الرعب في قلوب إخوتي، وأزيد همهم، خصوصاً أخي رؤوف الذي لو عرف بهذا لا شك أنه سيجهز عليه. ابتعدت عنه، وأنا أرتجف، لم أحرك شفتيّ بكلمة، أخرستني الصدمة، وقبل أن أتمالك نفسي عاجلني بالقول:

ـ طلبت مني أن أحضر لك مذياعاً أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ إذن، لماذا التمنع والمقاومة؟ ستهترئين هنا قريباً، وسيشيخ جسدك ولن ينفع لشيء. حتى وإن كنت مخطوبة، أين هو خطيبك الآن؟ الجميع رموك وتخلوا عنك.

بعد صمت طويل قلت له:

ـ حسناً، ستحصل على ما تريد. ولكن ليس الآن. إنني بحاجة إلى دليل، أحضر لي المذياع أولاً، وسأمنحك الباقي.

كنت مستعدة أن أفعل أي شيء للحصول على هذا المذياع. مع أن هذا الاستسلام بدا لي أشد سوءاً

من الاغتصاب، طوي ملف هذه الصفقة إلى الأبد، لأن كاباسيكو تملكه الخوف والرعب.

غالباً ما كنا نتحدث فيما بيننا عن موضوع الجنس، كنا بحاجة ماسة إلى تعويض هذا النقص، والتنفيس بأي طريقة. مع الزمن، يزول حاجز الحياء بين الأهل والأولاد تدريجياً. كنا نقول كل ما يمر برأسنا من أفكار بعيداً عن العيب والمحرمات. بعد مضي ست سنوات خلف قضبان السجن تحولنا إلى وحوش، لا تتورع عن ارتكاب المعاصي وانتهاك المحرمات. تمسكنا بالقيم الأخلاقية وحده هو الذي حمانا من الإقدام على أي فعل من هذا النوع. الهلوسات التي كانت تنتابنا لم تكن فقط جنسية، بل كانت أيضاً إجرامية، وصلت إلى حد التفكير بالقتل. كنا أحياناً نقول: من أجل الطعام قد نضطر يوماً إلى ارتكاب مجزرة إذا لزم الأمر.

أصبحنا في سنوات الأسر الأخيرة مثل حيوانات هائجة في أقفاصها. تفلّتنا من عقالنا، وأدرنا ظهرنا لصوت المنطق، كان الغضب المتأجج في نفوسنا يحرك خطواتنا إلى مزيد من العنف، والعدائية، والقسوة، لقد خسرنا أنفسنا، فماذا يهمنا بعد؟!

فلتسقط الأقنعة... لم نعد نؤمن بشيء...!

عائلتي

كانت أمي مثالنا وقدوتنا، خلال عشرين سنة، بقيت منتصبة القامة، لا تشكو ولا تتذمر. مع أنها كانت أكثرنا فجيعة ومصيبة. لم تحتمل مفارقة صغارها، بكت في سرّها لأنهم جوعى، ولأنهم فقدوا كل شيء، ولأن هذا السجن قد سرق شبابهم. بشموخها وكبريائها ألهمتنا الشجاعة. فكرة ركوب الأخطار، والهروب كانت فكرتها. كانت تعلم حجم المخاطر، وتعرف أنها قد تفقدنا في خضم هذه المغامرة، ولكن قناعتها كانت راسخة لا تتزعزع. خلال تلك السنوات الرهيبة، كنا نتحادث من خلف الجدران بدون أن يرى بعضنا بعضاً، اكتشفت أهمية الصوت. كنت أستشفّ حالتها النفسية من خلال نبرات صوتها، لا شك أنها كانت تستشف كذلك حالتي النفسية. كانت شاهدة على ضياع حياتي، وعاجزة عن فعل أي شيء لإنقاذي.

علاقتنا كانت دائماً قوية: كنا نتواطأ معاً حتى في الألم.

منذ نعومة أظفاري، لم يخفّ حبي لها يوماً. إنها حزينة من أجلي وقلقة من فكرة ألا أتمكن من

إنجاب الأطفال. كانت تعتقد أن هنالك لعنة تتربّص بي وتطاردني في كل محطات حياتي.

كنا نرهف الأسماع علّنا نلتقط صوتاً أو حركة لتعرف إحدانا ما تفعل الأخرى داخل زنزانتها، لنطمئن أنها ما زالت حية لم تمت، وأن أمورها تسير كالعادة. في الصباح، كنت أعرف أنها استيقظت، من جلبتها وهي تنظف، وتتناول الفطور مع عبد اللطيف، وتهتم به.

بعد ذلك كانت تتمشى داخل المساحة الضيقة، فيما كان عبد اللطيف يلعب بكرة القدم. كنت أتابع الأصوات التي كانت تصدر عن تحركاتهم من الساعة التاسعة صباحاً وحتى السابعة مساءً.

إننا ندين بالكثير لأخي عبد اللطيف. لم يعرف طوال حياته إلّا السجن. كان أكثرنا انسجاماً مع أمي، وحياته كانت عبارة عن سلسلة متواصلة من العذاب منذ أن أبصر النور. ومع هذا كان تفكيره صائباً، وذا بصيرة نافذة. لقد تفوق علينا في هذا المجال. كان وهو يمشي يستخدم ما يعرفه ليخترع ما كنا نفتقده ونحتاجه. كان في جعبته دائماً حلٌّ لكل معضلة، حتى إننا أطلقنا عليه لقب «جيو، يجد كل شيء».

لقد اكتشف مثلاً أنه يمكننا إعادة شحن البطاريات الفارغة وذلك بوضعها تحت الشمس الحارقة، أو بتغميسها في الماء المغلي. هذا الأمر كان مهماً بالنسبة لنا، حتى وإن كانت مدة استعماله محدودة.

منذ أن كنا في بير جديد، لم يتوقف عبد اللطيف عن التفكير لحظة واحدة بالهرب. انتزع القشرة التي كانت تغطي الحائط، كي يجري عليها تحليلاً. بعد عدة تجارب، تمكن من اختراع جفصين بمادة مصنوعة من مسحوق التايد والطحين، واخترع كذلك نوعاً من الإسمنت مؤلفاً من الرماد، والتراب. لقد ساهمت اكتشافاته بتسهيل عملية الهروب.

في تلك الأثناء شاب علاقتي بأمي نوعٌ من الغموض. رغماً عني، صادرت دورها. أصبحت بمثابة الأم لرؤوف وللفتيات.

ما زلت أتذكر كيف كانت ماريا وسكينة تلوذان إلى سريري وتختبئان بين ذراعي. وكيف كانتا تطرحان عليّ شتى أنواع الأسئلة المتعلقة بالحياة والكون والإنسان، والموت... كل ما لا تتجرآن على إخباره لأمي، كانتا تخبرانني به. في مثل سنهما، نشعر بالرهبة من أمهاتنا، فكيف إذا كان يفصل بيننا وبينها جدار سميك.

لقد توليت بنفسي الاعتناء بهم، وتثقيفهم، وتأديبهم، حاولت بكل الوسائل الممكنة رفع معنوياتهم، كنت أختهم الكبرى، وأمهم، وأباهم، ومستودع أسرارهم، ومرشدتهم، وحاميتهم. كان هذا الأمر

طبيعياً بالنسبة لي. كانت العاطفة التي أكنها لهم عميقة وأقوى من مجرد عاطفة أخوة. على غرار أمي كانوا هم أكثر ما أحب في الحياة. لأجلهم وحدهم كنت أتألم وليس لأجلي.

حاولت أن أحقق لهم ولو جزءاً صغيراً من أحلامهم. أعطيتهم دروساً في الرقص إرضاءً لماريا التي كانت تتحسر على ضياع حلمها بأن تصبح راقصة أوبرا. كذلك وضعت نظاماً غذائياً صارماً لسكينة كي لا يزداد وزنها وتصبح سمينة. سهرت على صحة ميمي، كنت ممرضة رهن إشارتها وفي خدمتها. صنعت الألعاب، والرسومات الجميلة لأخي عبد اللطيف، وكيف أنسى محادثاتي المطولة أنا ورؤوف التي كانت تتم بفضل «تمديداتنا».

كان من الواجب عليّ ليس فقط محبتهم، ولكن حمايتهم والذود عنهم كذلك بأفضل ما يمكن، كي يتابعوا حياتهم بأقل ضرر ممكن، فيما لو خرجنا يوماً ما من هنا.

كنا نفكر دوماً بالذي سنفعله حالما نخرج من السجن. كانت ميمي ترغب في الزواج وإنجاب طفل. أنا وسكينة وماريا كنا نريد أن نعيش معاً في قصر في منطقة باريس، كانت ماريا ستتعلم الطبع على الآلة الكاتبة كي تصبح سكرتيرة لي، فيما كانت سكينة تتوق إلى إعداد الولائم للمدعوين. وفيما سأصبح أنا مخرجة سينمائية كبيرة سيبقين هن وراء الكواليس.

عندها، سنشتري مزرعة في كندا، وسنعيش فيها جميعاً مع أزواجنا. أنا ورؤوف سندرس الطب في جامعة مونتريال وسنسكن في مبنى الطلبة الداخلي. بعدما نحصل على الإجازة الطبية، سنذهب لممارسة مهنتنا في الكاميرون. وهكذا كنا نجول على كل المهن والاختصاصات، ونزور مختلف الأماكن والبلدان. الحلم عزز صمودنا وبقاءنا. وعاطفتنا المتبادلة خففت من وقع مأساتنا بعض الشيء. تواجدنا مع بعضنا البعض شكل لنا دعامة معنوية ونفسية كي نتعالى على جراحنا، وكي لا نستسلم لليأس والإحباط مثلنا كمثل الجسد الواحد.

ولإدخال الأمل والبهجة إلى قلوبنا كنا نستعيد دائماً قول العراف الأعمى في آسفي: زوين، زوين بزاف.... رويداً، رويداً ستحصل المعجزة.

ليلة السكاكين الطويلة

رغم ما تتمتع به أمي من شجاعة وجرأة، ورغم ما تعرفه عن القصور ودسائسها كانت ساذجة

باستحقاق، وظلت تعتقد جازمة بأن الملك سيصدر عفواً بحقنا في ٣ آذار/ مارس ١٩٨٦، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستلامه العرش.

أما أنا فكان حدسي في محله، وما تلا لم يخيّبه.

في ذلك الصباح، حوالى الساعة العاشرة، دخل الحراس إلى زنزاناتنا. لم يتلفظوا بكلمة واحدة. كانوا يتحادثون بنظراتهم، ويركزون عيونهم فوق الشبابيك الحديدية التي كانت فوق الباب المصفح، وعلى بهو الزنزانة أيضاً. عندما خرجوا أخيراً، بدون كلمة واحدة، بدأ كل واحد منّا يعطي تفسيراً مختلفاً حول غرابة تصرفاتهم.

في اليوم التالي، في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، فتحوا كل الأبواب، ودفعونا باتجاه الخارج. كنا نتمايل ونترنح، لم نعد نحسن المشي، الضوء كان يخدش أعيننا.

كدنا نجن من الفرح، برؤية بعضنا مجدداً، إنها المرة الأولى منذ أعوام طويلة. لقد تغيرنا كلياً. منّا من نما وكبر، ومنّا من اقترب من الشيخوخة أو شاخ. لم تعد أمي تعرف فتياتها اللواتي كن صغيرات. تركت سكينة وماريا وهن في الرابعة عشرة والخامسة عشرة، وها هما امرأتان شابتان في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرهما.

أصبح رؤوف رجلاً، قامته أشبه ما تكون بقامة أبي. وعبد اللطيف غدا شاباً في السادسة عشرة من عمره. وأمي كعهدها ما زالت جميلة، ولكن آثار المصائب والهموم والأحزان كانت واضحة عليها. شعر حليمة وعاشورا صار بلون الرماد.

غدونا جميعاً كالجثث المتحركة، بقامات نحيلة هزيلة، وبوجوه شاحبة ممتقعة، وعيون محاطة بهالات زرقاء، ونظرات تائهة زائغة، وبشفاه جافة متقلصة، وبشعر متساقط. وبالكاد كانت سيقاننا قادرة على حملنا...

حليمة التي كانت تحتفظ بكسرة مرآة، بكت بحرقة عندما نظرت إلى نفسها فيها. لم تصدق أن هذا الشبح المرعب الذي يحدق بها كان هي.

ولكن فرحة اللقاء طغت على ما عداها. لا نريد أن ندع أيّ شيء يعكر صفوها وهناءها. كنا ممزقين ما بين الرغبة بالتعانق والتلامس، والرفض بإظهار ما كان يعتمل بداخلنا من ألم بسبب الفراق، أمام أعين جلادينا المسلطة علينا من كل حدب وصوب. لذلك لم نتخلَّ عن تحفّظنا. أذهلت تصرفاتنا

المتماسكة بورو، الذي راح يشجعنا على الاقتراب من بعضنا البعض وهو يقول: هيا تعانقوا، اعلموا أنه بمناسبة عيد العرش، سيسمح لكم، منذ الآن فصاعداً بالتواجد مع بعضكم بدءاً من الثامنة والنصف صباحاً وحتى الثامنة مساء.

شكراً، لأنهم منحونا هذا الإحسان بعد مضي خمسة عشر عاماً بين قضبان زنزاناتهم.

كنا نجتمع في الصباح داخل زنزانتي. دعّموا القضبان الحديدية التي كانت تغطي سقف الغرفة الصغيرة التي كنا نضع فيها متاعنا. تركوا الأبواب مشرعة، كي نتمكن من الخروج إلى باحة المعتقل. بعد طعام الغداء، كنا نُحتجز جميعاً سوية، حتى حلول المساء حيث يعاد فصلنا وتفريقنا عن بعض من جديد.

في البداية، غطت نشوة اللقاء شبح الخيبة واليأس الذي كان يخيم على حياتنا. كانت أمي ترمقنا بحزن وأسى. كانت تبكي في سرّها نكبتنا، وتتحسر، لم يبق منّا إلّا عظام ناتئة، وأشكال مخيفة. ومع هذا، كنا نعتبر أنفسنا محظوظين جداً، ونتربع فوق قمة السعادة، لأننا عدنا والتقينا. هذه «الحقبة السعيدة» امتدت فقط من شهر آذار/ مارس إلى تشرين الثاني/ نوفمبر. رحنا خلالها كالسابق نقوم بتمثيل بعض الأدوار المسرحية، كي نشغل أنفسنا بعض الشيء، ونطرد عنا الملل. بعد الغداء، كنا نستعين بالأغطية العسكرية لتأدية المشهد، فيما كانت أمي تقلد «بوليدور» وهو يعتلي دراجته، كنت أنا أقوم بدور المتحدثة الإذاعية، أما عبد اللطيف وماريا فكانا يتنكران بزي المخازنية، ويقلدان لهجتهم. كذلك، كنا ننظم «الألعاب البهلوانية» من وقت لآخر.

بعد أن نفتح السيرك بالقرع على الطبول والموسيقى، يدخل رؤوف أولاً وهو يحرك السوط بيده والذي كان عبارة عن مناديل صغيرة معقودة ببعضها البعض. ثم يدخل بإثره فيل صغير. إنها ميمي تمشي باتجاهه على قوائم أربع، كان نحولها مرعباً بهذا الثوب الأحمر والأسود الملتصق بجسدها.

عندما كان على رؤوف أن يضرب بسوطه الأرض، كان على ميمي أن ترفع ساقيها في الهواء، وكنا نحن ننفجر بالضحك. لم نشبع أبداً من المازحة، والملامسة، والمعانقة.

حوالى الساعة الثانية من بعد الظهر، كان رؤوف يأخذ قيلولته بعيداً عنّا. بعد هذه السنوات الطويلة اعتاد على الوحدة والعزلة. إنه بحاجة للاختلاء بنفسه من حين لآخر، كي ينعم بالهدوء، كان يسدّ أذنيه بطابات صغيرة، صنعها من فتات الخبز لهذه الغاية. استغرق صنعها عدّة ساعات. كانت

أحياناً تصل إلى أسماعنا زمجرته الغاضبة، في وجه الفئران الصغيرة، التي كانت تتحرق شوقاً للفوز بما كان يضعه داخل أذنيه من خبز.

في المساء، كنت كالعادة أواظب على «سرد الحكاية» ولكن بمرح وبشاشة الآن.

كان يحلو لعبد اللطيف أن يضع عينه فوق ثقب محفور في حمام زنزانتنا. مرةً عاين من موقعه شاحنة عسكرية، لم يتمالك نفسه من الإعجاب بها. حاول توسيع الثغرة كي يتمكن من رؤيتها بوضوح أفضل. ومع هذا ظلت الفتحة صغيرة جداً، بالكاد يصل حجمها إلى ما يساوي حجم قطعة نقد معدنية. في صباح أحد الأيام، كان في وضعيته كالعادة، بدون توقّع دخل الحراس. لم يكن عنده الوقت الكافي للتحرك، أخبروا بورو بأمره. حضر فوراً لمعاينة الفتحة بنفسه. قال لنا: أعلم جيداً، أنكم تبحثون عن طريقة للهرب.

كان اليوم هو يوم الجمعة. بناء على ذكائهم وحساباتهم الدقيقة، سننتهي من توسيع الفتحة بالكامل نهار الأحد.

أثلج صدري حماقتهم وغباؤهم. كان الثقب صغيراً، ويقع في مكان مرتفع عن الأرض، ما يجعله بدون أدنى شك الموقع الأسوأ لحفر نفق. يا لسذاجة عقولهم! هل يمكن لعاقل أن يصدق «رواية» بورو هذه...

في مساء اليوم نفسه، فرّقونا عن بعضنا بدون أي شروحات. في صباح اليوم التالي، أبلغوا أمي أنهم سيعيدوننا إلى الوضعية السابقة. قررت إعلان الإضراب عن الطعام إلى أن يتراجعوا عن قرارهم، ويسمحوا لنا بالاجتماع مع بعضنا مجدداً. التقطت هذه المحادثة عبر الحائط، أعلمت عاشورا بالنبأ، وهي بدورها نقلته لرؤوف.

في اليوم نفسه، باشروا بتدعيم الجدار ببناء جدار آخر أمامه. استمرت الأشغال ثمانية أيام، لم نكن خلالها نعرف ماذا كانوا يحيكون لنا. كادت هذه الضوضاء تفقدنا صوابنا. بعد أن كنا قد اعتدنا على الصمت المطبق.

تابعت أمي الالتزام بالقرار الذي اتخذته، امتنعت نهائياً عن الطعام. ولكنها رفضت أن نحذو حذوها. تريد أن تموت بمفردها. لعل تضحيتها بنفسها تعيد لنا حريتنا.

حاولتُ جاهدة أن أثنيها عن عزمها، لأن ذلك لن يؤدي إلى نتيجة، لكنها رفضت أن تصغي إلي.

في خضم الاجتماع العائلي الطارىء قرر الجميع السير على خطاها، باستثنائي أنا. كان يجب أن يتولى أحد منا مهمة التحاور مع بورو. وافقت بطيبة خاطر على القيام بهذا الدور، كان جسدي هزيلاً، ولا يتحمل الصيام. فيما استلقى الآخرون في أسرّتهم، وفّروا أحاديثهم، ورفضوا تناول أي شيء ما عدا الماء. حتى هذا امتنعت عنه سكينة نهاراً بأكمله، وكاد يغمى عليها، لولا أنني عدت وأجبرتها على شرب قليل من الماء، وانتصرت غريزة البقاء. خلال هذا «الإضراب المفتوح»، صاروا يحضرون لنا كميات ضخمة من المواد الغذائية. الخضار الطازجة، واللحم، والفاكهة كذلك. إنها مؤامرة واضحة. لذا تعمدت ألا ألمس شيئاً مما جلبوه لنا. كان طعامي لا يذكر، كنت تقريباً كالآخرين. في المساء، أتناول فنجاناً من الماء الساخن تسبح فيه وريقة من النعناع، كي لا أقع مريضة.

بعد مضيّ خمسة وعشرين يوماً، أتى بورو أخيراً كي يراني. شرع في حديث طويل ينضح بالنفاق والتزلف، يريدني أن أقنع الآخرين أن يتراجعوا عما يقومون به. وأعلن لي بأن كل ما سيفعلونه هو أن يدفنوا أول من سيموت منّا. وبأن لا أحد سيتدخل لإنقاذ حياتنا. لم أعره سمعاً.

عندما أدرك الحراس بأن المواد الغذائية بدأت تتكدّس. داهموا الزنزانة، كنا في اليوم الخامس والأربعين من الإضراب، ولم يتبقّ منا إلّا الجلد والعظم. وهكذا فكل ما تكبدناه ذهب مع الريح، لا أحد يريد أن يسمعنا.

إزاء اللاجدوى من نضالنا، أطبق اليأس علينا بالكامل. صرعنا الإخفاق، وقضى على آخر أملٍ لنا. يا لروعة الموت. يبدو أننا لم نكن حتى في عداد المساجين، كي تؤخذ مطالبنا بعين الاعتبار. وبما أن إضرابنا لا يتمتع بأي مصداقية أو مشروعية، فمن الطبيعي ألا يؤدي إلى نتيجة.

كان هزالنا مريعاً. اعتدنا على قلة الغذاء. لم تعد أجسادنا تتقبل الطعام. كانت كل لقمة تنزل كالسم إلى بطوننا.

طاول الاضمحلال قوانا، وأملنا، وحياتنا. أصبح الموت ملاذنا الوحيد. لأول مرة منذ خمس عشرة سنة، كنا نتضرع إليه كي يأتي ويخلصنا، وإلّا سنضع بأنفسنا حدّاً لحياتنا.

ما زلت أذكر كيف كانت تلك الأمسية الواقعة في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦. كانت السماء مرصعة بالنجوم، ولا يشوب صفاءها غيمة واحدة. في عتمة الليل، قطعت أمي شرايينها بمقصها الصغير.

قبل أن تلقي بنفسها إلى لجة اليأس، كانت قد رددت لي بأنها تحبني، وبأنها توصيني خيراً بأخوتي وأخواتي. بادىء ذي بدء، لم أحرك ساكناً، حافظت على رباطة جأشي. ثم إذا كانت تريد أن تموت فلا يحق لي أن أمنعها، إنه حق طبيعي لها. رويداً، رويداً بدأ الجزع يتسرب إلى نفسي. حوالى الساعة الرابعة صباحاً، ناديت عبد اللطيف، وطلبت منه أن يتحرى إذا كانت أمي حيّة أم ميتة.

من وراء الحائط أجابني بهلع: نبضات قلبها ضعيفة للغاية.

هرعت إلى الباب المصفّح، وتعلقت بالشباك الحديدي ورحت أصيح وأصرخ:

ـ أغيثوني، أمي على وشك أن تموت، ونحن على شفير الانهيار.

بحّ صوتي من كثرة الصراخ، لم يجاوبني أحد. كنت أسمع صدى كلماتي التي كانت تتردد في العتمة، شعرت بالمذلة والمهانة وأنا أتوسل إليهم وأناشدهم أن يهبّوا لإنقاذ أمي. هددتهم أن أفجر قارورة الغاز الصغيرة، لتحولنا جميعنا إلى أشلاء، ما لم يتحركوا. بفزع شديد، دخلوا إلى زنزانتها. سمعت صراخ بورو. لكنهم خرجوا دون أن يعتنوا بها.

شرحت لعبد اللطيف كيف يضمّد لها جراحها بخرقة من أحد الشراشف، كانت أمي ما تزال تتنفس، لكنها فقدت الكثير من دمها.

نجت هي، لكننا نحن سنموت. بدأنا جميعنا بالهلوسة. اليأس المتراكم خلال هذه السنوات الأربع عشرة الفظيعة، انحطاطنا الجديد والعقلي ظهر من خلال هذه الهستيريا الجماعية التي كان من المستحيل إيقافها. حتى الآن كنا ما نزال نتحاشى الثورة والتمرد. لكننا فجأة في تلك الليلة تحولنا جميعنا إلى مجانين.

عمّ اليأس جميع الزنزانات. عبد اللطيف كان يراقب حالة أمي، عاشورا وحليمة تنوحان، وتشدان شعرهما، ونحن كنا غرقى في مأساة نفسية، وأطبقت علينا الدائرة بإحكام، فلم يعد هنالك وجود للزمان والمكان بالنسبة إلينا.

«ليلة السكاكين الطويلة» كما أسميناها كانت من أفظع ما مرّ بنا في الوجود، وكأنها نهاية العالم.

أصبح كل شيء ممكناً. قتل الأخ أو الأخت، الانتحار، تفجير السجن بقارورة الغاز التي كانت لدينا.

كل واحد منا كان يريد أن يكون البادىء بالخطوة.

أجرينا سحباً بالقرعة، فازت سكينة، تمدّدت على سريرها. أخذت وضعية مريحة، وجلستُ أنا قبالتها، وشرعت في جرح مغصمها بقطعة حديد من علبة السردين، وصنّارة صوف.

غرزت قدر استطاعتي، اخترقت اللحم وأنا أنشج. وكأن هذا جرحي. تغضّن وجهها من الألم، لكنها كانت تبتسم لي. أخيراً، نجحت أن أثقب لها شرياناً. واندفع الدم. كانت سكينة تبتلع الألم، وكانت تعتلي وجهها أمارات النشوة. وما لبثت أن غابت عن الوعي.

تبادلنا النظرات أنا وماريا وميمي، اعتقدنا أنها ماتت. كانت عيوننا مليئة بدموع لم تشأ أن تتساقط بالرغم من يأسنا، كنّا سعداء من أجلها، لأنها لن تتألم بعد اليوم.

عادت سكينة إلى وعيها بعد ربع ساعة. ارتعدت فرائصها وأخذت تنتفض عندما اكتشفت أنها ما زالت على قيد الحياة. ألقت بنفسها على صدري وأخذت تتهمني وتقول:

ـ لا تريدين أن تقتليني أليس كذلك؟ لا تريدينني أن أموت؟

ـ بل صدقيني، أريدك أن تموتي. سكينة صدقيني حاولت كل ما في وسعي... فشل الأمر.. انظري إلى كمية الدم التي فقدتها... إنها الحقيقة. صدقيني.

حاولت جاهدة أن أقنعها أنني لم أتعمد أن أخطىء في تنفيذ مهمتي.

بعد أن تناقشنا فيما بيننا لفترة وجيزة، فيما إذا كان ينبغي تضميد جرحها أم لا، تغلب علينا النعاس، وقعنا فوق الأسرّة، لم ندر إذا ما كنا نياماً أو كان مغمى علينا. كنا خائري القوى.

هذه المحاولات الفاشلة للانتحار، انطبعت في نفوسنا إلى الأبد. الاقتراب من الموت لم يكن مختلفاً عنه.

في تلك الليلة، بعد أن متنا جميعاً وانتقلنا إلى الضفة الأخرى، أتت قوة خفية جبارة، وأعادتنا إلى الحياة مجدداً.

استمر الكابوس حتى صباح اليوم التالي، سمعت وقع خطوات الحراس وهم في طريقهم إلى زنزانة رؤوف... ثم تعالت الصيحات المذعورة.

من تحت الباب المصفح، تابعت تحركاتهم المضطربة باتجاه زنزانته. ليلة أمس، «ليلة السكاكين الطويلة»، قطع رؤوف هو أيضاً شرايينه. كاد ينجح... اعتقدوه ميتاً.

انتظرنا طوال النهار... دون أن يتكرموا علينا بأي خبر. في المساء، ألقوا جسده في الباحة التي

يلفها البرد القارس. حيث تركوه مسجّى هناك بدون علاج أربعة أيام كاملة. كان رؤوف في غيبوبة. إن أيامه معدودة. لعل هذا ما كانوا يفكرون فيه. لم يضعوا في حساباتهم أنه ما زال قادراً على الخروج من هذه المحنة سليماً معافى. شيئاً فشيئاً، أخذ أخي يستعيد وعيه، في الليلة الرابعة، كان لا يزال راقداً في الباحة ورغم أن جسده كان واهناً، إلا أن ذهنه كان حاضراً. حين ألقوا به في الباحة وسمع القائد شفيق يتحدث إلى جنوده، تظاهر أنه ما زال في غيبوبته.

ثم سمعه يتوجه بحديثه إلى بورو قائلاً:

ـ هذا الوضع يحول حياتي إلى جحيم لا يطاق. أشعر بالخزي والعار عندما أنظر إلى هؤلاء الأطفال المساكين. شبح هذه الجريمة التي نقترفها يطاردني وينغص عيشي. لا أستطيع أن أساهم في قتل الأطفال. لم يعد بإمكاني المضي أكثر في هذه المهزلة، ماذا يريدون؟ قل لي ماذا يريدون؟

أجابه بورو:

ـ أنت لم تدرك الأمر بعد، مع أنه واضح، سيموتون جميعاً، وسيدفنون هنا. وحتى يأتي أجلهم، ما علينا إلّا الانتظار. هذه هي الأوامر.

كان لوقع كلامهم أثر الصدمة الكهربائية على أخي. وبقدرة قادر، استجمع قوته، وعاد إلى زنزانته مغلقاً وراءه الباب.

راح الليل بطوله، ينزع البلاط، ويوسع الثغرة الموجودة في الحائط الذي يفصل بينه وبين الممرّ. فعلت حليمة وعاشورا من جهتها الأمر عينه. وهكذا، تمكنت من الاتصال به، والتحادث معه. كان هنالك جدار واحد يفصل بيننا. تمدد من جهته على الأرض كما فعلت أنا من جهتي. لم يكن بإمكاننا رؤية بعضنا. لكننا نجحنا بالتلامس بعد أن دفع كل منا يده دخل الفتحة باتجاه الآخر. كان يقبض على يدي أكثر مما يلامسها.

وأنا مغمضة العينين، كنت أستمع إلى صوته، حاولت أن أستعيد صورته، إنه نسخة طبق الأصل عن أبي.

كان يائساً لدرجة لا ينفع معها أي طفيف أمل. صادر الحرس الراديو، عثروا عليه وهم يفتشون زنزانته، انقطعت صلتنا نهائياً مع العالم. شعر رؤوف بعقدة الذنب، وحمّل نفسه مسؤولية ذلك.

قال لي وهو ينشج بالبكاء:

ـ كيكا، سنموت هنا، هذا ما يريدونه. لقد سمعتهم. قالوا إنهم سيجهزون علينا. ومن سيموت أولاً سيتم دفنه في باحة السجن.

قضيت ساعات وساعات، وأنا أحاول أن أهدىء من روعه. وأبعث الطمأنينة والسكينة إلى نفسه. رحت أبدد مخاوفه وشكوكه وأعيد إليه بعضاً من الأمل الضائع. لا أعرف كيف تسنى لي ذلك. مع أن حالي كان لا يقل سوءاً عن حاله.

قلت له:

ـ لن ندعهم ينفذون مخططاتهم... سترى أننا سنقاوم...

بقينا في هذه الوضعية، اليد باليد حتى الصباح. كانت عيناي مطفأتين... لكن لوعتي كانت متوقدة.

ساهمت «ليلة السكاكين الطويلة»، بالإضافة إلى كلام بورو، في تغيير وجهة سيرنا. لن نكون مستلبين بعد اليوم، ولن ندعهم يعيشون أكثر بحياتنا. عادت أرواحنا إلى التوثب، والأمل، والتحدي والمقاومة...

مشروع الهرب بات متبلوراً لدينا. لا ينقصنا إلّا البدء بتنفيذه.

النفق

تلقى بورو أوامر تقضي بتشديد الحراسة علينا ومراقبتنا. كل الأجسام الحادة والجارحة تمت إزالتها، استبدلوا ما كان قد تبقى من أغراض زجاجية بأخرى من كرتون، نزعوا الزجاج أيضاً عن المصباح، صادروا السكاكين والشوك، والفناجين، وقناني الزيت البلاستيكية التي كان يحلو لنا أن نضعها بعد أن نقطعها نصفين تحت الماء المغلي، فكان شكلها وهي تنكمش يثير ضحكنا.

منذ الآن فصاعداً، كل أيام الاثنين، والأربعاء، والجمعة، في الساعة الثامنة صباحاً، كان الحرس يفتشون الزنزانات بحثاً عن أقل أثر لنفق أو لثقب. إنها إجراءات الكولونيل بن عيش الذي لا يفوّت فرصة لكي يسمّم حياتنا.

تلك المداهمات لم تكن بالأمر السهل. تصميمنا كان قوياً لا يتزعزع. لقد قررنا جميعنا الهرب. انتهى الأمر.

منذ «ليلة السكاكين الطويلة»، ترسّخت لدينا هذه القناعة، وعرفنا أن لا خيار آخر أمامنا. إنهم يراهنون على تساقطنا وتلاشينا. لكن لا، وألف لا، لن نسمح لهم أن ينالوا منّا بعد اليوم...

لكثرة ما كان رؤوف يرهف السمع إلى خطوات الجنود أثناء التبديل والمناوبة أصبح يعرف نوعية كل شبر من الأرض، نسبة الرطوبة فيها والارتجاج. طلبنا من عاشورا وحليمة أن تحفرا في زنزانتيهما، وترسلا عينة من التربة كي يحللها. كل واحد منا فعل الشيء عينه في زنزانته.

بعد آلاف المناقشات، وعدّة تجارب عند عاشورا وحليمة قررنا أن نحفر نفقاً في الزنزانة المعتمة المحاذية لنا، تلك التي نضع فيها حقائبنا، ومؤونتنا. والبلاط كان في حالة تساعد على إخفاء الحفريات التي ننوي القيام بها.

هنالك سبب آخر دفعنا إلى اختيار هذا المكان بالذات، وهو أننا عندما وصلنا إلى بير جديد، بعد أن رفعت العصبة عن عيني، عرفت أن هذه الزنزانة تفضي إلى حقل بور. وتأكد لنا هذا الإحساس، لأننا لم نسمع يوماً أيّ صوت يصدر منه، أو ضجة، أو حياة، أو حتى نهيق حمار. من المؤكد أن السجانين كانوا قد ضغطوا على مالكه لكي يهجره.

أمي ورؤوف، مهندسا الفريق، هما اللذان وضعا تصميماً للمشروع الذي تم تنفيذه في هذه الزنزانة المظلمة، التي تقرر نزع بلاطها. حلل رؤوف لون التراب الذي أرسلته له، وشرح لي كيف يمكننا أن نتعرف على طبقات الأرض. الصلصال يعني بأنني وصلت إلى الأساسات، وعندها يجب متابعة الحفر بشكل عامودي. كنت أصغي إلى إرشاداته بإمعان، كان يغلي من حنقه لأنه لا يشاركنا بنفسه في تنفيذ الأشغال. كان يروح ويجيء في زنزانته مثل وحش هائج في قفص.

في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧، بعد ظهر اليوم الذي قررنا فيه نهائياً المضي قدماً فيما اعتزمنا القيام به، نزعنا الإسمنت. ورفعنا البلاطات وذلك بملعقة، ومقبض سكين، وغطاء علبة سردين، وقضيب حديد، انتزعناه من أسرّتنا.

وعندما أقول نحن، فإنما أقصد أنا، وماريا، وسكينة، أما ميمي فكانت ضعيفة لدرجة لا تستطيع فيها أن تساعدنا، لكنها كانت تشجعنا، وكانت فعالة عندما يتعلق الأمر بتنظيف الأرض من آثار الركام.

خلال ساعتين، وبالرغم من خوفنا من أن يكتشفوا أمرنا، قطعنا مرحلة مهمة. انتزعنا ثماني

بلاطـات. وعـلى مـدى أسـبوعين، تمرّنا عـلى أن ننزعهـا، ونعيـد إلصاقها بالإسـمنت الخـاص الذي اخترعه عبد اللطيف، وهو مزيج مؤلف من التراب والرماد والمطاط. بما أن هذا لم يكن كافياً، وضعنا استراتيجية كي نحقّق إنجازاً مهمّاً بمساعدة القضيب الحديدي الغليظ الذي كنا نخفيه دائماً في أسرّتنا، قمنـا بتوسـيع الثغرات التي كانت قـد أحدثتها الجـرذان والفئران في الجدران، والتـي كان الحرس قد سدّوها بالإسمنت الذي أعدنا فتحه مجدداً. كنا نرطّبه بالماء، كي لا يشتد ويقسو ويتصلب.

إزاحـة البـلاط لم تكن بالأمر السـهل. كان يجب الانتباه جيـداً وأخذ الاحتياطـات اللازمة، مخافة أن ينكسر أثناء القيام برفعه، وكذلك اسـتخدمنا مبشرة خضار قديمة لتنحية الإسـمنت الذي يحيطها ويمسك بها.

ولكي لا نجذب أنظار السّجانين إلينا، كنا ننتظر أن تـتعالى صيحات طيور السـنونو: هذه الضجة الجهنمية التي كنا نتوتر ونشمئز منها، أصبحت أخيراً مجدية ونافعة لنا.

في اليوم الذي نجحنا فيه أخيراً، بـإزاحة البلاطات المطلوبة وبالشكل الصحيح، انتقلنا إلى الخطوة التالية، حفر ثغرة تصل إلى مستوى الأساسات.

بعد طبقة الإسمنت التي كسرناها، بمساعدة قضيب الحديد، وقعنا على بعض الأحجار الصغيرة، ثم الضخمة. في اليوم الأول واجهني حجر بضخامة الصخرة. كان من المستحيل متابعة الحفر. نقلت هذا الخبر السيّء إلى رؤوف. قال لي بلهجة آمرة:

ـ اعملي على اقتلاعه.

ـ ولكن أين سأضعه؟

ـ تدبري أمرك. تريدين الهرب أم لا؟

في زنزانـة أمـي وعبـد اللطيـف عليّـة مرتفعة عـن الأرض. حيث توضـع عادة بعـض الأغراض والحاجيات. يتمّ الوصول إليها عبر سـلّم خشـبي. بعد تلك الليلة الليلاء «ليلة السـكاكين الطويلة» نزع الحرس السلّم، وسدّوا الفتحة بحائط قاموا ببنائه.

ما إن خرجوا من الزنزانة، حتى سارعت أمي ببعد نظرها، إلى رفع عبد اللطيف فوق كتفيها، كيف يعيد انتزاع إحدى اللبنات بسرعة، قبل أن يجف طينها، ويصبح من المستحيل تحريكها من مكانها.

كنـا قد حفرنا حفرة ضخمة تحـت سريـري بـين زنزانة والدتي وزنزانتنـا. أخرجنا «الصخرة» بعد

تعب ومشقة حيث تمكنت أمي وعبد اللطيف من إخفائها في كوة مع أحجار أخرى أصغر حجماً. إدخال الأحجار واحداً تلو الآخر وبهذه الطريقة الملتوية لم يكن بالأمر الهين، وقد أرغمنا بالطبع على توسيع الحفرة. كان عبد اللطيف أرشقنا في التسلق وكانت والدتي تمده بالأحجار بغية وضعها بعناء وبشتى الحيل بين أكوام من الملابس التي استعملناها يوم ذاك ككواتم للصوت.

كنا نحاول أن تتم عمليات نقل الأحجار في الوقت الذي يدار فيه المولد الكهربائي، وذلك كي لا يرتاب حراسنا.

أما الأحجار التي كانت تعترضنا ونحن نحفر النفق فكانت تستقر في زنزانة الوالدة التي كانت تحزمها في خرق ثم تحمل عبد اللطيف على أكتافها كي يتمكن من رميها من كوة غرفتها الضيقة.

كان الحراس يدققون في آثار الرطوبة البادية على الجدران وكانوا لا يتنبهون لما ابتدعه عبد اللطيف صاحب الخيال والحيل، إذ رأى أن يسد الثقوب بين الأحجار بخليط يشبه الكلس، هو عبارة عن طحين وماء ساخن كان يضيف إليه حفنة من مسحوق الغسيل. وكي يجف هذا الخليط العجيب بسرعة كانت حليمة وعاشورا تشعلان تحته ناراً توقدانها ببعض الأغصان. كان الصغير عبد اللطيف يجول وهو على أكتاف الوالدة بصحنه المليء بمسحوقه ليمحو عن الجدران آثار الرطوبة.

لما تقدم بنا العمل أضحى رمي ما يعترض طريقنا من رمل وأحجار يزداد صعوبة. وكان البلاط المفرغ من الداخل سيكشف ما نقوم إن خطرت ببال أحدهم فكرة ملامسته أو القرع عليه.

صنعت والدتي من سراويلنا البالية مساند مستطيلة مختلفة الأحجام وكنا نملأها بالتراب الذي كنا نخرجه. كنا نعمل كفريق في مصنع بشكل آلي،كنت في حفرتي أملأ صفيحة زيت قديمة تزن خمسة ليترات بالتراب، ثم أشد الحبل فتتنبه أخواتي في الأعلى أن رفع الصفيحة قد حان فكن يرمين الفائض من التراب داخل الزنزانة ثم يخلطنه بماء تكون مريم قد ملأت به الدلاء، ثم تعجنه وكأنه خبز. عاشورا وحليمة كانتا متخصصتان بصناعة الخبز وكانتا تتسللان إلى زنزانتنا من كوة، كبرت مع الأيام، كانت قد شقت في الجدار الفاصل بين زنزانتهن وزنزانتنا. كان عبد اللطيف يتسلل بدوره من الكوة التي كنا قد حفرناها بين زنزانته وزنزانتنا كي يشاركنا هو أيضاً في تنفيذ مشروعنا.

كان النساء الثلاثة يصنعن من التراب أشكالاً مكورة بحجم قبضة اليد وكنا نخبئها في زنزانة الوالدة وكانت الوالدة تملأ مساندها بها ثم تقفلها وتخيطها، وكان عبد اللطيف يمرر هذه الأكياس من

الكوة وبدورنا كنا نعيدها إلى النفق.

بعد ليال من الحفر بلغنا الأساسات فتبدل لون التراب من الأحمر إلى الرمادي، حينها شرعنا نحفر بشكل أفقي، فبحسب نصائح رؤوف وحساباته لا بد من حفر نفق طوله خمسة أمتار كي يكون مخرج نفقنا خلف السورين.

خلال عملنا لم نشعر مرة لا بثقل التراب والأحجار ولا بتعب أو جهد، وكأن قوة جبارة سيطرت علينا فجعلتنا نتصرف كحيوانات، نعم حيوانات لا بشر، تعمل بصمت وهي منكبة على عملها. كان الكلام بيننا نادراً، فقد كنا نتفاهم بالإشارات والنظرات.

أفقدني هذا العمل أظافري، أما أصابعي فما عدت أميزها عن الجروح التي أخذت تغطيها، كما أضحى جلدي عبارة عن ندوب. ورغم كل تشوهاتي لم أكترث لمصابي. كنا نضيء ليلنا بمصابيح نصنعها بأنفسنا. كانت الوالدة قد تعلمت صناعة الفتائل يوم كانت طفلة تعيش في الريف، وكنا نغمس هذه الفتائل في الزيت ونشعلها كل مساء.

حين كنت أخرج من جحري كنت أتساءل ما إذا كنت في يقظة أو حلم فالوجوه الكالحة المحاطة بشعر مغبر والأجساد الهزيلة المضاءة بأشباه شموع تضيء ما في وسعها ضوءاً رطباً ينعكس على جدارن مثقوبة وعلى أرض منثورة بالتراب والأحجار، هذه الأطياف التي كانت تظهر لي كانت أطياف أموات ما زالت فيهم بقايا حياة لم تغادرهم.

لم يكن الحفر من الأمور الصعبة على القوارض التي تقمصناها... حوالى الرابعة فجراً حين كنا نسمع نهيق الحمار كورنليوس كنا نتوقف عن العمل ونحاول إعادة الأمور إلى حالها فنقفل النفق ونسد الكوات بين زنزاناتنا. حين بدأنا بحفر النفق لم يكن إقفاله بالأمر اليسير. لكننا سرعان ما ابتدعنا تقنيات تعيننا على إخفاء مخططنا. كنا نضع المساند الضخمة قبل المساند الصغيرة ونثبتها بالأحجار الصغيرة والكبيرة وكنا قد أخذنا نرقم الأحجار لتيسير مهمتنا. ملء الفراغ ليلة بعد ليلة لم يكن ترفاً فقد كنا نخشى أن يتنبه حراسنا أن ما وراء الأحجار قد بات خالياً. ولمزيد من التمويه كنا نضيف على إنجازنا تراباً أحمر مبلولاً بالماء وبعض الإسمنت كي نلصق البلاط عليه وكان الكلس يعيننا على تمويه الكوات. مهمات التمويه والتزيين هذه أوكلت جميعها لسكينة التي قامت بعملها على أكمل وجه.

مع شروق الشمس، كانت جميع الحفر تعود إلى حالها ولم يكن من السهل على أكثر المخيلات

اتساعاً تصور النفق الذي كان يحفر داخل هذه المساحة الصغيرة. و كان من واجبي، قبل استيقاظ الحراس بساعتين تقريباً، تنظيف الزنزانة من التراب والغبار. أحياناً كان الوقت يداهمني، فما إن ألبس ثيابي حتى أسمعهم وقد دخلوا غرفة الوالدة. كانت تحاول تأخيرهم ما استطاعت، طارحة عليهم أسئلة عجيبة سائلة إياهم أن يؤمنوا لها مطاط إطارات قديمة لكي تصنع لنا منه نعالاً أو أي شيء من هذا القبيل.

كان جزعنا يتحول رعباً في بعض الأحيان. مرة نشفنا الكلس واكتشفنا في الصباح أن التراب من تحته ما زال رطباً تاركاً على البلاط دوائر صفراء اللون. حاولنا ما استطعنا محو الآثار وبلغنا الوالدة بمصابنا كي تحاول استبقاء الحراس معها أطول فترة ممكنة. ولحسن الحظ لم يلاحظوا شيئاً.

ذات مرة كنت أحفر ببطء حين سمعت عطسة أحد الحراس وكأنه على بعد خطوات مني. فتكورت على نفسي وعدت إلى موقعي. حين خرجت من نفقي استقبلتني وجوه أخواتي القلقة. ثم خيم الصمت الشديد على زنزانتنا. توقعنا أن يفتح علينا الحراس الباب، لكنهم لم يفعلوا، فعدت إلى جحري. حين كان الجنود يدخلون إلى زنزانتنا بهدف تفتيشها كنا نقبع في أسرتنا متذرعين بالتعب والمرض. كان الحراس يفتشون الزنازين بدقة مسلطين أضواء كشافاتهم تحت الأسرة وفي الزوايا عند السقف. كانوا يقرعون الأرض بعصيّهم لتقصي أي صدى مريب. كان رؤوف والوالدة يعيشان على أعصابهما حين يسمعان وقع خطواتهم الثقيلة وضرباتهم على الجدران. لكن شعورهم بالهلع كان مشوباً بحالة استلاب لا توصف، فقد كان رهاننا يوم ذاك رهان حياة أو موت، وكان هذا الإحساس مسكراً. ففي نهاية النفق قد نخرج من سباتنا. كنت أنسى آلامي وجوعي ويدي الجريحتين اللتين تسببان لي أوجاعاً حادة ما إن أتنفس أو أنحني.

لحسن الحظ لم يفكر الحراس مرة بالسير على بلاط زنزانتنا. كانوا يدورون حوله ويتوقفون أمامه فقط لا غير. كنا مقتنعين أننا بحماية العذراء مريم، فحين فتحنا الأرض للمرة الأولى كانت تضاريسها ترسم صليباً بطول البلاط. وقد صنعنا نسخة عن هذا الصليب بالكرتون كنا نضعه على التراب قبل إعادة الأمور إلى حالها. وقد أطلقنا على النفق اسم «نفق مريم». كان إيماننا بعجائبية هذا الصليب عظيماً، وكنا كل ليلة نصلي مرتين، مرة ونحن نفتح النفق وأخرى ونحن نقفله. وبما أننا رفضنا الإسلام لأنه لم يقدم لنا أي شيء جيد اخترنا العقيدة الكاثوليكية. لقد أمضت أمي طفولتها في مدرسة للراهبات

وكانت بالتالي تعرف جميع الصلوات عن ظهر قلب وكانت رغم تمسكها بعقيدتها الإسلامية، وبعد تردد، قد لقنتنا هذه الصلوات. شقيقتي منى اختارت لنفسها اسم مريم تيمناً بالعذراء، وقد فتحت الطريق لعبد اللطيف وسكينة لتغيير أسمائهما فقد كان الملك الحسن الثاني هو الذي اختار لهما أسماءهما، وكانا لا يريدان قبول هذه المنة منه. قررت سكينة أن تطلق على نفسها اسم ياسمينة أما عبد اللطيف فاختار اسم عبد الله. من بين أخواتي الثلاث تمسكت ماريا وحدها بقرارها. أما الاثنتان الأخريان فغيرتا رأيهما حين وجدتا أن ازدواجية الأسماء لا تناسبهما.

خلال النهار كنت أتابع سرد القصة، قصة مشروعنا، وكأننا تحت تأثير مخدر ما. كنا لا نأكل شيئاً تقريباً، وننام ساعات قليلة ونعيش على أعصابنا. كنا نتواصل مع رؤوف عن طريق «الكوة» فنسرد له تباعاً ما أنجزنا. عدم اشتراكه معنا كان يغضبه وكان يحفر بدوره من جهته.

ذات ليلة أسعدنا وفاجأنا حين انضم إلينا، لكنه لم يعد الكرة ثانية لخطورة المغامرة ولتردي صحته. فهو مثلي كان يشكو من التهابات ومن هزال سببه الحرمان. كنا، هو وأنا، متورمين. فقد كان طوله الفارع (متر وخمسة وثمانون سنتمتراً) لا يعينه على التحرك بيسر في هذه الحفرة.

لكنه ومن بعيد كان يسدي لنا بنصائحه الهندسية، فقد طلب منا أن ندعم النفق كي يضمن لنا مزيداً من الأمان. حين انتهينا من الحفر طلب مني أن أبحث عن مدخراتي من أخشاب كنت قد جمعتها حين وصلنا إلى هذا المكان. كنت قد خبأت الأخشاب في قبو صغير فوق حمامنا وذلك قبل أن يقرروا حرماني منه. هذه الكوة كانت بارتفاع ثلاثة أمتار عن الأرض تقريباً. ولبلوغها تسلقنا ذات ليلة الواحدة على أكتاف الأخرى ونحن نقهقه من الضحك. لقد كنا في حاجة ماسة لهذه الضحكات. ماريا بكيلوغراماتها الثلاثين كانت أرشقنا، وبعد ألف محاولة فاشلة تمكنت أخيراً من بلوغ المخبأ والحصول على الحطب المخبأ فيه. بعد فتح الكوة كان لا بد من إغلاقها. وكانت مهمة صعبة على هذا الارتفاع. لكننا تمكنا من تنفيذ خطتنا وأقفلنا الثغرة بالمزيج الذي صنعه عبد اللطيف والذي لم يجف بالسرعة المرجوة رغم كل ما بذلناه من جهد.

مع شروق اليوم التالي استبقتُ أسئلة الحراس فأبلغتهم بأن الماء يرشح على الحائط وأنه لا بد من إيجاد وسيلة لإصلاح ذلك. ولما كنت أعرف أن أي طلب من طلباتنا لن ينفذ يوماً كنت مطمئنة أنهم لن يفعلوا شيئاً.

يوم الثامن عشر من شهر نيسان/ أبريل بلغت الأمتار الخمسة المتفق عليها وتوقفت عن الحفر. كنت قد عملت بلا كلل وبلا شكوى رغم كرهي الطبيعي للأمكنة المغلقة. كنت قد تقمصت جسد حيوان من فصيل الزواحف أو حشرة تعيش في التراب. خلال تلك الأيام العصيبة كنت أشعر بأنني قاب قوسين أو أدنى من الجنون.

كنت أحياناً أتوقف فجأة عن التنظيف، ألطم رأسي وأقفل أذني حين كان يخيل لي أنني أسمع خطواتهم أو صرير المفاتيح في الباب. حينها كنت أتوقف عن العمل وأرتمي على الأرض متوقعة وصول أحدهم وقلبي يكاد ينفجر من الخوف لكن أياً منهم لم يدخل علينا.

هذه الأصوات لم تكن تفارقني. كنت أسأل البنات باستمرار إن كانت الأمور تسير بشكل عادي. كنت أعيش ومشروع الانتقال من العقل إلى الجنون لا يفارقني. كنا قد توافقنا على الهرب معاً في شهر كانون الأول/ ديسمبر وخططنا لمغادرة معتقلنا في ليلة شتوية لا قمر فيها، في ليلة يكون فيها حراسنا المغاربة يصطكون من البرد ويقبعون في غرفهم متدثرين بملابسهم الصوفية من قمة الرأس حتى القدمين. كنا نريد لفرارنا أن يتم تحت جنح ليل يحمينا، لذا أقفلنا النفق وموهنا البلاط ونحن نعرف أننا سنعيد مباشرة عمليات الحفر قبل أسبوعين من الموعد المضروب.

كنا قد عقدنا جملة من الاجتماعات العائلية لنقرر من سوف يهرب وكيف ستتدبر الأمور حين سنستعيد حريتنا. كنا لا نملك درهماً، بيد أن سواراً من أساور الوالدة وهو هدية من الوالد يحمل اسمها واسمه قد بقي معها، عاصياً على جميع ضروب التفتيش، اجتهدنا جميعاً لمحو الأسماء عنه بهدف بيعه فور خروجنا إلى الحرية.

بقليل من الكرتون والمطاط والطحين تمكن عبد اللطيف من صناعة مسدس يشبه المسدسات الحقيقية وذلك بإشراف رؤوف الذي أولع في شبابه بالأسلحة النارية، وكان قد أخذ دروساً في كيفية استعمالها. هذا المسدس الوهمي صنعناه ليكون بمثابة خشبة خلاص تنقذنا في الظروف الحرجة. أما معرفة مكاننا جغرافياً فكانت على قائمة أولوياتنا.

كانت أمي تصغي بدقة إلى أزيز الطائرات المدنية المارة فوق رؤوسنا فاستنتجت أننا بين الدار البيضاء ومراكش وأننا على الأرجح أقرب إلى الأولى. هدفنا الثاني والأهم كان أن نفكر بطريقة تبعدنا قدر المستطاع عن الحراس وملاحقاتهم. كنا قد رسمنا وتخيلنا كل ما قد يحدث لنا إن نحن تمكنا من

الفرار. تخيلنا خططاً واقعية وأخرى أقرب إلى السيناريوهات السينمائية. كنت أتخيل في إحدى الخطط أنني قد بلغت طريقاً عاماً تمر به السيارات. للفت أنظار سائقي الأجرة، وكي لا أثير ريبتهم، كنت أرى نفسي وأنا أقوم بتمثيل دور فتاة هوى وذلك رغم اعتراض والدتي ورؤوف. وبعد إغواء السائق أخطط لتهديده بالمسدس الوهمي وحين سترتعد فرائصه سوف أنادي أخوتي ونصعد كلنا داخل سيارة السائق المرتعب.

سألني أخوتي وأنا أسرد على مسامعهم قصة هربنا المتوهمة ماذا كنت لأفعل إن لم يكن السائق وحده. الأمر بسيط أجبتهم سوف نضرب مرافقه حتى الإغماء بقطعة حديد تمكن عبد اللطيف من نزعها من إحدى النوافذ. هذا السيناريو العنيف كان واحداً ضمن مجموعة طويلة، فلو أبدى السائق تجاوباً معنا فلن نؤذيه بالطبع وكنا سنخبره أننا مهاجرون نعيش في بلجيكا وأننا قد جئنا إلى المغرب لزيارة أهلنا، وأن سيارتنا الفولفو قد تعطلت وأننا نبحث عن ميكانيكي يعيننا على تصليحها.

جميع خططنا المتخيلة كانت تفضي بنا إلى السفارة الفرنسية، فقد كنا قد توافقنا على طلب اللجوء السياسي.

لبلوغ هدفنا هذا، أي الوصول إلى السفارة الفرنسية، كنا سنحتاج إلى وقت كافٍ لتأخير اكتشاف الحراس لفرارنا. ويوم هربنا كانت الخطة تقضي بأن تسعى أمي إلى استبقاء الحراس في زنزانتها أطول فترة ممكنة وذلك كي لا يبدؤوا عمليات البحث عنا. كنا نفكر معاً بكل تفاصيل خططنا وكنا قد جمعنا كميات من الفلفل كي نستعمله إذا ما اعترضتنا كلاب شاردة. وكانت أمي قد خاطت لنا ثياباً خاصة لتلك الليلة، ثياباً سوداء مع أغطية للوجه مفتوحة فقط عند الفم والعينين كما صنعت لنا من جلد حقائبنا التي كانت فاخرة ذات يوم نعالاً لا تشبه على الإطلاق الأحذية التي نجدها في المحلات.

كنا ونحن نخطط لفرارنا لا نستبعد الأسوأ، لذلك قررنا قتل أنفسنا إن قبض علينا، فنحن لم نكن نرغب بالاستمرار في هذا الوضع المزري والفظيع. فكرت الوالدة أن افتعال انفجار صغير تسببه قارورة الغاز التي في حوزتها قد يشغل الحراس عن البحث عنا. أما رؤوف التواق للكمال فقد كان يحاول استباق الشاردة والواردة. أما أنا فقد كنت من نمط مختلف. كنت أتحرق شوقاً لخوض التجربة معتبرة أن الارتجال سيكون يومها سيد الموقف. كتب رؤوف على عشرات الوريقات التي كانت تغلف الزعفران الذي كان يستعمل للطبخ، والتي جمعناها بصبر، بيانات لتقديمها لشخصيات سياسية

وفنية فرنسية وكنا قد نوينا إيصال هذه الوريقات للسفارة الفرنسية، وذلك بعد أن أضاف كل واحد منا بعض الجمل المؤثرة.

رغم دقة تنظيمنا لهذا الهروب ظل السؤال الأساسي معلقاً، فخلال الأسابيع التي أمضيناها نستعد لهذا اليوم لم نطرح على جدول مباحثاتنا أسماء الذين سيشاركون في هذه المغامرة. كان رؤوف يريد الفرار وحده لشدة خشيته علينا جميعاً. أما أنا فكنت واثقة من مرافقته. من جهتها أعلنت ماريا أنها ستنتحر إن لم نأخذها معنا. ولأنني كنت أعرف أختي تمام المعرفة فقد بدا لي تهديدها جدياً.

كان عبد اللطيف سيشاركنا المغامرة أيضاً، فهو أكثرنا حرماناً إذ إنه لم ير من الحياة إلّا هذا المعتقل. كانت الوالدة تتمنى الفرار معنا لكنها كانت عاجزة عن ذلك. فقد كان جسدها المتورم لا يسمح لها بدخول النفق ولا حتى التسلل من زنزانة إلى أخرى كما يفعل عبد اللطيف. توسيع الكوة من أجلها لم يكن وارداً كي لا يتحطم بلاط القرميد المدعم للحائط.

وافقت سكينة على البقاء مع الوالدة مؤكدة نبلها وشجاعتها. كانت ستقفل النفق بعد رحيلنا فتربحنا وقتاً ثميناً كنا بأمس الحاجة إليه. وحدها ميمي، ولهشاشة صحتها، لم تكن قادرة على التفكير بمواكبتنا.

الهروب

يوم الأحد، ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٧، اليوم التالي لإغلاقنا النفق، كنت أفترش أرض الزنزانة، معرضة وجهي لأشعة الشمس الربيعية.

كنا نصغي لزقزقة العصافير، يبدو أن الطبيعة، مثلنا، استيقظت من نومها بعد سبات طويل. الغريب أننا كنا نشعر بالرضا بالرغم من كل ما كانت قد حفلت به هذه الأشهر الأخيرة من الانتظار. إن لدينا ما يدفعنا إلى التأمل والرجاء. أخيراً، أوشكنا على الخروج من هذا القبر.

كانت ميمي تنام في سريرها، بينما كانت الفتاتان الأخريان ترقدان بجانبي، وكنا نثرثر باسترخاء. فجأة تناهى إلى أسماعي صوت «الحركة التحذيرية» والتي كان مصدرها زنزانة أمي التي همست لي قائلة عندما اقتربت من الجدار:

ـ اسمعي يا مليكة، سمعتهم وهم يتحدثون. لقد تلقوا أمراً ببناء محراس وبرج مراقبة، فوق سطح

الزنزانة التي تقع فوق النفق، وأن الكوخ سيبنى تماماً فوق النقطة التي يقع فيها المخرج. وسيكون هنالك كشافات ضوئية.

ـ ماذا عسانا نفعل؟

أجابتني بتمزق وحيرة:

ـ ما من خيار آخر، سينتهون من ذلك خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. هذا يعني أنه وداعاً للهروب. يجب عليكم حفر النفق مباشرة الآن، والرحيل هذه الليلة.

كانت لدي اعتراضات كثيرة، إذ كيف يمكنني أن أحفر عامودياً ثلاثة أمتار خلال عدة ساعات ليس إلّا؟ كان هذا ضرباً من المستحيل.

كنا قد خصصنا لهذا أسبوعاً كاملاً من العمل. لكنها رفضت أن تصغي لي، وأصرت على رأيها قائلة:

ـ إما هذا أو لا شيء. إذا لم ترحلوا هذه الليلة، فإنكم لن تخرجوا من هنا أبداً. أخبري رؤوف حالاً بالأمر.

كان لرؤوف رأي متوافق مع أمي، بأننا لا نملك أي خيار آخر.

وهكذا بدأت الحفر عند الظهيرة، لأنتهي من حفر المسافة المطلوبة في الساعة السادسة مساء.

لم يتبق لدينا من أشغال إلّا إزالة التراب الذي تراكم بسبب الحفر.

كنت أعمل باستماتة، لم تعد الملعقة تكفيني، لو تسنى لي أن أنزع الأرض بأسناني لفعلت. كنت أحفر، وأفرغ. تعطل تفكيري، وانسلخت عن الوجود، غدوت كآلة متحركة. أحفر، وأفرغ التراب، وأحفر، وأفرغ التراب.... كطاحونة هوائية لا تتوقف عن الدوران.

وقعت على عشبة لبلاب تضرب بجذورها عميقاً في الأرض. شددتها بكل قوتي. خلال عدّة ساعات، كنت أناضل كي أقتلعها وأجتثها من جذورها. لوهلة، بدا الأمر شبه مستحيل، إلّا أنني وضعت كل ما لدي من قوة وأكثر. كان يجب أن أزيل هذه العقبة بأي ثمن. فجأة لاحت السماء أمام عيني، كانت خيوط الضوء تشير إلى نهاية النهار، شعرت بنسمة ربيعية تداعب وجهي بنعومة.

تسمّرت في مكاني، وأنا ما أزال متشبثة بعشبة اللبلاب. كنت في حالة من الدهشة والذهول، ولم تلبث أن انتابتني موجة من النشوة والفرح ورحت أهتف في نفسي كالمسحورة:

ـ يا إلهي، ما أروع هذا، أيعقل أن الحياة هنا، على قاب قوسين أو أدنى من متناول يدي؟!

لا أدري بعدها كيف تابعت إزالة واقتلاع ما تبقى من أعشاب، وأنا أبكي، والدموع تغطي وجهي. يا إلهي ما أجملها من لحظة، وما أرهبها أيضاً! أن تستعيد حريتك المسلوبة، بعد كل هذا المخاض المرير الدامي، كنت مكتوفة الأيدي يتملكني شعوران من الخشية والفرح.

عدت إلى الزنزانة وأعلنت لهم بافتخار أننا انتصرنا.

ـ أخيراً: لقد رجع القندس إلى سيدني بالرمح الصغير.

لشدة فرحتهما، سارعت ماريا وسكينة، لاجتياز النفق والتأكد من جهوزيته بنفسيهما. عادتا وأمارات الرضا ترتسم على وجهيهما. ثم أرسلنا عبد اللطيف للاستكشاف وللاستطلاع، ولدراسة الموقع ميدانياً، وتحديد نقطة الانطلاق التي سنبدأ منها رحلتنا هذه الليلة. كذلك أردنا أن نعرف إذا كانت السكة مراقبة، وهل فيها أي تواجد للحرس.

عاد، وقلبه يخفق بشدة. ما إن أخرج رأسه من النفق حتى شعر بنظرات مصوّبة باتجاهه؛ لا شعورياً أغلق عينيه بيأس، وهو يفكر بأن كل شيء قد أفلت من أيدينا وضاع وتبخّر. ما إن بدأنا حتى انتهينا، يا لسخرية القدر، عندما تجرأ أخيراً بعد عدة دقائق أن يفتح عينيه المبللتين بدموع الخيبة والمرارة، كاد يغشى عليه من شدة المفاجأة: إن من سدّد إليه النظرات كانت مجرد هرة ليس إلّا. كم كانت فرحة عبد اللطيف بهذا الاكتشاف عظيمة. رفع وجهه إلى السماء، وتنفس الصعداء.

مرّرت لنا أمي الملابس التي خاطتها لنا، وبعض المواد الغذائية، والسندويشات والفلفل، وقضيب الحديد. أصررت على أن أضع في جعبتي الدفاتر التي تحتوي على الحكاية التي ألفتها وكتبتها. كانت أمي تعارض هذه الفكرة، خوفاً عليها من التلف والضياع. ويا ليتني استجبت لحدسها الذي تبين لاحقاً أنه كان صائباً.

تأهّباً للرحلة، وصل رؤوف كالعادة متسللاً من الثغرة مع هبوط الليل، حانت لحظة الوداع، تمددت على صدري، فعلت أمي الأمر عينه من جهتها. كانت قلقة، ومرتعبة، تتساءل في سرها، إذا ما كانت محقة في دفعنا للرحيل. تلك كانت اللحظة الوحيدة التي لمست فيها حيرتها وترددها. عبر تشابك اليدين، تبادلنا رسائل صامتة. أعلنت كل واحدة منّا حبّها للأخرى. كان صوتها يرتجف عندما تكلمت أخيراً لتقول لي:

ـ إنني أأتمنك على لحمي ودمي، إنني أضع بين يديك فلذات كبدي، أعرف أنك ستكونين كالأم لهم. عديني أنك ستعيدينهم إليّ أحياء.

كانت سكينة ترتعد، فيما كانت أسنانها تصطك من شدّة التأثر. كان الدمع يلتمع في عينيها، لكنها لم تذرف دمعة واحدة، كانت المسؤولية التي تنتظرها جسيمة. إنها هي من سيعيد سدّ الفتحة بعد أن نمضي لأنهم كلما تأخروا في اكتشاف أمرنا كلما كان الأمر في مصلحتنا.

شدّتني ميمي بحنان إلى صدرها وهمست في أذني قائلة:

ـ أنا متأكدة من أنك ستنجحين.

أظهرت حليمة وعاشورا من الهلع والتأثر الشيء الكثير. عبّرتا بصخب عن خشيتهما علينا من هذه الرحلة وحرقتهما لفراقنا.

كنا في حالة قصوى من الرهبة والانفعال، لا يمكن أن أنساها ما حييت. لا أعرف إذا ما كان ذلك مجرد شجاعة من قبلنا، أو أنها كانت إرادة بقاء تلك التي أمدتنا بهذا القدر الهائل من العزم والقوة.

ارتدينا ملابسنا بصمت، حمل كل واحد منا جعبته، ومضينا الواحد تلو الآخر، كل بدوره باتجاه النفق. خرج عبد اللطيف وماريا بسهولة وبدون مشقة، لأنهما كانا نحيلين... رؤوف أحدث ارتجاجاً في الأرض... حبسنا أنفاسنا من الخوف... لكنه نجح بعد جهد جهيد بالوصول بسلام. عندما حان دوري كانت الكارثة، بالكاد تقدمت قليلاً حتى علق خصري... جسدي المتورم من مرض الزلال كان أضخم من أن يسعه ذلك الممرّ الضيق.

راح رؤوف يهمس لي بكلمات التشجيع، ويهدىء روعي، لكنني عبثاً حاولت أن أنجح... كنت أبكي من شدة الألم، وأسبح في دموعي...

شعرت بسكينة خلفي، راحت تقول لي بحزن وخوف:

ـ كيكا، ارجعي، تعالي، وهوّني عليك... إنك تحدثين الكثير من الضجة والضوضاء، إنها مخاطرة عظيمة، ولن يتأخروا بسماعك...

هذان العناد والإصرار من قبلي كادا يوديان بالجميع إلى التهلكة. لكن كان الموت عندي أهون من البقاء والرجوع إلى الوراء، أخذت نفساً عميقاً، وبكل قوة دفعت بنفسي إلى الأمام... كان الأمر أشبه بمخاض عسير، بولادة أخرى جديدة، أعدتُ مليكة ثانية إلى الحياة.

اجتزت أخيراً هذا النفق، بشق النفس، وبعدما انسلخ الجلد عن فخذي. لكنني في تلك اللحظة لم أشعر بأي شيء ألبتة، وحتى لو فعلت ذلك ما كنت لأكترث أو ابالي...

حسابات رؤوف كانت دقيقة، وجدنا أنفسنا في الجهة المقابلة وجهاً لوجه مع السور تماماً كما كان قد تكهن وتوقع...

مشينا بمحاذاة السور المرتفع، كان يمتد أمامنا سياج مشبك بارتفاع حوالى أربعة أمتار، تغطيه أعشاب اللبلاب. تسلقته ماريا وهي تستند على رؤوف، بعد أن دعمها، قام بدفعها نحو الأعلى، ملقياً بها فوق أرض الحقل. انتظرنا قليلاً، عندما لم نشعر بأي حركة من جهة الحرس، حينها فقط، قفزت بدوري لأنضم إلى ماريا، ثم تلاني عبد اللطيف، فرؤوف. بعدما التأم شملنا واجتمعنا، كان لا شعورياً أن يلتصق كل واحد منا بالآخر ويمسك بيده المرتجفة.

آنذاك لم نقو على الفكاك والابتعاد عن بعضنا البعض، كنا نتنفس بصعوبة دون أن نتحرك من مكاننا. بدت تلك اللحظات طويلة، ومشوبة بالمشاعر المختلطة.

كان صعباً بالنسبة لنا أن نستوعب أن المرحلة الأولى من خطتنا قد انقضت بسلام. استعدنا رباطة جأشنا، وأخذنا نفساً عميقاً، قبل أن نبدأ المغامرة الكبرى.

الهاربون (١٩-٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٧)

التيه

اعتادت أعيننا على العتمة، منذ أن بدأنا نعيش في الظل. بدون خوف، غصنا في لجة الليل. كنا نتعلق بأيدي بعضنا البعض، فيما كان يسيطر علينا شعور جارف بالحماس، والنشوة، والاقتناع التام بأن هنالك حماية إلهية ترافقنا ولن تتخلى عنا.

كان الصمت يخيم على الناحية التي يتواجد فيها الحرس. أخذنا نزحف على بطوننا في الحقل الرطب. فجأة تعالى نباح الكلاب الشاردة، التي ما لبثت أن وصلت وهي تعدو باتجاهنا. كانت نهمة، وعدائية، وأكثر وحشية من مثيلاتها الألمانية. راحت تقترب شيئاً فشيئاً منا، حتى كدنا نشعر بأنفاسها اللاهثة فوق وجوهنا، لا شعورياً، وبيأس، التصقنا ببعضنا البعض بحثاً عن الأمان.

قائد الرهط الذي كان يعدّ بالعشرات، بدا مكشّراً عن أنيابه، وهو يستعد للتوثب والانقضاض.

من شدة الهلع، تحولنا إلى تماثيل من شمع، حبسنا أنفاسنا في صدورنا. إذ وحدها المعجزة بإمكانها أن تخلصنا من براثن هذا الكلب، الذي كان نباحه يصمّ الآذان.

لم نصدق أعيننا، فجأة وعلى حين غرة، استدار عائداً من حيث أتى تتبعه سائر الكلاب.

ما كدنا نتنفّس الصعداء، حتى كان الحرس يندفعون إلى المكان، وهم يصوّبون مصابيحهم، وكشافاتهم الضوئية، بحثاً عما أثار انتباه الكلاب وهيجانها. هنا، كنا متأكدين من أننا هذه المرة، وقعنا في الفخ المحتم، في تلك اللحظة العصيبة وددنا لو أن الأرض ابتلعتنا، وأراحتنا من هذا الخطر الداهم. ارتعدنا وارتجفنا مثل ورقة في مهب الريح، عندما سمعنا قرقعة أسلحتهم. تبادلوا بعض الكلمات المبهمة، فيما بينهم، ثم ما لبثوا، أن ابتعدوا.

بعد عدة دقائق، بقينا مسمّرين في أماكننا، لا نقوى على أي حركة، الله وحده يعلم كيف تمكنا لاحقاً من استعادة السيطرة على أنفسنا. وعندها، تابعنا وجهتنا نحو اليمين، بعدما كنا نزحف باتجاه الحرس دونما علم منّا.

وجدنا أنفسنا في حقل مزروع بالفول، يقع قريباً من الثكنة. كنا بحاجة لاستراحة قصيرة، أدرنا وجوهنا، لإلقاء أول نظرة على الثكنة. كان البدر يسلط ضوءه على أسواره، وأسيجته ومراقبه، فيما كان الضباب يغلف أجزاءه الباقية. إنه منظر فظيع.

هنا إذن، بدّدنا إحدى عشرة سنة من عمرنا، وخسرنا شبابنا وصحتنا، وأحلامنا، وآمالنا. في معسكر الموت هذا، كنا ننتظر بفارغ الصبر النهاية التي لم تعرف طريقها إلينا. إنه الجحيم المستعر الذي ذقنا في أتونه حسرات الموت والعذاب. نبذونا بين حممه وأغلقوا علينا الأبواب. أطربوا آذانهم بصرخاتنا، واستغاثاتنا، ومتعوا أعينهم بآلامنا ومعاناتنا. لم تأخذهم بنا رحمة أو شفقة. يا للحقد كم أعمى قلوبهم! يا لجورهم وتعسفهم!

تملكتني الحرقة واللوعة، ورحت أذرف الدمع وأبكي، انقبض قلبي وسرت رعدة في جسدي، لقد تذكرت تلك اللواتي ما زلن يتجرعن كأس الحميم هناك. كان الله في عونهن، ولنا من بعدهن الصبر والسلوان. سيطر الحزن والوجوم علينا جميعاً، وغرقنا في بكاء صامت.

بعد وقت قصير، حاولنا بشقّ النفس استعادة رباطة جأشنا، بهدوء شديد قطفنا بعض الفول، ورحنا نأكله نيئاً. كان طعمه منعشاً، وحلواً، ولذيذاً كطعم الحرية. عاودنا زحفنا، بعدما شعرنا أننا

ابتعدنا بما فيه الكفاية عن الثكنة، نهضنا وقوفاً، ومشينا بخطوات خفيفة. لكثرة ما كان الحقل رطباً، تبللنا من قمة رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا.

في ذلك الظلام الدامس، رحنا نتخبط على غير هدى، اكتشفنا لوهلة أننا كنا ندور حول أنفسنا. وكأننا في وسط البحر أو الصحراء...

لم يكن هناك أدنى مؤشّر أو علامة نستدل بهما على تحديد وجهة سيرنا. كانت أمي قد علمتني، كيف أتبع حركة النجوم، لكن التجربة أثبتت أنني كنت تلميذة فاشلة، فأنا لم أنجح بتمييز واحدة منها عن الأخرى وكانت أشكالها جميعها مختلطة عليّ.

بينما كنا نهيم على وجوهنا، سمعنا صوت سعال جمّدنا في أرضنا. رفعنا رؤوسنا باتجاهه، فإذا بنا على بعد خطوات من إحدى نقاط المراقبة. لقد عدنا إذن إلى المعسكر، تلقائياً، رحنا نركض بخطوات خائفة مرتبكة... بعدما أخذ التعب كل قوتنا، توقفنا لا نعرف أين... أشعلنا بيأس السيجارة الوحيدة التي كانت بحوزتنا... علّها تعيد إلينا بعضاً من صفاء ذهننا... رحنا نتناوب على تدخينها بقلب منقبض، وحيرة قاتلة... حتى الآن ما زلنا نراوح مكاننا، وما زلنا نجهل الوجهة الصحيحة التي تخرجنا من هذا المأزق الخطير.

بإذعان واستسلام طلبت من عبد اللطيف أن يتولى قيادتنا.

قلت له:

ـ من كان في سنّنا، لا شك أنه ينوء بعدد لا بأس به من الخطايا، أما أنت، فإنك ما زلت برعماً صغيراً، يرفل بالنقاء والطهارة... لم تر شيئاً بعد من الدنيا، ولم تمسك بلوثها الشرور... إذا كان الله فعلاً موجوداً، ستأخذه الشفقة بك... وحينها ستكون أنت من يخرجنا من هذا المأزق، ويوصلنا إلى الحرية.

اتبعنا خطواته بدون أي كلمة. كانت أجسادنا مُنهكة من شدة الألم... وملابسنا تقطر ماء لكن كان لا بد لنا من حثّ السير قدماً...

ناداني عبد اللطيف الذي كان في مقدمتنا:

ـ كيكا، تعالي انظري... إنه قاسٍ... لا أعرف ما هو. هرعت باتجاهه لأجد أمامي طريقاً تعلوه طبقة من الإسفلت، قفزنا من شدة الفرح، وانهمرنا على عبد اللطيف لثماً وتقبيلاً... يا للمسكين إنها

المرة الأولى في حياته التي تقع فيها عيناه على الإسفلت.

في تلك اللحظة انتابنا إحساس غريب، شبيه بذلك الذي طغى على رواد الفضاء، عندما وضعوا قدمهم على سطح القمر لأول مرة.

عدنا إلى الحقل كي نبدل ملابسنا بأخرى مناسبة. ارتديت فستاناً طويلاً كان لأمي، وتعود موضته إلى السبعينيات، قماشه من الكشمير المعرّق الذي يلائم طقس الخريف. فيما اكتفى الآخرون، بارتداء السراويل والقمصان المتواضعة، ذات الموضة البالية، والتي كان من المفترض أن تمنحهم مظهراً «عادياً»، كما كنا نرجو ونتأمل. بعد أن انتعلنا الأحذية المصنوعة بجلود فيتون، تخلصنا من الملابس الأخرى، وأخفيناها في الحقل.

انطلقت قافلتنا، كنت أسرع خطواتي كي أحثّهم على مجاراتي، رحت أتقدمهم بعدما استعدت دفة القيادة من عبد اللطيف، وهم يلحقون بي. كانت خطواتهم بطيئة ومتعثرة من شدة الإنهاك. راح رؤوف يسخر من مشيتي الرشيقة والحيوية. ويشير من طرف خفي إلى مربيتي الألزاسية وهو يقول مقلداً لهجتها:

ـ هلموا، هيا... هلموا...

أخيراً، وجدنا أنفسنا أمام تعاونية حليب. بعدما تشاورنا، قررنا تنفيذ المشهد الأول. فيما اختبأت ماريا وعبد اللطيف، تقدمت من المكان يسندني رؤوف، وأنا أصيح وأولول على الطريقة المغربية، وأطلب مساعدة الله ورسوله.

وإذا بناطور مسلّح بعصا يخرج إلينا. كان يلبس جلباباً بقلنسوة. تظاهرت بالإغماء، وألقيت بنفسي بين ذراعيه دون أن أسأله رأيه. كان مضطراً أن يتلقفني كي لا أسقط أرضاً. نظر إلى رؤوف بريبة سائلاً إياه ما الخبر، فأجابه:

ـ أجهضت زوجتي الأسبوع الفائت، ويبدو أنها حتى الآن لم تسترد عافيتها.

ضاعف الرجل من شكّه وحذره معلقاً:

ـ لكنني لم أسمع أي هدير أو ضجة، من أين خرجتم في هذا الليل المدلهم.

كي أقطع عليه الطريق في طرح المزيد من الأسئلة، ارتميت أرضاً ورحت أتظاهر أنني أتلوى من الألم. بكل آيات التهذيب، واللطافة طلب منه رؤوف إحضار كوب من الماء، بعد أن شرح له بأننا

مهاجرون قدمنا لتونا من بلجيكا حيث نعيش، وأنها المرة الأولى التي نزور فيها المغرب بعد غياب خمس عشرة سنة. وأضاف:

ـ وها نحن أتينا طلباً للمساعدة، بعد أن تعطلت سيارتنا.

كان الناطور على درجة عالية من الحذر، كشأن كل المغاربة الذين تعلموا كيف يعيشون في ظل نظام قمعي يقوم على الخوف والرعب. فهو لم يصدق رؤوف، وراح يستجوبه محاولاً الإيقاع به. وبالرغم من ذلك، لم يمتنع عن إحضار الماء لي. أثناء المحادثة، حاولت أن أفهمه بأننا من أقارب وزير الداخلية إدريس البصري[٧]، أخذته الخشية والرهبة، مما دفعه إلى التحلي بالهدوء وإظهار بعض الليونة في معاملتنا.

هذه المرة، كنا نحن من حاول أن يستجوبه ويحثه على الكلام، اقترح علينا أن ننتظر شاحنة الحليب التي تذهب إلى بير جديد، أقرب مدينة إلى هنا. أخيراً، حصلنا على المعلومة التي كنا بانتظارها.

قضينا هناك ثلاثة أرباع الساعة، كان الخوف يستولي علينا من إبلاغ الرجل عنّا، ولكن لحسن الحظ، لم يكن عنده هاتف في كوخ الحراسة. فتحت الأبواب، وخرجت شاحنة الحليب. مرّ السائق بشاحنته من أمامنا دون أن يتوقف كي يقلّنا معه. أصبنا بالهلع، كانت الساعة الرابعة صباحاً، وكنا ما نزال ندور في حلقة مفرغة بدءاً من الساعة الحادية عشرة ليلاً، وها قد أضعنا سدىً ثلاثة أرباع الساعة بانتظار هذه الشاحنة التي ولت. النقطة الإيجابية الوحيدة هي أننا بتنا نعرف إلى أين نذهب.

بعض الأسى، عاودنا طريقنا، لا شك أن منظر موكبنا كان مضحكاً ويثير الشفقة، نمشي خلف بعضنا، بخطوات متسارعة، وكأننا آلات أوتوماتيكية، كان هذا آخر همّنا، كل ما كان يشغل تفكيرنا هو التقدم والوصول بسرعة.

بعد عدة كيلومترات من المشي، شاهدنا باص ركاب من النوع الذي يجوب القرى والنواحي. الفلاحون الذين كانوا يحتشدون في الموقف كانوا محملين بالأكياس الضخمة، والدجاج، والخراف التي كانت هائجة وتحاول الإفلات.

انضممنا إليهم. كانت أنظارهم جميعاً مصوبة نحونا، ممّا أربكنا. حتى الآن ما زالت العتمة تظللنا، لكن النهار لن يلبث أن يتنفس، ويسلط علينا ضوءه المتوهج، كنا نتهيب من لقائه بعد طول الغياب.

عرض رؤوف على السائق أن يدفع له سوار الذهب ثمناً لنقلنا. فيما نقده الآخرون البيض أو

الدجاج، وهم يساومون قدر استطاعتهم. رفض السائق الذي أصر على الدراهم أو لا شيء. تخلينا عن فكرة الباص، وعاودنا مسيرنا.

مرت بنا شاحنة. رفعت إبهامي مؤشرة له بالوقوف. كان السائق رجلاً لطيفاً، ودوداً. أصعدنا نحن الأربعة معه دون أن يطرح علينا أي سؤال.

اكتفى ببساطة بتحذيرنا بأننا على مدخل بير جديد، معرضين لمقابلة حاجز درك. وأنه يمكننا تفاديه إذا سلكنا طريقاً فرعياً، حيث كان قد أنزلنا. لحسن الحظ، معلوماته كانت غير دقيقة، بلغنا بير جديد دون أن نلمح شبح حاجز.

كانت البلدة صغيرة، وغارقة في فقر مدقع، تحتوي فقط على عدة بيوت بائسة على جانبي الطريق، بالإضافة إلى بعض الحوانيت والمقاهي فقط، كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف. في المقاهي التي كانت تفتح أبوابها تتعالى أصوات المنوعات الغنائية التي تكاد تصم الآذان. كان الخدم يحملون طلبات الزبائن المختلفة من شاي، ونعناع وكريما. الحياة هنا ثابتة لا تتغير، كل صباح تأخذ مجراها الطبيعي المعتاد. على عكسنا نحن تماماً، كنا محرومين حتى من هذا.

فجأة بدا لي منظر الشارع غريباً. احتجت لعدة دقائق كي أفهم السبب. فأنا لم أعد معتادة على الازدحام والضوضاء. الصراخ، الأصوات، أبواق السيارات، والأغاني الشرقية الصادحة، أزيز الدواليب على الإسفلت... كل هذا، كان يفتك بأذنيّ، وبأعصابي. الضوء كذلك كان يخدش أعيننا ويبهرها... أصبنا بصداع حاد.

كدت أفقد صوابي من شدة التأثر، كنا ننظر حوالينا بشراهة ونهم، وكان الناس بدورهم يتأملوننا ملياً. ولكننا، نحن المساكين الفقراء، لم نكن نبدو متنافرين مع هذا الديكور البالي. سيّما رؤوف الذي كان كالفلاحين تماماً بلا أسنان، إذ تساقطت بسبب الأمراض والضربات معاً.

في آخر القرية، كان يوجد موقف لسيارات الأجرة، يكتظ بحشد من البشر الذين كانوا يتحلقون، ويتجمهرون. ذهب رؤوف ليستوضح بعض المعلومات ثم عاد ليعلن لنا بأن سيارات الأجرة تتجه إلى الدار البيضاء.

ثم رجع من حيث أتى علّه يجد سائقاً يقبل أن يقلنا في طريقه إلى هناك. لم أكن مطمئنة، وكنت شبه متأكدة بأن مخططه لن يكتب له النجاح. لذلك، عندما شاهدته يلوح بيديه، لم أدرك بسرعة أنه كان

يحاول أن يستدعينا للانضمام إليه. أهم ما في الأمر أن المعجزة تحققت: وافق السائق على اصطحابنا بمعيته مقابل السوار الذهبي.

كان رجلان يجلسان في المقعد الأمامي بجانب السائق. صعدنا نحن الأربعة إلى المقعد الخلفي... انطلق السائق كالإعصار. التزمنا الصمت، وسرحنا في أفكارنا. بحرقة وألم، بدأت أفكر بأمي الحبيبة وبأخوتي. للمرة الأولى، منذ مدة طويلة، أدرك فجأة الحالة المأساوية التي مرّ بها عبد اللطيف. سجن عندما كان في الثانية والنصف من عمره. إنه أول خروج له في حياته التي بلغت الثامنة عشرة الآن. كان أخي الصغير يحدّق في كل ما يمر أمامه باندهاش وانبهار... وكأنه قدم لتوّه من كوكب آخر.

كيف لا تخطف أبصاره كل هذه المناظر والاكتشافات؟ فهو لم يصعد في سيارة إلا مرتين أو ثلاثاً في حياته، فقط كي يشحن من سجن لآخر.

كانت أختي ماريا بالكاد تزن ثلاثين كيلو غراماً. كانت عيناها الكبيرتان تلتهمان بوسعهما وجهها الناعم الصغير. رؤوف أيضاً كان نحيلاً مثلها، لكنه تورم وانتفخ بسبب داء الزلال. كان شاحباً، ومحموماً، وبدون أسنان.

كانت خمس عشرة سنة قد مضت، خمس عشرة سنة من العذاب الذي ترك آثاراً فظيعة لا يمكن أبداً أن تمحى. ومع هذا فكلّما نظرت إلى وجوه إخوتي، وتأملت ملياً في تقاطيعهم وتعابيرهم، أجد أنهم ما زالوا يحتفظون ببعض الملامح من الطفولة المثخنة بالجراح.

كنت أشعر بعقدة الذنب حيالهم، وأحمّل نفسي مسؤولية ما أصابهم، ورحت ألعن في سري السجن وأهواله وأحزانه وأشجانه. لقد كانت بصماته جلية على وجوه كل أفراد عائلتنا المنكوبة.

الدار البيضاء

لن أنسى أبداً الصدمة التي سببها لي وصولنا إلى الدار البيضاء، عبر الأحياء الشعبية. كنت قد نسيت كل شيء عن المدينة. كانت الجموع تمشي بخطوات متسارعة، تتدافع، وتجتاح الأرصفة، سالكة طريقها دون أن تعير انتباهها لأحد. كان كل شيء ينهكني، فرملة السيارات، صرخات الباعة، العربات التي تجرها الأحصنة، المرأتان اللتان كانتا تتشادان وتتخاصمان، الشرطي الذي كان يطلق صفارته في الهواء. كما كانت تقتحم أنفي بدون استئذان روائح البنزين، والطعام الذي كان يباع في

المحلات والمطاعم.

إنها المرة الأولى، منذ خمس عشرة سنة، التي أرى فيها هذا العدد الهائل من الناس بلمحة بصر، وألتقط هذه الكمية من الأصوات المختلفة. كانت حواسي مستنفرة ومستنفدة. تراءى لي أن الشعب المغربي تضاعف عدده ثلاث مرات عمّا كان من قبل. كل شيء بدا أكبر حجماً. وأحدث، وأجدّ... زادت نسبة النساء اللواتي يلبسن على الطريقة الأوروبية، ويضعن مساحيق التجميل، ويعتنين بمظهرهن.

هذه الجموع التي لا تنتهي من الناس الذين يسيرون ورؤوسهم مطرقة نحو الأرض، ذكروني بفيلم شابلن «الأزمنة الحديثة». كانوا يثيرون في داخلي شعوراً غريباً بالشفقة. يبدو أن حالتهم لا تقل سوءاً عن حالي.

تساءلت في نفسي بحيرة: إذن، أهذه هي الحياة؟... أهذه هي الحرية؟ إنهم أيضاً مساجين مثلما كنت أنا...

آلاف من التفاصيل التي لم أكن ألاحظها في حياتي السابقة كانت تقفز أمام عيني: المباني التي تشبه أقفاص الأرانب، النظرات الشاردة، الفقر، الإرهاق، الاضطراب والعصبية بدون طائل.

إخوتي لم تراودهم الأفكار التي كانت تجتاحني، على الأقل، ليس بنفس الشكل والصورة. عبد اللطيف ما زال يفتح فمه من الاندهاش، فيما كانت ماريا ورؤوف يغرقان في الصمت. كانت عجلات السيارة تنهب الطريق بسرعة قصوى. مع كل توقف فجائي كان قلبي يخفق من الخوف.

بعد كل ما لاقيناه وتكبدناه، إنها ليست اللحظة المناسبة كي نقضي نحبنا في حادث سيارة.

بدأ السائق بالمراوغة. لأنه كان يرتاب فينا، وأراد إبلاغ رجال الشرطة بشأننا. واحتج قائلاً:

ـ ليس من حقّي أن أوصلكم إلى قلب المدينة...

بدبلوماسيته الرفيعة، عرف رؤوف كيف يقنعه ويغير رأيه. بطبيعة الحال نحن أعطيناه قطعة من الذهب، تبلغ قيمتها ٢٥٠٠ درهم، مقابل توصيلة سيارة بالكاد تكلف خمسين درهماً.

أملى عليه رؤوف عنوان سكن جميلة، حبيبته المراهقة، والذي يقع في حيّ أنفا السكني. بينما كان السائق يبحث عن الشارع، كنت أنظر حولي، بدون أن أتعرف على أي شيء يذكر. كنت أشعر وكأنني حللت في كوكب آخر. كنا كما في رواية الأقزام عندما يصلون إلى بلاد العمالقة.

كان حي أنفا دائماً يشبه حي بفرلي هيلز ولكن بحجم أصغر. الفيلات الضخمة كانت تتوالى جنباً إلى جنب الواحدة تلو الأخرى. بعضها كان أشبه بالقصور. كل فيلّا منها تحتوي على حوض سباحة، وملاعب تنس، وغولف، ومروج خضراء مشذبة ومزينة بالأزهار الجميلة. وفي مرآبها تنتظر عشرات السيارات الملتمعة. بالإضافة إلى جمع غفير من السائقين، وعمال الحديقة، والطباخين والخدم... الذين يسهرون على خدمة وراحة أسيادهم.

لكن بعد خمس عشرة سنة، بدت لي البيوت أكثر فخامة. والحدائق الغناء أشد روعة، ومظاهر الغنى زادت بذخاً وفحشاً. كان ذلك بلا شك حقيقة. والحقيقة الأخرى أيضاً هي أنه لا يوجد أي قاسم مشترك بين كل هذا الجمال وبين السجن الحقير الذي فررنا لتونا منه.

انطلق التاكسي بسرعة، بعد أن أنزلنا. لكن المفاجأة كانت بانتظارنا، لقد انتقلت جيلة من هنا، شعرنا بأننا مهجورون ومنبوذون، ولكنني قاومت هذا الشعور المؤلم. وأوعزت لهم أن يتنحّوا جانباً، فيما اقتربت من إحدى الفيلات، كان البستاني يروي العشب بمرشته، وهو يرتدي مريلة بيضاء.

ألقيت عليه التحية باستعلاء، وطلبت منه أن ينادي سيدة المنزل، مدعية بأنني على موعد معها. نظر إلي مهدداً، وأمرني بالرحيل فوراً. وقال:

ـ أسرعي بالغروب عن وجهي، وإلّا أحضرت لك رجال الشرطة. من كان مثلك، لا يحق له ارتياد هذه الأمكنة.

لم أجرؤ على إكمال ما بدأته، وهرعت نحو الخارج للانضمام إلى الآخرين. كنت أقطر مهانة وذلاً. في الماضي البعيد، عندما كنت ما أزال مليكة ما كان هذا الرجل ليجرؤ على أن يكلمني هكذا. لقد انقلبت الأمور، وها هو يطردني شر طردة، وكأنني متسولة بائسة...

تابعنا السير بدون أي هدف محدد. لم نكن نعرف ماذا نفعل، اخترت عشوائياً، وكيفما اتفق، إحدى الفيلات، كبست على زر الجرس الداخلي، ردّ عليّ صوت نسائي. طلبت منها بعض الماء.

تقضي العادات المغربية بالاستجابة لطلبات المتسولين هذه. إحدى الخادمات الفاتنات بمريلة زهرية اللون، وبقبعة صغيرة ملقاة بدلال فوق شعرها المسرح بعناية، خرجت من البيت. استعرضتها، وأنا أشعر بالحسد من مظهرها، لعل نظرة اللهفة التي كانت في عيني أفزعتها، لأنها تراجعت خطوة إلى الوراء ما إن رأتني وقبل أن أشرع في التكلم معها.

أعدت تمثيل روايتي الصغيرة أمامها، عن بلجيكا، وغربة الخمس عشرة سنة، والإجهاض، سألتها إذا كان يمكنني إجراء مكالمة هاتفية. كانت المياه قد بدأت تجري فيما بيننا، لكنها أجابتني، بأنها تفضل أن تستأذن أولاً سيّدها. بعدما أغلقت الباب، أعطيت للآخرين إشارة بضرورة البقاء مختبئين خلف سياج الجهنّمية.

لاحقاً، بعد عدة دقائق، فُتح الباب مجدداً ليظهر رجل جميل طويل القامة، في حوالى الخمسين من عمره، كان شعره رمادي اللون، يضع روباً إسفنجياً. لا شك أنني عكرت عليه صفوه، وقطعت عليه ما كان يقوم به، لأنه كان ما زال يمسك بيده آلة الحلاقة الكهربائية. كانت تفوح منه رائحة زكية، وتبدو عليه أمارات الدعة والاسترخاء، مسافات ضوئية كانت تباعد بين ما كان عليه وبين حالة الفقر المدقع التي بدت واضحة على مظهري الرث والمزري.

طريقتي في التعبير أنقذتني من هذه الورطة. عاجلته بالكلام بلغة فرنسية رفيعة، ومنتقاة. لا شك أن لهجتي طمأنته، ما حدا به إلى مناداتي بـ«سيدتي العزيزة»، ومخاطبتي قائلاً:

ـ أخبرتني خادمتي أنك تعرضت لحادث إجهاض، آمل أن لا يكون هنالك أي نزيف، فأنا طبيب، وبإمكاني أن أقلّك إلى المستشفى إذا أحببت.

رحت أغمغم الحديث، وأدخله من باب لأخرجه من آخر، دون أن أعطيه المجال، ولا الوقت الكافي للتأمل والتفكير. وختمت بسؤاله إذا كان بإمكاني إجراء اتصال هاتفي. وافق، ورجاني بالتفضل والدخول.

بدا لي منزله كقصر، مع أنه لم يكن باذخاً، ولكنه كان مرتباً، ونظيفاً، ومريحاً، ويبعث على الراحة والاسترخاء، بجدرانه البيضاء، وأرضيته المغطاة بالآجرّ وشتوله الخضراء المتدلية أمام النوافذ. أما الهاتف فكان موضوعاً على طاولة صغيرة وجميلة بالقرب من الدليل السنوي الذي كنت لم أنس بعد كيفية استعماله. لكن قلبي بدأ يخفق بسرعة وأنا أرفع السماعة. شعرت وكأنني صحوت لتوي من سبات عميق، كما في فيلم لويس دو فينيس، حيث يعود البطل إلى الحياة بعد سنوات طويلة من الرقاد، ويجب ألا يفضح نفسه.

لكنني كنت مثل هذا «النائم» أكدّس رغماً عني الزلات تلو الأخرى.

كان خط جدي دائماً يعطي رداً بأنه مشغول. الدكتور عرفي ـ كما عرّف نفسه ـ لفت انتباهي إلى أنه

يجب عليّ أن أطلب ستة أرقام لا خمسة على غرار ما كنت أفعل. وهذا ما كان معترفاً به في زمني.

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان، لأنني ربما انكشف أمري، حاولت الالتفاف عليه بأن ادعيت بأنني أعرف هذا جيداً، ولكن كما يحصل معنا في بروكسل، أن الخط دائماً مشغول، لكثرة ما يثرثرون. عرض عليّ فنجاناً من القهوة. عندما أخبرته بأنه كان في صحبتي زوجي وأخته وأخوه. بدا أنه لم يسبب له هذا الأمر أي مشكلة. وأشرت إلى رفقتي الآخرين بالدخول بينما ذهب هو ليرتدي ملابسه.

وصلت الخادمة، تحمل صينية ممتلئة بالمآكل اللذيذة: من كاتو، وخبز، ومربيات، وقهوة ذات نكهة أخاذة. تبادلنا جميعاً النظرات بصمت. بالرغم من شدة جوعنا وخوارنا، كان من المستحيل علينا أن نلمس أي شيء من هذا... وإلّا لكنا خلال دقائق فقط التهمنا كل الأطباق ومعها الموكيت، والأثاث وحتى الكلب الذي سلب لب عبد اللطيف، فهو لم يكن قد رأى في حياته كلباً من قبل.

كم كانت المفاجأة كبيرة لأخي، عندما راح يلاعبه، ويلمس يديه، ويدور حواليه. كانت مشاعر عبد اللطيف ممزقة بين الخشية والنشوة.

جلسنا جميعنا في الصالون، مشدودين كالأوتاد، قلقين خائفين أن نوسخ الموكيت الأبيض بأحذيتنا الرطبة التي كان يغطيها الوحل. بعد مدة من الوقت، انضم إلينا الدكتور يرتدي بذلته، وقميصه النظيف، وربطة عنقه، كان في منتهى الأناقة سيما بالنسبة إلينا.

أخذ يتحدث بطريقة متحضرة واجتماعية، فيما كان يسألنا إذا كنا نرغب بمزيد من القهوة، بدوري أعلمته بأن لنا أصدقاء في الدار البيضاء، ذكرت أمامه آل ب ـ ج وآل ب، وهما من كبار العائلات البورجوازية.

أضاء وجهه، لأنه أخيراً فتح له باب ضوء لم يكن يتوقعه. قال باندهاش:

ـ غير معقول... إنهم أصدقائي أنا أيضاً.

مطمئناً بسبب هذه العلاقات المشتركة بيننا، عرض علينا أن يقلنا بسيارته إلى منزل عائلة آل ب ـ ج.

لهذه العائلة تاريخ عريق في حقل المصارف في مدينة الدار البيضاء. أحد أبنائها، كميل، الذي يكبرني في السن بعض الشيء، كان يعتبر من أجمل شباب جيله. أما أخوه الأوسط، العربي، فكان من أعز أصدقائي المقربين جداً. خلال إجازتي الأخيرة في قبيلة، التي سبقت الانقلاب العسكري بوقت

قليل، أقمت له عيد ميلاده في منزلنا. كنت أراهم يومياً، وكنت أحبهم كثيراً.

عندما أوصلنا الطبيب أمام منزلهم، طلبت من إخوتي الاختباء من جديد، ودخلت بمفردي دون أن أقرع الجرس، اكتفيت فقط بدفع الباب، بدا لوهلة وكأن هذه الخمس عشرة سنة لم تمض قط. كل شيء كان معيقاً بالنسبة إليّ: الأثاث، اللوحات، الروائح الأليفة. كان رأسي مصاباً بالدوار. بدا المنزل خالياً. رحت أداعب الكلب الذي استقبلني بحفاوة. وأنا أجتاز المطبخ لمحت هاتفاً. بدون تفكير، بدأت أطلب نمرة جدي، في كل مرة، كان أحد ما يرفع السماعة، قائلاً بتذمر «آلو». أصررت على متابعة المحاولة بالرغم من إحساسي بالفزع.

أخيراً استوعبت أن هذا خط داخلي، ثم لم ألبث أن تعرفت على صاحب الصوت، إنه العربي. طلبت منه أن ينزل، دون أن أكشف له عن هويتي. وافق بتذمر.

عندما دخل إلى الغرفة، صدمني مظهره، واحتجت إلى بضع دقائق لكي أتعرف إليه. الشاب الذي كنت أعرفه كان نحيلاً، في الخامسة والعشرين من عمره، والذي قبالتي الآن يناهز الأربعين من عمره.

تبادلنا إلقاء التحية، أظهر عدم معرفته لي.

فقلت له:

ـ إنني مليكة.

ـ ابنة الحاجة.

لم أقو على لفظ اسم عائلتي. كنت خائفة من الإفصاح عن هويتي، وهذا الخوف بقي يطادرني لسنوات طويلة.

ـ ما زلت لا أفهم شيئاً.

بتشنج وألم نجحت بتهجئة الاسم:

ـ أوفقير، مليكة أوفقير.

تجمد من شدة الصدمة. ثم تمالك نفسه وقال بلهجة حادة ومتعجرفة:

ـ ماذا تريدين؟

رويت له بأنهم أطلقوا سراحنا، وأن ماريا، ورؤوف، وعبد اللطيف كانوا معي. كنت أرتجف

خوفاً، سيما وأنني لم أعد أعرف ماذا أفعل. خلال سنوات السجن، كنا نتصرف على أننا أبرياء. إنه أحد حقوقنا الطبيعية. لقد كنا ضحايا، ولم نكن مذنبين كما حاول، باستقباله وردّة فعله، أن يُشعرني. لم أكن لأتخيل يوماً أن أصدقاءنا المقربين يمكنهم أن يعاملونا بهذه القسوة والإجحاف. لقد وجّه إليّ العربي لتوه أول صفعة. ابتلعت كبريائي، وأجبرت نفسي على التفكير بالآخرين الذين كانوا بانتظاري، وبكل خططنا ومشاريعنا.

قلت له بجفاف:

- إنني بحاجة إلى المال. وأريدك أن تقلنا إلى محطة القطار.

كنت قد علمت بوجود هذه السكة الحديدية من السائق. في زمني، لم يكن هناك أي خط حديدي بين الدار البيضاء والرباط.

بدون كلمة، خرج من المطبخ ليعود لاحقاً بعد عدة ثوان، محملاً بثلاثة مائة درهم. ما يعادل مائة وثمانين فرنكاً فرنسياً. بدا لي المبلغ سخياً وكافياً. كنت أجهل أن الدرهم الآن سنة ١٩٨٧ لم يعد له نفس القيمة الشرائية كما كان في تلك الفترة.

ألقى عليّ العربي موعظة أخلاقية، طلب مني عدم الاقتراب من أخيه الكبير الذي كان يعاني من الاكتئاب منذ وفاة خالهم. إنني متأكدة أن كميل ما كان ليعاملنا كما فعل العربي. كان دائماً، طيباً، وإنسانياً وحساساً، وبالتحديد وفياً. لكن لم يكن لدي وقت لأتحرى عنه. أخرج العربي السيارة من المرآب. نظر إلى أخوتي باحتقار أكثر منه بخشية، دون أن تأخذه بنا شفقة، أشار إلينا بالصعود، ثم لم يلبث أن ألقى بنا أمام المحطة مثل حزمة غسيل وسخة.

هذه المقابلة زعزعت ثقتي بنفسي، لكنني لم أشأ أن أرزح تحت وطأة هذا الشعور المؤلم. هذه الدراهم التي كانت تملأ جيبي أعطتني إحساساً بأنني غنية، وأول إنفاق لي كان من أجل عبد اللطيف. اشتريت له مطبوعة «الفريق». كان قد اكتشف كرة القدم بفضل المذياع، وكان يحفظ غيباً الصورة التي كانت عليها تشكيلات الفرق الفرنسية والمغربية. كذلك الأمر بالنسبة إلى الجولات والمباريات، والكؤوس.

تزودنا بالسجائر ونحن نفكر بسكينة. كانت تحبّ التدخين كثيراً، إلى حد أنها في بير جديد قامت بتجفيف الأعشاب التي كانت قد التقطتها حليمة وعاشورا من البهو الخارجي، ثم أخذت تلفها

بأوراق الكرتون أو الزعفران.

بذلنا جهداً مضنياً للحصول على التذاكر. كنا خائفين من هذه الجمهرة، وخصوصاً من مدققي التذاكر، وهم في لباسهم الرسمي. الصورة العملاقة للملك، التي كانت معلقة على أحد الجدران أرعبتنا، مما حدا بنا إلى الاندفاع جرياً من المكان، كنا نلهث ونرتجف وكأن شبحاً مخيفاً كان يطاردنا.

من المؤكد، أن هذا كان غباء منا، لكنه كان لا شعورياً.

أخيراً، ركبنا القطار، كان منظرنا غريباً بعض الشيء، والنظرات مصوّبة نحونا. بعدما استقرّ بنا المقام داخل المقصورة، طلبنا القهوة، ورحنا ندخن معها السجائر. إنها المرة الأولى منذ عدة ساعات، التي يراودنا إحساس بالحرية. ولكن، عندما دخل المدقق لكي يستعرض تذاكرنا، أخذتنا الرجفة من قمة رأسنا حتى أخمص قدمينا.

كان بالقرب منا زوجان فرنسيان يعلقان على فساد الحكم، والبذخ الفاحش في عيد العرش، وتكاليفه الباهظة، وعن السياح المبعدين عن «المامونية»[٨]. فعلى الرغم من أن غرفهم كانت محجوزة، إلّا أن الحكومة عادت واسترجعتها لأنها احتاجت إليها في هذه المناسبة. أراحتنا هذه المحادثة، إذ إننا لم نكن الوحيدين الذين نحمل على النظام.

من حين لآخر، كان الفرنسيان يلقيان علينا نظرة فضول واهتمام. كنا نتحرق رغبةً لإطلاعهم على حقيقة أمرنا، والإفضاء لهم بسرنا. يبدو أنهما لطيفان، ومنفتحان. ولكن من يضمن لنا أننا لم نخدع بكلامهما الجميل؟ وأنهما ربما سيغدران بنا؟

بدافع من حذرنا الشديد جداً، عدنا وابتعلنا نداءات الاستغاثة.

حالة الدهشة التي كانت تعتري عبد اللطيف، كانت تنمو وتزداد مع كل اكتشاف جديد. لم ير صحيفة في حياته. كان ينظر بدهشة إلى صور اللاعبين مع الكرة. الوحيد الذي تعرف عليه بينهم كان ذلك الذي صورناه له في السجن.

بلغ ذهوله أشده عندما أقلع القطار وأخذ يسرع شيئاً فشيئاً. كانت شفتاه معلقتين، وعيناه جاحظتين، فيما كان يمعن نظره في المشاهد التي كانت تمر أمامه. حاول رؤوف أن يهدىء من روعه، لكن مساعيه ذهبت سدىً. كم أحزنتنا رؤية عبد اللطيف، وهو على هذه الهيئة من الذهول والاستلاب، إنه أول خروج له إلى الدنيا التي يجهل كل شيء عنها، ولم ير منها إلّا الظلام والعتمة.

وخلال خمسة أيام من هروبنا، لازمه إحساس دائم بأننا نتواجد داخل قطار متحرك. في طنجة، عندما كنا في بهو فندق «أهلاً» سألني إذا ما كان القطار سيتوقف يوماً عن الحركة والدوران أم لا.

الرباط

بخطوات يشلّها الخوف، رحنا نتقدم في محطة الرباط الرئيسية، فيما كان رأسنا يضج بعشرات الأسئلة والصور. هل أذاعوا أمرنا؟ هل صدر أي بلاغ بحقنا يقضي بالبحث عنا، وإعادتنا فوراً إلى السجن؟ هل هم يتربصون لنا بالمرصاد في مكان ما هنا؟ ربما على أرصفة المحطة أو خارجها؟ تباً لهذه الأفكار المرعبة. كل شيء يبدو طبيعياً، ولا أثر لأي رجل شرطة. اتجهنا بتردد إلى موقف سيارات الأجرة. هذه المحطة، كانت أضخم، وأحدث، وأكثر ارتياداً من أي واحدة أخرى. كانت جموع الناس تدفعنا وهي في طريقها الذي كانت تعرف وجهته جيداً، على عكسنا نحن الذين كنا لا نعرف أين نذهب. ولم يكن هنالك من أحد في استقبالنا.

صعدت ماريا مع رؤوف في السيارة، فيما ركبت أنا الثانية بمعية رؤوف. كانت التاسعة صباحاً. كان علينا أن نتقابل سوية أمام مبنى السفارة الفرنسية.

كان رجل شرطة يحرس الباب. ترددت لحظة، ثم تقدمت نحوه. قائلة:

ـ أريد أن أدخل.

ـ السفارة مغقلة.

أجابني، كما لو كان هذا الأمر بديهياً ومسلّماً به.

استغرقت عدة دقائق كي أعي وأفهم. كنا في نهار الإثنين الواقع في ٢٠ نيسان/ أبريل. بكلمة أخرى، كان يوم عيد الفصح، بالرغم من دقة خططنا، فقد غاب عن بالنا هذا التفصيل المهم. من يدري ما الذي كان سيحصل لو أننا أخرنا هربنا إلى يوم لاحق؟

اقترب رؤوف، محاولاً أن يزج نفسه في المناقشة، لكن الشرطي كان ينظر إلينا بحذر. اكتشف بسرعة أننا ندبر أمراً ما. انهال علينا بالأسئلة، وصل به الحد أن سألنا إذا كنا ملاحقين من العدالة. بازدراء واحتقار راح يحدجنا بنظراته شزراً بدءاً من رؤوسنا الجرداء وصولاً إلى أحذيتنا الملوثة بالطين.

كي لا ندع له الوقت الكافي لمزيد من الاستجواب. سارعنا إلى الصعود في سيارة التاكسي. السائق

بدوره، راح ينظر إليّ بريبة عندما طلبت منه أن يوصلنا إلى السفارة الأميركية.

كانت هذه هي الخطة البديلة الوحيدة لدينا، في حال تعثر طلب اللجوء السياسي إلى السفارة الفرنسية.

ولم يلبث أن سألني:

ـ لماذا تبدين وكأنك مطاردة؟ من أين أنت قادمة؟ هنالك شيء ما يختبىء وراءك؟ إنك تبدين أوروبية، ولكن لا، قطعاً، إنك فعلاً غريبة...

التزمنا الصمت، ولم نردّ بشيء. أسئلة من جهته، وصمت من جهتنا. وصلنا أمام مدخل السفارة الأميركية. قررت أن أجرب حظي بمفردي. أوقفني رجل شرطة مغربي على الباب، وطلب مني أن أضع حقيبتي جانباً. كنت أحتفظ في داخلها بالمسدس الذي صنعه عبد اللطيف والذي يبدو حقيقياً. خشيت أن يعتبروني إرهابية.

وأنا أنتفض قلت له إن ألعاب أخي فيه. لكن الرجل أخذ الحقيبة من يدي بلا اكتراث رامياً إياها في إحدى زوايا محراسه. بعدما أعلمني أنه يمكنني أن أسترجعها وأنا خارجة.

لم أكن على يقين من أمري. كنا متأكدين جداً من نجاح مساعينا في السفارة الفرنسية. بحيث إننا لم نتحضر بما فيه الكفاية في حال الفشل والإخفاق. عدا عن أننا لم نكن في وضع معنوي يمكننا من ذلك. فقد كنا نتخبط في حالة من الهلع والتمزق. كنّا نعوّل على تطبيق السيناريو الذي وضعناه خلال أسابيع بعد ما حفظناه ظهراً عن قلب. ولكن مواجهة المفاجآت وما هو غير متوقع كان يتطلب مجهوداً من الصعب تجاوزه. لذلك كنت مشتتة وضائعة. وأنا أرتجف، سلكت مرتفعاً يقود إلى مكاتب السفارة.

من جهة اليمين كان يوجد محراس زجاجيّ يرابط فيه رجلا أمن حيث يتابعان حركة الذهاب والإياب أمام شاشات المراقبة. من جهة الشمال المقابلة لها، كان يوجد رجل مغربي يضع بذلة وربطة عنق، يقف أمام السلسلة الحديدية التي كانت تحمي مدخل المكاتب.

سألت المغربي أن يزوّدني بطلب للهجرة. استوضحته عن طريقة الإجابة. عندما كان يجاوبني، كنت منهمكة في التفكير بالمخرج المناسب. كان يكفي أن أنتزع هذه السلسلة التي كانت في متناول يدي كي أجد نفسي فوق الأراضي الأميركية. في الجهة الأخرى، كان الموظفون يعملون، حاولت أن

ألفت نظراتهم بعينين كلهما استجداء لكن دونما جدوى.

اقترب رجل من الحارس المغربي، بعدما أبرز لـه بطاقته، أزاح من طريقه السلسلة مفسحاً له المجال في الدخول. ترددت مرة أخرى، كيف أتصرف. هل كان عليّ أن أتبعه باندفاع؟ أو ربما من الأفضل لي أن أقفز فوق السلسلة، وأنا أصرخ طالبة حق اللجوء السياسي؟ ولكن إذا قبلوني، ماذا سيحصل لهؤلاء الثلاثة الآخرين؟ هل سيطردون؟ أم أنه سيبلغ عنهم؟ أو أنهم سوف يعتقلون؟

لو أن المغربي كان أميركياً لما ترددت أبداً في القفز فوق السلسلة. لأنه كان سيجسد لي الخلاص، وأميركا، حقوق الإنسان. ولكن في المقابل هل كان بإمكاني أن أثق بأحد مواطني بلدي؟ وماذا عساي أن أفعل لو أنه سدّ عليّ الطريق؟

عندما قررت أخيراً الانتقال إلى التنفيذ، كان الوقت قد تأخر. من غرفتها الزجاجية، كان رجلا الأمن يراقبان تحركاتي، أخذتهما الريبة في تصرفاتي. تحادثا فيما بينهما بالإنكليزية وهما يشيران نحوي ثم ناديا عبر مكبر الصوت بطلب الرجل المغربي، بعد أن قالا له بأن مظهري يبدو غريباً، خرج أحدهما من مكانه متجهاً نحوي. أصبت بالهلع، التقطت الطلب، استعدت حقيبتي، وانطلقت كالسهم إلى الخارج، فيما كان قلبي يكاد يتوقف من شدة الخفقان. وافيتهم إلى حيث ينتظرونني داخل سيارة التاكسي. إنها الهزيمة بعينها. لم يبق أمامنا إلّا سفارتا بريطانيا العظمى، وإسبانيا، لكنهما كانتا مغلقتين أيضاً. ولم نعد نعرف ماذا نفعل.

كان بإمكان أحد آخر أن يساعدنا، وهو صديق بربري لجدي. كانت إحدى بناته في نفس الصف معي، في القصر. طلبنا من التاكسي أن ينقلنا إلى الأكدال، الحي الذي يقطن فيه مع عائلته المؤلفة من زوجته للا مينا، وبناته، لطيفة ومليكة. في تلك الحقبة، كانت الأكدال حيّ الفيلات الصغيرة الخلابة. لكنها أزيلت جميعها وتم استبدالها بالمباني.

لم نعد نعرف فيها شيئاً. كان التاكسي يدور في حلقة حول نفسه، وكنا نحن بدورنا نزداد تشتتاً. فجأة تذكرت أن منزلهم كان يقع بالقرب من مركز البريد. بضربة حظ، كان ما زال الوحيد الذي لم يطاوله التدمير.

سألني البواب عن الاسم الذي كان عليه أن يخبرهم به. قلت له بأنني أرغب بالتحدث إلى للا مينا، من قبل مليكة، ابنة الحاجة فاطمة.

عاد وأعلن لي بلهجة مشككة:

ـ لا تعرف أحداً قط بهذا الاسم. إذا لم ترحلي فوراً من هنا، فإنها ستتصل بالشرطة.

أصررت على موقفي وقلت له:

ـ قل لها، بأنني أنا مليكة، مليكة أوفقير.

تجمد في مكانه من هول المفاجأة، لقد أصابه الذعر. قال لي أخيراً:

ـ لا تصري، إذ لا داعي لذلك. إنها لا تريد أن تعرف شيئاً.

لكنه بهدوء أوصد الباب الذي يفصل بين الصالون والمدخل، وراح يستجوبني بنظراته. سألته عن مكان سكن لطيفة قال لي:

ـ إنها تعيش في أكادير. أما أختها مليكة، فقد كانت تعيش في الطرف الآخر من الشارع.

كنت أعرفها جيداً، كانت تعمل مدرسة في مطلع شبابها. في الفترة التي كان فيها أبي ما زال مديراً للأمن العام، كانت تأتي إلى البيت لإعطاء الدروس الخاصة لإخوتي الصغار. إنها في الوقت الحاضر متزوجة من مقاول وربة عائلة.

بقليل من الأمل، قررت أن أضرب هذه العجينة في الحائط، وأجرب حظي. تمركزنا أمام المبنى ورحنا ننتظر وصولها. حوالى الثانية عشرة والنصف ظهراً، شاهدنا إحدى السيارات وهي تتوقف. نزلت منها سيدة مسنّة يتبعها أولادها الأربعة في خط مستقيم، كانت مثل دجاجة تتقدم فراخها. من الواضح أن مليكة كانت تزيد عشرة كيلو غرامات في كل حمل.

تقدمت باتجاهها. نظرت إليّ بتركيز، وراحت تحملق في وجهي كلما ازددت اقتراباً منها. كانت الصورة تتضح في ذهنها أكثر. أخيراً، تغضّن وجهها، وتراجعت إلى الوراء وأخذت تصيح وتبكي:

ـ ولكن لماذا أنا بالذات؟ لماذا تفعلون بي هذا؟ لا يحق لك هذا... أيها الأطفال ادخلوا فوراً إلى المنزل.

قالت لهم هذا وهي تبدو على حافة الإصابة بالهستيريا. تابعت تراجعها وهي تدفعني بذراعيها كي أغرب عنها وكأنني كنت مصابة بداء الجذام.

عدنا إلى قلب المدينة، كي نودع الرسائل في مركز البريد الرئيسي. أرسلنا عشرات منها إلى العديد من رجال الشرطة، والفنانين، ومن بينهم آلان ديلون، سيمون سينيوريه، سيمون فيي، روبير

بادينتر، وجوزيه آرتير...

كنا نريد أيضاً إجراء بعض المكالمات الهاتفية. حبسنا أنفسنا في حجرة الهاتف لكننا لم نعرف كيف نشغل الجهاز.

في كل مرة كان يقترب خلالها أحد ما، كنا نخرج منها عدواً. كنا نتصرف وكأنهم كانوا يطاردوننا. بالرغم من خوفنا، حاولنا أن نمزح فيما بيننا بعض الشيء. الأمر الذي سمح لنا أن ننسى قليلاً بأننا كنا فارين. لكننا لم ننجح أبداً في طلب ولو نمرة واحدة.

كان الوقت يمر، وكان يجب أن نلوذ إلى مكان ما. لم يتبقّ لنا إلّا أصدقاء الطفولة الذين كان بإمكانهم أن يساعدونا ومن بينهم رضا، صديق رؤوف الحميم. كان في الماضي يسكن بالقرب منا في شارع الأميرات. كي نصل إلى بيت رضا كان لا بد لنا من المرور بمنزلنا القديم. كنت أعد الصغير دائماً أن أصطحبه يوماً لرؤيته. مع أنه لم يكن يتذكره أبداً، لكنه كان يحب الاستماع إلينا ونحن نتحدث بحنين عنه.

لعلها هذه هي الفرصة الوحيدة لذلك.

أعطيت موعداً للاثنين أمام منزل رضا، وتخلفت عنهما أنا وعبد اللطيف كي نسلك الطريق الذي يؤدي إلى منزلنا.

كنت خائفة مما سأجده. ترى هل أجرى المستأجرون الجدد بعض التغييرات عليه؟ هل احترموا خصوصية المكان؟ هل ما زالت غرفتي بين المسبح وصالة السونا؟ والحديقة، هل ما زالت مزروعة بالأزهار التي كنت أحبها كثيراً؟

عندما وصلنا إلى المدخل، اعتقدت أنني أخطأت العنوان، فبدلاً من الفيلا الساحرة المحاطة بحديقة مزروعة بأعشاب دائمة الاخضرار، لم يعد هناك إلّا أرض جرداء بور. بعد رحيلنا، تم نهب البيت. عرفت حاشيتنا القديمة كيف تستغل الأمر كي تتوزع فيما بينها أثاثنا، ولوحاتنا، وسجاداتنا، وحلي أمي، وألبومات الصور، والمنمنمات الصغيرة، وملابسنا، ومتاعنا، وذكرياتنا... ثم قام الحسن الثاني بإزالته. لم يعد له وجود كما الحال بالنسبة لنا. بهذا العمل الوحشي، قام برمينا في العدم.

اعتبرت هذه الضربة قاضية، إن لهذا المنزل أهمية خاصة ومعتبرة في نفسي. عندما كنت في القصر، كان هو محور كل تفكيري، إنه رمز الأسرة الطبيعية والسعيدة، وملاذي الأمين.

خلال سنوات السجن الطويلة كنت أعلق آمالي عليه، وأستعيده زاوية زاوية في ذهني. في الليل، وقبل أن أنام، كنت أروح أتجول في كل غرفة، وأستعرض كل الموجودات. كان بمثابة حبلي السري، والشيء الأخير الذي كان ما زال يربطني بأبي وبأيام السعادة الهاربة. باختفائه، انهارت بلمحة كل نقاط الارتكاز التي كنت أستند عليها. كنت أشعر كما لو أنني متسخة، ومغتصبة، ومقتولة، وأنني وحيدة في هذا العالم مرة ثانية. لم يعد لأي شيء قيمة عندي. كي لا أثير قلق عبد اللطيف، تظاهرت بالضياع، وادعيت بأنني نسيت أين البيت. قَبِل الكذبة بدون تذمر وامتعاض.

عاود التاكسي انطلاقه إلى بيت رضا. كان هناك بستاني أمام الباب. قال لي باستهجان واستغراب:

ـ رضا؟ لقد تزوج. لم يعد يسكن هنا... أبواه؟ إنهما في فرنسا...

لكثرة ما ألححت عليه، أعلمني من طرف شفاهه، بأن رضا يسكن في مجمع زهوة. صعدنا إلى التاكسي ونحن نشعر بمنتهى الإحباط. على مدخل المقر السكني، أوقفنا الناطور، كان حذراً، متشككاً، ومخبراً سرياً ككل النواطير المغاربة.

حاولت أن أبدو طبيعية، وسألته عن المبنى الذي يوجد فيه رضا. قصدته بحذر كما لو أنني كنت في حالة حرب، وأنني اجتزت لتوي خطوط تماس خطرة. حيث كان بالإمكان في كل لحظة سقوط رصاصة من شأنها أن تقطع مجرى سيري.

قرعت الجرس. خادمة ما فتحت لنا الباب. قالت: لقد خرج رضا لتوه. رفضت أن تقول لي أين يتناول رضا غداءه. طلبت منها كوباً من الماء، ورجوتها أن تدعني أجري مكالمة هاتفية. أردت الاتصال بـ جوزيه آرتير. رافقنا برنامجه خلال فترة الأسر والاعتقال، كنت أحسّ أنه سيساعدنا بما لا يقبل الشك... لكنها أشارت لي بالرحيل دون أن تذعن لطلبي.

كنت لا أزال أحاول أن أجعلها تعدل عن رأيها، عندما سمعت صوت هدير طائرة هليكوبتر، جذبت الصغير من يده ورحت أنزل جرياً على الأدراج. رؤوف وماريا اللذان كانا بانتظاري أمام مدخل المبنى راحا هما أيضاً يركضان. كانت تحلق على علو منخفض، مما أمكننا رؤية الجنود الذين كانوا يجلسون بداخلها ويضعون رشاشاتهم فوق ركبهم. تابعنا ركضنا واختبأنا نحن الأربعة خلف أشجار السرو ونحن نرتجف والواحد منا يلتصق بالآخر. كنا نجهل أن جدّنا هو أيضاً يسكن في هذا

المجمع ولذلك بدأ رجال الشرطة بحثهم انطلاقاً من هنا.

خطرت لرؤوف فكرة جديدة، واحدة إضافية، لكن في الوضع الذي كنا عليه، لا يمكننا إلّا التجربة والمحاولة. بالقرب من مجمع زهوة كانت توجد ڤيلا لأصدقاء طفولة آخرين، باتريك وفيليب باريـر، وهما فرنسيان ولـدا في المغرب. كانت دائـماً تربطنا بهم علاقـة طيبة، وكنا نحب جـداً أبويهما، لا سيما أمهم، وهي امرأة فائضة الأمومة، ودائمة القلق على ذريتها.

بعد عدة دقائق من السير المتواصل، وجدنا المنزل، الصغير الجميل، والمحاط بالأشجار والأعشاب. فتحت لنا الخادمة. قلت لها:

ـ نريد رؤية مدام باريـر من قبل مليكة ورؤوف أوفقير.

أعـادت إغـلاق الباب، كنا نتوقع كل شيء بدءاً من طردنا كلصوص، وإهانتنا وتحقيرنا وصولاً إلى الإبلاغ عنا. لكننا كنا منهكين من التعب، خائرين من الجوع، مرتعدين من البرد، والخوف واليأس. لم نعد نستطيع أن نخطو خطوة واحدة.

سـمعنا ركضـاً في الممـر ثم فتـح الباب فجأة. كانت ميشـال باريـر أمامنا، والدموع تمـلأ عينيها. لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة بقدر ما كانت تبكي. فتحت ذراعيها على وسـعهما وضمتنا إليها بقوة وهي تهمس:

ـ أطفالي... أطفالي الأعزاء... أي سعادة هذه!

دعتنا للدخول. لأول مرة منذ هروبنا كنا نشعر بالأمان.

كانت تأخذ قهوتها برفقة زوجها، طلبت منا نحن الأربعة أن نتبعها. كان لوك بارير يملك منشرة. في الفترة التي كنا نعرفه فيها، كان كثير التردد على القصر. نهض من مكانه وعانقنا. بدا مندهشاً ومتفاجئاً جداً لرؤيتنا. قلت له إنهم أطلقوا سراحنا.

ـ ولكن كيف ذلك؟ لم يذع هذا الخبر على التلفزيون، ولا على الراديو أيضاً...

ـ أنت... إن الأمر هكذا... عندما اختفينا، لم يعط أحد أي توضيحات بهذا الخصوص أيضاً...

بدا كلامي معقولاً... إذ كم وكم من الذين تم إخفاؤهم، غابوا نهائياً إلى الأبد عن الأنظار، ودون أن يعرف أحد ما كيف تم ذلك؟ ولماذا؟

تابعـت علـى نفس المنوال، وقلت له إن أمي والآخرين سـيخرجون قريباً هـم أيضاً. وإنهم كانوا قد

مدّونا بالمال اللازم للرحلة قبل إطلاق سراحنا.

لم أكن مرتاحة وراضية عن نفسي عندما كنت أقوم بتلفيق هذه الأكاذيب. شعرت أنه كان ذا حدس قوي.

فيما يتعلق بي، لقد كلفني غالياً أداء هذا الدور، والتظاهر بأن كل شيء طبيعي وعلى أفضل ما يرام في الوقت الذي كان فيه رأسي محموماً بالأفكار والهواجس، ويكاد من شدة غليانه أن ينفجر. كم كان بودي أن أصرخ وأملأ الدنيا صراخاً، هنا في وسط صالونهم المرتب، والمزين بالأشياء الجميلة التي تنضح بالدفء والحب والأمان والاطمئنان، فيما كنا نحن نختنق من وطأة الطوق الذي كان يضيق علينا بإحكام. كنّا ملاحقين ومطاردين من قِبَل جميع رجال الشرطة في بلدنا المغرب. إننا، منذ خمسة عشر عاماً، ندفع ثمن جريمة لم نرتكبها. أي كابوس هذا... أما آن له أن ينتهي؟

يا لأمي، وسكينة، ومريم، إنهن ما زلن سجينات، ويتكبدن ربما سوء العذاب، كي يعترفن بمكان وجودنا...

كنت أضجّ بالخوف، والرعب، والقلق، والثورة، وعقدة الذنب، والغضب. بدون وجودنا كانت الحياة تسير في مجراها الطبيعي بانتظام، إننا نحن من عكّر صفوها، وأربك هدوءها وكدّر عيش أصدقائنا الذين لطالما أحببناهم ولم نسهم. أصبح مجرد ذكر اسمنا يثير لديهم الرعب والهلع... يا لسخرية القدر! إننا لسنا أشباحاً... إننا لسنا أمواتاً... حبذا لو أن الأمر كذلك... لكان هذا أهون وأفضل.

كان عليّ أن أعضّ على جرحي، وأزدرد لوعتي وألمي. وأن أطبع ابتسامة على شفتي، وأتظاهر براحة البال، وأتصنع الفرح، كان عليّ أن أجد الكلمات المناسبة، وأتبادل مع الغير عبارات اللياقة والمجاملة. ماذا فعلت يا إلهي كي أستحق كل هذا؟

انسحب لوك بارير بعدما استأذن بالانصراف إلى عمله. الأمر الذي أراحنا وطمأننا. لأن هذا يزيح عن كاهلنا عبء التظاهر والتكلف. عدا عن أن زوجته آمن جانباً منه، ومن السهل التعامل معها. بلطافة وحنان، أدخلتنا إلى المطبخ وراحت تضع أمامنا الطعام والشراب وهي تردد:

ـ يا لصغاري المساكين... يا إلهي كم أنا سعيدة...!

استغرقنا عدة ساعات في الأكل والشرب، يرافقنا الإحساس المستمر والدائم بأن هنالك خطراً

داهماً قد يباغتنا في أي لحظة. ومع هذا، استحوذت على اهتمامنا أحاديث ميشال بارير التي كانت تدور بمجملها حول أصدقائنا القدامى.

أخبرتنا كيف تم تدمير بيتنا، وعن أسماء بعض الأشخاص من الحاشية، الذين تدافعوا وتسابقوا لنهبه وسرقته، ابتلعت دموعي، وتمالكت نفسي كي لا أبكي.

أعلمتني أيضاً بموت جدتي خديجة منذ عشر سنوات وأكثر، لقد كانت امرأة شجاعة، كانت تقوم بدور صلة الوصل، وتتجول على دراجتها كي تسلم بنفسها البريد والرسائل إلى رجال الشرطة الذين كانوا يعملون في تامتاغت كي ينقلوها بدورهم إلينا. عاود جدي الزواج مرة أخرى بامرأة صغيرة السن.

كذلك قالت لنا بأن أحد أبنائها المدعو فيليب، الذي يعيش في باريس، هو في زيارة عابرة للمغرب برفقة زوجته جانين، وهي رفيقة مدرسة قديمة، وأنه سيكون مسروراً جداً برؤيتنا.

طوال الوقت كنت أخشى أن يزلّ لسان أحد منا بكلمة واحدة تكشفنا وتفضح أمرنا. لقد صعقت عندما أدارت التلفزيون. إذ إننا لم نر أبداً صوراً ملونة إلّا في صالة السينما. ظهرت صور متحركة على الشاشة العملاقة، وعبد اللطيف تسمّر أمامها. غاب عما حوله، كان مأخوذاً كلياً بالمشاهد التي كانت تعرض. لقد عاد طفلاً في الثالثة من عمره، يقهقه لأقل طرفة.

كنت قلقة بشأنه. خفت عليه من الغرق في هذا السيل الجارف من المعلومات والاكتشافات. ربما كانت هنالك مضار لهذه الوتيرة المتدفقة والمتسارعة. وربما ستحدث له خللاً نفسياً لا تحمد عواقبه. وقد يثير هذا شكوك ميشال بارير حول الظروف التي كنا نعيش فيها في المعتقل. وهذا ما لا أرغب به، أردت أن أكون مقتضبة قدر الإمكان.

كان الوقت يمر. فيما كنا نتابع الثرثرة حول موضوع وآخر، كانت تترسخ قناعتي بأن الإخفاق كان حليفنا حتى هذه اللحظة. ورحت أمعن التفكير في الموت، لأنه هو خيارنا الوحيد، في حال أنهم أعادوا القبض علينا. إن وضع حدّ لحياتنا لأهون علينا من هذا. كان من السهل علينا أخذ هذا القرار بين قضبان السجن، في حين أنه بدا صعباً جداً بعد هروبنا. لقد استيقظ حبّ الحياة في نفوسنا فجأة بعد سبات عميق.

عاد لوك بارير إلى البيت بعد الظهر. لم يكن عنده نية أن يغضّ طرفه عنا. لم يصدق كلمة واحدة من

مزاعمنا. وراح يعاود طرح الأسئلة نفسها علينا آلاف المرات دون أن يبدو عليه الرضا من إجاباتنا.

حاولت زوجته جاهدة إعادته إلى رشده، لم تفتأ تطلب إليه أن يدعنا بسلام: وأخذت تقول:

ـ ألا ترى أن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون في كابوس... لوك دعهم وشأنهم... كلما فكرت بجميع هؤلاء الناس الذين غدروا بهم، وكيف كانوا يعاملونهم من قبل...

كلما كنا نغير مجرى الحديث بالسؤال عن أخبار هذا البعض أو البعض الآخر، كان هو يأبى إلّا أن يعود إلى حيث يريد ليتابع استنطاقنا والتحقيق معنا. انتهى بأن أعلن لنا بأنه لا بد من الاحتفال بتحررنا وإطلاق سراحنا. ارتأى الاتصال بجدي لأنه، على حد قوله، يستحق هذه الفرحة. أيّ ورطة هذه! كيف أقنعه بالعدول عن رأيه دون أن أثير شكوكه المتأججة؟

قلت له:

ـ إنه رجل عجوز، ولن يتحمل رؤيتنا بهذه الحالة التي تثير الشفقة. نفضل أولاً أن نسترد صحتنا ونستعيد قوانا قبل أن نتصل به. إنه كل ما تبقى لدينا من عائلتنا. ولا نريد أن نغامر بفقدانه.

الحقيقة بالطبع كانت مختلفة كلياً. لأن البوليس كان لا شك يراقب هاتفه ومنزله. سنكون عرضة لأن يلقى القبض علينا على الفور.

هبت ميشال باربر لنجدتنا قائلة:

ـ دع لهم الوقت الكافي كي يرتاحوا، غداً سيذهبون لرؤيته.

ثم خاطبتنا قائلة:

ـ لا تخافوا، سنحضّره نفسياً لهذا قبل ذلك، سأتصل به بنفسي. اطمئنوا.

كنا على وشك الجلوس على طاولة الطعام عندما سمعنا باب البهو يفتح. سمعنا شهقة رجل في الممر. علم فيليب باربر بنبأ عودتنا وحضر لزيارتنا مع زوجته وابنه. ضمنا إلى صدره وهو يبكي. وكان يردد نفس العبارة التالية:

ـ ليس صحيحاً، يا له من كابوس، لماذا فعلوا بكم هذا؟

ثم لم يلبث أن هدأ روعه، وراح ينظر إلينا، ويقول لنا بأن رؤيتنا مجدداً هي أجمل هدية قدمتها له الحياة.

هذا العشاء كان الأكثر غرابة وإيلاماً في حياتي. كان فيليب يضحك حيناً ويتفرّس في وجوهنا

أحياناً بابتسامة غير مصدقة. حاولنا بدورنا أن نحافظ على مظهرنا الطبيعي بالرغم من أننا كنا في غاية التأزم النفسي والإنهاك الجسدي.

بعد العشاء، أراني لوك بارير غرفنا في الطابق. رفضت بتهذيب تلك التي اقترحها عليّ، متذرعة بأنني أرغب أن أنام بمفردي. وافق بدون أي تذمّر من طلبي هذا الذي أردت من ورائه الحصول على غرفة فيها هاتف.

عاود لوك بارير الصعود، ماداً يده لي بحبوب منومة، كي نتمكن من قضاء ليلة سعيدة ومريحة. أخذتها منه وشكرته. وما إن أدار ظهره حتى سارعت لرميها في حوض الحمام. كان هذياني وتطيّري يزدادان حدة واضطراد.

أخذنا حمامنا بالدور. اكتشف عبد اللطيف ما هو روب الحمام بعد أن استعمله لأول مرة. كنت آخر من دخل الحمام. وأنا أنزع ثوبي عني، كانت بعض أجزائه عالقة مما اضطرني أن أجذبه بعنف، فإذا بي أسلخ جلدي دون أن أدري، إذ يبدو أن الدم الذي كان يسيل من ساقي كان قد لصق القماش به، حتى إنني لم أعِ أنني جرحت عندما كنت أحاول أن أنفذ من النفق الضيق، كان الألم لحظتها فظيعاً، ولكنه زاد سوءاً الآن. كان حذائي ملتصقاً بقدمي. كان من المستحيل عليّ أن أتمكن من خلعه.

أغمضت عيني، عددت حتى الثلاثة، ثم جذبته بقوة. عضضت على شفتي كي لا أصرخ. لقد اقتلعت أظافر قدمي، مسببة النزيف. اندفع الدم على الموكيت.

كالمجنونة، رحت أبحث حولي عن شيء أمسح به هذه الآثار العالقة. فجأة فتح الباب، خبأت نفسي بروب الاستحمام. رأت ميشال بارير بقع الدم على الموكيت. سألتني باهتمام:

ـ ما الذي حصل؟

ـ ليس بذي بال، أغلقت الباب على إصبعي.

بان عليها الارتعاب. أصبح الوضع خارج حدود السيطرة. بعدما خرجت، سارعت إلى الاستحمام، جفّفت نفسي قدر الإمكان ثم أخذت أنظف ما أحدثته من أضرار. كانت قد أعارتني قميصاً للنوم، لكنني بقيت جالسة طوال الليل، كي لا أوسخ الملابس والشراشف بقدمي التي استمرت تنزف بحدّة.

قضيت الليل بطوله وأنا أكتب. رسالة إلى جان دانييل، وبعض القصائد وعدة رسائل استغاثة

أخرى. حوالى الرابعة صباحاً، رفعت سماعة الهاتف بأطراف أصابعي. وإذ بلوك يسألني على الطرف الآخر إذا كنت بحاجة إلى شيء ما. أجبته بارتباك:

ـ لا، ولكن خيّل إليّ أنني سمعت رنين الهاتف.

ـ إنك لا شك تحلمين...

حوالى السادسة والنصف، من صباح الثلاثاء، نهضت، ارتديت ملابسي، ثم ذهبت كي أرى إخوتي، كانوا جميعهم مستيقظين، طلبت منهم أن يرتدوا ملابسهم بسرعة، ثم نزلت إلى المطبخ.

كانت ميشال بارير تدندن بإحدى الأغاني وهي تقوم بتحضير فطور الصباح. كانت الطاولة مجهزة، ورائحة الخبز المحمص والقهوة تفوح من المكان. كل شيء كان يبدو طبيعياً، باستثنائنا نحن الذين كنا بعيدين عن كل ما يمت بصلة إليه.

عانقتها، سألتني بحنان إذا ما كنت قد نمت جيداً. قاومت دموعي، هزتني بما أبدته من لطف ظاهر حيالي... سألتها عن سر غياب لوك، أجابتني:

ـ كان من المستحيل منعه من ذلك... إنك تعرفين طبيعته جيداً... لقد استقلّ السيارة وذهب كي يعلم جدك...

صعدت كي أنذر رؤوف بهذه الكارثة. وإذا بفيليب يصل كي يتناول معنا فطور الصباح. انتحى به رؤوف جانباً، وسأله إن كان بإمكانه أن يصطحبنا بسيارته. أجابه:

ـ بطيبة خاطر، ولكن إلى أين تريدون الذهاب.

ـ سنخبرك بذلك لاحقاً...

ادّعيت أمام ميشال بارير أنني سأقوم بجولة أنا ورؤوف برفقة فيليب.

كنا قد عاينّا أمس موقع السفارة السويدية، إنه ليس بعيداً من هنا. كانت هذه فرصتنا الأخيرة لطلب حق اللجوء السياسي، مع ثقتنا الضعيفة بإمكانية نجاحنا في ذلك.

أرشدنا فيليب إلى الطريق، وعندما اقتربنا من المكان، أشرنا عليه بالوقوف.

نظر إلينا مطوّلاً، دون أن ينبس ببنت شفة. كانت أمارات وجهنا وصمتنا قد أغنتنا عن التعبير. عندما شرحنا له حقيقة وضعنا، أخذ يرطم رأسه بمقود السيارة، مطلقاً صيحات اللوعة والغضب وهو يقول:

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟ أليس لهذا الكابوس من نهاية؟

كان من المستحيل أن ننجح بتهدئة روعه. حاولنا أن نخفف عنه وكأنه طفل صغير. ثم قال له رؤوف:

ـ اسمع جيداً، سندخل الآن إلى مبنى السفارة، وسنطلب حق اللجوء السياسي. إذا لم نحضر خلال ربع ساعة، هذا يعني أن الأمور تمّت كما نرغب. وكل ما نطلبه منك فيما لو أخفقنا أن تقلنا فوراً إلى محطة القطار.

وافق وهو يبكي. كان مستعداً أن يفعل أي شيء من أجلنا.

للدخول إلى السفارة، كان يجب علينا أن نقف صفاً، وننتظر كي يحين دورنا. بعد مضي عشر دقائق، نفد صبر رؤوف. أخذ ورقة، وكتب عليها بحروف كبيرة.

ـ أبناء الجنرال أوفقير يطلبون حقّ اللجوء السياسي من الدولة السويدية.

مررّنا الورقة من تحت الباب الزجاجي الذي كانت تجلس خلفه امرأة شقراء، فارعة الطول. تناولت الورقة، قرأتها، ثم ما لبثت أن هبّت واقفة. عندها بدت بضخامة شكلها كالمارد العملاق، وهي تحدجنا بنظرات قاتلة، قالت لنا بتقطع وهي تشد على مخارج الحروف:

ـ انصرفوا فوراً...

بارتعاب، غادرنا المكان هرباً بسرعة الخيال. إنها السويد، بلد حقوق الإنسان...!

كان فيليب ما زال ينتظرنا داخل السيارة. كان علينا العودة إلى منزلهم كي نأتي بعبد اللطيف وماريا. فتحت لنا أمه الباب. لم نفهم لماذا كان ينتحب بهذه الطريقة. من يدري، ربما كانت ترفض أن تواجه الحقيقة. ثم لم يلبث أن دخل لوك باريـر، يتبعه خالي الصغير وحيد، كان وجهه متورّماً، وعيناه دامعتين. كان باريـر قد ذهب إلى منزل جدي حيث وجد وحيد وأخبره بأنه تم إطلاق سراحنا. إنهار خالي بين ذراعيه وهو يقول له:

ـ لقد فرّوا.

لقد علم بذلك من قوات أمن الدولة الذين اقتادوه ليلة أمس. ظلوا طوال الليل يوسعونه ضرباً على قدميه كي يجبروه على الاعتراف بمكان وجودنا. لقد أعادوه إلى منزله قبل نصف ساعة فقط من وصول لوك باريـر. لم يرنا وحيد منذ رحيلنا إلى آسا. وانقطعت أخبارنا عنه منذ أن أصبحنا في تامتاغت.

باستثناء أنهم من وقت لآخر، كانوا يبلغونه بوفاة واحد أو آخر منا. وهكذا، جعلوه يعتقد أن مريم توفيت، تلاها رؤوف، لأتبعه أنا. جعلني أقسم حقاً بأن أمي والآخرين ما زالوا جميعهم أحياء. كان يصيح ويبكي، وينتحب ثم ما يلبث أن يندفع نحونا ليعانقنا بالدور.

تأثرت كثيراً برؤيته، كنت أحبه كأخي. ولكنني تماسكت، أجبرت نفسي على ضبط ردة فعلي. لم تكن اللحظة المناسبة للاستسلام إلى المشاعر. لم أكن في حالة تسمح لي أن أجاريه في عواطفه. كنت أريده أن يتمالك نفسه، ويعي أن حياتنا على المحك ولا وقت للدموع. كدت أموت خوفاً لمجرد التفكير أنهم ربما كانوا على بعد خطوات هنا بأثره. قلت له ببرود متعمّد:

ـ ماذا ينفع بكاؤك اليوم؟ في حين أنكم تخليتم جميعكم عنا طوال الخمس عشرة سنة المنصرمة. إذا كنت تريد أن تبرىء نفسك، لا يوجد إلّا حل وحيد أمامك وهو أن تروي قصتنا بالكامل للصحافة العالمية، لأننا لن نكون أحياء لنفعل هذا بأنفسنا. ثم تدبّر أمرك، إننا بحاجة إلى المال.

أخذ لوك بارير يصيح قائلاً:

ـ لماذا فعلتم بي هذا؟ لقد وثقت بكم. وفتحت لكم بيتي! لن يكون بإمكاني العمل في هذا البلد بعد اليوم! سيطردونني...

أجبته وأنا أحاول تهدئته:

ـ لم يكن بنيّتي أن أكذب عليك، أو أن أستغلك لمآربي... إننا وحيدون في هذا العالم، ولم نكن نعرف أين نذهب... إذا كتمنا عنك الحقيقة، فهذا فقط لأننا أردنا حمايتك. هكذا يمكنك أن تقول صادقاً للسلطات بأنك لم تكن تعرف شيئاً، وبأننا خدعناكم جميعاً.

حاولت زوجته جاهدة أن تهدىء من روعه. فيما انفعل فيليب وراح يلومه آخذاً عليه أنه لم يفعل شيئاً من أجل مساعدتنا. وقال بألم:

ـ إننا جميعنا مذنبون... جميعنا متآمرون في هذه الفضيحة التي يندى لها الجبين.

لم يكن في حوزة وحيد المال. طلب قرضاً من بارير الذي سلّمنا ثلاثة آلاف درهم دفعة واحدة. أودعت مخطوطة القصة لدى فيليب وجعلته يقسم لي بأنه سيخفي أثرها في مكان آمن ريثما يعيدها إليّ في يوم ما. لقد وعدني. لكنه كان خائفاً لدرجة أنه سارع إلى إتلافها ما إن خرجنا من الباب.

أعطتنا ميشال بارير ملابس جديدة. تلقيت ثوباً بنفسجياً، وصندلاً ذا كعب عالٍ، بحيث أبدو في

مظهر لا يثير الفضول. كذلك الأمر بالنسبة لرؤوف وعبد اللطيف اللذين ارتديا ملابس مناسبة.

صعدنا إلى سيارة تاكسي، وطلبنا من السائق أن يوصلنا إلى محطة قطار الأكدال، لأن المغادرة عبر محطة مدينة الرباط مغامرة محفوفة بالمخاطر. ونحن كان في نيتنا الذهاب إلى طنجة.

طنجة

لماذا طنجة بالذات؟ أولاً، لم نكن نعرف إلى أين نذهب؛ ثانياً، بدت لنا هذه المدينة محطة مناسبة نطلق منها في مغامرتنا المجهولة.

كنّا بأمسّ الحاجة للنوم، وكنا في قمة إرهاقنا، واكتئابنا، ويأسنا من كل الإحباطات والخضات التي منينا بها خلال هذين اليومين الماضيين. فضلاً عن أن آل باربر كانوا قد أعلموني بأن أحد المعجبين القدامى، صلاح بلافريج، كان يمتلك فندقاً في طنجة، وربما كان بإمكانه أن يساعدنا في مطلق الأحوال، أصبحت الدار البيضاء والرباط مدينتين خطيرتين بالنسبة لنا، كان يلزمنا قاعدة نتحرك منها، فلِمَ لا نجرب حظنا في طنجة؟

إلتجأنا إلى موقف للسيارات حيث اختبأنا، كي نبقى بمنأى عن الأنظار، لا سيما وأن أمامنا ساعتين ونصفاً من الانتظار قبل حلول موعد القطار. ذهب رؤوف لشراء التذاكر ثم عاد لينضم إلينا في مخبئنا خلالها. بدأنا نهذي ونحن نتخيل الآلاف من مخططات الهرب، التي كان كل واحد منها أشد غرابة من الآخر. مما أثار تهكمنا، فرحنا نقهقه ونضحك بالرغم من اليأس الذي كان يعترينا، والذي كنا نخفيه بهذه الدعابات الطفولية.

عندما فكرنا في مغادرة المغرب سباحة عبر مضيق جبل طارق، أبدت ماريا تخاوفها من أسماك القرش، وأخذ رؤوف يمازحها، متهكماً من نحولها الشديد. قال لها بمرح:

ـ يا طفلة المجاعة، أي قرش يرغب في عظامك؟

أما عبد اللطيف الذي كان من عادته أن يأخذ الأمور ببساطة، فقد أرعبته الفكرة لأنه لا يجيد السباحة. هدأ رؤوف من روعه، وقرر أن نشتري لدى وصولنا إلى طنجة بذلة نجاة معتبرة تليق حتى بـ«كوستو». ورحنا نتخيل مواقف وأموراً لا تخطر إلّا على بال المجانين. قررنا أن نطلي بشراتنا بدهن الفقمة كي نتمكن من مقاومة البرد. وأن نستحصل على حبوب ضد الخوف من القرش كي نطمئن

ماريا، وأن نستخدم منارة ضوئية كي ندلّ السفن على نقطة تواجدنا.

هذه الترّهات الحمقاء كانت تساعدنا على التماسك. فاجتياز مضيق جبل طارق سباحة مشروع سخيف، بدون شك، لكنه بدا معقولاً قياساً بالنفق الذي حفرناه بأيدينا، وهروبنا المليء بالمفاجآت. ونحن في غمرة جنوننا، وضعنا العديد من السيناريوهات التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي كان نصفها ناجحاً ونصفها الآخر فاشلاً.

لدى وصولنا إلى طنجة كان يلزمنا مكان نأوي فيه كي ننام، وذلك قبل الاتصال بيلافريج لأن الذهاب إلى الفندق كان أمراً محفوفاً بالمخاطر، حيث سيطلبون منا أوراقنا الثبوتية، ثم لم نكن نرغب كذلك بأن نهدر مالنا.

لم نكن نعرف الكثير من الناس في طنجة، ثم إن الاستقبال الذي منينا به في الرباط جعلنا نخشى أن نلدغ مرة أخرى. بالإضافة إلى أن رجال الشرطة يبحثون عنا منذ يومين، ولعلهم بدون شك شملوا أيضاً مدينة طنجة ببحثهم. بعدما انكشف أمرنا، عمدوا إلى وضع كل أصدقائنا تحت المراقبة، لذا، لا بد لنا أن نكون على درجة عالية من الحذر.

اتفقنا على أن نقيم بأيّ ثمن علاقات تعارف جديدة في القطار. لقد سعيت أنا ورؤوف جاهدين أن نمدّ شباكنا حول المسافرين، اتبعنا في خطّتنا الطريقة الكلاسيكية والمعهودة، ما نريده هو الإيقاع برجل وامرأة من عامة الشعب، على شيء من الطيبة والسذاجة، كي تنطلي حيلتنا عليهما، ونحن نتحرى داخل المقصورات وجدنا «عصافيرنا النادرة» التي نبحث عنها. كانت المرأة تجلس إلى يسار النافذة، والرجل قبالتها في الجهة الأخرى. كان في الثلاثينيات من عمره، تبدو عليه اللطافة والتواضع، لم أتأخر كثيراً كي أنغمس في التفرس به.

لم يكن الإغراء مدعاة للاستمتاع بل كان وسيلة للاستمرار والبقاء. جلست قبالة الرجل، فيما جلس رؤوف قبالة المرأة التي كانت مغربية، في حوالى الخمسينيات من عمرها، بدينة، ممتلئة باللحم، وترتدي ملابس بالية الموضة، زهرية اللون، وتضع المساحيق الصارخة. التفتُّ إلى رؤوف وهمست في أذنه وأنا أكتم ضحكتي:

ـ أيها المسكين... أنظر ماذا ينتظرك.

كنت أشعر بالبرد، والنعاس، وأرتجف كالريشة في ملابسي الخفيفة. عرض علي الرجل كنزته.

شكرته بفرنسية مشوبة باللهجة الإيطالية. هذه المرة لم نأت من بلجيكا بل من إيطاليا، حتى إننا أطلقنا على هذه «الخطة الحربية» الجديدة اسم آلبرتيني. وخيراً فعلنا، لأن هذا الرجل كان قادماً لتوه من بلجيكا حيث يعمل هناك طباخاً، وهو الآن في إجازة لرؤية عائلته التي تقطن في طنجة. لم تلبث المرأة بدورها أن اشتركت معنا في الحديث. سألونا عن الوجهة التي قدمنا منها. تظاهرت أمامهم بأننا من جنوب إيطاليا، لفتت المرأة انتباهي إلى أن لي بشرة سمراء أسوة بالشعب المغربي. غيرت مكاني لأجلس بالقرب من الطباخ. لوهلة تملكني الإرهاق، فتركت رأسي يقع على كتفه. تحاشيت النظر إلى رؤوف. إذ لا شك أنه غاضب من رؤيتي وأنا أتمادى مع الرجل طمعاً بالحصول على سقف يؤوينا. لم أكن بدوري مسرورة بما أقوم به. ولكن هل كان لدينا خيار آخر!؟

كانت السكة الحديدية تمتد على طول الساحل الرملي الأبيض اللون. كان عبد اللطيف يتابع المناظر التي تمر أمامه بمزيد من الدهشة والغرابة، فهو لم ير بحراً في حياته. وأنّى له هذا؟ لقد كان في الثانية والنصف من عمره عندما اقتيد إلى السجن. كانت ردود فعله مرتسمة بوضوح على وجهه لدرجة أنه استوقف المرأة التي راحت تسأله باهتمام إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها منظر البحر.

غيّرنا مجرى الحديث، كي نتحاشى التوغل في مزيد من التفاصيل حول حياتنا. كانت المرأة متشككة وحذرة بعض الشيء، فيما كان الرجل مسترسلاً في أحلامه، لا شك أنه كان مقتنعاً أنني لن أحتاج إلى وقت طويل كي أقع في حبائله. ويبدو أن هذا الهاجس بدأ يُسيل لعابه.

الساعات الأربع التي استغرقتها الرحلة كانت بمثابة تعذيب وعقاب لنا. كانت أعصابنا مشدودة كالوتد من شدة الخوف، ومن التمادي في تمثيل دور آلبرتيني المرهق، والذي ألهانا عن التفكير في المصائب والمخاطر التي تنتظرنا.

أخيراً، وصل القطار إلى طنجة. تبادلنا نظرات ذات معنى قبل أن ننتقل فوراً إلى التنفيذ. تفاهمنا دونما حاجة إلى الكلام. تأبطت ذراع الطباخ، فيما التصق رؤوف بالمرأة، وانضمت ماريا إلى عبد اللطيف. كان رجال الشرطة على رصيف المحطة يراقبون نزول المسافرين من المقصورات بتكتّم شديد لا يثير الانتباه. فالبلاد في حالة طوارىء، وهم يبحثون سراً عنا في كل مكان. لعل الحكومة كانت في ورطة كبيرة بسبب حساسية هذه القضية، فهي كانت خائفة من تأليب الرأي العام عليها فيما لو كشفت النقاب عن هوية المطاردين، والظروف التي رافقت اعتقالهم خلال خمس عشرة سنة.

وهذا ما تأكد لنا لاحقاً.

مـا إن بـدأ الناس بالخـروج من القطار حتى هرعنا للاندسـاس بـين هذه الجمـوع المتدفقة. نجحنا بالخـروج من المحطة بسـلام. فالشرطـة تبحث عن أربعة لصوص فارين من السـجن، وليس عن فتاة عاشـقة تـتأبط ذراع خطيبها، ولا أيضاً عن شـاب طويل القامة نحيل يلوذ بلحم حبيبته البدينة. ولا كذلك عن زوجين شابـين يتقدمان وهما يبدوان على أتم تفاهم وانسجام.

ما ساعدنا كذلك أنهم لا يعرفوننا ولا يمتلكون أي صورة حديثة العهد لنا. هذا ما أخبرنا به لاحقاً مدير قوات أمن الدولة. منذ ١٩٧٢، كان لدينا الوقت الكافي وزيادة كي نكبر ونتغير...

لم يفهم الطباخ لماذا شـحب وجهي فجأة، وتوتّرت أعصابـي. لقد اعتبر ذلك بسبب رؤيتي رجال الشرطة، وقال لي معتذراً:

ـ نعـم أفهمـك... ولكـن الأمر هكذا هنا... إنني آسـف جداً. في بلدي تريـن رجال شرطة في كل مكان.

تركتنـا المرأة «السـمينة» بعـد أن أعطتني عنوانهـا، إنها تعمل سـكرتيرة في الربـاط. تعلقت بذراع الطباخ، فهمس لي بارتباك ظاهر:

ـ لماذا لا تـتخلصين من الآخرين؟

أجبته بتملّص:

ـ لا أستطيع أن أشتّت عائلتي. إنهم لن يتفهموا هذا...

حاولت أن أعرف منه أين يسكن، لكنه لم يجاوبني.

هذا المسـير في شـوارع طنجة المضاءة ليلاً بدا وكأنه حلم. كانت نسـمات البحر تداعب وجوهنا، والرائحـة المشـبعة باليود تمـلأ صدورنا. كانت صفـارات البواخر، تذكرنا بالسـفر والحـدود المشرعة والممتـدة. لقـد كانـت الحرية هنا... على مرمـى حجر منّا، يلزمنـا القليل كي ننعم بها مـن جديد. كان يسـحرنا نمط الحياة الليلية الذي يتبعه أهل هذه المدينة محاولين تقليد الإسـبان. لكن طنجة العابثة كان لهـا وجه آخر. لقد كانت معقـل الأصوليـين ومركز المخدرات والتهريـب. لذلـك كانت مرتعاً خصباً للقوات المسـاعدة التي كانت تكـثّف من حواجز التأكد من الهويات بشـكل مسـتمر. لم نكن على علم بكل هذا من قبل.

في طريقنا صادفنا جنديين، على كتف كلّ منهما بندقيته. تقدّما منّا وطلبا أوراقنا الثبوتية. أخذتني الصاعقة، فرحت أتأتيء ولا أعرف ماذا أقول. أتت نجدتنا من الطباخ الذي احتج عليهما باللغة العربية، قائلاً:

ـ ماذا؟ إنكم تزعمون بأنكم تعملون على جذب السياح إلى المغرب، في حين أنكم تفعلون كل شيء لإثارة قرفهم واشمئزازهم من بلدنا! فهؤلاء بالكاد وصلوا لتوهم من الرباط، وهم يعيشون في روما. لماذا كل هذا التدقيق في تذاكر الهوية؟

لم يبعدا أعينهما عنّا، لكنهما تأثرا بغضب الطباخ ومنطقه، تركانا نمر، بعدما عادا عن رأيهما مكرهين كما بدا لي. كانت تلك معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى.

تظاهرنا بأننا لم نعِ من الأمر شيئاً. شرح لنا الطباخ قائلاً:

ـ المغرب ليست أوروبا، هذا البلد تحول فعلاً إلى دولة بوليسية.

بتهذيب، أبدينا تعجبنا، وأشرنا إلى أن السياسة المعمول بها في إيطاليا مختلفة. احتضن يدي... صُدمت، وبدأت أصحو من غفلتي. لقد كان الأمر رائعاً عندما كان لا يعدو مجرد سيناريو وتمثيل، لكن عندما أصبح واقعاً صار مرعباً وليس فيه ذرّة دعابة.

كسباً للوقت، توقفنا في محل سمانة، كي نشتري شيئاً نأكله بعد أن كنا قد نسينا جوعنا. راح عبد اللطيف يحملق كالأبله في الرفوف. فهو لم ير من قبل فاكهة معروضة. هززته وسألته عما يريد. اختار الليمون لأنه سبق له أن تذوقه في السجن. أما الباقي فقد أثار خوفه لأنه لا يعرف منه شيئاً. كان قد نسيه كلياً بعد دخول السجن.

نفد صبر الطباخ، نأى بي جانباً، وقال لي بأنه سيلتقي ببعض أصدقائه لحل مشكلة الغرفة، وهكذا سيمكنني من إيواء عائلتي.

أرادني أن آتي معه. رفضت، وطلبت منه أن يعطيني عنوان مكان يتواجد فيه. دلني على أحد المقاهي، ثم تودعنا. تنفست الصعداء، وكنت مرتاحة لأنني أخّرت الاستحقاق.

في سنوات السبعينيات، اشترت أمي حصصاً في أحد الفنادق في طنجة يسمى «سولازير» بالاشتراك مع مدام گسوس، الصديقة التي كانت متورطة في قضية بزّة أبي العسكرية.

اتصلت بها من محل السمانة، قلت لها:

ـ آلو، إنني مليكة... أنا موجودة في طنجة، أحتاج إلى المال وإلى مخبأ أمين. هل بـإمكانك؟

كانت تبدو مرتبكة وهي تقول:

ـ نعـم... فهمـت... لا، لا إن زوجـي لم يعد بعد. هذا مسـتحيل، يجب أن أعـود إلى الدار البيضاء غداً.

لم أفهـم فوراً لماذا أجابتني بهذه الطريقـة الملتوية، وتلك اللهجة الغامضة. خلت ذلك خيانة أخرى من أصدقائنا. تملكتني الخيبة والإحباط مجدداً، فأسقطتها من حساباتي.

لاحقـاً، عرفـت أنهـا، آنذاك، كانت محاطـة برجال الشرطـة، وعندما عدنا والتقينـا اعترفت لي بأن واحداً منهم كان على وشـك أن ينزع منها السـماعة في اللحظة التي أغلقت فيها أنا الخط. كانوا واثقين بأنني أنا من كان على الطرف الآخر.

بالرغـم مـن ذلك، عاودنـا المرور إلى فندق «سـو لازير» الذي كان يقـع قريباً جداً. كنـا نحتاج إلى عنـوان فنـدق «أهلاً» الذي تعود ملكيته إلى صديقي صـلاح بلافريج. قبل مغادرتي إلى طنجة كنت قد طلبـت مـن وحيد أن يتصل بـه ليعلمه بمجيئنا، لم نعد نعـرف إلى أين نذهب. شـعرنا أننا مجبرون على مقابلة الطباخ في المكان الذي دلّنا عليه، والذي كان يقع في المكان الأكثر شبهة في طنجة. نزلنا الأدراج التي قادتـنا إلى الجزء المنخفض والقديم من المدينة.

كان المقهى يقع في قبو ذي سقف منخفض، ممّا حدا برؤوف أن يحني قامته الفارهة الطول، وإلا لما تمكن من أن يتقدم خطوة واحدة. لم أر في حياتي مثل تلك المجموعة من ذوي الوجوه الشاحبة. بحارة بنـدوب، ومدمنو مخدرات بنظـرات زائغة، ومهربـون، وحثالة من الطبقات الوضيعـة. كانوا جميعهم يتحلّقون حول طاولة خشبية من النوع الرديء. لم يكن هناك وجود لأي امرأة بـينهم، ولا حتى لأي طبـاخ. انتظرنا قرابة عشر دقائق ثم ما لبثنا أن اسـتعدنا وعينـا وأدركنا فداحة خطأنا في التواجد هنا في هذا المكان الموبوء. لذلك هرعنا باتجاه الأدراج، ورحنا نصعدها جرياً، بحثاً عن نسمة هواء نقية.

نفـدت السـبل، ولم يبـق أمامنا إلّا بلافريـج. كنا في قمة الإنهـاك والتعب ولا قدرة لنـا على المتابعة سـيراً عـلى الأقدام. ركبنا سـيارة أجرة، كان سـائقها رجلاً مسـنّاً، قصـير القامة، ويـبـدو عليه أنه من الأصوليـين. جلس رؤوف إلى جانبه، فيما جلسنا نحن في المقعد الخلفي.

كان فندق «أهلاً» على بعد ثلاثين كيلو متراً من المدينة. اجتازت السـيارة الأماكن الآهلة، وراحت

تنهب طريقاً سالكاً. بعدما سرنا مسافة وجيزة، توقفنا بسبب ازدحام السيارات. كان هناك شيء يثير الفضول في هذه المنطقة الريفية القاحلة ولا يبشر بالخير. ونحن نقترب قليلاً، لمحنا حاجزاً ضخماً تقيمه فرقة من الجيش، والشرطة، والقوات المساعدة، والدرك، وقوات أمن الدولة. كل هؤلاء «الطيبين» كانوا يبحثون عنا.

السائق الذي لم يعد بإمكانه أن يخطو إلى الأمام، بدأ يغلي من الغضب. لم يتجرأ رؤوف على مجرد الالتفات. لكننا لم نكن بحاجة أن نتكلم كي نعبر عن مدى الرعب الذي كان يهيمن علينا، شبكنا أيدينا بقوة شديدة أنا وماريا وعبد اللطيف، لدرجة أنّ أظافرنا غرزت في اللحم. كان الصمت ثقيلاً ينذر بالخطر. عندما حان دورنا، دارت عجلات السيارة بتثاقل كي تقف بمحاذاة الحاجز. اقترب أحد رجال الشرطة وهو يمسك مصباحاً ضوئياً في يده، سلّطه باتجاهنا، أكرهت نفسي على رسم ابتسامة مصطنعة، أطفأ المصباح ومال على أحد زملائه يحادثه، ثم عادا سوية وسلّطوا علينا مجدداً مصابيحهما الضوئية.

ارتعدت فرائصنا. خيّل إلي أنني أسمع صوت طرقات قلبي العنيفة، ورحت أتساءل كيف حصل أنهما لم يسمعا هذا الضجيج الذي كان يصمّ الآذان. قلت لنفسي، وأنا أكاد أصاب بالإغماء، إذا تأخروا دقيقة واحدة فقط، فإنني لا شك سأموت بنوبة قلبية.

كانوا يبحثون عن أربعة مساجين هاربين. لم يخطر على بالهم قط مجرد المقارنة بيننا وبينهم. في أذهانهم، أن من غير المنطقي أن نتواجد على بعد ثلاثين كيلو متراً من طنجة، إذ لا شيء نفعله هنا. الأرجح أن نكون في طريقنا إلى المرفأ والطرقات التي تؤدي إلى خارج البلاد. بعدما أبعدا عنا الأضواء أعطينا إشارة للمرور. لم نستردّ أنفاسنا إلّا على بعد عدة كيلو مترات لاحقاً.

فندق أهلاً

ما إن وصلت إلى فندق أهلاً، حتى توجهت فوراً إلى قسم الاستعلامات، طلبت مقابلة السيد بلافريج بصوت واثق، وحددت للموظف قائلة:

ـ من قبل مدام آبرتيني.

تفاجأ عامل الاستقبال، لم يتوقع أن امرأة بهذا الشكل الغريب تربطها علاقة معرفة بالمدير. اعتذر بأنه ليس موجوداً، لقد توجه إلى الرباط. عبست، وتظاهرت بالغضب والاحتجاج، ورحت أقول

بصوت مرتفع:

ـ ماذا؟ إنها فضيحة، أين هو جناحي؟ لقد تم حجزه باسم آلبرتيني.

أردت أن أكسب بعض الوقت. وأجنبهم سؤالي عن جوازات السفر.

أصررت أن يتصلوا هاتفياً بالسيد بلافريج ويعلموه بأن مدام آلبرتيني بانتظاره. عاد عامل الاستقبال بعد عدة دقائق وقال لي:

ـ السيد بلافريج طلب منا أن نجد لك غرفة.

لكنني كنت مسبقاً أعرف ماذا سيترتب على هذا الأمر، وقع ما خشيته، طلب مني العامل جوازات سفرنا، تظاهرت بالغضب قائلة:

ـ أنا صديقة مالك الفندق، وتلحق بي هذه الإهانة.

بعصبية مفتعلة استدرت مبتعدة، يتبعني الآخرون، توجهنا إلى مقصف الفندق القريب من الاستعلامات، وطلبنا بعض القهوة، علّها ترفع قليلاً من معنوياتنا.

ذرع عامل الاستقبال المكان ذهاباً وإياباً، إلى أن تجرأ أخيراً واقترب منا قائلاً:

ـ ألا تودين سيدتي المجيء للعشاء.

أجبته باستعلاء مقصود:

ـ لا تتعب نفسك من أجلنا، سنغادر الفندق.

بدأ العمال يحدجوننا بنظرات تساؤل وفضول، استوقفهم سرّ التناقض بين زيّنا المهلهل وتصرفاتنا المتعالية. حتى إن البعض منهم ظل يدور حولنا.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة. قررنا أن نختبيء بالقرب من المسبح، ثم بعدها نقضي ما تبقى من الليل في ملهى الفندق. كان يوجد على العشب بعض الكراسي الطويلة الموضوعة بشكل دائري. ألقيت بنفسي فوق واحدة منها، كانت مبللة بالماء، ترطبت ملابسي الخفيفة، في مخبأنا المظلل بالأشجار، التصقنا، واحدنا بالآخر، بحثاً عن قليل من الدفء. لقد كنا نرتجف من شدة البرد. بفارغ الصبر، رحنا ننتظر أن يفتح الملهى أبوابه كالعادة في منتصف الليل.

خلال خمس عشرة سنة، فكرنا ملياً بعودتنا إلى الحياة. أنا التي كنت في مراهقتي مولعة بالرقص، وأحيي الليل، كي أطلق لنفسي الحبل على الغارب، لا أعرف الآن ماذا حصل. إما نحن من تغير وتبدل

وإما البشر والأشياء. في علبة الرقص، صرعتنا الموسيقى الصاخبة، وأزعجت عيوننا الأضواء الباهرة. وكأننا كنا داخل غرفة تعذيب. لم نقو على تحمّل هذا الاعتداء السافر على حواسنا، لا شعورياً لذنا بالفرار كي ننجو بجلدنا.

هذه الحادثة زادت من حدة شعورنا بأننا «مذنبون» ولا شيء آخر. مرة ثانية تنقلب الأمور ضدنا، وتسبب لنا الأذى وتخدش مشاعرنا. لكن روح النكتة لدى رؤوف تدخلت كالعادة، كي تضمد جراحنا. ونجح بتفجير ضحكاتنا وهو يعلّق على بعض زبائن الملهى بتهكم وسخرية.

عدنا إلى المقصف... وقبعنا في داخله حتى موعد إغلاقه في الساعة الرابعة فجراً... استطلعت مكان وجود الحمّام في الفندق. قضينا فيه ما تبقى من الوقت، كان رؤوف وعبد اللطيف في القسم المخصص للرجال، فيما أنا وماريا اعتصمنا في حمام النساء.

وأنا مختبئة خلف قطعة أثاث في الممر المؤدي إلى الحمامات رحت أقوم بحراسة نومهم إلى أن طلع النهار.

في الصباح، غسلنا وجوهنا، وتزينّا، ثم رتبنا قدر اللازم هندامنا ومظهرنا. دخلنا إلى صالة الفندق كما لو أننا قدمنا لتوّنا. كنا نمشي بتثاقل ونكتم آناتنا، والألم يأخذ منا كل مأخذ، لا يوجد مكان في جسدنا إلّا وكان يشكو من شيء.

ومع هذا، كان علينا أن نتحلى بالمستوى اللائق كي نقوم بالأعباء المترتبة على هربنا. لم يكن لعب هذا الدور المضني مهمة سهلة. كنا نخوض معركة بقاء مجهولة النتائج ونحن ننزف من الإنهاك، والوجع، والرعب، وتكالب الناس والزمان علينا. كنا بحاجة ماسة إلى العاطفة والحب، والاطمئنان... كان الوضع رهيباً ومجحفاً أيضاً... ولكننا لم نكن نملك حق الاختيار.

كان السياح يروحون ويجيئون، لقد كانوا ينزلون من باصات تقف أمام الفندق، ويروحون يرطنون بكل اللغات. كانوا، ببشراتهم البرونزية التي لوحتها الشمس، يبدون فرحين مبتهجين وأحياناً متأففين متذمرين لأنهم يعانون من عسر الهضم بسبب بعض الأطباق، أو لأنهم زادوا عليهم أسعار بعض الرحلات.

كانت الحياة تتحرك أمام أنظارنا بفرح وحبور، وبساطة وتيسير، وكنا نحن خارج معادلاتها ونعيش مطرودين على هامشها. كل شيء يدفعنا إلى أن نكون من بين الأموات، ونحن كنا نناضل

ونأمل أن نكون من بين الأحياء. تركنا صالة الفندق، وتوجهنا إلى الحديقة المحاطة بالأشجار الرائعة. جلسنا، وتحدثنا مطولاً. كنا في يوم الأربعاء، الواقع في ٢٢ نيسان/ أبريل. كان قد مر قرابة ثلاثة أيام على هروبنا، دون أن ينجحوا بإلقاء القبض علينا. كنا ما زلنا ملاحقين، ومرتعبين، ومتنكّرين... لكننا كنا أحراراً. لقد تمكّنّا من احتقارهم والاستخفاف بهم. ومن هنا كنا نعتبر أن هروبنا كان ناجحاً مهما حصل. ولعل هذا يعزينا قليلاً...

اشتقنا لأمي وأختيّ كثيراً، إننا نفتقدهنّ بشدة. كنا نتطرق إلى ذكرهنّ بالدمع حيناً وبالضحكات أحياناً. ترى كيف عاملوهنّ عندما اكتشفوا فرارنا؟ متى سيجتمع شملنا مجدداً؟ لم يكن يجاوبنا إلّا الصدى وكانت أسئلتنا تبقى معلقة... كي يزيد قلقنا وهمنا.

ما زلنا في بحيرة رمال متحركة. لم نحسم أمرنا، ولا نعرف أين نذهب، أو بمن نتصل. قررنا أن نخابر إذاعة «فرانس أنتر». لسوء الحظ، لم نكن نملك رقم الهاتف، فضلاً عن أن إجراء المكالمات كان يتم بواسطة عاملة هاتف الفندق، وفي قسم الاستقبال بدؤوا يشكّون بأمرنا.

كان حلّنا الوحيد أن نجد حلفاء يساعدوننا على إنجاز بعض المسائل العالقة. منذ الصباح الباكر، ألقينا بشباكنا على عجوز فرنسية لطيفة وأنيقة. كان يرافقها ابنها وهو أستاذ رياضيات، في الخمسين من عمره، كان يبدو ضعيف الشخصية، وتحركه أمه بأطراف أصابعها. قررنا أن نسعى إلى كسب ثقتها كي تتولى بنفسها الحصول على هاتف الإذاعة بالنيابة عنّا. لذلك، رسمنا خطّة مدروسة، تضاف إلى قائمة أكاذيبنا الطويلة، ورحنا نتحيّن الفرصة المناسبة لتنفيذها.

بالإضافة إلى هذه السيدة المسنّة، كان يلزمنا أصدقاء «احتياط»، يستطيعون دعوتنا إلى العشاء أو يستضيفوننا في غرفهم. وهكذا، وقع اختيارنا على معلم ركوب الخيل في الفندق الذي استمالته ماريا، وعلى عامل استقبال كان ينظر إليّ برقة، وعلى زوجين إسبانيين شابين، كانا لطيفين وبشوشين.

قامت ماريا بمغامرة عاطفية مع المعلم، كان الأمر بمثابة اكتشاف جديد بالنسبة إليها. كم كانت مسحورة، عندما خفق قلبها، في تجربة جديدة مع رجل لأول مرة. إنها في الخامسة والعشرين من عمرها، ويحق لها قانونياً أن تحب وأن تختار حياتها، مع أنها في الواقع بالكاد كانت تعتبر في العاشرة من عمرها... ولا تعرف إلّا ما تلقنته في دياجير السجن.

من جهتي، تلاطفنا أنا وعامل الاستقبال الذي أعطاني موعداً في غرفته في تمام الساعة الثالثة.

وافقت وأنا أقول في نفسي سأختلق له عذراً عندما يحين الوقت.

وأنا أنتظر حلول الموعد، قررت تعقب السيدة المسنة كي أعرف في أي جزء من الفندق كانت تنزل. بعدما وجدتها، رحت أتبعها خلسة أمام المصعد، بدأت ترغي وتزبد وتكيل الشتائم للإسبان وعدم احترامهم للوقت. وافقت في سري على ما قالته وأنا أبتسم.

كانت امرأة طيبة وخدومة، وتعبر عن سعادتها إذا التقت بأحد ما يفهمها. كانت أحاديثنا معها تدور بمجملها حول أمور سخيفة وعامة وكنا دائماً نختمها بعبارة «إلى اللقاء لاحقاً»...

وأنا عائدة إلى الصالة، صادفت «فتى الاستقبال». كان يبدو منهمكاً ومتوتراً. بادرني قائلاً:

ـ دعينا نُلغِ الموعد، ليس عندي وقت. جميع الزبائن مصابون بالرعب. ويريدون العودة إلى ديارهم. رجال الشرطة في كل مكان.

تساءلت ببراءة مقصودة:

ـ ولكن لماذا؟ ما الذي حصل؟

ـ إنهم يبحثون عن أربعة مجرمين، أربعة فارين خطيرين.

وتركني واقفة في مكاني وعاد إلى سُيّاحه.

أعلمت بالأمر أخوتي، كادوا يفقدون صوابهم من الهلع، شأني أنا. من هم المجرمون؟ أنحن؟ ومن هم الخطيرون؟ أنحن أيضاً؟ إننا مهددون بأن يبطشوا بنا بدون أي وثيقة رسمية. ولكن لا وألف لا، لن نمنحهم هذه المتعة بقهرنا وتعذيبنا، لأننا سننتحر. راح عبد اللطيف كالمحموم يبحث عن مفاتيح كهرباء، كي يتمكن من صعقنا بالكهرباء عندما تدق الساعة. اجتاحنا اليأس والاكتئاب مجدداً، فرحنا نهذي، فيما أنا وماريا أخذنا نشهق ونبكي.

كنا نجلس في مقصف الفندق. وإذ بالسيدة الفرنسية تدخل برفقة ابنها. ألقت علينا التحية، ثم اقتربت منا عندما لاحظت حالتنا المزرية البادية بوضوح علينا. سألتنا بلهفة: لماذا البكاء؟ انتهزنا مصابنا بالإضافة إلى اهتمامها كي نلعب التمثيلية التي كان بنيتنا أن نؤديها أمامها.

أختنا، صحافية في إذاعة «فرانس أنتر» وقد تقرر إدخالها إلى مستشفى «؟يل جويف» لمعالجتها من سرطان في الثدي. أهلنا لا يعلمون بعد بالأمر. ونحن لا نعرف كيف نتصل بها في المحطة. علقت قائلة:

ـ ولكن يا صغيرتيَّ العزيزتين، لماذا لا تتصلان براديو ميدي ١ [٩]؟ إنهم سيزوّدونكما بهاتف «فرانس أنتر» في باريس. وهكذا ستستطيعان الاتصال بأختكما.

كان من المسلّم به ألا نخبرها عن شكوك عمال الهاتف بنا. اكتفينا بمتابعة بكائنا ونحن نسترق النظرات من طرف أعيننا.

رحت أنشج وأقول:

ـ لا نستطيع أن نقوم بذلك بأنفسنا... ما إن نهم أن نتكلم حتى ننفجر في البكاء.

لا شك أننا كنا مقنعات بما فيه الكفاية، من فرط تأثرها بدموعنا، اقترحت علينا أن تذهب بنفسها بحثاً عن رقم الهاتف من أجلنا. ما كادت تغيب حتى رجعت وبيدها ورقة صغيرة مدتها إلينا وهي تبتسم. لقد اتصلت بـ «ميدي ١» حيث أمدوها برقم هاتف «فرانس أنتر». شكرنا جهودها ثم انسحبنا، بعدما اتفقنا على موعد لاحق مع إخوتي.

تركت ماريا تتدبّر أمرها مع عامل الهاتف، وأكدت عليها أن تطلب التكلم مع آلان دو شالفرون. إنه أحد الأصوات البارزة في إذاعة فرانس أنتر. كنا أكثر ما نتابع برنامجه، حتى بتنا نشعر أننا نعرفه جيداً.

انتظرت أختي في صالة الفندق ريثما تنتهي من مهمتها. أتت بسرعة على وجهها أمارات النصر. لقد نجحت بدبلوماسيتها أن تكسب موافقة ورضا عامل الهاتف... بضربة حظ رد عليها دو شالفرون لأنه كان موجوداً وحولوا له الخط، قالت له:

ـ إننا أبناء الجنرال أوفقير، لقد هربنا بعد خمس عشرة سنة من الاعتقال بعد أن حفرنا نفقاً داخل سجننا، وحالياً نحن في طنجة. نحن نرغب بالمساعدة. نريد أن نتحدث إلى روبير بادينتر ونطلب منه أن يكون محامياً لنا.

في البداية، لم يصدّقنا الصحافي، ظل يردد بسخرية:

ـ ما هذه الوحشية...؟ هذا كثير...

ثم ما لبث أن طلب منا دليلاً. ورجانا ألا نرتعب، وأن نحدد له المكان الذي يستطيع أن يطلبنا فيه. أعطيناه رقم هاتف الفندق والاسم الحربي «آلبرتيني».

وضعنا السماعة، ونحن نرتجف من الانفعال. بعد عشر دقائق عاود الاتصال بنا، ذكرنا قائلاً:

ـ إنه سبق صحفي لا يصدّق، هل تدركون حقيقة الأمر؟ هل تعلمون أن فرنسوا ميتران سيحطّ في المغرب خلال عدة ساعات في زيارة رسمية؟

لقد اتصل آلان دو شالفرون بمحطة مطار أورسي، حيث تم الاتصال بالرئيس، وهو في طائرته الكونكورد، ونقل إليه الخبر. وأخبرنا أن بادينتر لا يستطيع أن يدافع عنا، لأنه حالياً رئيس المجلس الدستوري. اقترح علينا الصحافي أن نتصل بالمحامي كيجمن. وعرض علينا أن يتولى الأمر بنفسه بعد أن وعدنا بمعاودة الاتصال بنا.

تركت ماريا تتابع رصد التحركات، وهرعت إلى الموقف لأزف الخبر لأخوتي، ارتميت بين ذراعي رؤوف وأنا أنشج بالبكاء... أخبرته عما جرى. المسكين عبد اللطيف كان يحملق في وجهي محاولاً أن يفهم مغزى ما أقول. محطة أورسي، والكونكورد، وبادينتر كلها أسماء غريبة لا تعني له شيئاً.

انضممنا جميعاً إلى ماريا. كان آلان دو شالفرون قد عاود الاتصال بها مجدداً. وهي كانت بانتظار قدومنا لكي تبدأ بالحديث معه. عبر الهاتف، أملينا عليه النداء الذي كنا نرغب بتوجيهه إلى الملك. ذكرنا له في سياقه أننا لسنا سوى أطفال، وأنه من الظلم والإجحاف أن تتمّ معاقبتنا لأننا نحمل اسم أبينا.

ثم أعلمنا الصحافي بأن مبعوثاً سيحضر من محطة أورسي لكي يرانا في نفس المساء. أعطيناه موعداً في الموقف.

انتظرنا مجيء الليل بمزيج من الفرح والحذر. هل ستحمل زيارة ميتران لنا الخير؟ لم أعد أثق بأي شيء. ولكنني كنت أنتظر على أحرّ من الجمر مقابلة هذا المبعوث الذي كان إير؟يه كارين، مراسل إذاعة فرانس أنتر في طنجة. ما إن وصل حتى كشف لنا عن هويته.

فاجأنا ببروده، لقد كنا نعتبره بمثابة منقذ لنا، وتوقعنا منه كلمات أكثر حرارة وعاطفة... ولكنه حافظ على مسافة بيننا وبينه مما أربكنا بعض الشيء. ابتعدنا داخل الموقف كي نتجنب بعض الأنظار التي قد توجه إلينا.

التفت يمنة ويسرة كي يتأكد من أن أحداً لا يتعقبه، ثم أخرج قلماً وراح يسألنا بجفاف إذا كنا فعلاً أبناء أوفقير. وأضاف قائلاً:

ـ كل واحد يستطيع أن يدّعي هذا، أعطوني دليلاً على صحة ادعائكم.

بدأت أتحدث عن النشاطات السياسية لأبـي، لكنه قاطعني قائلاً:

ـ حدثيني عن حياته الخاصة جداً... عن علاماته الفارقة...

أجبته بأنني لم أعرف أبـي كثيراً، ولكنني أعطيته تفصيلاً لا يعرفه إلّا من عايشه عن قرب. أخبرته عن آثار جرح في أعلى ساعده الأيسر، أصيب به من جراء انفجار قذيفة.

بانـت عليه علامات الرضا من هـذه المعلومة الدقيقة. وراح يطرح علينا آلاف الأسـئلة الأخرى. قبل أن نفترق، أعلمنا بأنه في اليوم التالي، خلال النهار، سيأتي المحامي دارتـ؟يل وهو معاون كيجمن، سيحضر من باريس خصيصاً لمقابلتنا.

لم نعـرف مـاذا نفعل، عدنـا إلى المقصف، كان يعجّ بشـلة غريبة، يـبـدو عليها أنها منحلّة، الشـباب يتزيّـون بطريقة مسـتهجنة، والصبايـا يصبغن وجوههن بالمسـاحيق الصارخة. يرتشـفن الويسـكي، ويدخـنّ السـكائر، كان الجو موبـوءاً وماجناً، والمغازلات تجري على المكشـوف، حتـى رؤوف لم ينجُ بدوره من نظراتهن الوقحة.

كان عامل الاستقبال يجلس إلى جانبـي. قال لي مستفسراً:

ـ أنا لا أفهمكم، لماذا لا تحجزون غرفاً هنا، في هذا الفندق؟

أجبته بتملص:

ـ لأننا نقيم في أفضل فندق في كل مدينة طنجة.

عـرض علينا فنجاناً من القهوة، شربناه بدون أي تحفظ أو حذر. كان ملغوماً بمادة المخدرات، كان يريد أن يضع يده على سرنا. لم تراودهم أي شكوك بشأن هويتنا، ولكنهم ربما تصوروا بأنني وماريا من بنات الهوى وأن رؤوف كان يديرنا. أو ربما كنا مهربـين إيطاليـين أو إسبانيـين، وننتظر موعداً مشبوهاً سـيعقد في الفندق. في مطلق الأحوال، لم ينظروا إلينا بعين التقدير والاعتبار. تحت تأثير المخدر، رحنا نهـذر ونهـذي، ولا نعرف ماذا نقول. اقترح علينا عامل الاسـتقبال أن نذهب للنوم في صالون الفندق المغربـي. قال لنا:

ـ أنتم تهذون كثيراً... هيّا اذهبوا إلى هناك، ما من أحد... وستكونون في أمان...

تعجّلنا اللحاق به، وكان الجواب هذا هو الذي ينتظره. كان هذا دليلاً واضحاً بالنسبة إليه على أننا في ورطة، ولكنه لم يكن يعرف بالضبط ما هي.

نـام رؤوف وعبـد اللطيـف عـلى الفـور، فيما بقيـت واقفة على طـولي أنا وماريـا طـوال الليل، كنا في حالة من التوتر الشـديد تمنعنا من النوم. لدى اسـتيقاظهما كانا ما يزالان يعانيان من بعض الشرود والاضطراب، كما الحال بالنسبة لي ولماريا.

توجهنا إلى الموقف... لم نتمكن من منع أنفسـنا من الضحك. ولكننا جاهدنا كي نتخلص من هذه الحالة التي كانت تعترينا قبل وصول المحامي، وإلّا كيف سنبدو أمامه؟ رأينا من المناسب أن يتم اللقاء في صالة الڤيديو الصغيرة الموجودة في الفندق. ما إن اكتشفناها حتى اتخذناها ملجأ لنا. لقد كانت مخبأً رائعاً. كنا نشـاهد... التلفزيون الملون. كان يبهرنا ويخطف أبصارنا. لم نكن قد سـمعنا أبداً بالصحون اللاقطة. ولطالما تسـاءلنا باسـتغراب: ترى كيف يصل بث محطات الإرسـال التلفزيونية الإسبانية إلى المغرب؟ حقاً إنه لغز عجيب! وصل المحامي برنارد دارتـ؟يل في ساعة متأخرة من يوم في ٢٣ نيسان/ أبريل يرافقه إير؟يه كرين الذي كان يحمل آلة تصوير. في المطار، لم يشـك أحد بالأهداف الكامنة وراء زيارته، تركوه يمر بسـلام. بعكس ما حصل أثناء رحلة العـودة، لقد أخضعه رجال الشرطة للتحقيق على دفعتين، قبل أن يخلوا سبيله.

أشار دارتـ؟يل في حديثه إلى دور فرنسا الرائد في مجال حقوق الإنسان، وأقسم لنا بأن مصالح بلاده الاقتصادية لن تمر على حساب قضيتنا. ثم سلمني رسالة من الرئيس ميتران مفادها:

ـ يجـب أن تكونـوا فخوريـن بأنفسـكم، ففـي العـالم ملايـين الأطفـال المضطهديـن والمقتولـين، والمحتجزين، لكنكم ستبقون الوحيدين الذين واجهوا وصمدوا وناضلوا حتى النهاية.

أعطانـا ورقة كـي نوقعها، تفيد بأننـا نوكل مكتـب المحامـي كيجمن مهمة الدفاع عنـا. بعد ذلك، أعلمنا بأنه يجب أن يأخذ لنا صوراً فوتوغرافية. في اللحظة التي كان فيها يضغط على زر آلة التصوير، فتح الباب وأطل عامل الاستقبال. نظر إلينا مطولاً قبل أن يعاود الخروج.

حدد دارتـ؟يل لنا موعداً آخر، في المساء. بعد مغادرته سيطر علينا شعور بالنشوة. لقد قطعنا شوطاً صعبـاً ومهـماً. ونجحنا بـإخطار الصحافـة والرأي العام. لقد اسـتمعوا إلينا بجدية تامـة، مما هدأ من مخاوفنا، وأعطانا بارقة أمل بأن النصر ربما بات وشـيكاً، وأننا سـنغدو قريبـاً أحراراً، وأن شـملنا على وشك أن يلتئم.

عندما عاد في المساء، هذه المرة بدون كرين أعلمنا دارت؟يل بأن كل شيء قد أصبح جاهزاً لرحيلنا،

المزمـع... في اليوم التالي السـاعة العاشرة والنصف صباحاً. وما إن نصل إلى القنصلية الفرنسـية حتى يعاجلوا إلى نقلنا بطائرة إلى فرنسا.

لفـت انتباهه إلى خطـورة وضعنا الراهن، ومخاوفنا إزاء حالة الاسـتنفار التي تسـتهدفنا، ومفاجأة عامل الاسـتقبال لنا بالأمس في صالة الڤيديو، والحذر الشـديد الذي يعاملنا به عمال الفندق، والذي يزيد من سيىء إلى أسـوأ. لذلك فإنه من المخاطرة إطالة انتظارنا أكـثـر. اعتذر قائلاً إنه لا يستطيع أن يغير في الأمر شيئاً، وما علينا إلّا اليقظة والحذر حتى تحين ساعة الصفر.

عقب مغادرته، حاولنا أن نخفف من تحركاتنا داخل الفندق بقدر الإمكان.

في الليـل، رحنـا نقترب من الغرف. كنا نتضـور جوعاً. منذ ثلاثة أيام ونحن نعيش على السـكاكر والقهـوة. كان يوجد أمام الأبواب صوانٍ عليها بعض فضلات الطعـام. رحنا نتنافس على بقايا الخبز والجبنـة و... بعدمـا اقتربنـا من غرفة الزوجين الإسـبانيـين، طرقنـا الباب. فتح الرجـل، كان يرتدي سروالاً قصيراً، نظر إليّ متفاجئاً، سألته بابتسامة رقيقة:

ـ ألديك سيكارة حشيش؟

ابتسم بدوره لنا، ودعانا للدخول.

كانت زوجته مستلقية في السرير، ذعرت عندما رأتنا ندخل الواحد تلو الآخر. أشار علينا بالجلوس على الديوان. بعد ثلاثة أيام من متابعة هذين الزوجين باهتمام ودراسـة حركاتهما وسكناتهما خلصنا إلى أنهما من النوع الذي يتقاسم مع الآخرين كل شيء، بما في ذلك الحب والسلام، وتعاطي المخدرات.

لفّ سـيكارة محشـوة بالمخدرات، أخذ منها عـدة أنفاس، أعطاها لزوجته، ثـم إلينا نحن. تظاهرنا بأننـا ندخن، تعلمنا درسـاً لن ننسـاه أبـداً من فنجان القهـوة الملغومـة. كان رؤوف يدخن على طريقة لويس دوفينس في فيلم «الدرك في سان تروبيز». ثم يمد لي اللفافة قائلاً بنشوة مصطنعة:

ـ يا للحلاوة... يا للحلاوة...

ثم نفجر بالضحك الصاخب، يجارينا بذلك الزوجان الإسـبانيان، ربما كانا يعتبران أن حالة المرح والإثارة التي تعترينا مردها إلى سيكارة الكيف.

كالصرعـى، نـام الزوجـان بلا حراك. وهذا ما فعلنـاه نحن أيضاً على الديوان. عنـد طلوع النهار، أيقظتنـا جميعـاً زقزقة العصافير المغردة. نظر إلينـا الزوجان باسـتغراب. لقد فاجأهمـا وجودنا داخل

غرفتهـا. ثـم لم يلبثـا أن تذكرا سـهرة المخدرات. اقترحت عليّ المـرأة بلطافة أن أسـتخدم صالة الحمام كي أقوم بزينة الصباح. كانت هذه المرة الأولى منذ أربعة أيام. عادة كنت أتحاشـى النظر إلى المرآة تجنباً لرؤية وجهي المتلف. كي أغطيه، وضعت طبقة سـميكة من مسـاحيق التجميل التي وجدتها على أحد الرفوف. كذلك فعلت ماريا.

تركناهما بعد أن شكرناهما. توجهنا مباشرة إلى المقصف بانتظار مجيء دارتـ؟يل.

سمعنا نداء الاستعلامات:

ـ المطلوب حضور الآنسة أوفقير فوراً...

تصرفت وكأن الأمر لا يعنيني. ألم يكن اسمي آلبرتيني؟

لكي أكون صادقة كلياً مع نفسي، أشير إلى أنني لم أكن أعتقد قطّ بأننا سننجو، وإن نكن قد اقتربنا كثيراً من الهدف. كان يراودني إحسـاس دائم بأنه سـيعاد اعتقالنا، حتى وأنا في قمة نشـوتي لم أستخفّ أبداً بقدرة عدوي. لكن كل هذا أصبح سيان عندي. لقد أكملنا اللعبة حتى الرمق الأخير.

لقد كنت فخورة بنفسي وبأخوتي كما كان أبـي أيضاً.

ـ المطلوب حضور الآنسة أوفقير فوراً...

مـرة أخـرى يلعلع النداء، كانت السـاعة العاشرة وخمسـاً وعشرين دقيقة، من نهـار الجمعة الواقع في ٢٤ نيسـان/ أبريل ١٩٨٧ . توجهت إلى صالة الفندق. بدلاً من أن أجد سـيارة المحامي دارت؟يل، شـاهدت شـاحنة الشرطة، التـي توقفت أمام البـاب الزجاجي. عـشرات رجال الشرطة بملابسـهم الكاكيـة اللـون، ورشاشـاتهم. راح الجنـود ينزلـون الواحد تلـو الآخر مـن الشـاحنات التي أخذت تـتوقـف في قافلـة طويلـة تعد بالعـشرات. ضربوا طوقـاً حول المكان، وتوزعوا مجموعـات في حالة استنفار. لكزت رؤوف بكوعي هامسة:

ـ الشرطة هنا في كل مكان، لقد وشوا بنا.

اندفعـوا يـهرولـون فـي كل الاتـجاهات... ما إن رآهـم الـزوجـان الإسـبـانيان اللذان قد وصلا للتو للانضمـام إلينا، حتى ابتعدا هرباً وهـمـا يـركضان. لا شـك أنـهمـا تسـاءلا عن سر الـجريمة التـي اقترفناهـا. وربما تبادر إلى أذهانهما أن سـبب ذلـك يعود إلى تعاطينا المخـدرات، وليت الأمر كان هكذا.

التوقيف

نصف دزينة من الضباط انقضوا علينا. واحد منهم طلب منّا إبراز بطاقات هويتنا.

ـ أنت مليكة أوفقير؟ سألوني.

ـ لا، مطلقاً. إسمي آلبرتيني. أجبتهم باستعلاء.

حاولت أن أتماسك حفاظاً على ماء وجهي. بدوره أطلق رؤوف نفس الكذبة. الرجل الذي كان يبدو عليه أنه المسؤول الأمر، استدار وأعطى إيعازاً لرجال الشرطة بأن يطوّقونا. تقدموا باتجاهنا، وأحاطوا بنا، بحركة من يده أوقف تحركهم، بعدما صرنا محاصرين داخل كماشتهم. بما أن اعتقالنا يجب أن يتمّ بهدوء تام بدون لفت أي انتباه، أجبرونا على اجتياز الممر وهم يدفعون بعنف برؤوسنا نحو الأسفل. أمام أنظار السياح المحملقة برعب. بلمحة خاطفة لمحنا السيدة الفرنسية وابنها، والزوجين الإسبانيين وهم يعودون على أعقابهم.

أصعدونا الشاحنة، واقتادونا إلى مفرزة طنجة. أمام المدخل، كان رجال الشرطة يصطفّون كسياج وكأنهم يريدون إلقاء التحية علينا. كانوا يرمقوننا بنظرات تنضح بالتقدير والإعجاب، أحدهم كان يذرف الدموع حارة. ما كنا لنتفاجأ لو أنهم صفقوا لنا طويلاً... لقد عاملونا معاملة الأبطال. من كل حدب وصوب، كنا نشعر بنظرات تنمّ عن الاحترام. مما ضاعف من إحساسنا بالفخر. أخذوا مقاييسنا، وبصماتنا، وأدخلونا إلى غرفة التصوير، بلغ اعتزازنا أوجه عندما اتصل المدعي العام أمامنا بوزير الداخلية إدريس البصري وقال له:

ـ ولكنني أقسم لسعادتك بأنني اعتقلتهم. أقسم لك بحياة أولادي. يا صاحب السعادة... إنهم جميعاً الآن هنا أمامي... نعم... الأربعة: مليكة، رؤوف، ماريا، وعبد اللطيف. نعم... نعم... إنني أنا شخصياً من اعتقلهم... بالطبع بتكتّم شديد... نعم مؤكد... كما تأمر سعادتك.

رحنا أنا ورؤوف نتبادل نظرات ذات معنى... ونكتم ضحكة خفية. كانت أطرافي ترتجف من فرط التأثر والانفعال، ولكن لم يكن الوقت مناسباً للانقياد وراء المشاعر والأحاسيس.

في إحدى الزوايا، كان ذوو «القبعات الكبيرة» يتناقشون فيما بينهم. ثم أعطوا الأوامر السريعة لاصطحاب عبد اللطيف. كدت أجنّ لرحيله. كنت خائفة أن يستخدموه للضغط علينا. ولكي يؤكدوا لي هواجسي، تعمدوا أن يرموني بنظرات جامدة.

بعدما شاهد رجال الشرطة الصغار جزعي، همسوا بأذني ألا داعي للقلق. لأنهم يحاولون ترهيبنا وفرض هيبتهم علينا ليس إلّا. لقد تحدينا السلطة، واتصلنا بالخارج... بمواجهتنا... وصلوا إلى حائط مسدود. لقد ربحنا هذه الجولة على الأقل.

شيئاً فشيئاً... أخذ الحرس يتخلّون عن تحفظهم ويُرخون لأنفسهم العنان. لقد استعاضوا عن حديث الصمت والإشارات، بالمباشرة والمنطوق، أتوا إلينا وتحدثوا معنا على سجيتهم. لقد بكى البعض منهم، كانوا يعرفوننا عندما كنا صغاراً، وكانوا يعملون في فريق المواكبة التي كانت مخصصة لأبي عندما كنا نسكن في شارع الأميرات. والبعض الآخر كان في تامتاغت، وكان يشارك في عمليات تسريب المواد الغذائية والرسائل إلينا.

قالوا لنا بتأثر:

ـ يحق لكم أن تفخروا بأنفسكم، لقد رفعتم شأن البربر عالياً. وأعدتم إحياء ذكر أبيكم.

اقترب منا المسؤولون الرسميون، وهم يتملقون ويداهنون، يريدوننا أن نثق بهم، فيما أخذ المدّعي العام الحديث قائلاً.

ـ لا داعي للخوف. أخوكم سيعامل جيداً. هو من عمر ولدي... وقد شاركت في حفل ختانه.

ثم اقتادونا من الغرفة. ونحن نصعد الأدراج، سألت مجدداً أحد رجال الشرطة إذا كان عبد اللطيف فعلاً في مأمن ولا خطر عليه.

قال لي:

ـ أوحقاً تعتقدين هذا!... لن يتجرأ شخص ما على لمس شعرة من رأسه. منذ أربعة أيام وهم جميعاً في مأزق حرج لا يعرفون كيف يخرجون منه، لا يأكلون ولا يشربون... إنه، يقصد الملك، يدير شخصياً هذه القضية ويشرف بنفسه على تطوراتها وحيثياتها، ولو أنهم لم يلقوا القبض عليكم، لكانوا هم من سيتضرر ويخسر...

سرت إشاعة تفيد بأنه خلال مدّة هربنا، منع الملك أبناءه من مغادرة القصر في مراكش وفرض عليهم لزوم أماكنهم... خوفاً من انتقامنا... أدخلونا إلى غرفة واسعة الأرجاء. ومما أعاد الطمأنينة إلى نفسي أن عبد اللطيف كان هنالك بانتظارنا. كان هناك أيضاً بعض الرسميين يقفون أمام النافذة. اقتربت منهم، فجأة، فقدت الإحساس بقدمي، وشعرت أن الغرفة تدور بي، وقلبي يخفق بقوة،

تدافعوا للإمساك بي وإسنادي. ربما تراكم الأحداث واختلاط المشاعر، بالإضافة إلى الخوف على عبد اللطيف، أدى بي إلى فقدان توازني.

ذهب أحدهم كي يحضر كوباً من عصير الليمون. فتحوا النافذة ونصحوني أن آخذ نفساً عميقاً. كانت المفرزة تطل على إحدى الكنائس. جلست أنظر بشرود إلى الخارج وإذ بي أرى طيفاً يتراءى أمامي. إنها السيدة مريم العذراء وهي تحمل بين ذراعيها طفلها السيد المسيح، وترمقني بنظرات تنضح بالرقة والحنان. كدت أقع أرضاً من شدة تأثري. هكذا، إنها كانت دائماً هنا عندما كنا بحاجة إليها، ترعانا، وتحمينا. ناديت الآخرين بإشارة خفية، كي يروها هم أيضاً بدورهم. كانت الرسالة واضحة... إنها تريدني أن أتماسك تماماً مثلما فعلت عندما كنا نحفر النفق. سرعان ما تمالكت نفسي، وشعرت بأنني لست وحيدة في هذا العالم.

لم يتراجعوا عن مزاعمهم وافتراءاتهم. كان من المستحيل علينا دحض اتهاماتهم بأننا تمكّنا من الهرب بمساعدة الجزائر وبتواطؤ منها. استجوبونا أنا ورؤوف كلاً على حدة، دائماً بنفس أسلوبهم المعسول، بأنهم يعرفون أبي وجدي، وعمي، وبأننا من عائلة عريقة... لا يصح لها أن تفعل ذلك... وبأننا يجب أن نتعاون معهم ونخبرهم الحقيقة.

وكانت أسئلتهم الصاعقة على النحو التالي:

ـ لماذا اتصلتم بمحامٍ فرنسي؟ لماذا لم تثقوا بالمؤسسات المغربية؟ لماذا لم تطلبوا العفو الملكي على قبر محمد الخامس؟

ـ أنت ابنة القصر، وتعرفين العادات جيداً... لم يكن جلالته ليرفض أبداً منحكم العفو، وكانت كل الأمور ستتم على أفضل وجه.

ـ والآن كونوا صادقين وأخبروني عن المتواطئين معكم. قصة النفق هذه تريدونني أن أصدقها؟ وأنتم لا تملكون أداة مناسبة تحفرون بها... عدا عن أن الرقابة كانت مشددة... من غير الممكن الهروب من بير جديد.

بسرعة لفقت الإجابة، تركت الأمر كلياً لمحدثي، المفتش العام، الجنرال گسوس أحد الأقارب البعيدين لمدام گسوس. كنت أتساءل في داخلي، ترى إلى أين يريد الوصول، لأنه كان من الواضح أن لديه فكرة معينة في رأسه. كان من حين لآخر ينظر إلى الساعة المعلّقة قبالة مكتبه، وقد بدت على

وجهه أمارات القلق والإرهاق... أخيراً فهمت... إننا نقترب من وقت نشرة الأخبار. أدار المذياع. بعد المقدمة والموسيقى، تلا المذيع العناوين:

ـ هروب يثير الذهول، نفذه أربعة من أبناء الجنرال أوفقير.

أطفأ گسوس الجهاز بغضب. التزم الجميع الصمت. أخرجوني من الغرفة. عندما انضممت إلى رؤوف أخبرته بما سمعته للتو، لكنه رفض أن يصدقني قائلاً:

ـ كيكا، لا شك أنك تحلمين، ما تتوقين إليه تتصوّرينه وكأنه حقيقة.

ـ رؤوف، أنا لست مجنونة، أستطيع أن أعيد لك كلام المذيع بحذافيره كلمة... كلمة.

وبالرغم من صعوبة الأمر، تمكنت أخيراً من إقناعه...

إجتاحني شعور داخلي بالسلام وبالطمأنينة والأمان. ما لم أعرفه منذ سنوات طويلة. هذا الإعلان الإخباري كان دليلاً ساطعاً على فوزنا. وأخيراً أصبح العالم بأسره على علم وخبر.

بعد نصف ساعة لاحقاً، عاد گسوس لرؤيتنا مجدداً. من خلال تقاطيع وجهه أدركت بأن شيئاً ما قد تغير في وضعنا.

بدون شك، لقد سعوا إلى إقناع الفرنسيين بعدم نشر الخبر، وربما أيضاً حاولوا إفهامهم بأن قضية أوفقير هي قضية داخلية مغربية بحتة، بالرغم من أنها قضية انتهاك صارخ لحقوق الإنسان. لسوء حظهم لم يعد بإمكانهم إبقاء الموضوع طيّ الكتمان، ومعاملتنا كالسابق.

اقتادونا إلى غرفة أخرى. كانت فارغة. أرسلوا يحضرون الفرش الجديدة التي وضعها رجال الشرطة أرضاً. ثم حملوا إلينا الصواني الممتلئة بالطعام. أكلنا بشهية... كانت عامرة: خبز، وزبدة، وشاي. بالنسبة لنا، كان مركز الشرطة بمثابة فندق خمسة نجوم. لقد افتعلنا عراكاً وتمازحنا ونحن نرتّب أماكن نومنا، كنا في قمة الإرهاق والسعادة أيضاً. لقد انتهت مهمتنا.

غفونا ونحن نفكر ببقية أفراد عائلتنا. الآن بإمكان أمي أن تفخر بأبنائها. خلال أربعة أيام، نجحنا، بإمكانياتنا المتواضعة، أن نضع سمعة البلاد على المحك.

إنهم يعاملوننا الآن باحترام. بتنا نشعر أننا مخلوقات بشرية... وننظر بعين الرضا والاعتبار إلى أنفسنا.

في اليوم التالي صباحاً، سمح لنا المدعي العام باستخدام صالة الحمام الخاصة به، نادراً ما رأينا بمثل

مساحتها. أكثر من مئة قارورة مختلفة كانت مصفوفة ومرتبة فوق رفّ المرآة، من ماء الكولونيا، إلى العطر، ومعجون الحلاقة، وشامبو للشعر، ومرطب للشعر كذلك.

بالنسبة لنا، نحن الذين عشنا إحدى عشرة سنة ونحن نكتفي بنصف علبة تايد شهرياً، بدت لنا هذه الرفاهية الباذخة مضحكة إلى درجة البكاء. كنا قد نسينا كل شيء عن مجتمع الاستهلاك. وكيف يكون بمقدورنا أن نكدّس كل هذه الأشياء التي لا طائل منها.

كالأطفال الصغار رحنا نعبث بالقوارير، ننزع أغطيتها، نشم رائحتها وندلق ماء الكولونيا والعطر، ونضع المطريات. أخذنا نلهو ونلعب كما يحلو لنا، لكننا كنا نتحاشى النظر إلى المرآة، وإذا حصل هذا مرة، كنا نسارع إلى إبعاد أعيننا عنها. كان أكثر ما يرعبنا تلك النظرات إلى أعيننا، وتلك التجاويف التي تحيط بها والتي كانت تذكرنا بأطفال العالم الثالث الذين يعانون من المجاعة وسوء التغذية. أوصدنا الباب، كي نستحم ونحن نفتح الحنفيات على آخرها. مما أدى إلى إحداث فيضان، عاجلنا إلى وضع المناشف وأثواب الحمام فوق الموكيت... خرجنا ونحن نضحك، وتتصاعد منا رائحة العطر بقوة. كان رؤوف بحاجة ماسة أن يفحصه طبيب الأسنان. كانت خراجات أسنانه منتفخة وفي حالة مزرية. حتى إن الطبيب المتمرن الذي ألقى نظرة عليه، رفض أن يضع يده فيه وأن يلمسه مجرد لمسة. كان الالتهاب خطيراً وقد يسبب له سكتة قلبية. مما استوجب إخضاعه إلى عملية جراحية لاحقاً.

حاول گسوس أن يعاملنا بحيادية، كما كان يقتضي عمله، ولكن كانت تخترق لهجته الجافة بوادر الإعجاب بمآثرنا والرثاء لسوء حالنا. لا بد أن مظهرنا كان رثاً للغاية ويثير الشفقة كي يقترح علينا من تلقاء نفسه أن يبدل لنا ملابسنا بأخرى جديدة...

اصطحبونا إلى وسط المدينة في السيارة. تدفقت الذكريات دفعة واحدة. رحت أفكر بتلك السنوات الإحدى عشرة التي قضيتها في القصر، حيث كنت خلالها، كما الآن، أرى العالم يمر من أمامي، وأنا قابعة أحدّق فيه من وراء الزجاج. طوال حياتي كلّها كان العالم الخارجي بالنسبة لي بعيد المنال. سألت نفسي: ترى كم من الوقت يلزمني بعد كي يتسنى لي أن أتذوق طعم الحرية؟ إنه لأمر سهل أن أفتح الباب الآن. لكنني لم أعد أقوى على ذلك.

داخل المحلات حيث اقتادونا، كان البائعات يعملن تحت إمرة البوليس وضمن دائرته، ومخبريه، لقد كنّ من خيوط الشبكة التي يحكمون سيطرتهم من خلالها على البلاد والعباد.

كانوا يخاطبوننا باحترام، ويريدون إشباع أتفه رغباتنا، لكنني لم أكن أشعر برغبة في أي شيء، سيما وأن لا شيء يلائمني. كانت مريم نحيلة جداً، والثياب تبدو فضفاضة عليها، فيما كنت أنا متورمة ومنتفخة. لقد اخترت تنورة، وسترة طويلة، وداخل محل الأحذية، فضلت حذاء مفتوحاً طلباً للراحة. كانت قدماي دائماً داميتين، لكنني كنت قد فقدت الإحساس بالألم.

نقلونا إلى الدار البيضاء، إلى مركز شرطة بن شريف الذي يثير ذكره خوف ورعب المعتقلين السياسيين، والذي يديره اليوسفي، القائد العام للشرطة في المدينة. هو الذي كان قد استجوب أمي بعد عدة أيام من موت أبي، وهو الذي تم إرساله إلى تامتاغت بعدما اكتشفوا «شبكتنا».

صعدنا أدراجاً وهبطنا أخرى، واجتزنا ممراً طويلاً كان في نهايته بانتظارنا كل من اليوسفي، العبوش، ومدير جهاز المخابرات، وثلاثة قادة آخرين. لو أن أحد المخرجين كان يصور هذا المشهد لأضاف عليه المؤثرات الصوتية التي تحرك المشاعر وتخرجها إلى حيّز الوجود، أو لأضافها مع صياح السجناء في زنزاناتهم وهم يهبّون للاحتفاء بانتصارنا. لكن شيئاً من كل هذا لم يحدث. لقد واكب مجيئنا صمت مطبق. كان ثقيلاً، بدلاً من أن يحرر المشاعر كان يحجّرها ويكثّفها. لقد عشنا لحظة غير متوقعة، هؤلاء الرجال الخمسة، خدام النظام المخلصون، كانوا يهنئوننا نحن؟

قال لنا اليوسفي:

ـ برا؟و، في الحقيقة إنه الهروب الكبير...

وراح يمتدح شجاعتنا. عندما كان يحدثنا كنت أنظر بعيني نحو الأرض. مما دفعه للتعليق على هذا بالقول:

ـ لا تفعلي... بالكاد وصلت، وها أنت تتفحصين البلاطات كي تتمكني مجدداً من الهرب. ألا تعتقدين أن مرة واحدة تكفي؟

سألنا فوراً عن أخبار بقية أفراد العائلة. طمأنونا بأنهن جميعهن بخير وأعلمونا أننا سنقابلهنّ الآن مباشرة. نادى اليوسفي رجلاً مسناً كان ينتعل حذاء بالياً، كانت مهمته تعصيب أعين المساجين.

كان يمسك عصا بيده. وهو يمر أمام الأبواب. كان يصيح «باندا باندا»، لذلك صاروا ينادونه «باندا». لقد فتح باباً وأدخلنا إلى إحدى الزنزانات. كانت سيدة عجوز تتناول الحساء... إنها

أمـــي. الإضراب عـن الطعام، محاولة الانتحـار، والهم والقلق بعد هروبنا، كل هـذه الأهوال جعلتها تشـيخ قبـل أوانها. كانـت تـحمل بـبطء وتثاقـل الـملعقة بـيدهـا وتدنيها من فـمهـا، كل عوارض الشـيخوخة تبـدو عليهـا بشـكل مرعب. رفعـت عينيها السـوداوين الواسـعتين نحـوي. كان يرقد فيهـا حـزن سرمدي، لم يترك مكاناً لأي ومضة فرح. لم تعرفني. تدافعنا نحـن الأربعة وجثونا أمامها عـلى ركبنا، أخـذت يدها بالارتجاف. وضعت الملعقة على الطاولة وهمسـت بصـوت منخفض بالكاد سمعناه:

ـ أطفالي... هل أنتم... حقاً أطفالي؟

لقـد تغيرنا كثيراً، ربما لهذا لم تعرف هويتنا على الفور. ليس فقط بسـبب الملابس الجديدة. إن تلك الأيام الأربعة من الحرية أعادت إلى أعيننا بريق الحياة الذي طالما اعتقدنا أنه انطفأ إلى الأبد. لقد كنا في الضفـة الأخرى، خـارج الجدران، في حين كانت ما تزال هناك تـتجرع العلقم. كانت أمي تضع غطاء على رأسـها. عندما هربنا، كانت قد أقسـمت هي وسكينة أن تحلقا شـعرهما نهائياً إذا مرت اثنتا عشرة ساعة على رحيلنا دون أن يتمكنوا من إعادة إلقاء القبض علينا. وهكذا وفتا نذرهما.

كانت ميمي بـيضاء مثل الطبشور، والذعر يطلّ من عيني حليمة وعاشورا. بعدما انقضت اللحظة الأولى للمفاجأة، تعانقنا جميعاً مطولاً. ضحكنا وتدحرجنا أرضاً وهتفنا:

ـ لقد انتصرنا... تخلصنا من الكابوس الذي انتهى. لم نعد في بـير جديد.

وصلت أمي والفتيات إلى مركـز شرطة بن شريف منذ نهار الأربعاء الواقع في ٢١ نيسـان/ أبريل. أي بعد ثلاثة أيام من هروبنا. في البدء كانت ظروف احتجازهنّ رهيـبة.

أوقـفوهـن على الحائط، صفّاً، كن يرتدين الجلابـيب العسـكرية، وكانت القلنسـوة الداكنة تغطي أعينهـن المعصوبـة. أجبروهن على الوقوف بهذه الوضعية عدة سـاعات بدون حراك، وهن يسـتمعن إلى صرخـات الألم التي كان يصدرها بـورو وهم يقومون بتعذيبه داخل الغرفة المجاورة، وكان يصيح ويصرخ بأن لا ذنب له... ولا علاقة له بما حصل... لقد أبقوهن بدون طعام... عدة أيام.

كانـت سـكينة أضعف مـن أن تـتحمل الوقـوف طويلاً... انهـارت أرضاً وأغمي عليهـا. الطعام الوحيد الذي أُعطي لهن كان معجنات خاصة بالكلاب، وشراباً لا اسـم له، تطفو على سـطحه بعض حبـيبات الأرز.

عندما استجوبوا أمي وحققوا معها، لاحقوها بأسئلتهم كي تعترف إلى أين كنا ننوي أن نذهب. كانت تجهل بأن خطّة السفارات كانت قد أخفقت كلياً. وهي تظن بأنها تبعدهم عن مكاننا، أجابتهم بأننا نزمع التوجه إلى طنجة.

كانوا يرون أنه من المستحيل أن نكون قد تركنا بير جديد. لعلنا برأيهم توجهنا نحو حدود الصحراء الغربية. لكن مليكة السمينة ابنة صديق جدي، بلّغت عن وجودنا في الرباط.

زوّدهم هذا بالدليل الواضح. يمكننا التواجد في كل مكان في المغرب. لقد فتشوا الرباط. وطنجة... لقد ظنوا أننا كنا على وشك المغادرة والهرب من البلاد.

قبل ساعتين فقط من وصولنا إلى مركز شرطة بن شريف، توقفت المعاملة الخسيسة مع السجناء. لا، بل أحضروا لهم الطعام، اللحم المحمر، واللوبياء الخضراء، في صحون وليس في أوعية من الحديد الأبيض اللون. أدركت أمي عندها أنهم أعادوا القبض مجدداً علينا. ولاحقاً أكد لها الخبر العبوش، مدير جهاز المخابرات.

لقد روينا قصة هربنا بكل تفصيلاتها وتشعباتها. كنّ يرمقننا بنظرات غير مصدقة، بدا على ملامحهن مدى شعورهن بالفخر والاعتزاز بنا.

ونحن نسرد على مسامعهن أخبارنا، كانت أمي لا تنفك تنهض من مكانها، لتتقدم منا وتلامسنا... وتقبّلنا... وتعانقنا وتردد نفس العبارات:

ـ أبنائي... صغاري الأعزاء... عجيب كم تغيرتم!

إن أفظع ما واجهنا هو أننا لاحظنا بأننا لم نعد نشكل جزءاً من المجموع كما كنا سابقاً، ما جعلنا نشعر بعقدة الذنب، لذلك رحنا نصغي بكل جوارحنا لما كانت ترويه لنا أمي وسكينة، أردنا أن نكفّر عن كل تلك اللحظات من الحرية التي عشناها بدونهن.

بعد الهروب

في الساعة الثامنة والنصف، من صباح الهروب، دخل الحرس كالعادة إلى زنزانة أمي، وأحضروا لها القهوة التي أعدتها عاشورا... بدؤوا يفتشون كدأبهم. كانت أمي هادئة. لقد قضت النساء الخمس الليل، وهن يرتجفن من الهلع والخوف علينا، خصوصاً عندما سمعن نباح الكلاب الشاردة. ولما رأوا

أننا لم نرجع، عاد إليهن تدريجياً هدوؤهن وطمأنينتهن.

قاموا بجولة في أنحاء زنزانتها باستثناء الحمام الذي كان بابه شبه موصد. أجابتهم أمي عن تساؤلهم الصامت قائلة:

ـ إن ولدي مريض، قضى الليل بطوله في الحمام. هل تريدون الدخول كي تتأكدوا؟

رفضوا بتهذيب بالرغم من إلحاحها، ثم خرجوا بعدما أغلقوا الباب خلفهم، ليدخلوا إلى زنزانتنا. كانت سكينة، متحضّرة لاستقبالهم بعدما أنهت مهمة إعادة سد النفق بنجاح. أبدوا دهشتهم لرؤيتها. عادة كنت أنا أتقدّم لمحادثتهم. كانت أختي قوية الشكيمة، لقد أمدها نجاحنا بالكثير من العنفوان والثقة بالنفس.

ـ مليكة وماريا في العادة الشهرية.

كانت هذه هي العبارة الوحيدة التي كان يكفي التلفّظ بها كي يمتنع السجانون من الاقتراب. كانت سكينة قد رتبت أسرّتنا بطريقة تجعلهم يعتقدون بأننا ما زلنا نضطجع نياماً. كعادتها، بقيت ميمي مختبئة تحت أغطيتها، ولم تكشف قطّ رأسها. ولكنها، في اللحظة التي بادروا فيها إلى ترك الغرفة، تنهدت تنهيدة مسموعة. طمأنتهم، كل هذه التفاصيل، كانت جزءاً من خطة شاملة وضعت فيها بدقة كل النقاط على الحروف. دخل الحرس إلى غرفة «النفق» فتشوا، نقبوا، ضربوا على الحائط. لم تطأ أحذيتهم الغليظة، ولو مرة واحدة، البلاطات المفضية إلى النفق.

انتقلوا بسرعة إلى زنزانة عاشورا وحليمة، للقيام بزيارتهم الاعتيادية. أمي وسكينة، كانتا تترقبان تحركاتهم المسموعة بدءاً من خطواتهم وصولاً إلى خشخشة مفاتيحهم... حتى الآن لا داعي للقلق.

كانت مشاعر أمي موزعة بين فرحها لنجاحنا، وبين تألمها من أجل هؤلاء الأشخاص المساكين، الذين يراقبون حياتنا في السجن وينظمونها منذ إحدى عشرة سنة. لا شك أن هربنا سيعرضهم للخطر.

فقط قبل أن يصلوا إلى زنزانة رؤوف، راحت أمي تضرب بقوة على بابها. عادوا بخطواتهم إلى الوراء. وسألوها عما تريد. قالت:

ـ نسيت أن أخبركم شيئاً مهماً جداً، عودوا أدراجكم إلى هنا.

استجابوا لطلبها، أعادوا فتح زنزانتها ودخلوا، خاطبتهم قائلة:

ـ إليكم التالي: إن مليكة، ورؤوف، وماريا، وعبد اللطيف قد فروا.

لم يتأثروا ألبتة بكلامها... وراحت تستحث انتباههم الواحد تلو الآخر وهي تقول:

ـ إذهبوا إلى الحمام، وسترون بأنفسكم أن عبد اللطيف ليس هنا. واذهبوا إذا شئتم إلى الفتيات، وإلى رؤوف، ارفعوا الأغطية، وانظروا في كل مكان، وفتشوا تحت الأسرة... لن تجدوا شيئاً، لأنهم قد هربوا. تأكدوا مما أقوله لكم.

لزمهم حوالى ربع ساعة كي يستوعبوا حقيقة هذا الخبر. عندما كانت أمي محتدمة راحوا ينظرون إليها بشفقة وحنان. اعتقدوا أنها أصيبت فجأة بالجنون، سارعوا إلى تهدئة روعها وهم يقولون:

ـ تمالكي نفسك، سيدة أوفقير... إنك امرأة عاقلة ومتزنة... ولا يجدر بك هذا...

أكملت أمي حتى النهاية. ولم تتركهم يمضون في طريقهم قبل أن تندفع كالمجنونة أمام أنظارهم المشدوهة إلى دخول الحمام، ورفع الأغطية عن السرير و... وأخيراً قالت لهم بحدّة:

ـ بأي لغة تريدونني أن أكرر القول لكم؟ إن أربعة من أبنائي قد فروا، وهربوا...

عندها، أخذوا يفتشون في كل مكان، وهم يتبعونها. ثم راحوا ينظرون بدهشة واستغراب إلى بعضهم البعض. هذا صحيح، إن عبد اللطيف ليس هنا. أعادوا فتح زنزانتنا. لقد ظنوا ربما أن عبد اللطيف نجح بالتسلل إلى زنزانة الفتيات، وأنه اختبأ هناك ليرعبهم ليس إلّا. استقبلتهم سكينة بابتسامة. بادروها بالقول:

ـ إنهما ترقدان في سريرهما... لأنها في العادة الشهرية... تعرف هذا ونصدقه جيداً... تماماً كما أكدت لنا...

ـ لا، إنهن ليستا هنا... أنظروا...

رفعت الأغطية، كانت تكدس تحتها كمية من الملابس. لا شعورياً انحنوا للتفتيش تحت الأسرة... في الزوايا، والغرف... اندفعوا إلى زنزانة رؤوف... النتيجة هي عينها... وبدون جدوى.

طار صوابهم من وقع الصدمة. إن هربنا سيحكم عليهم بالموت المؤكد. عادوا إلى زنزانتنا وفي أيديهم المعاول، وراحوا ينكشون الأرض دون أن يعثروا على أي ممرّ. ولم يفهموا شيئاً من هذا اللغز. أصيبوا بالهلع والفزع، وراحوا يصيحون ويصرخون وهم يندفعون ويتراكضون في كل الاتجاهات.

اقتحموا زنزانة حليمة وعاشورا، وانهالوا عليهما بالضرب بعنف كي يجبروهما على الاعتراف.

إنهم ما كانوا ليجرؤوا على لمس أمي أو أخواتي. عندها، تدخلت أمي وأخذت تطرق على بابها، محاولة التكلم معهم، ولكن حالة الغضب والانفعال التي كانت تسيطر عليهم أصمّت آذانهم. لم تيأس، شرعت تصرخ بأعلى صوتها وتقول:

ـ اهدؤوا، وتمالكوا أعصابكم. وتوقفوا عن نكش وتدمير كل شيء. إنكم تعرفون كيف يفكرون في الرباط. إنهم عندما سيصلون إلى هنا، وسيرون ما فعلتم... سيتهمونكم بالتواطؤ والضلوع بهذا الأمر...

يا للمساكين، لقد كادوا يقعون أرضاً من شدة الخوف والرعب. قالوا بيأس واستلام:

ـ الحق معك... سنعيد كل شيء كما كان من قبل.

قالت لهم:

ـ لا، لقد تأخر الوقت، بادئ ذي بدء، وقبل كل شيء، أرسلوا بلاغاً إلى الرباط.

كان الحرس في قمة الإرباك. بورو لم يكن هناك يومها. فهو لا يكون في الخدمة نهار الأحد. عادة كان يذهب فيه لرؤية أطفاله، ويعود صباح اليوم التالي. ماذا سيفعلون؟ كيف سيتصرفون، ويتحركون؟ لا أحد منهم يعرف الإجابة على هذا. راحوا يتخبطون في حيرتهم وضياعهم... لكنهم عادوا وأذعنوا إلى نصائح وتوجيهات أمي، وصل خبر هروبنا مباشرة إلى القيادة العليا ووزير الداخلية. بعد مضي ساعة تقريباً، وصل «المحترم» بورو الذي، منذ حوالى شهرين، راح يهدد أمي بركلة من قدمه. آه... كم عاملنا باحتقار وازدراء واستخف بنا، بشكله الذي كان يشبه الغوريلا، وعينيه الحمراوين. بورو الذي كان معتزاً بمهارته في إخضاعنا وترويضنا، يقف الآن أمامها، أمام أمي، بوجه أصفر كالشمع، وبعينين مسبلتين، ويتحاشى النظر إليها وفي عينيه آثار الهزيمة...

كانت أمي ترقص سراً من فرحها، ولكنها كانت متحفظة ومتماسكة أمامه، كان هروبنا ضرباً من المستحيل. وكان في ظنّهم أننا لا شك مختبئون في مكان ما هنا. أمر بالبحث والتدقيق فوق السطوح. لكن دونما نتيجة. لقد عادوا بأكف فارغة.

رفع عينيه إلى أمي وقال لها بصوت مرتجف:

ـ هكذا إذن، لقد هربوا...

في أقل من ساعة، بان عليه الهم والغم، وكأنه غدا بطرفة عين عجوزاً هرماً، وزاد عمره عشرين

سنة. وداعاً للغرور، والادعاء، واللؤم، والاستعلاء. ها هو بخطوات مترددة ومبعثرة يدع أمي وسكينة تقودان تحركاته وسكناته. كان يشبه محكوماً بالإعدام وهو في طريقه إلى المقصلة.

إحتجز الحرس أمي وأخواتي في زنزانتنا. بقين هكذا مدة، وهن في حالة انتظار، لاحقاً، سمعن هدير سرب من الطائرات المروحية تحلق في السماء، وتحط فوق الحقول. العديد من الضباط ذوي الرتب الرفيعة اجتاحوا أرجاء الثكنة، فتحت أبواب السجن. دخل رجال الشرطة ومعهم كلاب ألمانية متوحشة. راحت الكلاب تستنشق رائحة ملابسنا ثم أفلتوها في الطبيعة، مما أخاف أمي وأخوتي كثيراً. تم استبدال المخازنية بقوات من الدرك.

بعدما عصبوا عيني أمي، اقتادوها إلى داخل الثكنة، وأجلسوها بوحشية وعنف. لم يعد الأمر منوطاً بالحرس، أو بورو، على الأقل هؤلاء كنا قد بدأنا نعرفهم. إنهم ضباط قدموا لتوهم، يتكلمون بخشونة، وبقسوة، وبدون إنسانية. إنهم سيجعلونها تدفع ثمن جسارتنا.

كانت أمي ترتجف خوفاً لكنها لم تدعهم يهزمونها معنوياً. فهي من السؤال الأول بادرت إلى مقاطعة من كان يستجوبها. خاطبته بالقول:

ـ جنرال بن سليمان، لا داعي للمواربة، لقد عرفت صوتك.

هب الرجل واقفاً، حل مكانه آخر. حتى وهي معصوبة العينين كانت تشعر بمدى ارتباكهم...

لقد كانوا جميعهم من المقربين لأبي، ولقد استقبلتهم مئات المرات في منزلها. لم تلبث كذلك أن عرفت هوية الآخر، قالت له باحتقار:

ـ حتى إنك لا تملك ذرة واحدة من الشجاعة كي تواجهني. على أي حال أنت مجرد جندي لا أكثر ولا أقل. إنك مجبر على استجوابي وأنت تعصب عيني أليس كذلك؟ اعلم أنكم مهما فعلتم، حتى لو ذهبتم إلى آخر العالم، فإنني سوف أعرفكم جميعاً دون استثناء.

رفضت أن تخبرهم بأي شيء. وبالرغم من خوفها، ظلت تتصرف بكرامتها وشجاعتها. حاولوا إقناعها كي تتجاوب معهم قائلين:

ـ سيدة أوفقير، كوني متعقلة. إذا لم تفصحي لنا عن مكان تواجدهم، هذا من شأنه أن يعرضهم للخطر. إن الذئاب الموجودة بوفرة في المنطقة قد تفترسهم وتلتهمهم.

ـ إنني لأفضل أن تفترسهم الذئاب على أن تفعلوا ذلك أنتم.

أعادوها إلى زنزانتها. حلت سكينة في غرفة التحقيق مكانها، وهي معصوبة العينين كذلك. كانت في التاسعة من عمرها عندما أدخلت إلى السجن، لذلك كان من الطبيعي ألا تعرف أحداً منهم. لكنها كانت بعد كل تحقيق تصف أصوات الضباط بدقة، لأمي. لقد كانت تكشف هويتهم على الفور. كانوا يريدون أن يعرفوا مكاننا، مستخدمين لتحقيق مأربهم كل الوسائل، من تهديد، وإرهاب وتوسلات، وترغيب، وتخجيل، لكن سكينة بقيت صامدة لم تهن أو تتأثر بالرغم من القلق الذي يملأ قلبها.

كانت المرة الأولى التي يدخلون فيها إلى هذا السجن. وهم يعيدونها إلى زنزانتها سمعتهم سكينة يخاطبون بورو. قال له الجنرالات باستنكار:

ـ سيسلخون جلدك. كيف تجرأت على جعل هؤلاء الأطفال يعيشون في هذه الظروف المزرية؟

بالنسبة لنا اعتدنا على رداءة المكان وبؤسه. كنا قد أدمنّا على كل ما هو بشع وقبيح واعتدنا عليه. لكثرة استخدام الفحم للطبخ، كانت الجدران مغطاة بطبقات سميكة سوداء من الدخان الأسود، كان كل شيء مقيتاً، وداكناً ويتندى بالرطوبة التي تتسرب من كل مكان. أما مستلزمات الرفاهية والراحة فكانت كناية عن فرش من القش، وعلب من الكرتون، كنا نستخدمها كقطع أثاث. إن الحيوانات كانت تعامل في أقفاصها أفضل بكثير مما كنا نعامل نحن. كان لا يخفى على الجنرالات بأن الملك كان ينفّذ انتقامه فينا، ولكنهم ما كانوا ليتخيلوا أننا نعيش في هذه الظروف القاهرة. بالنسبة لهم كنا نتلقى الكتب، والبريد، وكنا مدللين. لقد استجوبوا سكينة حول غذائنا. اعترفت لهم بأننا نسينا كيف يكون طعم بعض المواد الغذائية مثل الحليب، والزبدة، والفاكهة. أخبرتهم بالتفصيل عن مكونات وعناصر وجبات الطعام التي كنا نتناولها. وتطرقت بالذكر إلى ساندويشات الأعشاب المسلوقة. ما صدم الجنرالات وأرعبهم أن المواد التموينية المتنوعة كانت تصل بشكل طبيعي إلى الثكنة، وأن الجنود لم يُحرموا من أي شيء.

لم يضعوا يدهم على مكان النفق بعد. حتى بعد مضي أربع وعشرين ساعة. هم دائماً لا يفهمون كيف تمكنّا نحن من الهرب. كيف يمكن أن يحفر النفق؟ يلزمه معدات، وسواعد. أمي، وسكينة، وميمي كنّ في حالة جسدية تثير الشفقة. من أين عساهن يأتين بالقوة المطلوبة لحفره؟ بهذه الأسئلة، كانوا يلاحقون سكينة بإلحاح وبدون توقف.

بعد عدة تحقيقات، ضاقت ذرعاً بما كان يجيش في صدرها، فأطلقت الحقيقة الصارخة في وجوههم

كبر كان يتفجر:

ـ أيها السادة، خذوا علماً أننا لم نكن بحاجة إلى سواعد مفتولة، لكي نثور ونتمرد ونهرب من ناركم وجحيمكم. كان يلزمنا خمسة عشر عاماً من السجن فقط، وخمسة عشر عاماً فقط من المعاناة المريرة والمعاملة اللاإنسانية، وخمسة عشر عاماً فقط من الجوع، والبرد، والخوف، والحرمان. أما فيما يخص الذكاء فاعلموا أن الفضل يعود لكم، لقد منحتمونا خمسة عشر عاماً من التحامل كي ينضج ذكاؤنا ويثمر. ألف شكر لكم.

أسقط ما بيدهم، ونفدت كل أساليبهم. يريدون معرفة ما جرى بحذافيره، حتى بالقوة إذا اقتضى الأمر.

لكن سكينة وفّرت عليهم العناء، وراحت تروي القصة من ألفها إلى يائها من تلقاء نفسها: كم أزعجهم وأثار حنقهم الكلمات والتسميات التي كانت تستخدمها في حديثها، كانت تعبر بلغتنا «الخاصة والسرية»، حتى إنهم اعتبروا أنها تستهدف بذلك الاستهزاء والاستخفاف بهم. لم يفهموا الشيء الكثير مما كانت تقوله سيما المصطلحات التي كنا نتداولها مثل: «الفيلة» و«أكياس الرمل»... بالرغم من الرعب الذي كان يعشعش في قلبها، حافظت أختي على تماسكها وتهذيبها. كانت التحقيقات منهكة. وسكينة، بالرغم من شجاعتها، لم تكن متهورة، لقد أجابت على أسئلتهم بذكاء واختصار. كانت واعية للدور الذي كان عليها أن تلعبه بمواجهتهم. يجب الإشارة إلى أنها تصرفت بشكل رائع ومذهل. لقد كانت للمرة الأولى نجم المشهد، هذه الشابة، ابنة الأربع والعشرين سنة وهي التي سجنت منذ أن كانت في التاسعة من عمرها. كانت حكيمة، استعادت فجأة القدرة على النطق والكلام. لقد تكشفت عندها ملامح شخصية طريفة، ذكية، مراوغة، متهكمة، وفظّة. لقد كانت تمسك بأنفاس جمهورها، حتى وهو في قمة غضبه من جسارتها.

بالرغم من نبرة التهديد التي كانت تشوب كلامهم، إلّا أنهم كانوا يبدون مسحورين، ومهتمين، وأحياناً جزلين وفرحين. كانت استجواباتهم تدور على النحو التالي:

ـ ولكن، بما أنكم لا تملكون ساعة، كيف تسنى لكم معرفة تحديد الوقت اللازم لإعادة سد النفق؟

ـ إنه كورنليوس.

ـ من هو كورنليوس هذا؟ متآمر؟ لا تسخري منا، وإلّا...

ـ ولكن قولي لنا... هل اعتقدتم أنفسكم غاليليه؟

كانت سكينة تتلذذ، وهي تراهم يستشيطون غيظاً.

ـ إنه حدث القرن هذا الهرب... هذا لا يصدق...

من حين لآخر كانوا يقاطعونها قائلين:

ـ لأبيكم كل الحق بأن يفخر بأبنائه.

أرادوا أن يعرفوا هوية ذلك الذي علمهم وثقفهم في السجن.

أجابتهم قائلة:

ـ إنها مليكة. لقد علمتنا القراءة والكتابة، والمحادثة، والجلوس على طاولة الطعام. لقد ربتنا وثقفتنا، وشدت أزرنا. كانت لنا بمثابة الأم والأب والمعلم. إننا ندين لها بما نحن عليه.

كانوا جميعهم يدخنون أمامها. بعد مغادرتهم، راحت تلتقط الأعقاب. رآها أحد الضباط وهي تفعل هذا، اقترب منها وقال لها:

ـ ما كنت لأبقى على قيد الحياة لو أنني تحملت ما تحملتموه أنتم.

ثم مد إليها يده بالسجائر...

كانت تعطيهم تفاصيل محددة وملموسة مما دفعهم في النهاية إلى تصديقها. لكنها لم تكن تريد أن تدلهم على المكان الذي حفرنا فيه النفق. قبل هروبنا، اتفقنا على أنهم يجب أن يجدوا ذلك بأنفسهم. وكم كان يحلو لها أن تتلاعب بهم وتتقاذفهم كالكرة...

أخيراً، وجدت أن اللعبة قد استغرقت وقتاً طويلاً وكافياً... وأنهم بدؤوا يتململون، ويفقدون أعصابهم، ويهددونها، ويعاملونها بعنف شيئاً فشيئاً.

لذلك، قادتهم إلى الزنزانة، وقالت لهم:

ـ إن النفق موجود هنا. ابحثوا عنه.

نزعوا العصبة عن عينيها. لاحظت أن جميع الجنرالات كانوا من ذوي الرتب الرفيعة. سلطوا مصابيحهم الضوئية فوق البلاط... طلبوا منها أن تنتظر مجيء مصور الفيديو، قبل أن تفتح الحفرة. كانوا يريدون تصويرها وهي تقوم بذلك كي يرسلوا دليل هربنا إلى الملك، كما أعتقد.

نزعت سكينة البلاطات، أزالت طبقة الإسمنت، سحبت بمفردها «الفيلة» و «أكياس الرمل»، أمام أعينهم الجاحظة. نادوا رجال الدرك لكي يتأكدوا من وجود الممر. ثم أرسلوا المصور كي يلتقط صوراً لمجرى النفق، ولأدواتنا الزهيدة، من ملعقة، ومقبض سكين، وغطاء علبة سردين.

أحضرت الكلاب المدرّبة ما كنا قد رميناه عندما هربنا، مثل الفلفل، وقضيب الحديد، وأسمالنا. استكشفت طائرات الهليكوبتر المنطقة بأسرها دون أن تعثر علينا... لقد تبخرنا...

هكذا انتقلوا بأمي والأخريات إلى مركز شرطة الدار البيضاء. كان الخوف والقلق يفترسهن جميعاً، لا يعرفن أي شيء عنا، لقد انقطعت عنهن أخبارنا. ولا يعرفن شيئاً عن مصيرنا المجهول.

في مركز شرطة بن شريف سيطرت أمي بالكامل على أعصابها، وحاولت أن تهدىء من تلاطم أفكارها. لقد استنتجت من تصرفات هؤلاء السجانين بأنهم لم يجدونا بعد، وهذا كل ما كان يهمها.

تعرضت حليمة عدة مرات للضرب واللطم، والصفع، لم تتمالك نفسها من إعطاء دروس لرجال الشرطة في الأخلاق، مما أخرجهم عن طورهم. لعلهم وجدوا أنها امرأة مغرورة، تحبنا وتخلص لنا. هذا كل ذنبها.

قالت لهم:

ـ تبعتهم إلى السجن، لأنني أردت ذلك. ولو قدر لي العودة إلى الوراء لما فعلت إلّا هذا. لا تعتمدوا عليّ ألبتة أن أتآمر معكم ضدهم ولا تنتظروا مني أن أخونهم.

أوقفوا معاملتهم السيئة فقط قبل وقت قليل من وصولنا نحن، سيما عندما أخذ العالم بأسره علماً بموضوع هربنا.

لم يعد بمقدورهم أو لمصلحتهم منذ الآن فصاعداً أن يسمحوا لهم بإساءة معاملتنا، وهكذا لقد قضينا ليلتنا هنا نتحدث ونضحك ونتعانق، ونتبادل التهاني.

لقد انتقمنا لأبي. أخذنا نحتفل منذ الآن فصاعداً بالتاسع عشر من نيسان/ أبريل تاريخ هربنا، إنه اليوم الذي أعيدت لنا فيه كرامتنا.

دامت الإقامة في بن شريف شهرين ونصف الشهر. لم نتوقف خلالها عن التهام الطعام. ظلت صواني الطعام تروح وتجيء. في الأيام الأوائل كانت ممتلئة باللوبياء الخضراء، وشرائح اللحم،

والأرزّ، والحلوى، ومع أن لائحة الطعام لم تكن منوعة، إلّا أنها كانت بالنسبة لنا ملوكية جداً.

لكي نبقى أوفياء لعاداتنا المتبعة في السجن، أطلقنا لقباً على رؤوف وهو «بوسنّه»، التي تعني «سناً وحيدة»، لأن المسكين لم يعد يملك إلّا ثلاث أسنان فقط. إن شكل أخي في حد ذاته كاريكاتوري، بطوله ونحوله، وخدوده العالية، وعنقه الذي يشبه مفتاح سدادات القناني، وفكه الذي تزينه سن وحيدة تلتمع كحبة ماس.

أعطونا جهازاً تلفزيونياً ملوّناً، نحن الذين كنا لا نعرف إلّا الأبيض والأسود، اكتشفنا العالم بالألوان. كان المغرب يتهادى أمام أعيننا المشدوهة. لم نعد نعرفه، لقد تغير كثيراً. وجدت نفسي أقنعهم بأن الفضل في تحديث البلد يعود للملك. كنت ممزقة بين الإحساس بمشاركة الشعب افتخاره ببلده وبين الإحساس بالحنق على الحاكم الذي حقق نجاحه بوسائل غير شريفة.

لقد تزوجت ابنته، الأميرة مريم، وكانت التقارير تتوالى عن العائلة الملكية. فجأة اختفت من ذهني صورة الجلاد، ولم أعد أرى إلّا ذلك الرجل الذي رعى طفولتي وأحببته كثيراً. لم أتمكن من حبس الدموع التي سالت بغزارة فوق وجهي. هذا التصرف أذهل الآخرين، إنهم لا يستطيعون أن يفهموا سر هذا الإخلاص للماضي الذي ما برح متوقداً في نفسي. هكذا كنت أنا دائماً أتأرجح ما بين الحنين والنفور، وبين التآمر والخوف، وبين الحب والبغض.

إلى جانب التلفزيون، حصلنا أيضاً على جهاز فيديو. كان العبوش يمتلك مكتبة؟يديو مليئة بالأفلام. بطيبة خاطر كان يعيرنا بعضاً منها. كان رجال الشرطة يتحدثون كثيراً عن فيلم «روكي» للممثل سيلفستر ستالون. ونحن كنا من المعجبين به. لكن تبين لنا أن هذا الفيلم كان إباحياً. هكذا إذن، بدأ النجم العظيم سيلفستر مشواره السينمائي. ما كدنا نشاهد بعض لقطاته حتى أصبنا بالذعر... ثم لم نلبث أن انفجرنا بالقهقهة. في اليوم التالي، شكرت أمي العبوش على «التربية الجنسية» التي قرر أن يلقنها لأطفالها. يا للمسكين، وهو في غاية الارتباك والانزعاج، انخرط في التبرير والاعتذار.

أعيد فتح ملف التحقيقات. إنهم في الوقت الحاضر يعلمون كل شيء حول عملية الهرب ولكنهم كانوا يريدون أن يعرفوا دوافعنا. لقد لامونا لأننا اتخذنا محامياً فرنسياً وليس مغربياً. وكأنه كان عندنا خيارات. غالباً، ما حاولوا إيقاعنا في أفخاخ، غير أن خمسة عشر عاماً من السجن كانت كافية لنا لكي

نتعلـم جيـداً كيف نحاور ونناور، وهذا كان يعيق تقدمنا. لم نعـد نعرف إلى أين يتجه مصيرنا، ولا أي شيء عن أخبار دارتڤيل.

بعـد اجتـماع عائلي، قررنا الكتابـة إلى الملك. كنـا نريد أن نطلب منه السـماح لنا بالهجـرة إلى كندا. العبوش كان خائفاً وقلقاً من أن ننساق ويصل بنا الأمر إلى حد إهانة جلالة الملك. لم يكن هذا في نيتنا على الإطلاق. قراءة رسالتنا جعلت جبينه يندى بالخزي والعار، وراح يلفت انتباهنا إلى ما يراه «خطأ فادحاً» باستنكار:

ـ لا تقولوا هذا، لا تقولوا هذه... وهنا... وهنالك...

لقد حسمنا أمرنا، ولا مجال لإجراء أي تعديل على النص الذي كتبناه. لم نعد نريد البقاء في المغرب، وكندا كانت اختياراً جيداً، لأن الملك ما كان ليسمح لنا أبداً بالرحيل إلى فرنسا. كنا في حيرة من أمرنا، إذ لم يعـد بـإمكانـه أبـداً إخفاء قضيتنا التي باتـت معروفة عالمياً. لكننا كنا نجهـل تماماً ما الذي ينوي الآن أن يفعله بنا.

بانتظـار الحصول على الرد، رحنا نتصرف كمسـاجين نموذجيـين في هذا المركز الذي بدا لنا وكأنه الرفاهية بعينها، بعد كل البؤس الذي عشـناه. لم نكن نعارض أبـداً، حتى عندما كانوا يعصبون أعيننا كي يصطحبونا إلى دورة المياه، أو الحمام. إنها المرة الأولى التي تعجبنا فيها هذه الحراسـة، ونسـتمتع بها، إذ إنها كانت ترفعنا إلى مصافّ الأبطال الذين نكن لهم الإعجاب.

لم يكـن يخفـى علينا التقدير والإعجـاب الواضح الذي كان يظهر جليـاً في نظرات رجال الشرطة، وكنـا نسـتطيع أن نقرأه في أي لحظة. كل يوم كنا نـزداد معرفة وإدراكاً لمدى حجم انتصارنا على الملك، وانتقامنا منه. حتى إنهم كانوا يقولون لنا وهم يرفعون لنا شارة النصر:

ـ لقد تمكنتم منه.

في أحـد الأيـام، فيما كنا نـذرع الممر ذهاباً وإياباً، صادفنا اثنين من المسـاجين الفلسـطينيـين، وجهاً لوجه. رآهما رجال الشرطة ولكن متأخرين، هرعوا باتجاهما لكي يصطحبوهما بعيداً. لكن تسـنى لهم الوقت الكافي كي يهتفوا لنا بأننا قد انتصرنا وهم يرفعون لنا أيديهم بشارات النصر. في نهاية الممر، بعد الحمامات، كانت ترتفع شباك حديدية يحرسها دائماً أحد رجال الشرطة وهو ببزّته العسكرية وسلاحه الكامـل، هـذه المراقبة المكـثفة كانت تثير فضولنا، ولكثرة ما لاحقنا رجال الشرطة بالأسـئلة، اعترفوا

لنا أنها تفضي إلى داخل المكان الذي يتم فيه استجواب المساجين والتحقيق معهم.

أردنا الذهاب إلى هناك مهما كلف الثمن. لاقى طلبنا استغرابهم الشديد، ولكن بسبب إصرارنا الدائم وإلحاحنا، انتهوا بأن سمحوا لنا بذلك. بعدما اجتزنا الشباك الحديدية، وجدنا ممراً ضيقاً تحفّ به أبواب الزنزانات. رجوت الشرطي أن يصطحبني إليها، هزّ كتفيه وقال باستسلام:

ـ كما تشائين، ولكنني أحذرك أن هذا سيفقدك صوابك.

أضاء مصباحاً غازياً، كانت الزنزانة ضيقة وذات سقف منخفض جداً لدرجة أننا لا نستطيع أن نقف في داخلها أو نتمدد على طولنا. كان فيها رجل يستلقي على الأرض الإسمنتية العارية. كان يبدو خائر القوى بدون حراك. لم يميّزني في العتمة الحالكة. رحت أنظر باتجاهه، امتلأت عيناي بالدموع، ثم همست له بكل جوارحي:

ـ صبراً جميلاً... كان اللّه في عونك.

لمت نفسي كثيراً. لأن ما فعلته كان بمثابة إعطاء نقطتين من الماء فقط إلى شخص كاد يموت من شدة الظمأ في صحراء قاحلة. فيما كان الشرطي يغلق الباب، تسنى لي أن أرى وجه السجين وهو آخذ في الارتجاف. لم أتمالك نفسي ورحت أنشج بالبكاء... قال لي الشرطي:

ـ لقد حذرتك، ونصحتك بعدم المجيء...

هذا الرجل، كان سجيناً سياسياً. إنه واحدٌ من كثيرين آخرين.

كنا ننتظر رد الملك، بدون أن نتأمل ونتعلق بالأوهام كثيراً. بعد مضي شهرين استدعانا العبوش، وأعلن لنا أن جلالته وضع تحت تصرفنا مؤقتاً، في مراكش، منزلاً مفروشاً، ومجهزاً بكل وسائل الراحة حتى إنه كان محاطاً بحديقة. وأننا سنكون مكفولين بالكامل، من غذاء، وملابس، وعلاج...

لمن كان مثلنا خارجاً من الجحيم، كان هذا العرض غير المتوقع بمثابة النعيم. سنسكن فيه ريثما يأخذ الملك قراره في موضوع طلب الهجرة الذي كنا قد أرسلناه له.

لاقى هذا الخبر ترحيباً حاراً. في غمرة حماسنا غضضنا الطرف عن إثارة الأسئلة الحساسة والمقلقة. ترى هل سننال حريتنا في أحد الأيام؟ ومتى؟ وكم سيستغرق ذلك من وقت؟

لم نجرؤ على جعل تلك الأسئلة تطفو على سطح تفكيرنا. لقد كنا منهارين من شدة الإرهاق والإنهاك. وكان أقصى ما نتمناه في تلك الآونة هو الطعام والنوم.

مراكش (١ تموز/يوليو ١٩٨٧ ـ ١٩ شباط/فبراير ١٩٩١)

ستة أشهر من الغبطة!

المنزل الذي أغدق به جلالته علينا يقع في تارگة، على بعد عدة كيلومترات من مراكش، مقرّ الاصطياف المفضل لدى البورجوازية البيضاوية. في حياة أبي، أعارنا وزير الداخلية آنذاك، مزرعة فيها، حيث كنا نحب تمضية إجازات الشتاء، ونركب الخيل في نهاية الأسبوع. لقد كانت لنا فيها ذكريات جميلة.

من بين كل الفيلات الموجودة في هذه النواحي، كانت ؟يلّانا هي الأكثر عزلة، تسوّرها الجدران المرتفعة التي لم نكن نرى من خلالها إلّا أعالي الأشجار.

المنزل الذي يعود تاريخه، بلا شك، إلى عهد الاستعمار، له مساحات شاسعة، مظهره مقبول أكثر منه مريحاً.

بعد بير جديد، بدا لنا هذا المنزل كقصر. كان يسعدنا بممراته الطويلة، وإضاءة غرفه وإشراقها، وتعددها. كانت معظمها تقع في الطابق الأول. كنت أتقاسم غرفتي مع ماريا. وكانت سكينة مع ميمي. انفصلت أمي وعبد اللطيف كل في غرفته. أما رؤوف الذي كان بحاجة للهروب والابتعاد عن «جنس الحريم»، فقد استقل في غرفة تفضي إلى الحديقة. فيما عاشورا وحليمة استقرتا في مكان قريب من المطبخ. كشأن كل البيوت البورجوازية الجميلة كان يشتمل على صالونين. أحدهما كبير مفروش على الطريقة الغربية، عدة كنبات، ومقاعد موزعة حول موقد كبير. فيما كان الثاني أصغر حجماً، ديكوره مغربي، تغطّي أرضه عدة فرش، بالإضافة إلى الطاولات المنخفضة.

نحن الذين كنا نفتقد بشدة إلى الضوء، أسعدنا كثيراً بياض الجدران، وتعدد النوافذ، وتمديدات الكهرباء. كان لدينا أيضاً مياه شفة، ومياه باردة وحارة، ومغاطس للاستحمام، ومنشآت صحية في منتهى الروعة والفخامة.

إنه ليس الجنة، بلا شك، ولكن لا تشوبه شائبة أبداً مقارنة بوضاعة بير جديد.

بحماس، راح الصغار يندفعون في كل مكان ويتراكضون، ويضحكون، ويصيحون ويتناكفون فيما بينهم على توزيع الغرف وتقسيمها. لم أجارهم في فرحهم وانبهارهم. كان مزاجي متعكراً، فمرة أخرى مزيد من الأبواب، مزيد من الجدران، ومزيد من رجال الشرطة، والممنوعات. لا خروج، ولا

نزهات، ولا حياة خاصة... إلى متى سيستمر هذا؟ إلى متى؟

لقد كان سجناً، وإن كان، بمواصفاته، يشبه أي منزل طبيعي. أين هي الحرية التي حلمنا بها كثيراً؟ كي لا أفسد عليهم فرحتهم، أخرست هواجسي وحزني، وجاريتهم في تحركاتهم بقناع زائف. ورحت أهتف معهم قائلة بتصنع مفتعل:

ـ نعم... نعم... كم هو مدهش ورائع...! بالطبع سنكون سعداء هنا... ثم أليست هذه مرحلة انتقالية إلى الحرية ليس إلّا؟

فلتذهب كل الهواجس والشكوك إلى الجحيم. فليؤجل هذا إلى ما بعد. إننا نعيش اللحظة الحاضرة... لقد أعطونا مطلق الحرية لاختيار أثاث غرفنا، وملابسنا، واحتياجاتنا اليومية. كان يكفي أن نطلب حتى نحصل على ما نرغب به من كتب، وديسكات، وأشرطة ?يديو، وأوراق، ودفاتر، وأقلام، ومجلات نسائية، وصحف مغربية. أما فيما يتعلق بالصحافة الدولية، من لوموند و ليبراسيون... و... فكان يجب ألا نحلم بهذا. لقد أمدونا كذلك بأجهزة الستيريو، والتلفزيون، والڤيديو، والراديو.

لقد أوكلت إلى رئيس بلدية مراكش ومساعده مهمة شراء حاجاتنا اليومية. في اليوم الأول، اقترحوا علينا أن نحضر لائحة بالمواد التموينية المطلوبة. كان بإمكاننا نيل كل ما نصبو إليه ونشتهيه.

في البداية لم أفهم ماذا كانوا يقصدون بكلمة «كل شيء». كنت أكتفي ببعض الطلبات، دون أن أجرؤ على التمادي أكثر. كان «كيلو من اللحم» يبدو لي كافياً لتسعة أشخاص أسبوعياً، ثم إن إضافة كلمة «زبدة» أو مجرد التفكير بها كان يتهيأ لي أنها غير معقولة. وأروح أقول في نفسي إن التردد لن ينفع معهم. يجب عليّ أن أصر... بدأت أسألهم بتردد وخوف:

ـ هل يمكننا أن نحصل أيضاً على الفاكهة؟ على الحليب الطازج؟ على الشوكولا؟ على البون بون؟ هذه السلع الغذائية ألم تعد ممنوعة؟!!

إذن هم حقاً يعنون ما يقولون. بإمكاننا أن نطلب «كل شيء» وكما نشاء حقاً، هذا لا يصدَّق ومن غير المعقول!

كنا كلما طلبنا منهم شيئاً أحضروه... وهكذا أخذنا، مرة بعد أخرى، نتشجع ونتجرأ. بات الطعام هو شغلنا الشاغل، وهدف حياتنا الوحيد. في كل الأمسيات كنا نغرق في تفكير عميق وجدّي

في لائحة وجبات اليوم التالي. ونتداول في شأنها مع الطباخ الذي وضعته الشرطة تحت تصرفنا. عندما وصلنا، كان هذا الرجل الطيب لا يعرف كيف يطبخ. عندما غادرنا المكان بعد أربع سنوات، كان قد أصبح طاهياً ماهراً ومعتبراً.

كيف لا؟ ونحن كنا قد أصبحنا متطلبين فوق العادة فيما يخص نوعية طعامنا وأطباقنا من كسكس، وطاجين، إلى الكريب، والحلوى، والكريما وسلطة الفاكهة أيضاً. ولا أنسى أن أشير إلى أننا كل يوم كنا نحظى بقالب كاتو محشو بالكريما. الالتهام والابتلاع كانا وسيلتنا الوحيدة ربما لكي نستعيد طعم الحياة، أو ربما لنعوض ما فاتنا أو حرمنا منه من غذاء طيلة خمسة عشر عاماً.

غالباً ما كنت أستيقظ مذعورة في منتصف الليل، والعرق يتفصّد من جسدي من جراء هذا الكابوس المرعب الذي كان ينقضّ عليّ ويلاحقني. وأروح أهدىء من روعي بأننا لسنا في بير جديد، وأن بورو ليس هنا، ولا بن عيش. كانت أشباحهم لا تنفك تطاردني وتهاجمني وتسرق النوم من أجفاني.

بعدما أيأس من المحاولة، أسارع إلى وضع دثاري، والتوجه نزولاً إلى المطبخ. وهنا كان لا بد لي من أن أصادف أحد أفراد عائلتي من الذين أصابهم الأرق مثلي، وهو عائد إلى غرفته بصينية مليئة بشتى أصناف الطعام. ما إن أميزه في العتمة حتى كنت أبادره هامسة: من هذا؟ رؤوف؟ ماذا تأكل؟... عبد اللطيف؟... ماذا تشرب؟

وغالباً ما كنا ننفجر بضحكات مكتومة، ثم نعود معاً إلى البراد لكي نجري مقارنة بين اختياراتنا. ونروح نلتهم ونبتلع حتى التخمة. لقد كان إشباع هذا السعار الليلي يؤكد لنا أننا لم نعد نقيم في آتون ذلك الجحيم المستعر.

كانت أجسامنا تفتقر لكل شيء، وتشكو من كل شيء. كانت أمراضنا لا تعد ولا تحصى. كلفت البواسير أختي ميمي الإقامة شهراً كاملاً في المستشفى. لم نعرف أسباب الحرارة التي كانت تصيبنا غالباً، ولا الخراجات، لقد فقدنا قسماً كبيراً من شعرنا، وكانت عضلاتنا مضمحلة، ولحمنا ذائباً وأسناننا منخورة بالتسوس ومهترئة. لم يبق لنا إلّا الجلد والعظم... وحتى هذا كان في حالة مريعة...

ولكننا انكببنا على تناول الطعام، والفيتامينات، والأدوية. بالرغم من هذه الكميات الهائلة التي

كانت تدخل جوفنا، كنا كمن يصب ماءً فوق الرمل لشدة ما كانت أجسامنا جافة ويابسة.

لكي أستعيد بعضاً من لياقتي البدنية. انغمست في ممارسة الرياضة البدنية كل صباح، من ركض، وتمارين سويدية، ومشي سريع، ولعب الكرة مع إخوتي. طلبت منهم تزويدي بمؤلفات حول غذاء الرياضيين، وأصبحت، بعد فترة وجيزة، موسوعة حية في هذا الموضوع. اتبعت هذا النظام الغذائي مدة سنتين كاملتين، لكن جسدي ظل في حالة يرثى لها. ومع هذا، أرغمت نفسي على المضي قدماً، وكأنني كسيحة تحاول جاهدة أن تجرب المشي.

في نهايات كل نهار، كنت أستمع إلى الموسيقى، وأقرأ، ألتهم الكتب بنهم لا يوازيه إلّا نهمي للطعام، ويسيل لعابي للروايات، والمقالات، وكتب التاريخ التي تدور حول الحرب العالمية الثانية وروسيا. كل الكتابات تثير شهيتي. فلا أهدأ أو تقر عيني حتى أغترف حفنة من كنوزها وخيراتها.

في الفترة الأولى، لم أكتف فقط بالقراءة. كنت أشعر بأنني جاهلة ومعدومة الثقافة. رحت أتعلم وأحفظ الكلمات والأشعار عن ظهر قلب، وأستعين بالقاموس عند الضرورة، وأتذوق ما أنتجه بودلير، وشاتوبريان، وأعيد صياغة الجمل وتهجئتها كطفل في مرحلته الابتدائية.

لقد حصلت خلسة على آلة كاتبة صغيرة تعود ملكيتها إلى جدي لأبي، ورحت أدوّن بعض الملاحظات والأفكار لوضع سيناريو. وكنت أيضاً أواظب على تدوين يومياتي.

كنت مدمنة على مشاهدة الأفلام، والمسلسلات التلفزيونية، وإن كان يثير حيرتي القسم الأكبر منها. شعرت أن فيلم «إي تي ET» كان لغزاً يصعب تفكيك رموزه. لم أفهم شيئاً عن الصحون الطائرة، ولم أفقه مغزى الفيلم ولم أستوعب حكمته. بدا لي أن خمسة عشر عاماً من التخلف عن مواكبة الحضارة من الصعب تداركها وتجاوزها. من جهتها، كانت سكينة ترسم وتستمع إلى أغاني باتريسيا كاس التي تكن لها إعجاباً شديداً. وفيما كان عبد اللطيف يلعب كرة القدم، كان رؤوف يبدأ سنته الجامعية الأولى بالمراسلة في الحقوق. أما أمي فقد كانت تهوى سماع نشرات الأخبار ومطالعة الصحف التي يحضرونها لها. كنا نحاول جميعاً إعادة تأهيل أنفسنا، كل على طريقته. في المساء، ننظم أعياد الميلاد حيث كانت الشموع لا تزيد ولا تنقص عن إحدى وثلاثين. إنه مبدأ لم نحد عنه. ما إن تحين الساعة السابعة حتى يضج البيت ويهدر بغبطة وحبور. ونروح نكوي الملابس، ونخيط حواشيها، ونصبغ شعرنا ونسرحه ونضع مساحيق التجميل، وطلاء الأظافر. ثم نلتقي جميعاً أمام مأدبة فخمة وأخّاذة.

هذه الحياة التي بدأت لتوها، أعادت إلينا تدريجياً أحاسيس ومشاعر خلنا، في أقبية السجن، أنها قد ماتت إلى الأبد. فإذا بنا «نتخلى عن زي القتال» ونودعه في أحد الأدراج المقفلة حتى إشعار آخر. ها نحن نستعيد إنسانيتنا من جديد، ويخفق في أجسادنا وقلوبنا حب الحياة.

غالباً ما كنت أقع أسيرة موجة غامرة من الاكتئاب، يرافقها بلبلة واضطراب، وكأنني عدت مراهقة مرة أخرى. إنني في الرابعة والثلاثين، ما زال يعذبني الشعور بالفراغ العاطفي والوحدة. أشعر بيأس. إنني بحاجة ماسة للحب كأي فتاة من بنات جنسي. كم وكم أقضي من ساعات في غرفتي وحيدة أبكي.

كانت هناك أغنية مفضلة لدينا لا نمل من سماعها، إنها أغنية المقدمة التصويرية لفيلم «ضوء العادلين» التي يؤديها شارل آزنافور وعنوانها «كون». ما إن نسمعها حتى نبدأ في التمايل على أنغامها وكل واحد منا ملتصق بالآخر، ونحن نردد اللازمة التي نحفظها ظهراً عن قلب. تقول كلماتها: أن تُبعث من موتك فذلك أفضل لك.

ترى ما الذي يجعلنا نشهق بالبكاء جميعاً عندما نسمعها. أهو صوت آزنافور المؤثر؟ أم هي الكلمات التي تبدو وكأنها كتبت خصيصاً لنا؟

كل صباح يأتي «الحاج» المفوض إلى الفيلا ليتجسس أخبارنا، ولكي يتحرى إذا ما كنا راضين عن مصيرنا. في الحقيقة، هو مكلف بجس نبضنا فيما يخص عزمنا على الإقامة في كندا. إننا نعرف هذا ولسنا مغفّلين.

نعرف جيداً الطريقة التي يتبعها النظام. إنهم يسمعونك معسول الكلام، ويجعلونك تنام على الحرير، ويمتصون شكوكك وحذرك. وفقط في اللحظة التي لا تتوقعها ولا تنتظرها يوجهون إليك الضربة. لحسن الحظ، أننا تمرسنا في لعبة «الهر والفأر»، وبتنا نعرف كيف نتحاشى الوقوع في مطباتهم، وتجنب الأفخاخ التي ينصبونها لنا. نعرف متى نصمت، ومتى نتكلم، وكل شيء بمقدار.

إننا نعيش في حالة ترقب وانتظار، اختفت نهائياً أخبار المحاميين دارت؟ بل وكيجمن. هذا الصمت يقلقنا. إننا نُعامل بالحسنى الآن، ولكن بدأ صبرنا ينفد. إننا لا نستطيع أن نمشي، ونركض، ونتنفس حتى ضمن الحدود الضيقة والمبهمة التي رسمت لنا.

أخيراً، في الثالث من شهر تموز/ يوليو، أعلمونا بزيارة جورج كيجمن. إنها المرة الأولى التي نقابله

فيها. كان واضحاً تأثره برؤيتنا، واحترامه لشخصنا. كان حديثه متقناً، لقد أخبرنا بأنه قد فقد واحداً من أفراد عائلته في معسكر للاعتقال خلال الحرب العالمية، وبأنه يعرف مدى ألمنا ومعاناتنا، وهو يجد نفسه مجبراً على الدفاع عن قضيتنا إلى أبعد حد، وبأنه لن تهدأ ثائرته حتى نستعيد حريتنا.

بدا لي كلامه صادقاً، ومليئاً بالتعاطف والشفقة إزاء ما كابدناه وتحملناه من معاناة. أخيراً، هنالك من يتحسس آلامنا، ويعترف بمظلوميتنا. أخيراً، هنالك من يفهمنا وهذا يثلج صدورنا ويعزينا.

لقد روى لنا تفاصيل لقائه مع الملك الذي جرى منذ عدة أيام. أخبرنا أن الملك تحدث عنا بحرارة وعاطفة. وأنه يعتبرني كابنته. ولقد أخبره بأنه هو من تولى تربيتي، وأعطاني أول علقة ساخنة في حياتي، وأنه راح يضحك وهو يتذكر مقالبي وحيلي عندما كنت صغيرة.

وزعم قائلاً: «أنظر في أي قضية تعيسة أجد نفسي. إن النقطة السوداء الوحيدة التي تعذبني أيضاً هي قضية عبد اللطيف الصغير»؟!

بدا المحامي كيجمن متأثراً جداً بعلاقة «البنوة» هذه التي تربطني بالملك، ويجهل حقيقة هذا الجزء من قصتي. حتى إنه قال لي بصوت متهدج:

ـ يا مليكة... أتعرفين؟ خلال محادثتنا التي استمرت ثلاث ساعات كاملة، كان يردد اسمك بلا توقف. جلالته يكن لك الكثير من العاطفة.

لقد كنا جميعاً أكثر ارتياباً وتشكيكاً منه حول تأثر الملك وحساسية مشاعره المزعومة بشأننا، ولكننا لم ننطق بحرف واحد واحتفظنا بردة فعلنا لأنفسنا.

طلب المحامي من الملك أن يعطينا حريتنا ويطلق سراحنا. لم يعارض الأمر ولكنه رفض أن يدعنا نرحل إلى فرنسا. كانت حججه واهية للغاية. لقد تذرع جلالته بأن لديه خوفاً من أن يتعرض لحياتنا أحد أفراد الجالية المغربية هناك. وروى لنا كيجمن هذه الواقعة بسخرية وعدم تصديق واضح لحسن نوايا الملك، عدا عن أنه حاول دحض ادعائه بقوله: «ولكن يا صاحب الجلالة... آل أوفقير يريدون الهجرة إلى كندا». تظاهر الملك بالاندهاش والذهول، وبعد تفكير اقترح أن يرسلنا إلى إسرائيل. أما تعليله فقد كان منطقياً لا يناقش. لقد ادعى بأن ذكرى أبي كانت محترمة هناك، سيما وأنه ترك اليهود المغاربة يهاجرون بالآلاف[1]. لقد أهمل الإشارة إلى أنه ينفينا إلى بلد في حالة حرب ويضعنا تحت رحمة أي متطرف قد يستطيعون إقناعه بآلاف الحجج كي يزيلنا من الوجود.

شعر كيجمن بالفخ الذي يتضمنه مثل هذا الاقتراح. حاور الملك وجادله كثيراً. في نهاية المطاف استحصل منه على وعد قاطع بأننا سنحوز على جوازات سفر وعلى تأشيرات دخول إلى كندا. أعرب جلالته أنه لا يريد أن يسمع أبداً بأي حديث بشأننا، وفي المقابل يجب علينا أن نلزم الصمت التام حول كل ما عشناه وتكبدناه. عقد كيجمن هذه الصفقة معه نيابةً عنا.

كانت هنالك رسالة أخرى أراد المحامي أن يبلغني إياها. لقد اتصل به آلان ديلون، وأكد له على صداقته لنا. أبدى استعداده أن يساعدنا في الموضوع المادي، وأن يتولى دفع التكاليف والأتعاب القانونية إذا اقتضت الحاجة. أضاف كيجمن أن الممثل لن يتخذ أي موقف سياسي، فمصالحه في المغرب لا تزال قائمة.

مع هذا، لقد شعرت بالمواساة والتشجيع من خلال هذه اللفتة الصغيرة وأثرت بي. هكذا، آلان ديلون لم ينسني. لا شك أنه قد تلقى إحدى رسائلنا الصغيرة التي كنا قد كتبناها وأرسلناها إلى عدد من الشخصيات السياسية، ومعارفنا القدماء، عندما هربنا إلى الرباط. من بينهم جميعاً، كان هو الوحيد الذي تحرك وعبّر عن نفسه وهذا أثر بي إلى الأبد. مع ذلك رفضت العرض الذي تقدم به، وطلبت من كيجمن أن يشكره بالنيابة عني. كان الصيف محرقاً تلك السنة، إلّا أن هذا لم يؤثر بنا ألبتة. لقد تحدد موعد رحيلنا إلى كندا في آخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وبإمكاننا أن نتحمل إزعاجات الحرارة بانتظار ذلك. إننا سعداء، ومنتشون، ومنتصرون، سيكون بمقدورنا أن نعيد صنع حياتنا من جديد.

المجهول سحرنا. لقد وضعنا مشاريع فائقة الجنون. سنعيش جميعاً في مزرعة مؤلفة من سبعة منازل، موصولة ببعضها البعض عبر ممرات أرضية، تفضي إلى صالة ألعاب. لن نتزوج، لكننا سنقيم الكثير من علاقات الحب. سنبقى عائلة متحدة، لن نفترق عن بعضنا أبداً. الصغار سيتابعون دراستهم، والكبار سينخرطون في ميدان العمل. يعاودنا هذياننا المعتاد من وقت لآخر. التفكير بأنهم أرادوا التخلص منّا يخترق روحي ولكنني أجبر نفسي على طرده، تماماً مثلما أتجنب فكرة أن كل هذا كان مستحيلاً، لأنه جميلٌ جداً حتى يكون حقيقياً، وأننا لن نصبح طلقاء أبداً.

أخيراً أذنوا لجدي بالمجيء لرؤيتنا. لقد أخبرونا بذلك كعادتهم في آخر لحظة. لقد وصل يوم ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر. هو في الثانية والسبعين من عمره، وما زال كعهدنا القريب به، رجلاً

جميلاً، طويل القامة، وقوراً، بالكاد تظهر بعض التجاعيد في وجهه. نظرته الدامعة تدل على مدى الحزن الذي يعتمل في صدره. وما إن رآنا كلنا مجتمعين حتى أجهش بالبكاء، ولم يتمالك نفسه إلّا بعد حين.

ضمّ أمي بين ذراعيه، وراح يعانقنا الواحد تلو الآخر، وهو يرمقنا بنظرات يختلط فيها الحنان والحزن الدفين. بدا عليه الهم جلياً. من المؤكد أن منظرنا البائس قد أثار شفقته ولوعته، وكذلك منظر وجوهنا الكالحة، الذي أربكه وأرعبه. أين هي من الوجوه الصغيرة التي عرفها تنضح بالصحة وتضج بريعان الصبا. لقد تغيرنا كثيراً، بعدما قسا علينا الزمان وجار. المسكين لا يصدق رجوعنا إلى الحياة. ويعتبر هذا معجزة لا تصدق.

أشعر بغصة في حلقي، أريد أن أبكي، يستعصي عليّ البكاء، أريد أن أناديه «بابا الحاج». يستحيل النداء. في صغري كنت أخاطبه هكذا. ولكن منذ أن مات أبي باتت لفظة «بابا» تعلق في حنجرتي. هذا الحاجز النفسي لم أستطع أن أتجاوزه أو أتخطاه، وتركته يباعد بيني وبين هذا الرجل العجوز... الذي، دونما ذنب ارتكبه، رحت أتفاداه وأتحاشاه.

تلك اللحظة كانت مؤثرة للجميع. منذ وقت طويل لم أر أمي بهذه السعادة. إنها متعلقة كثيراً بأبيها. لقد كافح خلال كل هذه السنوات كي ينتزعنا من فم القدر الوحشي. لقد اتصل بمنظمة العفو الدولية، ومنظمة حقوق الإنسان، وبمنظمات أخرى كثيرة. لقد راسل كل الشخصيات السياسية، وقابل الأمير مولاي عبد اللّه الذي أتاح له إرسال الكتب إلينا.

انقطعت أخبارنا عنه نهائياً، منذ أن كنا في تامتاغت. في مناسبات مختلفة وعلى دفعات، صدق بأننا متنا قتلاً بالرصاص. لقد أخبروه بأن ميمي قضت في إحدى نوبات الصرع، وأنني قتلت أنا ورؤوف، بينما كنا نحاول الهرب. أحد أصدقائه أكد له بأنه رأى بأم عينيه جثة أمي في مستشفى ابن سينا.

لقد سلّم بقدرنا، وأقام الحداد علينا. رفض أن يصدق خالي وحيد عندما أقسم له أنه شاهدنا نحن الأربعة أحياء عند آل بارير. أخبرنا عن موت «ماما» خديجة، وعن زواجه الجديد. إننا نعرف بكل ذلك... لقد أخبرنا به آل بارير. ولكننا لم نكن نعرف بأنه رزق بمولود أسماه رؤوف. لامته العائلة وعاتبته على هذا الاختيار.

لا نطلق اسم أحد الأقارب الأحياء على المولود الجديد. لكنه قال وهو يبكي:

ـ لقد كنت متأكداً كلياً... بأنكم قد متم...

تأثرنا كثيراً بما فعله لإحياء ذكرنا.

منذ أن اعتقلنا، تعرض أقاربنا إلى العديد من المضايقات، والمراقبة، والتحقيق، والاستجواب، وكل أنواع التنصت والتجسس والتضييق. لقد أوصد المجتمع المغربي أبوابه في وجوههم، وما عانته عائلة أبي كان أقسى وأشدّ وطأة، هنالك في الصحراء، تعرضوا للنبذ، وحُرموا من كل شيء. ولم يعد أحد يتعاطى مع كل من يمت بمعرفة أو قرابة لآل أوفقير.

لقد روى لنا هذا وهو يغالب دموعه، ويجبر نفسه على التبسم، وهو يردد بين جملة وأخرى: «إن اللّه كبير».

بدأت التحضيرات لرحلة السفر المقررة في ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر. تكفّل رئيس البلدية بشراء الحقائب والملابس لنا. ابتاع لنا أيضاً المعاطف، والسترات الواقية من المطر، بالإضافة إلى الأحذية الضخمة المناسبة للمناخ البارد. كم كان يروق لنا وضع لوائح الشراء. كنا نتفنن في اختيار الموديلات والألوان التي نريدها. كنا مثل أطفال صغار أمام شجرة عيد الميلاد، أو أمام واجهة محل ألعاب. أعطونا تذاكر هوية، وجوازات سفر، ثم عادوا واستردوها عشية سفرنا. هذا الأمر أثار حفيظتي، لا شك أنه يخفي شيئاً ما وراءه. إنني أشعر بهذا، لكنني لا أستطيع أن أبرهنه. حاولت أن أقنع نفسي بأن هذه هواجس لا صحة لها، وبأن كل الاستعدادات تدل على أن السفر بات وشيكاً، ومؤكداً، لكنني كنت أقتنع أكثر فأكثر بأنهم لن يدعونا نرحل بسلام. خفّ حماسي كلياً ولم أستطع أن أجاري الآخرين في بهجتهم، وانهماكهم في ترتيب هندامهم وحلتهم، ولا ألقي بالاً لتسريحة هذه، أو لملابس تلك.

خلال الليل، أوقظ أمي... أبثها مخاوفي وشكوكي. ترفضها جملة وتفصيلاً، وتتهمني بأن مخيلتي مريضة معذبة. إنها أشد سذاجة مني، فهي ترفض دائماً أن تنظر إلى الجانب السيىء للأمور. الحياة في القصر علمتني الحذر. أعرف أنه يجب ألا نأخذ على محمل الحسنى هذا الضوء الأخضر من الملك.

أخرج من غرفتها منهارة... وعلى حافة البكاء. وحده رؤوف يستطيع أن يفهمني. أتسلل إلى غرفته... يصغي إليّ بتحفظ... ثم سرعان ما يقتنع بصحة حدسي. لا تغمض جفونه فيما تبقى من الليل، ولا أنا أيضاً.

في الساعة السابعة صباحاً، من يوم السابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، كنا جميعاً على أهبة الاستعداد، وفي كامل ملابسنا، وزينتنا، وكانت حقائبنا أيضاً مجهزة. في الحقيقة، لقد نسينا ماذا يعني ركوب الطائرة والسفر. كان مظهرنا سخيفاً وهندامنا مبالغاً فيه. كل واحد منا كان يثير السخرية أكثر من الآخر. كنا نحاول أن نكون في داخلنا بمستوى تألق مظهرنا الخارجي.

رحنا نؤدي الدور الذي يجب علينا أن نلعبه على أكمل وجه. بتوتر وعصبية، كنا ننتظر في الصالون، أنا ورؤوف نبدو أكثر إرهاقاً من الآخرين، إنهم لا يشكّون بعد بشيء. بالنسبة لهم، خلال عدة ساعات سنطير بعيداً. يا للمساكين المغفلين...

أرمقه بنظرة ذات معنى... يبادلني بابتسامة عصبية. أمي تضبط إيماءاتنا بالجرم المشهود. ارتجفت يداها المعقودتان فوق حقيبة يدها، وشحب لون وجهها. ترى هل زعزعت مخاوفي ثقتها أخيراً؟

فجأة يصل العبوش، المفوض الحاج، عثمان بوعبيد[11]، ورئيس البلدية، دفعة واحدة. يبدو عليهم الانزعاج والارتباك، ويتحاشون نظراتنا ويتفادونها.

نظرة تساؤل أخرى أتبادلها ورؤوف. ترى كيف سينقلون الخبر إلينا بأن هذا الرحيل ليس سوى كذبة مزيفة؟ لا شك أنه سيلزمهم مخيلة واسعة وخصبة.

في الواقع، ليسوا بحاجة إلى هذا، إنهم يتدبرون أمرهم جيداً... تسيل الكلمات على شفاههم بانسياب... رقراقة... عذبة... إنها بحرٌ من عسل... يختمون كلامهم وهم يخاطبون أمي بقولهم:

ـ جلالته يطلب منكم أن تتريثوا قليلاً بعد... إنه ليس مهيأ كلياً على تقبل فكرة رحيلكم. أيتها الحاجة، جلالته يرغب برؤيتكم قبل رحيلكم.

مرة أخرى أيضاً، ينهار حلمنا ويطول حبسنا أربع سنوات طويلة من الانتظار.

السجن الذهبي

ولكن، سيدة أوفقير، لا يمكنكم أن ترحلوا ما لم تقابلوا جلالة الملك ولا تنسي أنكم أنتم أيضاً قد طلبتم رؤيته بأنفسكم.

انقلبت الطاولة علينا. مضت أمي قدماً في اللعبة، وكتبت رسالة ملتمسة لقاءً بالملك، بناء على رغبته المزعومة. ولكن النتيجة جاءت بشكل آخر...

أدركت أن هناك أسباباً أخرى وراء إجهاض سفرنا. لقد رفضت أمي التوقيع على تعهد خطي بأنها لن تتقدم بشكوى ضد الدولة المغربية، وذلك بالرغم من تعهد كيجمن أمام الملك بذلك.

ربما لم يتنبه كيجمن إلى مدى خطورة المشاكل الصحية التي نعاني منها، ولا أدرك حجم الأضرار. ستة أشهر تلت بير جديد، وما زلنا في حالة جسدية مفجعة. أربعة منا يعانون من مشاكل رئوية مهددة بالانتكاس والتدهور.

كيف يخاطر بإظهارنا للملأ، ونحن في حالتنا الراهنة، ألا يعتبر هذا دليلاً حياً وساطعاً على انتهاكه الفاضح لشرعة حقوق الإنسان؟ أدركت دائرة الهجرة الكندية حقيقة وضعنا، والصحافة لا تنفك تتحدث عن قضيتنا وعن رداءة وضعنا الصحي... لقد أضحى هذا شغلها الشاغل. والملك لا يريد هذه الدعاية السيئة. يجب أن نسترد صحتنا وعافيتنا قبل أن يدعنا نواجه الخارج.

ولكن حتى اليوم، وإن نلنا كل عناية الأرض مجتمعة، ما زلنا نحمل بعد على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. ميمي مطية دائمة لنوبات الصرع. وماريا أصيبت بسرطان المثانة، ورؤوف يتخبط في داء التهاب الشعب الصدرية. وأنا وسكينة نعاني من وضع صحي مهزوز وغير ثابت، أما فيما يخص أخي عبد اللطيف، فإن روحه، قبل أي شيء آخر، هي التي أُطفئت وأخمدت، ومع هذا، ظل المحامي يصدق وعود الملك حتى الدقيقة الأخيرة. كان ينتظرنا في الدار البيضاء حيث كان من المتوقع أن نستقلّ الطائرة. كان يجب أن يتم رحيلنا في سرية تامة. ولكن سرعان ما تسرّب الخبر، وراح ممثلون عن الجالية اليهودية المغربية ينتظروننا في مطار مونتريال وهم يحملون يافطات ترحيب.

رفعت وزارة المالية الحصار عن مبلغ أربعة ملايين درهم قامت بوضعها في تصرفنا في إحدى البنوك الكندية. وبالنسبة للمحامي كيجمن كان هذا المال بمثابة دليل إضافي على نوايا الملك الحسنة.

من جهتي كنت أميل إلى الاعتقاد بعدم صحة سفرنا، وأن كل هذا لم يكن إلا مسرحية مدبرة. إن الملك لم يتخالص بعد معنا، وما زال علينا بعد أن ندفع الثمن.

لقد رأينا كيجمن مجدداً بعد ذلك بعدة أشهر، في بداية سنة ١٩٨٨. كان يستشيط غضباً. أعلن لنا بأنه سيلاحق المغرب أمام السلطات الدولية، وأشار بإصبع الاتهام إلى العبوش قائلاً:

ـ إنها غلطتكم، وغلطة الذين يحركونكم... ليس من عادتي أن أتعامل مع أناس لا يحترمون كلمتهم...

انتحت سكينة به جانباً وسألته إذا ما كان انتحارها يمكن أن يخدم قضية إطلاق سراحنا. منذ يوم ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر، وهذه الفكرة تسكنها وتلحّ عليها. تنهد كيجمن وراح يكيل التهم لهذا النظام الذي يقتل الأطفال الأبرياء.

أرعد وأبرق كالعاصفة بعض الوقت، لكنه عاد وسكن. لم يؤد غضبه إلى أي نتيجة، كشأن الإضراب عن الطعام الذي بدأناه في نيسان/ أبريل ١٩٨٨ بعد عدة أسابيع لاحقة من تاريخ زيارته. لقد دام هذا الإضراب عشرين يوماً كاملاً مما استدعى حقننا المتواصل بالأمصال، كنا في منتهى الإعياء، لكننا لم نلق بسلاحنا إلا يأساً من الواقع القائم. كان الأمل معدوماً من أن تلين قلوبهم المتحجرة. راح مشروع سفرنا يتراجع مع الوقت. عدنا من جديد سجناء كما كنا منذ خمس عشرة سنة. لقد كنا نعيش جملة من التقلبات المتناقضة، تارة مستسلمين وطوراً ثائرين، حيناً سلبيين ومذعنين وأحياناً متمردين.

عوضاً عن التباكي على الذات، كان يراودني إحساس جارف بأن قدري تحسّن، وبات أفضل، بالرغم من كل ما يواجهنا من ويلات ومخاطر. إننا ندين بذلك إلى ما بذلناه من جهود. وما نمتلكه من نفاذ بصر. كان الملك قوياً جداً... وكنا نحن ضعفاء جداً... ألا يحق لنا على الأقل أن نشعر بالرضا لأننا تمكنا من ليّ ذراعه؟

عدنا إلى الوقوع في الرتابة والملل. ولم نعد نحلم ونتأمل. نقرأ، نمارس قليلاً من الرياضة... نشاهد التلفزيون... يلعب عبد اللطيف كرة القدم مع حمزة الذي يماثله في العمر... وهو ابن عم لنا يقيم معنا منذ أن أتى مرة لزيارتنا.

أُذن لعائلتنا بالمجيء لزيارتنا في آخر الأسبوع، بعد جهد جهيد. كانوا يفتشونهم بدقة وبانتظام. لكننا لم نعد ننظم الحفلات عفوياً وبدون مناسبة، باستثناء أعياد الميلاد، انتهت العصرونيات التي كنا نواظب عليها بفرح... انتهت مآدب العشاء التي كنا نتحلق حولها جميعاً ببهجة وسرور. كل واحد منا يأكل وحيداً بمفرده في غرفته.

إننا نعيش حياتنا في ملابس نومنا التي اهترأت لكثرة ما غسلت وأعيد غسلها. نمشي حفاة الأقدام، ولماذا نتجشم عناء الاعتناء بمظهرنا؟ عندما نتصادف في المنزل، لا شعورياً نروح نردد نفس الأسئلة التي مللناها لكثرة ما طرحناها وأعدنا طرحها:

ـ متى ستحل عقدة قضيتنا؟ متى سيطلقون سراحنا ويحررونا؟

ما يفرق مراكش عن بير جديد هو الضوء، سيما في الصباح... لم نكن نفوت هذا المنظر الرائع، إنها لحظة ولادة... وعودة إلى الحياة... إنه إحساس مؤثر. طوال النهار، نبقى في الخارج للاستمتاع قدر الإمكان بهذا المشهد الساحر. عندما يهبط الليل، لا نتعب أبداً من مرأى الأضواء، ومرأى البيت مشعشعاً.

يصلني بريد من أصدقائي القدامى، لكنني لا أطيق تحمل اعتذارهم، ولا إحساسهم بعقدة الذنب حيالنا. رسائلهم الطويلة والمملة تبعث على الضجر، إذ يبررون بقوة خمس عشرة سنة من الصمت واللامبالاة. لا أريد أن أعيد توثيق العرى مع الماضي، وليس لدي ما أجيبهم به. عدا عن أنهم لن يفهموا شيئاً... علمنا بموت عمي هاشم... لم يسمحوا لنا بالذهاب إلى مأتمه وإن تحت المواكبة والحراسة المشددة. لقد توفيت «نانا» جدتي قبل وقت قصير من موعد هربنا. المسكينة لم تقر عينها برؤيتنا مجدداً قبل موتها.

إنهمكنا بتربية عشرات الحيوانات من الهررة، والكلاب الضالة... إنها تعيش معنا، وتأكل، وتنام. لا ندعها تغادر المنزل مطلقاً خوفاً عليها من أن تلقى نفس مصير حماماتنا التي ذُبحت في تامتاغت.

إننا نصبّ كل اهتمامنا وحبنا على هذه الحيوانات المؤلفة من عشرة هررة، وثلاثة كلاب. هل لهذا علاقة بما نعانيه من نقص عاطفي، وكبت جنسي؟ أم هي تعبير عن توق دفين للأمومة، والأبوة؟

لقد بلغنا منذ زمن بعيد سنّ الزواج والإنجاب، عندما كنا في السجن، كانت لنا سطوة على رغباتنا ونزواتنا. ما إن كانت تطل برأسها حتى كنا نعاجل، دونما صعوبة، إلى وأدها وإخمادها.

خلال الستة الأشهر الأولى في مراكش... غفلنا أن نوصد عليها بالقفل والمفتاح فإذا بها تدلف إلينا وتتسلل من بين دفتي الباب. إنها لا تني تلح علينا، وتضرب من حولنا حصاراً.

بعد خديعة «سفرنا الملفق»، عكفنا على مقاومتها وطيّها، وإعادة ترويضها مجدداً، هذا آمن لنا... ما دام الأسر قدرنا.

ما كنا لنتحمل خمسة عشر عاماً من السجن في هذه الظروف التي نحياها الآن والتي تعتبر نسبياً مريحة. أخطر ما فيها أنها توهمك بأنك تملك بعض الحرية، وبأنك تستحصل على المستلزمات الحياتية من أكل وشرب، ونوم، وملبس، ومنزل فاخر... إننا نفضل العدم على القليل، والمضي في القتال على الاستسلام والخضوع... إن سياسة أنصاف الحلول والانتظار والتسويف... تدخل اليأس إلى

قلوبنا... وربما ستهلكنا.

ما أبشع الشعور المرعب الذي طغى علينا... الشعور بأننا لن نتذوق مطلقاً طعم الحرية... إنه سراب لن ندركه أبداً... فنحن ما كدنا نلمسها بأطراف أصابعنا حتى عادت وانتزعت عنوة منّا... ما زلنا ندور في حلقة الشيطان... وتطاردنا الكوابيس في الليل والنهار.

ها هو التشدد في معاملتنا يعود من جديد. زرع رجال الشرطة بعض أجهزة التنصت في مدخنة الصالون... اكتشفها رؤوف صدفة... عطّلها... قابلوا الأمر بتدابير ثأرية، قاموا بالتشويش على قناة البث التلفزيونية (TV5) التي تتحدث عن المغرب. راحوا يشدّدون من حولنا المراقبة والحراسة. رفضوا إعطائي بعض الكتب التي كنت قد طلبتها، والتي تعالج موضوعي الثورة الروسية، وألمانيا النازية، أما السبب، فذلك لغز لا أدركه...

ما زال لدينا بعض الشذرات من روح النكتة والدعابة. طلبنا منهم أن يحضروا لنا شريط «الهروب الكبير»... وبالطبع لقد رفضوا كما توقعنا...

نوينا أن نحفر نفقاً كي نعاود الهروب مرة أخرى. أرض الحديقة سهلة الحراثة، لكن هذا سيتطلب جهداً جسدياً... وهذه نقطة ضعفنا. حتى إننا فكرنا بإحدى الطائرات الصغيرة، وكيف أنها ستأتي وتحط في الحقل الذي يقع خلف الحائط. فكرة الهرب هذه من شأنها أن تساعدنا على الصمود، وتثبت لنا بأننا لم نمت بعد كلياً... وأننا لسنا مدفونين أحياءً.

كنا في مراكش عندما اندلعت حرب الخليج التي خدمت جيداً قضايا الملك. لقد سمحت له أن يفرض نفسه كوسيط لحل نزاعات العالم العربي، وأن ينجح في التعتيم على قضية السجناء السياسيين والعديد من المفقودين، والوضع المزري للسجون، والعبث بشرعة حقوق الإنسان، وتلك كانت بمجملها تظهر الوجه الحقيقي للحاكم الذي لا يعرف الرحمة أو الشفقة. لقد أراد ببساطة أن يضع كل هذه القضايا في طي النسيان.

خلال ما يقارب عشرين سنة من الاعتقال، تعودنا على تحليل الأحداث الإقليمية والعالمية، ومعرفة تأثيرها وتفاعلاتها على مجرى قضيتنا. ترى هل في هذه الحرب فائدة ما لنا؟

إنها لن تغير مصيرنا قيد أنملة. بعد سنة، لاحقاً، في سنة ١٩٩١، نشر في فرنسا كتاب لـ جيل بيرو، «صديقنا الملك»، علمنا بالخبر بواسطة التلفزيون المغربي، والذي أثار موجة من الاستنكار في أرجاء

البـلاد. هـذا الكتاب لم يدخل البهجة إلى قلب الملك. الحكومة والشـعب أعربوا عن تأيـيدهـم الكامل للملك الحسن الثاني.

طلبوا منا أن نسـاهم في حملات الدفاع ضد هذه الجريمة النكراء. كان علينا أن نكتب رسـالة ندين فيها بـيرو، ونؤكد بشـدة، وعلى رؤوس الأشـهاد، أن جلالته كان ملكاً عظيماً ويتمتع بشـخصية مميزة واستثنائية.

بدورهمـا أكـد العبـوش وبوعبـيـد أن هذا الكتـاب يقـف وراءه أعـداء المملكة، دانيـيـل ميتران، وجـورج كيجمن، وأنهما الرأس المخطط والمدبر لـه. كان علينا التخلي نهائياً عن محامينا الذي تجرأ على مهاجمة شخص الملك. لقد نشرت هذه الرسالة «القسرية» في مجلة لو فيغارو.

كنـا، بالرغـم مـن آلاف الخطط والأحابيـل مجبرين على كتابة هـذا «الفرمان»، ولم يكـن أمامنا إلّا الإذعـان. ورغـم ذلـك لم تنشر الرسـالة إلّا في مرحلة متأخرة جـداً. ولكن هل سـننال حريتنا ثمن ما فعلناه؟

أحضروا لنا كتاب «صديقنا الملك»، مع أنه كان ممنوعاً في المغرب. أرادونا أن نطلع بأنفسـنا على ما جاء فيه، لغاية ما يضمرونها في أنفسهم.

من شراسـة هجمته على الملك... أخذني تفكيري إلى أن هذا ليس إلّا الانقلاب العسكري الثالث. هكذا، أحد ما من الخارج، فرنسي يتجاسر على النيل من شخص الملك، ويتهمه ويدينه دون أن يـرف له جفن، أو تأخذه رجفة أو خوف.

هـذا لا يمنع أن هذا الكتاب كان حافلاً بالوقائع الملفّقة، إذ يبدو أن الكاتب قد أعار أذنه بالكامل إلى الكثير من الشـائعات المختلفة. هكذا، عندما روى بالتفصيل قصة أسرنا في فصل «أقنعة الحديد»، وصـولاً إلى ملابسـات هربنـا، لم يكن موضوعياً، ولم يتـوخَ الحقائق المؤكدة، بل عمـد إلى اختراع جملة وقائـع لا أسـاس لها من الصحـة. لقد ألمح بـيرو، مثل كثيريـن قبله، إلى أننا ما كنـا لنتمكن من الهرب بأنفسـنا. وبالاسـتناد لما ذكره، فإن واحداً من السجانين «المرتشـين»، أو أكـثر، مدّ لنا يد المساعدة من الخارج. كان لهذا الكلام وقع الخنجر في قلوبنا، نحن الذين لم نملك، طوال عشرين سـنة من السـجن، إلّا كبرياءنا، وأكفّنا العارية، هذه التي حققنا بها فكرة الهروب.

ثم لا يلبث أن يعدل عن نغمته هذه، ليسـتنتج بأنهم في هذه الحالة، ما كانوا ليتركونـا نـتدبـر أمرنا

في العراء بدون مال، أو دعم...

كانت الاعتداءات الشخصية أشد إيلاماً. لقد أشار إلى أن أمي كانت صبوة الضباط الشباب المفضلة عندما كانت في عهدة أبـي. في المقابل هو لا يعرف شيئاً عن ظروف طلاقهما، ويخلط ما بـين التواريخ، والأسباب، والأحـداث، ويصل به الأمر أن ينسـب لأمـي تهمة إقامة علاقة مع الملك الحسـن الثاني. ويضيـف، بـدون أدنى دليل، أن «كل الرباط تـتهامس بأن سـكينة كانت ابنـة الملك». هذا «الإعلان» أدى إلى اضطـراب وإربـاك أختي الصغـيرة لمدة طويلة. حتى أنا لم أنجُ من الثرثرة والأقاويل. بالنسـبة إليـه، «لقـد سرتُ على خطى أمي فيما كان أبـي يغضّ طرفه، لأنه كان معتاداً على تصرفاتنا»، بالإضافة إلى غير ذلك من الادعاءات والتلميحات على هذا النمط، والتي كانت تملأ صفحات الكتاب.

بعدمـا عشـت ردحاً من حيـاتي داخل القصر، في وسـط الحاشـية، صرت معتادة على الشـائعات، لدرجة أنها لم تعد تؤثر بـي ألبتة. ولكن ما يحز في قلوبنا جميعاً أنا وأمي، وإخوتي، هو أن رجلاً من وزن جيـل بـيرو قد تدنى إلى هذا المستوى. لقد أضاع فرصة ذهبـية من أجل إعـداد كتاب موثق وجدي. تألمت لهذا أكثر مما تألمت بسـبب تلك المعلومات المضللة. هنالك أشـياء كثيرة حقيقية تستحق أن تذكر وتقال، ولا حاجة للاستعانة بما «يُـروى ويُشاع». الحقيقة وحدها كانت تكفي كي تدمر هذا الجائر.

ومع هذا، لا يمكننا إلّا أن نسجل له جرأته. إنها المرة الأولى التي يهاجم فيها أحد ما شخص الملك، وهذا الأمر وحده كفيل أن يمنعنا من القيام بأي ردة فعل مناوئة له أو قد تضرّ به.

ثم إنه بالرغم من تضميناته المسيئة لنا، ذكر في مكان آخر من كتابه الآتي:

«أي معايـير أخلاقية غريبة تلك التي تبـيح له أن يفرض، خلال خمس عشرة سنة، كل هذه الأهوال والويلات على أطفال أبرياء؟ هل هنالك في العالم قانون يقضي بـإنزال العقاب بذرية المجرم؟».

في مطلق الأحوال، إننا شاكرون له التفاتـته لنا بشكل أو بآخر.

آخر النفق

في منتصـف شـهر شباط/ فبراير ١٩٩١، جـاء لرؤيتنـا كل من العبـوش، بوعبيـد، ووالي مدينة مراكش. كانت المحادثة معهم شبـيهة تماماً بلعبة الشطرنج.

كان كل واحـد منهـم يحرك أحجاره وفق ما يقـول الآخر، فيما كنا نحن نتمعـن ونـتـروى قبل أي

سؤال أو إجابة. ودون أن يبدو عليهم، كانوا يحاولون، عبر جرعات صغيرة، أن ينقلوا إلينا بعض المعلومات المهمة.

أول مجيئنا إلى مراكش، كانوا قد ذكروا لنا بمرارة، وأيضاً ببعض الغضب، بأننا نستطيع أن نكون فخورين بأنفسنا، وأن هربنا سيكون له صدى ومضاعفات سياسية أكثر مما يمكننا أن نفكر أو نتصور.

لقد أبدى بو عبيد هذه الملاحظة قائلاً:

ـ بفضل الدوي الذي أحدثه هروبكم في أنحاء العالم، فإن الصحافة العالمية ستهتم أكثر فأكثر بمصير السجناء والمعتقلين السياسيين في المغرب[١٢].

في هذا اليوم، كان «ملائكتنا الحارسون» يجلسون على الديوان، ويتحدثون ويثرثرون دونما هدف، وعلى غير عادتهم كانوا يغرقون ويسهبون في التفاصيل.

في هذه الجلسة، حاول الوالي أن يستفزني كي يخرجني عن طوري، فراح يتحدث بسخرية عن حركات التحرر النسائية. لم أفهم الغاية التي يريد أن يصل إليها من خلال تصريحاته الطفولية. بعد ثلاث ساعات من الحديث الفارغ، نظر إليّ بو عبيد فجأة وقال:

ـ إنكم طلقاء...

انفجرت هذه القنبلة تحت أقدامنا. لكنها لم تؤثر بنا ألبتة.

إننا لا نفهم، أو بالأحرى لا نريد أن نفهم، ما يجري ويحصل.

رحنا نتابع الحديث وكأننا لم نسمع شيئاً. بذهول شديد، تبادل الوالي والعبوش وبوعبيد النظرات المستغربة. فيما كنا نحن في وادٍ آخر، بعيداً عن «أقاويلهم الملفقة». فقد شعرنا بأن هنالك شيئاً غريباً ما يحصل.

راح العبوش يصرخ قائلاً:

ـ يا إلهي... منذ تسع عشرة سنة ونصف وأنتم تنتظرون هذه اللحظة. هل هذا هو فقط كل ما فعلته بكم؟ أنتم طلقاء... هل تسمعونني؟ إنكم طلقاء... أحرار...!

أحرار؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ منذ لحظة فقط كنا ما زلنا سجناء، وها هم لتوّهم يعلموننا بأننا غدونا أحراراً... وبأن كابوسنا يوشك على نهايته... في ثانية فقط لا غير يعيدون إلينا حريتنا التي

انتزعت منا طوال ما يناهز عشرين سنة... في ثانية فقط ينقلب الشيء إلى ضده... يا ألله... ما أوهن الشعرة التي تفصل بين الأشياء... التي تخضع لمشيئة الملك ومزاجه!

هل صحيح أنهم يقولون الحقيقة؟ أليس هذا مجرد كلام ليس إلّا؟ يريدون أن يتلاعبوا بنا ويتقاذفونا كالكرة مرة أخرى. قبل أن نستوعب جيداً معنى هذه الكلمات وكنهها «إنكم طلقاء... أحرار»، غرقنا جميعاً في حالتنا القديمة التي لم نقدر أن نتخلص منها أبداً... فنحن لسنا سوى «طرائد سجينة» بين أيدي الجلاد العابثة، ومتى كانت الطريدة تصدق صياداً وتثق به؟!

إلتزمنا الصمت المطبق، ولم نجرؤ حتى على تبادل النظرات... كنا كتماثيل الرخام... لا حس ولا حركة...

كان يلزمنا بعض الوقت لنتقبل هذه الحقيقة المذهلة بأن الملك أخيراً منحنا بركته، وغفر لنا، وعفا عنا...

إذن لقد أثمر ضغط الرأي العام، والتدخل الأميركي والفرنسي.

عندما استعدت القدرة على النطق مجدداً، سألتهم لماذا انتظروا وقتاً طويلاً قبل أن يعلنوا لنا هذا النبأ...

أجابوني بالقول:

ـ منذ بعض الوقت، ونحن نعقد الاجتماع تلو الآخر، من أجل إيجاد الصيغة المثلى التي نزفّ لكم بها هذا الخبر... خفنا عليكم، من وقع المفاجأة، أن يختل توازنكم... كانت مهمتنا أشبه بالمستحيلة، ونحن لم نشأ أن نصعقكم... ونقتلكم...

أحرار... هكذا إذن... إننا أحرار... ولكن ماذا نفعل، وإلى أين نذهب؟ لا منزل... ولا أصدقاء... ولا... وماذا عساهم سيفعلون بنا عندما نصل إلى الرباط؟ هل سيلقون بنا على قارعة الطريق مثل طرد بريدي مهمل؟

قالوا لنا ونحن نستجمع شتات أفكارنا:

ـ تمهلوا، وخذوا وقتكم كي تعتادوا على فكرة أن جلالة الملك صفح عنكم وأعتقكم. سوف نأتي في طلبكم خلال أسبوع من الآن.

ما إن غادروا حتى اندفعنا إلى العناق والبكاء... أيعقل هذا؟ هل حقاً قد زال إلى الأبد هذا

الكابوس الذي جثم دهراً فوق صدورنا؟ هل نحن في حلم أم في علم؟ لقد اجتاحتنا موجة من السعادة... وأخرى مناقضة من الضياع والخواء.

أسبوع واحد لم يكن كثيراً علينا كي نألف هذه الفكرة ونعتاد عليها.

لقد تغيرت ساعات النهار وتبدلت، لم تعد هي نفسها كما كانت عليه مسبقاً. ارتدت النهارات حلّة زاهية قشيبة... أشرقت ابتسامة الشمس والتمع ثغرها الجميل، وشعشع وجهها الجميل أكثر وتألق أكثر. لم يعد المغيب كئيباً يدعو إلى الانتحاب والبكاء... ازدان الكون بألوان البهجة والفرح... عاد للسماء ازرقاقها، وللطبيعة خضرتها وبهاؤها... ولنا أحلامنا المنسية التي خلناها ماتت منذ زمن بعيد. ها هي قلوبنا تخفق للحياة من جديد... وها نحن نحلم... ونحلم... ونحلم...

يقول رؤوف:

ـ أنا... سأعوض ما فاتني من وقت ضائع مع النساء...

تحلم سكينة:

ـ من جهتي سأتعلم عزف الموسيقى... وأقابل باتريسيا كاس.

يصرح عبد اللطيف:

ـ سأصبح لاعب كرة قدم محترفاً...

تهمس ميمي وهي تحمرّ خجلاً:

ـ أحب أن أتزوج وأنجب طفلاً...

وماذا عني أنا؟... أنا... أنا أريد أن أحب، وأسافر، وأجوب الأرض، وأضحك... وأغني... وأتكلم عما يشغل عقلي وقلبي... فأتناول ما يحلو لي من طعام وشراب... وأكون مطلقة الحرية... أن أعمل في حقل الإعلانات... وأمثل في السينما... وأدرس وأستكشف وأرتشف فنجاناً من القهوة على رصيف مقهى، وأروح أتأمل زحمة السير وحركة المارة... ولا يهم أن أقوم بكل هذا دفعة واحدة أو على دفعات...

لم نكد نستيقظ من هذه الأحلام الجميلة ونعود إلى الواقع حتى أخذنا الخوف والهلع، هل سنتمكن فعلاً من تحقيق كل هذا؟ ألم يتأخر الوقت، ويفت الأوان؟ كلما اقتربنا من الاستحقاق... كان يزيد شعورنا بالرهبة أكثر فأكثر... ولكي نستعيد رباطة جأشنا... شغلنا أنفسنا في توضيب حقائبنا،

وحزم أمتعتنا... كما كان مقرراً في آخر كل أسبوع.

حضرت عائلتنا لرؤيتنا، لم نتفوه أمامهم بكلمة واحدة عن الموضوع.

الخالة مواقيت التي كانت وسيطة روحانية، كانت تقرأ لنا باستمرار طالعنا على بطاقات من ورق. كانت دائماً ترى بأن موعد إطلاق سراحنا بات وشيكاً، لكنها لا تستطيع أن تحدد تاريخه. ذلك السبت، أخذت كالعادة بطاقاتها وطلبت مني أن أقتطع جزءاً منها بيدي اليسرى. أعلنت لي فوراً، وبدون مقدمات، بأن فك أسرنا بات على قاب قوسين أو أدنى... قلت لها وأنا أهز كتفي:

ـ كفي عن هذه الهراءات يا مواقيت... ألا ترين أنك تبالغين بعض الشيء في لعب دور الوسيطة الروحية... أنى لنا هذا؟ ونحن منذ أربع سنوات ونصف ننتظر هذه اللحظة التي لم تأتِ... لا شيء ألبتة يدل على أن هذا «الحدث السعيد» في طريقه إلينا...

المسكينة راحت تصرّ، وأنا بدوري رحت أستنكر وأنفي... كانت متأكدة بأن بطاقاتها لا تخطىء أبداً... توسلت إليّ أن أعترف لها بالحقيقة، وحاولت الإيقاع بأمي وأخوتي لتنتزع منهم ما يدعم حدسها. ولكن كنا جميعاً لا حياة لمن تنادي. استمرت «لعبة الأعصاب» هذه زهاء ساعتين بالضبط. بعدها اعترفت لها أخيراً بالحقيقة التي كنت أتلفظ بها بصعوبة بالغة فقلت بتهجئة متقطعة:

ـ إننا طلقاء... أحرار... مواقيت... لقد أطلقوا سراحنا...

ما يسمى الحرية (خاتمة)

الخطوات الأولى

ها قد أفرج عنا... وأطلق سراحنا.

لكثرة ما أدرنا هذه الكلمات في رؤوسنا، وحلمنا بها خلال عشرين سنة، ليلاً نهاراً في مجاهل الأسر، اختلط علينا الأمر... لم نعد نعرف ماذا تعني بدقة وبالضبط.

فكلمة حر تعني: الخروج إلى الشارع دون أن يجري في أعقابك رجال الشرطة.

على مدار خمس سنوات تلت... بقينا مطاردين، وموضوعين تحت المراقبة المشددة، والتنصت، والتجسس... لقد ضيّق علينا الخناق.

كلمة حر تعني: الحق بممارسة العمل.

لم يتمكن أحدٌ غيري من إيجاد عمل في طول المغرب وعرضها، وهذا ليس إلّا بفضل شجاعة رب عملي الذي لم تؤثر عليه الضغوطات والممنوعات. كلمة حر تعني: نعاشر من نشاء، ونحب من نشاء، ونذهب حيث نشاء.

لقد تعرض كل أصدقائنا إلى الاستجواب من قبل قوات أمن الدولة. انتزعوا منا جوازات السفر ولم يعيدوها إلينا. ومع هذا كان يجب علينا أن نعتبر أنفسنا أحراراً... فكيف بربكم يمكن هذا؟

أما خطواتنا الأولى نحو الخارج، فلقد تمت في ٢٦ شباط/ فبراير من سنة ١٩٩١، احتفاء بولادتي الجديدة، كنت قد احترت باختيار هندامي. ارتديت سروال جينز، وقميصاً رجالياً، وضعت عليه ربطة عنق، وفوقه سترة حريرية كحلية اللون. أريد أن أكون في منتهى أناقتي وأنا أستقبل الحرية، وأستمتع بها. ها هي حقائبنا مجهزة، وحيواناتنا تنتظر بهدوء في أقفاصها... إنها تعلم بأن هذه اللحظة من حياتنا مصيرية وتاريخية.

إنها المرة الأولى التي تنتظر فيها رجال الشرطة وقوات أمن الدولة بفارغ الصبر. قافلة من السيارات والشاحنات تتوقف أمام المنزل،، وذلك في نهار الجمعة الواقع في ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٩١. حركة ناس، وضجيج، وذهاب وإياب، وهرج ومرج...

بلا شك، هذه الدلائل تشير بوضوح إلى أننا صرنا أسياد أنفسنا. لقد شاهدنا في هذه الساعة عدداً من البشر لم نشاهده على مدى عشرين عاماً. ما إن انفتحت أبواب الحدائق حتى بدأ قلبي يخفق بسرعة لمرآها. إنه شعور هائل لا ينسى. إنها لن تغلق علينا أبداً بعد اليوم.

انطلقت القافلة بعد أن أخذنا أماكننا داخل السيارات. كل شيء يتداخل ويختلط في رأسي، الأصوات، الروائح، الألوان، المشاعر والانفعالات. أخيراً، بات بإمكاني أن أنظر نحو الخارج بدون حزن أو خوف أو ارتعاب. كم يسحرني منظر هذا الشارع بكل تفصيلاته الصغيرة: هذان عاشقان يمسكان بأيدي بعضهما البعض، وتلك أم برفقة ابنتها، وهذا كلب يقفز بمرح، وذاك عصفور يحط على غصن شجرة. كل هذا سيصبح عما قريب مشاعاً ومتاحاً أمامي... ومن حقي...

توقفت العجلات عن الدوران في مدينة صغيرة، اقترحوا علينا النزول من السيارة كي تتحرك دورتنا الدموية قليلاً، ونعيد ضخ الدم إلى أرجلنا. توجسنا شراً... ورفضنا النزول... أي لعبة هذه التي سيلعبونها معنا الآن؟ ترى هل من شرّ يتربّص بنا؟... بعد مماحكات طويلة قبلنا عرضهم...

ونحن ندخل إلى المقهى، أصبت بدوار، رحت أجر قدميّ جراً. كيف أتصرف؟ وماذا أفعل؟ لقد نسيت كيف أطلب بعض المشروبات التي أرغب بها من عامل المقهى؟ كيف أقول له أحضرْ لي شراب الكوكاكولا بهدوء واسترخاء؟ كيف يمكننا أن نندمج بسرعة في دورة الحياة؟ في هذا المقصف حيث نقف صفاً... تفتك بأعصابنا هذه الأضواء الباهرة، والموسيقى الصاخبة. نشعر وكأننا في براثن فخ مطبق علينا.

إننا نفضل العودة إلى داخل السيارات.

أخذت الرحلة من مراكش إلى الرباط حوالى ثلاث ساعات. قضيتها في مراقبة المشاهد الخارجية بنهم وشراهة، فأنا كنت قد تمكنت من أن ألاحظ التغيرات الواضحة التي طرأت على المغرب عندما هربت من جهة، ومن خلال الأفلام والبرامج التلفزيونية من جهة أخرى. كنت أنظر إليها بعين الرضا والتقدير. يذهلني هذا الشعور بالحب لبلادي، وأتعجب من شدة سطوته التي لم تنل منها وطأة الماضي الثخين.

وأخيراً توقفت القافلة عن المسير في الرباط، أمام منزل خالي وحيد. كانت العائلة كلها مجتمعة بانتظارنا أمام الباب، كانوا يرتدون الزي المغربي. لقد أعدوا للمناسبة الحليب والتمر، كما تقتضي عادات الاستقبال والترحيب. كانت تلك اللحظة تضج بالفرح، فيما كان الحزن يملأ النظرات والعيون. وهل يمكننا محو عشرين سنة بلحظة واحدة؟ هذا محال... لن نتمكن أبداً من إزالة آثار الدهر.

لم أعد أعي كيف نزلت من السيارة... كل ما أتذكره ضباب. أعلم فقط أنهم عانقوني، ضمّوني، وراحوا يمررونني من واحد لآخر... من فرط انفعالي، كنت أتحرك آلياً... كالمنومة مغناطيسياً. خلال الأيام التي تلت، كان المنزل لا يكاد يفرغ كي يعود ويمتلىء. نودع العاشق... ونستقبل المشتاق... كانوا جميعاً مستعجلين لرؤيتنا. بينهم من انتظر يومين أو ثلاثة للحصول على إذن القصر كي يتمكن من المجيء لرؤيتنا.

كانت صديقتي حورية من أول الواصلين. ما زالت على عهدها حتى إنها قررت أن ترافقنا إلى المنفى. لم تكد تراني وأنا أقف في أعلى السلالم، حتى اندفعت باتجاهي. تراجعت خطوة إلى الوراء، أريد أن أذهب، لا أريد أن أوثق العرى التي انقطعت مع ما يذكرني بشبابي الضائع. لقد اعترفت لي بأن

نظرتي أفزعتها. وبأنني بدوت غريبة... وماذا أقول أنا؟ ألم يتحولوا هم جميعهم أيضاً إلى غرباء؟... إنها ليست مزحة... إنها عشرون سنة.

وأنا أجلس على كرسي، أنظر إليهم وهم يمرون أمامي، إنني لا أفهم لماذا يروحون ينتحبون ويبكون ما إن يلمحوننا. هل أفزعتهم أشكالنا؟ هل تغيرت وتشوهت إلى هذا الحد؟ هل هرمنا وشخنا؟ أشعر بالخدر يسري في جميع أنحاء جسدي، لقد انقبض قلبي، وأرغب أن أقفل على نفسي وحيدة في غرفة مظلمة. هذا من المستحيل. شقة خالي صغيرة للغاية. إننا ننام مكدسين في الصالون. في الأيام الأولى، لم يغمض لي جفن أبداً.

أصرّ عليّ وحيد كي أخرج من المنزل قليلاً. ولكن كيف أخرج؟ إن الصحافيين يرابطون أمام الباب، ويطلبون إجراء مقابلات معنا، ونحن نرفض ذلك. كيف يمكنني إذن أن أواجه هذا الحشد؟ لقد لزمني ثلاثة أيام كاملة لكي أجرأ فقط على الاقتراب من الباب. عندما طلبت من خالي أن يفتحه لي، قال باندهاش واستنكار:

ـ كيكا ما الذي يصيبك، لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ في الوقت الحاضر أنت حرة...

انشق الباب بمنتهى الخفة والهدوء... خاطرت بإلقاء نظرة على الخارج. كل شيء بدا مشوشاً أمامي... الأرصفة، السيارات، المارة، بدا المشهد كالباطون المسلح... مما أدخل الرعب إلى قلبي... فخلت لوهلة أنني ما زلت حبيسة السجن. دار رأسي... وكدت أقع مغشياً عليّ. يجب أن أتريث بعضاً من الوقت قبل أن أصبح جاهزة لمواجهة الخارج، أما بالنسبة لإخوتي فقد كان الوضع مختلفاً... لقد تمكنوا من الخروج مباشرة وبدون أي مشكلة.

العبوش وبوعبيد «ملاكانا الحارسان»، يأتيان كل نهاية بعد ظهر، يومياً، لرؤيتنا. يجلسان في الصالون وكأنهم من أهل البيت ويطلبان من وحيد، بدون أي حرج، أن يقدم لهما كوباً من العصير. ويروحان يحاولان إخراجنا من حالة الصدمة التي ما زالت تطغى علينا. يتحدثان في كل شيء... وينكتان ويمزحان، بهدف إضحاكنا.

كيف يمكن لسجانينا القدامى أن يتحولوا هكذا بين ليلة وضحاها؟ أهم الآن جلّادونا أم حماتنا؟ تتصارع في داخلي كل هذه الأحاسيس المتناقضة. إنهم يبدون وكأنهم يملكون الحلول لكل مشاكلنا، وأنهم يمسكون بأيديهم مفاتيح حياتنا. يريدون أن يقرروا بالنيابة عنا، ويجيبوا بدلاً منا. إنهم يسدون

لنا النصائح لأدق التفاصيل. وما يثير عصبيتهم هو تعقب الصحافة لنا، لا يريدوننا أن نتجاوب مع أسئلتهم وطلباتهم. جلالته لن يتحمل حدوث مثل هذا الأمر.

ندمنا لأننا أطعنا. كان الأفضل لنا أن نتحدث مع الصحافيين ونستفيد من وسائلهم الإعلامية كأداة ضغط. ولكن شخصية المساجين ما زالت تتلبسنا، وتملي علينا تحركاتنا وتصرفاتنا. ما زال يسكننا هلع غير منطقي، يصعب السيطرة عليه، يرافقه إحساس دفين بالخزي... لم نتخلص منه طوال مدة وجودنا في المغرب.

رجال الشرطة يرافقوننا في الليل والنهار. لا نعرف إذا كانوا يحموننا أو يراقبوننا من خلال هذا الدور الذي يضطلعون به وهو الحراسة والملازمة الدقيقة والمكثفة... فهم لا يتركوننا أبداً... إنهم كظلنا. لقد وضعوا لنا سائقاً تحت تصرفنا. على الأرجح هي الطريقة المثلى لوضع يدهم على تحركاتنا. لا عجب فهم يتبعوننا في كل حركاتنا وسكناتنا، ويتنصتون على مكالماتنا الهاتفية، ويحققون مع كل من يقترب منا. إننا في قمة الحرية أليس كذلك؟!

خلال أيام الحرية الأولى، تلقينا اتصالاً هاتفياً من المحامي كيجمن. ترى هل نصحوه بعدم المجيء لرؤيتنا؟ لقد اختفى ولم يعاود الظهور ثانية. بعد اتصاله مباشرة، أعلنوا لنا بأن جلالته أعطى الأمر لاثنين من المحامين الكبار، الناصري والأندلسي، لاستعادة ممتلكاتنا.

أتى المحاميان المشهوران لزيارتنا، كلّ على حدة. زعم كلّ منهما أنه يكفي أن نقدم لهما لائحة تفصيلية بممتلكاتنا، كي يعاجلا إلى وضع الأمور في نصابها وعلى أسرع وجه. فعلنا ما أشارا علينا به ورحنا ننتظر بلا جدوى.

اقترحت علينا إحدى القريبات المبيت في شقتها، أقمت فيها أنا وماريا وجميع حيواناتنا. قليلاً ما كنا نخرج، إننا نسير بمحاذاة الحائط خشية الاقتراب من وسط الرصيف. يرعبنا الضوء... والضوضاء... والسيارات. إننا نترنّح مع كل خطوة ونكاد نقع أرضاً. كانت لدينا قناعة راسخة وثابتة بأن كل الناس يحملقون بنا، إذ لا شك أن أشكالنا كانت تبدو غريبة. كنا نحرص على الظهور اللائق، ونعنى بزينتنا وملبسنا وإن لمجرد اجتياز الشارع. كانت هذه طريقتنا للاحتفاء بـ«الحرية».

لاحقاً، عندما نجحت في تخطي الحدود الجغرافية الضيقة التي كنت أتقوقع في داخلها، ورحت أزور أحياء أخرى من المدينة، وأستقل بمفردي سيارة الأجرة أو القطار، أو أسير على الأقدام في

بعض الأماكن المجهولة... لم أتخلص من شعور الهلع والرعب الذي يعصف بي فجأة وأنا في وسط الرحلة... فأروح ألهث وأتصبب عرقاً وأفقد القدرة على تحديد الاتجاه المطلوب...

كذلك الأمر في باريس، وبعد مضي ثماني سنوات على خروجي من السجن، يحصل لي دائماً أن أرتعب من الحشد، وأتوه عن السكة التي من المفترض أنني أحفظها عن ظهر قلب. لم أعد أستطيع الاستدلال على الأمكنة والاتجاهات. يجب عليّ أن أتعلم من جديد، كيف أمشي، وأنام، وأتناول الطعام، وأتحدث، وأعبّر عن أفكاري. مشكلتي ليست فقط مع المكان بل أيضاً مع الزمان، أصبحت كل الأوقات والمواقيت عندي متشابهة ومتداخلة... لا أميز الدقيقة من الساعة، وأول النهار من آخره... فاليوم قد يصبح أسبوعاً، والأسبوع شهراً... وحتى معرفة وتيرته، هل هي بطيئة؟ سريعة؟ أم هادئة؟... ألله وحده أعلم... وحتى الآن لم أتعلم...

غريب هو الإحساس الذي ينتابنا عندما نبعث إلى الحياة من جديد. في البداية، كان يحصل لي أحياناً أن أشعر بالإشباع والارتواء. السماء، والشمس، والضوء، والضوضاء، وكل حركة أو سكنة، كانت كلها تطربني وتنهكني في آن معاً. ثم لم ألبث أن صرت أكثر جرأة وإقداماً. أخذت أرتاد المقاهي... والمطاعم. وأدخل إلى المحلات التجارية والأسواق، وأقود السيارة... على تفاهتها، كانت هذه النشاطات تمنحني إحساساً بوجودي... وأنني أعيش حياة طبيعية.

كل يوم يمر بسلام كان بمثابة معجزة تدخل إلى قلبي النشوة. فأتطلّع بلهفة إلى اليوم الآخر الذي سيليه. وأغرف من بهرجات الحياة، ألبس، وأتزين، أضحك وأمرح، ألم أكن بهذا الدور أكذب على نفسي؟ هل كنت أهرب من الواقع الأليم؟ كنت أريد أن أقنع نفسي بأنني تجاوزت عقدة الماضي، وبأن تلك السنوات العشرين لم تعد تثقل كاهلي، وبأنني لست أبالي إذا كنت محملة بعمر لم أعشه وذهب هباء منشوراً.

أحياناً أشبه نفسي بطفل ظل طوال حياته يشاهد مدينة الملاهي والألعاب دون أن يتمكن من الانضمام إلى جمهرة الأطفال المحتفلين... لم أعش أبداً في قلب الحدث، كنت دوماً على الهامش... ولكن هل يعني هذا أن حياة الأسر والاعتقال كانت خالية وخاوية؟ لا، بالطبع لا، إن التجربة التي خضتها داخل السجن كانت أغنى ألف مرة من تجارب آخرين خارجه. لقد اختبرت الوجه الآخر للحياة من ألم وخوف، ورعب، ومعاناة، وجوع، وبرد... تعلمت ماذا تعني الحياة وماذا يعني الموت.

وتأملت ملياً في الخلق، والكون. واكتشفت نفسي ومن أكون وأيضاً ما أكون... علمني السجن أن الإنسان أقوى من الظلم والقهر والطغيان والحرمان والتعذيب والمستحيل.

إني لأرثي لكل هؤلاء البشر الذي يعيشون خارج قضبان السجن، ولم تتسنّ لهم الفرصة ليعرفوا القيمة الحقيقية للحياة.

قطع حمزة دراسته في كندا كي يقضي أوقاته إلى جانب عبد اللطيف، معاً راحا يعيشان حياة لاهية عابثة... لم يتركا تسلية أو لهواً، أو مغامرات مع النساء تعتب عليهما. كانا يقضيان أوقاتهما في السهر، والرقص، وسماع الموسيقى. كانا يبدوان في قمة سعادتهما. ولكن ترى هل حقاً هذه هي السعادة؟

أما سكينة فقد انغمست بالرسم والكتابة... فيما كانت ميمي تتابع العلاج بعناء شديد. من جهته رؤوف، كان في سباق مع الزمن كي يعوض كل ما فاته من مغامرات جنسية. وهذا ما كنت لا أتفق معه أبداً عليه، لأن هذا ما هو إلّا هروب من مواجهة الواقع المرير. وهذا العبث غير المجدي لم يكن سوى هروب إلى الأمام. إذ لا يمكن له أن يحل محل الحب الكبير والحقيقي الذي وحده يملأ نقصنا العاطفي ويعطي لحياتنا معنى. إنني لا أؤمن إلّا بالحب الكبير الذي ما زلت أنتظره.

راحت أمي تبحث عن أصدقائها القدامى، عادت المسكينة وهي تجرجر أذيال الخيبة، معظمهم أداروا لها ظهورهم باستثناء قلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة. غدا اسم عائلة أوفقير مصدراً يثير الرعب والنفور. لقد أسقطه الناس من حساباتهم ومن قاموس تداولهم، لدرجة أنهم اعتبرونا في عداد الأموات. لهذا لم يسرّ أحدٌ لرجوعنا. بلغت بهم القسوة إلى أن يستخفّوا بمصابنا، وكأننا كنا طوال عشرين سنة نقضي أيامنا في منتجع سياحي، وقد عدنا للتوّ منه. والدليل على رأيهم أننا ما زلنا أحياء ونتمتع بكامل قوانا الجسدية. بالنسبة لهم والدنا كان مجرماً خائناً تجرأ على محاولة قتل الملك، فنال العقاب الذي يستحقه، ومن ثم ألسنا نحن ذرية هذا الرجل الذي ناصب الملك العداء؟ إنهم لا يقولون هذا صراحة في وجوهنا... ولكنهم يهمسون به لبعض أقاربنا.

بمناسبة عيد ميلادي الثامن والثلاثين الواقع في ٢ نيسان/ أبريل، أي بعد مضي شهر ونصف على مغادرتنا مدينة مراكش. تلقيت أربعمائة بطاقة معايدة، وصلتني من كل أنحاء العالم، وكان هؤلاء الناس قد علموا بإطلاق سراحنا من منظمة العفو الدولية، ورغبوا بإبداء تضامنهم وتعاطفهم بهذه الطريقة، وبقدر ما أثر بي هذا الأمر، فلقد أثار حفيظتي، لأنه أتى متأخراً. كم كنا بحاجة ماسة إلى

هذا النوع من الاهتمام ونحن وراء قضبان السجن. ونحن طلقاء، ماذا ستفيدنا التمنيات الآن... لقد فات الأوان. هذا الشعور كان يزداد يوماً بعد آخر... لقد فات أوان الحب والصداقة، والعائلة. ترى هل ما زال هنالك وقت بعد للحياة؟ عندما كان ينتابنا هذا الشعور بالخيبة والإحباط كنا نتساءل، ألم يكن من الأجدى لنا لو أننا قد متنا؟

بعد عدة أسابيع على مغادرتنا السجن، اصطحبوني أنا وأخي رؤوف إلى علبة ليل جديدة «آمنيزيا» وهي الأشهر في مدينة الرباط. في هذا المساء، كان ولي العهد سيدي محمد وأخواته يجلسون في مقصورة خاصة هناك، يرافقهم بعض أفراد حاشيتهم. لم يكد يرانا حتى أرسل بطلبنا للانضمام إليه.

عرفت الأمير عند ولادته. كان له من العمر تسع سنوات عندما احتجزنا. إنني أدين له بالجميل لأنه وفر عليّ ذلّ الانحناء لتقبيل يده. لقد تغير كثيراً، إنه رجل ناضج الآن، أتذكره عندما كان طفلاً صغيراً، ومن خلاله أستعيد في خيالي صورة الملك، الذي يشبهه كثيراً.

كنت متأثرة للغاية، وهو كذلك. لقد أجاد انتقاء الكلمات التي نجحت في دغدغة أحاسيسنا، أبلغنا بأن منزله سيكون مفتوحاً دائماً لنا، وسيكون هو أيضاً في خدمتنا لأي طلب مساعدة قد نحتاجها، وأنه يمكننا طرق بابه ساعة نشاء.

ثم استدعى مدير مكتبه وأعاد أمامه ما سبق أن قاله لنا. التفت باتجاهنا مضيفاً:

ـ ما فات قد مات. يجب أن تنظروا إلى الأمام، ولا ترجعوا إلى الوراء أبداً. لأن صفحة الماضي قد انطوت.

لم يأت أبداً على ذكر أبيه ولو من بعيد. كانت الأميرة للا مريم تقف خلفه، بدت شاحبة ومضطربة كشأننا نحن، غير أنها لم تنبس ببنت شفة، ضجت مدينة الرباط بنبأ لقائنا.

لاحقاً، نشر مقال حول هذا الموضوع في جريدة اللوموند أشار الكاتب فيه إلى أن الملك أراد عبر هذا اللقاء استخدام تكتيك يدخل ضمن استراتيجيته الجديدة لإعادة الإمساك بقضية أوفقير. وأضاف بأن جلالته أرسل أبناءه في جولة استطلاعية يبحثون خلالها عن أفق لإمكانية إجراء مصالحة.

لم تتأخر كثيراً ردة فعل سيدي محمد ولفيفه على هذا المقال. منذ ذلك الوقت بدأ يحاول أن يتجنبنا عندما نتقابل مصادفة.

أما لقائي مع للا مينا فقد جاء في مرحلة متأخرة. دعتني إلى تناول طعام الغداء، وافقت... لا أشعر بأي عداء نحوها. فرؤيتها معناها أن أرى طفولتي، وأن أحيي في داخلي تلك الأحاسيس التي كانت مدفونة في أعماق نفسي، لكنها لم تمت. أردت أيضاً بهذا أن أثبت للملك بأنني أعرف أن أميز بينه كعدوي، وبين سائر أفراد عائلته.

لم تترك للا مينا إقامتها بشكل دائم في ڤيلا ياسمينة. ولكنها أقامت ميداناً للخيل في أرض واسعة شاسعة تقع في محيط مدينة الرباط، على مسافة ليست بعيدة من قصر دار السلام. ما زالت مولعة بالخيل كعهدي الدائم بها. إنها هي من كان ينظم ويرعى سباقات الخيل في المغرب، ولقد افتتحت وشيدت عدة مراكز لركوب الخيل في البلاد.

كي أصل إلى مكانها، كان يجب علّي أن أجتاز نصف مساحة الميدان سيراً على الأقدام. وأنا في طريقي، التقيت العديد من الوجوه التي أعرفها، بادر أصحابها لتحيتي وإلقاء السلام علي. أخذتني المفاجأة والانفعال: هكذا إذن... إنهم لم ينسونا بعد!

رأيتها تقف خلف باب زجاجي كبير. لم تتغير كثيراً، عرفت فوراً في هذه المرأة الضخمة تلك الفتاة الصغيرة التي كانت رفيقة طفولتي. ما زالت تحتفظ بنفس الابتسامة، والملامح والتقاطيع، والنظرة الطفولية.

ما إن لمحتني الأميرة قادمة حتى خرجت من مكتبها، تجمدت عدة ثوانٍ منذهلة في مكانها، ثم مشت ببطء في اتجاهي... لم تلبث أن أسرعت الخطى، وركضت ملقية بنفسها بين ذراعي. ضمتني بقوة، وأخذت يدي بين يديها. لم تنطق كلمة لعدة دقائق... ثم نجحت في تحريك شفتيها لتقول لي:

ـ كيكا... هل أنت بخير؟

تبعتها إلى غرفة مكتبها، وأنا أحاول أن أختنق انفعالي وألّا أظهر منه إلّا أيسره. ولكن كيف؟! هذا الصوت، هذه المشية... تلفحني رياح الماضي، ضحكاتنا... ألعابنا، زازيت، الأعياد، مامايا، وكذلك ريفل المرعبة...

أصدرت أوامرها بألّا يزعجنا أحد، أغلقت الباب خلفنا. بقينا واقفتين وجهاً لوجه. بصمت تام... استحال علينا الكلام. نظرت إلي طويلاً... وأنا كذلك. إغرورقت عيناي بالدموع. قاومت هي البكاء... لكن شفتيها راحتا ترتجفان... ثم انتفضت فجأة... ضربت الطاولة بقبضتها وهي تتمتم

بغضب:

ـ إنها وصمة عارٍ على جبين عائلتنا.

طرحت عليّ أسئلة محددة، كانت تريد أن تعرف كل شيء. بالرغم من عاطفتي الكبيرة لها... إلّا أنني بقيت متيقظة وحذرة. أعرف جيداً محيطها، إن أقل كلمة سأتفوه بها ستكون مدار بحث وتأويل، وأخذ وعطاء، وتتناقلها الشفاه والألسن. وسأعرض نفسي للقال والقيل...

قالت لي:

ـ أخبريني، أحقاً أنهم كانوا يقتلون حماماتكم؟ هل صحيح أنهم كانوا يقتلون اثنتين أو ثلاثاً منها يومياً؟

إذن كانت تعرف كل شيء عن حياتنا... يوماً بيوم... وأولاً بأول!!!

تحدثنا طويلاً. راحت تزودني بأخبار البعض وتطمئنني عن البعض الآخر. روت لي أن لطيفة زوجة الملك تولّت الدفاع عن قضيتنا بدون هوادة، وهذا ما لا يدهشني من امرأة مثلها تتحلى بمثل شجاعتها. لم تترك مناسبة دينية أو عيداً أو احتفالاً إلّا وحاولت أن تتوسط لنا عند الملك، وتطلب الشفاعة لنا. حتى عندما كان الملك يذهب لرؤية ابنته الصغيرة، التي أسماها سكينة. من شدة حبه لها كان يكفي لأي محكوم بالإعدام أن ينطق اسمها أمامه حتى يصفح عنه ويسامحه. كانت تتحين هذه اللحظات الحميمة وهو يلاعب ابنته كي تذكره بنا وخصوصاً بأخي عبد اللطيف، علها بذلك تحرك فيه وتراً حساساً، يحرك مشاعره نحونا، لكنه لم يكن يتجاوب معها أو يصغي إليها. بقدر ما كنت سعيدة برؤية صديقة طفولتي مجدداً، بقدر ما كنت خائفة ومرتعبة وأنا أغادرها. عصف بي القلق ورحت أتساءل في نفسي إذا ما كنت قد أكثرت من الكلام. لعل فرحتي بلقائها قد أنستني حيطتي وحذري، فانسقت لا شعورياً وراء عاطفتي وانفعالي.

غالباً ما كانت للا مينا تدعوني. كانت تريد أن تفرضني من جديد في عالمها الذي بات غريباً بالنسبة لي ولم يعد يعنيني. رحت أباعد بين زيارة وأخرى حتى انقطعت كلياً عن الذهاب لرؤيتها.

باعدت بيننا الحياة، لكنني ما زلت أحمل لها في قلبي الحب والحنان. ما زلت أرى فيها طفولتي، ومراهقتي... إنها أختي، ورفيقة وحدتي. لا يمكنني تحت أي ظرف أن أكنّ ذرّة من العداء لها أو لهؤلاء الذين لطالما أحببتهم في القصر.

قطعاً، إن المغرب لم يعد يرغب بنا. لقد سُدَّت في وجوهنا أبواب العمل. لولا صلابة رب عملي نور الدين عيوش وشجاعته، لما تمكنت من إيجاد عمل في وكالته السياحية «شمس»، إنني مدينة بالكثير لهذا الرجل. إنه لم يخش الضغوطات، ولا المضايقات، ولا رجال الشرطة. تعلمت لديه خلال ثلاث سنوات إدارة الإنتاج، كانت أول مهنة لي. أما معاشي الأول فقد كان من حصة أمي.

حققت ميمي حلمها. تزوجت من مصور تلفزيوني. أبصرت ابنتها نوال النور في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٤. كذلك رؤوف بدوره أصبح أباً، لقد رزق بابنة في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، أسماها تانيا، ولدت في جنيف، لكن أخي لم يستحصل على إذن يخوله السفر إلى سويسرا كي يستقبل بنفسه مجيئها إلى الحياة، وينعم نظره بأول ابتسامة لها.

بمشقَّة وعناء، نجحت ماريا أن تتبنى صبياً صغيراً رائعاً اسمه مايك، ومنحته اسم أوفقير. تسكن عاشورا معها كي تساعدها على تربيته. فيما رجعت حليمة إلى أحضان عائلتها حيث راحت تعاني وتشتكي من عدم فهمهم لها. وراح داء السرطان ينهشها. المسكينة كانت أكثرنا تضرراً وإصابة، ثم لم تلبث أن عادت لتعيش مع أمي.

عكفت سكينة على تأليف الأغاني وتلحينها، والكتابة والرسم. حيث أصبحت مواهبها تتألق وتشرق. طلبت جواز سفر لكنها لم تنجح بالحصول عليه.

ساعدنا العديد من الأصدقاء على تجاوز مشكلة النبذ، والإقصاء، والوحدة وفقدان الحرية. سندس، ونائلة، ونوال، وصباح، صديقاتي اللواتي وجدتهنّ من جديد، أحطنني بعاطفتهن، دون أن يكترثن بما كنّ يتعرضن له من استجواب وتحقيق، ومطاردة وملاحقة، وما يقابلن به من استياء عام. لقد تملكتني قناعة راسخة لا تتزعزع بأن حياتي لن تكون أبداً في المغرب.

في ربيع سنة ١٩٩٥، دعيت إلى حفل زفاف صديقة لي. تزوجت من كميل الذي عدنا ورأيناه، والذي بقي على حاله كما كنت دائماً أتخيله: طيباً ومخلصاً. عادةً، أتهرب من هذا النوع من حفلات الاستقبال، والمناسبات الاجتماعية. إنها تضايقني وتزعجني. فأنا أكره تلك النسوة المزدانات بالحلي، المتزوقات المتزينات، ونظراتهن التي تنضح بالنفاق، وقيمهن المزيفة المخادعة، وماهن، وسلطتهن، واحتقارهن للشعب الفقير والمستضعف. وصل ثلاثة رجال وهم أصدقاء للعروس، قادمين من

باريس. سيشاركون هذا المساء في زفافها. المدعوات «العازبات» في غاية الترقب والإثارة. كن يتهامسن فيما بينهن بأنهم رجال ذوو طلعة بهية، وذكاء، وفوق كل شيء «غير متزوجين».

بعد ظهر ذلك اليوم، مروا للقيام بزيارة سريعة للعروس لإلقاء التحية عليها. بينما اندفعت النسوة للاحتفاء بهم، وملاطفتهم، كنت أنا منهمكة في عملي، أتناقش مع المصور هنا، أراقب عمل مصمم الديكور هناك، أعتني بالشراشف، وأضع طبقة من الطلاء، أرتب الورود والأزهار وأنسقها... كنت أتحرك كعقارب الساعة، لم أكف لحظة واحدة عن العمل والدوران، ولكن هذا لم يمنع أن أختلس إليهم نظرة متفحصة من حين لآخر.

لفت انتباهي أحدهم، بقامته الطويلة، وابتسامته، ونظارتيه المستديرتين وعينيه المعبرتين... ولكن يجب ألا أحلم. هذا الرجل ليس لي ولن يكون أبداً من حظي. لا أريد أن أتورط في علاقة مع «رجل فرنسي»، وعلى أي حال، لا يحق لي بعدُ أن أسافر، وأتخطى عتبة الحدود. ثم يبدو أن إحدى المدعوات قد أوقعته في شباكها... واستأثرت به... فلماذا أتعب قلبي بهذه الأفكار التي لا أعرف من أين تأتيني وتتدفق على رأسي...

حوالى الساعة الثامنة، عدت إلى منزلي كي أبدل ملابسي، وأضع قفطان السهرة. رن التليفون، على الطرف الآخر، صديقة لي، تقرأ الطالع ساعة بساعة. بدت لي غريبة بعض الشيء، لم تكن في حالتها الاعتيادية. بادرتني فوراً بالقول:

ـ كيكا... لقد قابلته... إنه هو... قابلته...

ـ ولكن من؟... عمّن تتحدثين؟

بنفاد صبر ردت:

ـ أنت تعلمين جيداً عمّن أتكلم... لقد رأيته مئات المرّات في «بطاقاتي» التي لا تخطيء. هذا الذي وصل من المحيط الأطلسي... إنه رجل حياتك. إنه موجود هنا، لقد رأيته... لكنك لم تنتبهي للأمر... ستعودين وترينه هذا المساء...

ضحكت في سري من هذه الترّهات... إنها خرافات ليس إلّا... ويجب ألّا أعيرها أدنى اهتمام.

وصلت إلى السهرة، والفضول يعصف بي. وجدت نفسي في حالة ترقب وانتظار. يبدو أنني تأثرت دونما إرادة مني بما قالته لي. هذا الحفل، هو أول خروج حقيقي لي إلى المجتمع منذ زمن بعيد.

بدوت في منتهى البساطة في مظهري الخالي من أي إسراف، وبزينتي الخفيفة، بالقياس مع تلك الفتيات اللواتي كن يرتدين ملابس فاخرة، وفي غاية التأنق والتزوق. ولكنني لم أُبالِ... فهذا سيان عندي. فأنا منذ زمن سحيق تجاوزت هذه العقد... ورميت خلف ظهري كل هذه البهرجات. لقد اكتويت... وعرفت المعنى الحقيقي للحياة.

ها هم أصدقائي يجلسون حول طاولة، جنباً إلى جنب مع هؤلاء «الباريسيين». راحوا يلوحون لي، ويشيرون لي للانضمام إليهم. شعرت بالارتباك. كل النظرات كانت منصبة عليّ... أفقدتني توازني... جلبة الموسيقى، وهرج المدعوين، والقهقهات والضحكات... ندمت على مجيئي... يا ليتني لم أوافق على الحضور. في مطلق الأحوال، فإنني لن أمكث طويلاً. أحتسي شراباً... وأبارك للعروسين، ثم أغادر فأنا لم أعد معتادة على كل هذه التجمعات والحشودات... أشعر بتوق كبير إلى غرفتي الصغيرة... يا إلهي كم أوحشتني.

ها هو الرجل الذي استوقفني بعد الظهر يقف فجأة، ما إن رآني، وفي أقل من ثانية، حتى جلس إلى جانبي. أخبرني بأنه مهندس معماري، وبأنه قد نشأ وترعرع في لبنان. إنه يتكلم اللغة العربية بطلاقة... ولا تخفى عليه خافية... ولا تفوته همسة من همساتنا... أو نكتة من نكاتنا التي كان من المستحيل ترجمتها ولا حتى إلى أي لغة.

لقد عرف منذ اللحظة الأولى بأنني لست سوى طفلة متنكرة بزي امرأة. إنه سريع الملاحظة، وذو بصيرة نافذة. لم يغب عنه ارتجاف يدي وهو يأخذها في يده، ولا تقلص أصابعي وتشنجها... ولا تهدّج صوتي واضطرابه وأنا أرد عليه وأخاطبه، ولا كذلك ارتباك نظراتي.

كان عقلي يعمل بسرعة رهيبة... ورحت أتساءل في نفسي... عن جدوى إطالة الحديث مع هذا الرجل... وإلى أين سيقودني الأمر... سمعت هاتفاً يأمرني بأن أسترخي، وألا أقيم وزناً للهواجس التي تجتاحني... وأنه رجل يبعث على الثقة، فلماذا إذن كل هذا الخوف... إذ لا مبرر له. لا شعورياً وجدتني أمضي قدماً في الحديث معه... وأخذ خوفي يتلاشى تدريجياً...

أعتقد أنني معه كنت مرتبكة أكثر مني خائفة... كنت أشعر أنني أعرفه منذ قرون وقرون، إنها المرة الأولى التي يمنحني فيها رجلٌ ما هذا الإحساس بالراحة والأمان. أخبرني حدسي بأنه لن يهتز أو يتأثر أو يخضع لأي ضغوطات قد يتعرض لها. علمت أنه سيحبني لشخصي... دون التفكير بأي

محاذير...

لم يخطىء حدسي أبداً. فإريك لم يخيب أملي مطلقاً... في كل اللحظات الحرجة والحساسة. لم يتخلَّ عني. وقف إلى جانبي... شدّ أزري، منحني الشجاعة والثقة، وأعاد إليّ بهجة الحياة. إريك حوّل ظلمتي إلى نور وأنقذني من الهلاك... لقد روّضني حبه وليّن طباعي، وكبح جماحي... فأنا لم أكن امرأة سهلة... كنت عصية على الحب وعلى أن يحبني أحدٌ أو أقع في حبّ أحد... إذ لا أحد أبداً، ولا حتى هو، يستطيع أن يدرك حجم الغمّ الذي يكبلنا ويثقل كاهلنا... كلما داهمني الكابوس وأقضّ مضجعي أشعر أنه هنا إلى جانبي يهدهدني ويخفف عني... ويهدىء غضبتي ويخمد نوبات جنوني، ولا ينكر عليّ حقي بأن أخلو إلى نفسي من وقت لآخر، ويأخذ بيدي عندما تشد عليّ الخناق أشباح الماضي التي تباغتني على حين غرة وتزج بي في غيبوبة، بعيداً عمّا يدور حولي. لقد أقر بالاختلاف الموجود بيننا، وبأنني لن أصير أبداً مثل الآخرين.

قبل أن أقابل إريك كنت أعتقد جازمة أن حياتي صارت رفاتاً. تناثرت أشلاؤها في عتمة السجن... وبأنني لست إلّا واحدة من تلك العصافير المثخنة الجريحة التي تريد أن تختبيء لتموت.

إن حياتي لن تكون أبداً في المغرب.

مع أنني أحب وطني بعمق... أحب أرضه وتاريخه... أحب لغته وعاداته وتقاليده.

أحب شعبه المستضعف المقهور... لكنه متعالٍ وشامخ ومعطاء على مر العصور.

ليس بيني وبينه حواجز وسدود... بيني وبينه قصة حب خالدة لا ينطفيء أوارها... إنني ابنته البارة أبداً... من صلبه ولدت أنا... ومن ترابه. ما أسعدني عندما يقولون لي بأنني «شعبية»... إنه وسام فخر أعتز به... وأعذب مديح سمعته في حياتي...

وأنا ملقاةٌ في غياهب السجن... ساعدتني على الصمود والبقاء... تلك الكراهية التي كانت تملأ قلبي لجلادي... والتي خلت آنذاك أنها تشمل كذلك بلادي...

لكنهم ما إن أطلقوا سراحي... حتى انطفأت نيرانها وخمدت. اليوم، حين تحاول الكراهية أن تذرّ بقرنها... وتطفو إلى السطح من جديد... أعيدها بكل جوارحي إلى القعر... لا أريدها أن تنغص عليّ عيشي... وأن تدمر ما تبقى من حياتي...

إن الكراهية تنهش الروح... وتضعضع الجسد... إنها لا تجدي نفعاً، ولن تعيد إليّ الذي مضى...

ولا عمري الذي ضاع سدى... ولن تعوض خسائر عائلتي، ولن تبلسم جراح أمي وإخوتي، وأخواتي... الكراهية مدمرة... قاتلة... فتاكة... ونحن نريد أن نحيا بسلام هذه السنوات المعدودة... وقبل فوات الأوان...

لقد أنقذتني الصحراء من التهلكة... من التلاشي والضياع... من التيه والشتات... لقد وجدت فيها ضالّتي... وجدت فيها أمني وطمأنينتي وسلامي... وانتمائي... فأنا منها وإليها... إنها مهد آبائي وأجدادي... لقد تعلمت منها دروساً وعبراً... تعلّمت منها أننا نحن بني البشر لسنا سوى عابري سبيل في هذه الحياة الفانية... وبأنه لا ينفع التباكي على الماضي... ولا إطالة الوقوف على الأطلال... وبأن أتقبل قدري بكل صبر وشجاعة، وأن أتخلى عن أقنعة الزيف والتصنع... وأن أكون أنا... وفقط أنا...

أشعر أنني أتيت من هذه الأرض، وبأنني أنتمي إليها روحاً وجسداً. وسط هضابها النحاسية العتيقة، وفي رحاب رمالها السمراء الذهبية، وفي جنبات واحاتها المأهولة بالرجال السمر. أدركت منبت جذوري، وأنني مغربية في الصميم وحتى العظم وفي أعماق الأعماق. لكنني أشعر أيضاً بأنني فرنسية الثقافة، واللغة، والتفكير. لقد وضعت الحرب أوزارها إلى الأبد. وها أنا أخيراً يتعايش في داخلي الشرق والغرب بسلام.

على مدار سنة كاملة، ظل إريك بوردروي يقوم برحلات الذهاب والإياب ما بين باريس والدار البيضاء ليقابل مليكة، المرأة التي يحبها.

في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٦، فرّت ماريا أوفقير، الشقيقة الوسطى لمليكة، من المغرب، على متن سفينة، مصطحبة معها مايكل، ابنها بالتبني، وابنة عمها، عاشورا الشنّا. وقد وصلت إلى فرنسا عبر الأراضي الإسبانية.

لقد كانت عملية الهروب هذه بمثابة خاتمة لما عاشته عائلة أوفقير من كابوس. فتحت الضغط الدولي أعادت الحكومة المغربية إلى أفراد العائلة جوازات سفرهم ومنحتهم الإذن بمغادرة أراضي المملكة المغربية.

في ١٦ تموز/يوليو ١٩٩٦، وصلت مليكة أوفقير إلى باريس برفقة أخيها رؤوف وأختها سكينة. كان لها من العمر يومذاك ثلاث وأربعون سنة قضت عشرين منها في السجون المغربية، التي دخلتها

وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وخمساً قيد المراقبة بعد إطلاق سراحها.

في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، عقد قران مليكة أوفقير وإريك بوردروي في مبنى بلدية الدائرة الثالثة عشرة في مدينة باريس.

الهوامش

(١) تنتشر في المغرب ثلاث لهجات بربرية أساسية هي: تاشلحيت المنتشرة في جنوب المغرب، تامزيغت المنتشرة في منطقة الأطلس المتوسط، وتاريفيت في منطقة الريف.

(٢) المسيرة الخضراء: في أواخر أيام حكم فرانكو، كانت إسبانيا لا تزال تبسط سلطتها وسيادتها على الصحراء الغربية. حينها طالبت جبهة البوليساريو، بإنشاء دولة مستقلة. وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٥، أصدرت محكمة العدل الدولية في لاهاي، اقتراحاً قانونياً ينص على منح الحكم الذاتي للشعب الصحراوي. في أعقاب ذلك أعلن الملك الحسن الثاني الدعوة إلى تنظيم مسيرة جماهيرية ضخمة، تنطلق باتجاه الصحراء الغربية، للمطالبة بإعادتها إلى حظيرة المغرب. لاقت الدعوة إقبالاً شعبياً حاشداً لا مثيل له، حيث ضمت حوالى ٣٥٠ ألف شخص، وكانت سابقة في تاريخ المغرب، حمل خلالها المشاركون أعلاماً صغيرة باللون الأخضر الذي يرمز للإسلام، بالإضافة إلى نسخ من القرآن الكريم. انطلقت المسيرة في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر حيث توافد للانضمام إليها آلاف الأشخاص من كل أنحاء المناطق المغربية، بالإضافة إلى وافدين آخرين من موريتانيا، ومن سبع دول عربية أخرى. اخترقت الحشود الخط الحدودي الفاصل بعمق يبلغ طوله عشرة كيلومترات. هذا التحرك الرمزي أتاح للملك ممارسة ضغط على مدريد من جهة، وتفادي عملية عسكرية مكلفة من جهة أخرى. وفي نفس الوقت أشبع رغبته التوسعية وكسب تأييد المعارضة وقطاع كبير من الرأي العام المغربي. وكان من شأن المسيرة أن دفعت الحكومة الإسبانية إلى توقيع اتفاق في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ينص على منح السيادة على الصحراء الغربية إلى المغرب وموريتانيا، وقد تم التوقيع على قانون الاستقلال في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر وهكذا استعاد المغرب سلمياً نفوذه على الصحراء الغربية.

(٣) الباشا الكلاوي هو باشا مراكش، وقد ساهم في إقالة محمد الخامس في العام ١٩٥٣ ونفيه.

(٤) الطُلْبَة هم رجال توكل إليهم عائلة الفقيد مهمة السهر على الجثمان وتلاوة القرآن عليه.

(٥) وسيلة بن عمار كانت زوجة الرئيس الحبيب بورقيبة الثانية.

(٦) الخط المفتوح عنوان برنامج إذاعي يشرف عليه ويبثه الصحافي غونزاغ سان بري عبر أثير محطة أوروبا رقم ١. كان البرنامج يبث منتصف الليل طوال ساعة كاملة ويفتح أثيره للمستمعين طالباً منهم للمرة الأولى في تاريخ الإذاعات الفرنسية التدخل في شتى المواضيع. دام البرنامج خمس سنوات وتوقف مع مطلع الثمانينيات.

(٧) إدريس البصري: وزير الداخلية المغربي منذ العام ١٩٧٥ والرجل الثاني في نظام الحسن الثاني. أقاله الملك الجديد محمد

السادس مباشرة بعد توليه الحكم سنة ١٩٩٩م في إطار التغييرات لتحسين صورة المغرب في مجال حقوق الإنسان.

(٨) المامونية: فندق فخم في مدينة مراكش.

(٩) راديو ميدي ١: إذاعة مغربية تبثّ برامجها من الشمال المغربي باللغتين الفرنسية والعربية.

(١٠) بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ هاجر اليهود المغاربة بكثافة إلى إسرائيل وفرنسا وكندا وقد سهل لهم الجنرال أوفقير ذلك وكان له في الجالية جلة من الأصدقاء.

(١١) عثمان بوعبيد كان رئيس مكتب وزير الداخلية إدريس البصري.

(١٢) في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٨٧ طلب البرلمان الأوروبي من المغرب تحرير ٤٠٠ من سجنائه السياسيين. وفي العام ١٩٩١ حيت منظمة أمنستي لحقوق الإنسان قرار المغرب الإفراج عن ٢٧٠ سجيناً أمضى بعضهم تسعة عشر عاماً في السجون. بمناسبة ذلك الإفراج أبعد إبراهيم السرفاتي إلى فرنسا قبل أن يعود إلى المغرب بعد ارتقاء محمد السادس العرش.

لكن منظمة أمنستي أضافت حينذاك أن السجون المغربية تغص بالمساجين وأن معظم هؤلاء من الصحراويين وخصت بالذكر معتقل تزمامرت في الأطلس الأعلى الذي جرى تدميره لاحقاً.

في العام ١٩٩٨ اعترف المغرب عبر جمعية حقوق الإنسان بوفاة ٥٦ سجيناً سياسياً بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٨٠ من أصل ١١٢ «مفقوداً»!

السّجينة والقرصان

٣

مقدمة

٧

القسم الأول

شارع الأميرات

القسم الثاني

عشرون عاماً في السجن

ملحق
السّجينة والقرصان

سيــرة مليكة أوفقير، (وعائلتها)، من «الحرية»
خلف أسورا البلاط المغربي إلى «الحرية»
بعد عشرين عاماً من شتى ألوان الاعتقال